قصص العرب

تأليف

محمد أحمد جاد المولى
علي محمد البجاوي
محمد أبو الفضل إبراهيم



المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

قِصَصُ العَرَبِ

تأليف

محمد أحمد جاد المولى
علي محمد البجاوي
محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الأول

منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

حقوق الطبع محفوظة

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م

المكتبة العصرية للطباعة والنشر والتوزيع
مؤسسها شريف عبد الرحمن الأنصاري
المكتب: بيروت - الحمراء - سنتر - الطابق السادس - تلفون: ٣٤٧٢٠١
الخندق الغميق - تلفون: ٢٣٧٥٤٥
ص ب بيروت: ٨٣٥٥
صيدا - تلفون: ٧٢١٦١٢ - ٧٢٠٣١٧ - ص ب صيدا: ٢٢١
تلكس: LE٢٠٤٣٧ - ٢٩١٩٨ SCS

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة
الطبعة الأولى

تُعَدُّ القصّة أقدر الآثار الأدبية على تمثيل الأخلاق ، وتصوير العادات ، ورسم خَلَجات النفوس ؛ كما أنها - إذا شرف غرضُها ، ونبُل مقصدُها ، وكرمت غايتها - تُهذّب الطباع ، وتُرقّق القلوب ، وتدفع الناس إلى المُثل العليا : من الإيمان والواجب والحق والتضحية والكرم والشرف والإيثار .

وقد كانت القصة - ولا تزال - ذاتَ الشأن الأسمى فى آداب الأمم قديمها وحديثها ؛ فقد وردت فى التوراة ، وجاءت فى الإنجيل ، وزخرتْ بها آيُ الذكر الحكيم . ثم هى فى شعر الإغريق ومخلّفاتِ الرومان ، وآثار المصريين القدماء .

والعرب من الأمم التى أخذت بنصيب من هذا الفن الجميل ، وأُثِرَ عنها فيضٌ من ذلك الأدب الرفيع ؛ بيد أن بعضاً من الباحثين المحدَثين قد جحدوا نصيبهم من هذا الفن ، وهضموهم حقّهم فى ذلك الباب ، وَوَصَموهم بالخيال العقيم ، وعابوا عليهم الفكر القريب ؛ ولكن المنصفين منهم قد هالهم هذا الجحود ، ولم يرقهم ذلك النكران ، فاعترفوا للعرب بالقصص التى ترجموها عن الفرس والهنود، وتزيّدوا عليها فى القاهرة و بغداد ، وتحدّثوا للناس عن قصص عنترة وذات الهمة ، وجلَوْا عليهم ألف ليلة وليلة وأخبار ابن ذِى يزَن .

وهـذه القصص ـ وإن كانت قد نجحت نجاحاً تاما فى تصوير العصور التى وُضِعَتْ فيها ، وَرَسَمَتْ لنا البيئة التى نبتت منها ـ كثير منها تافهُ الغرض ، مُبْهَمُ القصْد ، ردىءُ اللغة والأسلوب . وفى قصر قصص العرب عليها جَحْدٌ للآداب العربية فضلها ، وإنكار عليها مفاخرها . . . وإلّا فإن هناك قصصاً زخرت بها مجالس الخلفاء ، وسوامر الأمراء ، وملأت الكتب التى انحدرت إلينا عن المؤلفين القدماء ؛ وما مَنَع الناس أن يردُوا شريعتها ، أو يجنوا أطايبها إلا مامُنيت به هذه الكتب من اضطراب الترتيب ، ورديءُ الطبع ، وتحريف الناسخين .

وكتابُنا هذا جمعنا فيه هذه القصص : ما انتبذ منها وما شرَد ، وألّفنا ما تنافر وافترق ، وجعلناه أقساماً ، وقسمناه أبواباً ؛ جمعنا كلَّ قصة إلى مثلها ، وضممنا كل طرْفة إلى شبْهها ؛ ليجتمع إلى غرض القصة ـ من تهذيب الطباع وترقيق النفوس ـ عَرْضٌ شامل لحياة العرب : مدنيتهم وحضارتهم ، وعلومهم ومعارفهم ، وأديانهم وعقائدهم ، وذكرٌ لعوائدهم وشمائلهم ، وما طبعوا عليه من كريم الغرائز ، وحدة الذكاء ، ثم ما كان للمرأة عندهم من سامى المكانة وعظيم المنزلة ، وما أُثِرَ عنهم من أخبارٍ صوّروا بها حبهم العفيف ، وغزلهم الرقيق ، وعشقهم الشريف ، ولم يخلُ كتابنا مما كان لهم من محاورات ومساجلات ومطايبات ومناقلات ، وما نقله الرواة من أحوال العامة والملوك ، وطُرَف القضاة والولاة ، وأخبار الأيام والحروب ، وغير هذا مما سيعرض مفصّلا فى أبواب الكتاب .

ولم نقف فى اختيار القصة على تعريفٍ خاص ، أو حدٍّ مرسوم ، ففيما اخترناه ماذكروه من طريف الأخبار وشائق الأحداث ، وما وضعوه مصوّرين به المجالس والأشخاص ، وما صنعوه على ألسنة الطير والحيوان ، وما تخيّلوه من أخبار الشياطين والجان ؛ إذ كان الغرض تثقيف الأذهان بذكر الطرائف ؛ وانشراح الصدور بعرضٍ

اللطائف ، مع كشف نواحى التاريخ ، وإظهار مفاخر العرب .

ولعل القارئ يروقه ما تدسّى فيها من شريف الخصال فيحتذيها ، أو تعجبه كرائم العادات فيطبع نفسه عليها ، إلى ما فى هذا من بعث فصيح الألفاظ ، وإحياء رائع الأساليب . ولعله يكون فيها مبادئ صالحة ، وأسس قويمة لمن يريد أن ينشئ قصصاً طويلة على أساس ، أو يقيم روايات على بناء .

وكان من همنا أن نحرص على اختيار القصص كما وضعوها ؛ إلا ما كان من زيادة اقتضاها اختلاف الروايات ، أو تغيير لكلمات لا تألفها الآداب ، أو حذف عبارات لا غناء فيها .

وقد بذلنا من الجهد فى ضبط الألفاظ ، وكشف النقاب عن المعانى ، وتراجم الأشخاص ، وذكر المراجع ما نرجو أن يكون به جنى الكتاب قريباً ومنهله عذباً ، ووروده سائغاً ، وطريقه سهلا معبداً .

نسأل الله أن ينفع به على ما صدقنا فى النية ، ورجونا من الخير ؟

ربيع الآخر سنة ١٣٥٩
(مايو سنة ١٩٣٩)

المؤلفون

مقدّمة الطّبعة الرّابعة

هذا كتابنا « قصص العرب » نقدمه إلى أدباء العربية فى طبعته الرابعة ، بعد أن نفدت طبعته الثالثة ، وازداد الأدباء إقبالا على اقتنائه وتقديرا له .

وكنا قد تلقينا رسائل من بعض أفاضل الأدباء يرغبون إلينا فيها أن نذلل الطريق إلى قراءة الكتاب؛ فنكثر من ضبط الكلمات ، ونزيد من شرح المفردات، فعملنا على تحقيق رغبتهم ، وبذلنا غاية الجهد فى تحريره وتحقيقه . وزدنا فى شرح كلماته وضبط أعلامه .

ونرجو أن يكون ذلك كفاء لما تلقيناه من رسائل الأدباء ، ولما تفضلت به صحف الشرق العربى من إشادة .

ونسأل الله أن يزيد به النفع بقدر ما بذلنا من جهد ، ورجونا من خير .

رجب سنة ١٣٨١
ديسمبر سنة ١٩٦١

المؤلفون

الباب الأول

في القصص التي تستبين بها مَظَاهِرُ حياتهم، وأسباب مدنيتهم، بذكر أسواقهم وأجْلَاب تجارتهم، والمساكن التي كانت تؤويهم، وسائر ما كان على عَهْدِهم من دلائل الحضارة ووسائل المعاش .

١ ـ قَوْس حاجِب بن زُرارة *

توالت على مُضر الجدُوبة والقَحْط سبعَ سنين ؛ حتى كادوا يَهلِكون ، فلما رأى حاجِبُ [1] بن زُرَارة الجَهْدَ والجدْبَ على قومه جمع بنى زُرارة فقال : إنى قد أزمعتُ على أن آتىَ الملكَ فأطلبَ إليه أن يأذنَ لقومنا فيكونُوا تحت هذا البَحْر [2] حتى يُحْيَوْا ؛ فتلكأَ بعضُهم عليه ، وقال بعضهم : رَشَدْتَ فافعلْ ؛ غيرَ أنّا نخاف عليك بكْرَ بن وائل لِمَا كان بيننا و بينهم ، ولا بدَّ لك من وُرود مياههم . فقال : ما مِنهُمْ وَجْهٌ من الناس ولا شريفٌ إلّا ولى عنده يدٌ خَضْرَاء إلا ابن الطَّويلة التيْمى ، وأنا أرجو أن أداريَه ؛ ثم ارْتَحَل .

فجعل لا يأتى على ماء لبكرٍ إلا أكرمه سيدُهم ، ونحرَ له وقَرَاهُ ، حتى نزل قُصْوَان [3] ، وعليه ابنُ الطويلة التيمى ، فلمّا أضاء الصُّبْح ، وناديهم قريب من منزل حاجب الذى حلَّ فيه ، دعا حاجبٌ بِنِطْع ، ثم أمر فصُبّ عليه التمر ؛ ثم نادى حيَّ على الغَدَاء . فنظر ابنُ الطويلة ، فإذا هو بحاجب ، فقال لأهل المجلس : أجيبوه ؛ فإنه سيدُ قومه ، فأتوه فأكلوا ، وأهدى إليه ابنُ الطويلة جَزوراً [4] وشِيَاهاً ، فنحر وأكل وأطعم .

ولما أراد حاجب أن يَرْتحل قال له ابنُ الطويلة : إنى معك حتى تبلغَ مأْمَنك ؛

(*) نقائض جرير والفرزدق : ١ ـ ٤٦٢ ، طبع ليدن ، بلوغ الأرب : ١ ـ ١٢٣ ، العقد الفريد : ١ـ١٧٥ .

(١) هو سيد بنى تميم ، وكان من النفر الذين أرسلهم النعمان بن المنذر إلى كسرى بعد أن سمع منه تنقص العرب وتهجين أمرهم . أدرك الإسلام وأسلم ، وتوفى سنة ٣ هـ (٢) البحر : الريف (٣) قصوان : موضع فى ديار تيم الله بن ثعلبة . (٤) الجزور : البعير .

فإنى لا أدرى ما يعرض لك أمامَك . فقال حاجب : ليس أمامى أحد أخافُه علىّ .

وارتحل حاجبٌ حتى أتى كسرى ؛ فلما شكا إليه الْجَهْد فى أنفسهم وأموالهم ، وطلب أن يأذن لهم فيكونوا فى حَدٍّ بلاده حتّى يعيشوا ويُحْيَوْا قال له : إنكم ـ معشرَ العرب ـ حُرَصاء على الفَسادِ ، فإن أذنتُ لهم أفسدوا البلاد وأغاروا على الرّعيّة وآذوهم . قال له حاجب : فإنى ضامنٌ للملك ألّا يفعلوا ، قال : ومَنْ لى بأن تَفِيَ بما تقول ؟ قال : أَرْهَنُكَ قوْسى بالوفاء بما ضمنتُ لك .

ولما جاء حاجب بقَوْسِه ضحك القوم الذين كانوا حول الملك لمّا رأوا قوسه ، وقالوا : بهذه العصا تَفِى للملك بما ضمنتَ له . فقال الملك لهم : ما كان لِيُسْلِمَها لشىء أبداً . وأمرَهم فقبضوها ، وأذن للعرب فى أن يدخلوا الرِّيْفَ (١) .

ومكث بنو زُرارة فى الريف مدة ، ثم مات حاجب ، وبعدها زال القحط ، وخرج أصحابُ حاجب إلى بلادهم وارتحل عُطَارِد بن حاجب إلى كسرى ليطلبَ قوس أبيه ، ولما دخل عليه وكلّمه فى القوس قال له كسرى : ما أنت بالذى وضعَها عندى . قال : أجلْ أيُّها الملك ! ما أنا بالذى وضعتُها . قال : فما فعل الذى وضعَها ؟ قال : هَلَكَ ، وهو والدى ، وقد وَفَى لك أيها الملك بما ضمن لك عن قومه ، ووفى هو بما قال للملك ؛ قال كسرى : ردُّوا عليه قَوْسَه ؛ وكساه .

---

(١) الريف : الأرض فيها الزرع والخصب .

٢ ـ فَتْكَةُ البَرَّاض*

كان البرَّاضُ بن قَيْس الكنانى رجلا فاتكا خليعاً(١) ، يَجْنِى الجنايات على أهله ، فخلعه قومُه ، وتبرّءوا من صَنِيعه ، ففارقهم ، وقدم مكةَ ، فحالف حرب بن أمية ، ثم نَبَا به المقام بمكة أيضاً ، ففارق أرض الحجاز إلى أرض العراق ، وقدِم على النعمان بن المنذر الملك ـ وكان النعمان يبعث كلَّ عام بلَطِيمةٍ (٢) للتجارة إلى عُكَاظ (٣) تباعُ له هناك ـ فقال يوماً ، وعنده البرَّاضُ وعُروة بن عُتْبة ابن جعفر المعروف بالرَّحَّال(٤) : من يُجيز لى لطيمتى هذه حتى يُبلِّغَهَا عُكاظ ؟ فقال البرّاض : أبيتَ اللعن ! أنا أُجيزها على كِنانة . فقال النعمانُ : إنما أريدُ مَنْ يجيزُها على كِنانة وقَيْس . فقال عروة : أكلْبٌ خليع(٥) يجيزها ! أبيْتَ اللعن ! أنا أجيزها على أهل الشِّيح والقَيْصُوم(٦) من أهل تهامة وأهل نجد ! فقال البراض ـ وقد غضب : وعلى كِنانة(٧) تجيزُها ياعروة ؟ قال : وعلى الناس كلهم !

فدفع النعمانُ اللطيمةَ إلى عُروة الرحال ، وأمره بالمسير بها ، وخرج البراض

(*) المضاف والمنسوب : ١ ـ ١٠١ ، مجمع الأمثال : ٢ ـ ٢٣ ، الكامل لابن الأثير : ١ ـ ٣٦٠ .

(١) البراض بن قيس الكنانى : فاتك جاهلى يضرب بفتكة المثل ، تبرأ منه قومه ففارقهم وقدم مكة ، ثم رحل إلى العراق . وبسببه هاجت حرب الفجار بين خندف وقيس .

(٢) اللطيمة : العير التى تحمل الطيب وبز التجار (٣) عكاظ : موضع كان بين نخلة والطائف، كانت تقام من أول ذى القعدة إلى اليوم العشرين منه ، وكان يجتمع بها أكثر أشراف العرب للمتاجرة ومفاداة الأسرى و تحكيم فى الخصومات والمفاخرة والمنافرة بالشعر والخطب .

(٤) لقب بالرحال لكثرة رحلته إلى الملوك (٥) كان فى الجاهلية إذا قال قائل : هذا ابنى خلعته لا يؤخذ بجريرته (٦) الشيح والقيصوم : نباتان مما يطلع فى السهل ، ويريد على العرب كلهم.

(٧) كنانة : هم قوم البراض .

يَتبَعُ أثره وعُروة يَرى مكانَه ولا يخشى منه ، حتى إذا كان عُروة بين ظَهْرَانَىْ[١] قومه أدركه البرَّاضُ بن قيس ، فأخرج قِداحه يَسْتَقْسِمُ[٢] بها فى قتل عُروة ، فمرَّ به عروة فقال : ماتصنع يابرَّاض ؟ فقال : أسْتَقْسِمُ فى قتلك ، أيؤذن لى أم لا ؟ فقال عروة : هِمَّتُكَ أضعف من ذلك ! فوثب إليه البرَّاض بالسيف فقتله .

فلما رآه الذين يقومون على العِير[٣] والأحمال قتيلا انهزموا فاستاق البرَّاضُ العِير ، وسارَ على وجهه إلى خَيْبَر ، وتبعه رجلان ليأخذاه : أحدهما غَنَوِىٌّ والآخر غَطَفَانِىّ ، وسارا حتى لقيهما البرَّاض بخَيْبر ، فقال لهما : مَنِ الرجلان ؟ قالا : نحن من قَيْس ، قدِمنا لنقتل البرَّاض ، فأنزلهما وعقَل راحلتيْهما ثم قال : أيّكما أجْرَأ عليه وأجودُ سيفاً ؟ قال الغَطَفَانِىّ : أنا ، فأخذه ومشى معه لِيَدُلّه ـ بزعمه ـ على البرَّاض ، ثم قال للغَنَوِىّ : احفظ راحلتيكما ، ففعل .

وانطلق البرَّاض بالغَطَفَانى حتى أخرجه إلى خَرِبةٍ[٤] فى جانب خَيْبر ، وقال له : هو فى هذه الخَرِبة يأوى إليها ، فأمْهِلنى حتى أنظر أهُوَ فيها ؟ فوقف ، ودخل البراض ؛ ثم خرج فقال : هو فيها وهو نائم ، فأرِنى سيفَك حتى أنظر إليه : أضاربٌ هو أم لا ، فأعطاه سيفَه ، فضربه به حتى قتله ، ثم أخفى السيف وعاد إلى الغَنَوِىّ ، فقال له : لم أرَ رجلاً أجبنَ من صاحبك ، تركتُه فى البيت الذى فيه البرَّاض وهو نائم فلم يُقدِم عليه ! فقال : انظر لى من يحفظ الراحلتين حتى أمضى إليه فأقتله ، فقال : دَعْهُما وهما علىّ ، ثم انطلقا إلى الخربة ، فقتله وسار بالعِير إلى مكة

---

(١) بين ظهرانى قومه: أى فى وسطهم (٢) الاستقسام: كانوا إذا أراد أحدهم سفراً أو تزويجاً أو نحو ذلك من المهام ضرب بالقداح، وكان على بعضها مكتوب: أمرنى ربى، وعلى بعضها الآخر: نهانى ربى ، والباقى غفل ، فإن خرج أمرنى ربى مضى لشأنه ، وإن خرج نهانى ربى ، أمسك ، وإن خرج الغفل أجالها ، وضرب بها أخرى إلى أن يخرج الأمر أو النهى (٣) العير : الإبل تحمل الميرة ، ولا واحد لها من لفظها (٤) الخربة : موضع الخراب .

٣ ـ حياة آل جفنة *

قال خارجة بن زيد : دُعينا إلى مَأدُبة(١) . فحضرتُها وحسانُ(٢) بنُ ثابت قد حضرَها ، فجلسنا جميعاً على مائدةٍ واحدة ، وهو يومئذ قد ذهب بصرُه ، ومعه ابنُه عبد الرحمن ، فكان إذا أتى طعام سأل ابنه : أطعام يدٍ أم يدين ؟ (يعنى باليد الثريد و باليدين الشِّواء لأنه يُنهشُ نهشاً) . فإذا قال : طعام يديْن أمسك يده . فلما فرغوا من الطعام أتَوا بجاريتين : إحداهما رائقة ، والأخرى عزَّة ، فجلستا وأخذتا مِزْهَرَيهِ(٣) وضربتا ضرباً عجيباً ، وغنّتَا بقول حسان :

انظُرْ خَلِيلِي بِبَطْنِ جِلِّقَ هَلْ تُونِسُ(٤) دُون البَلْقاء من أحَدِ

فسُمع حسان يقول : قد أرانى بها سميعاً بصيراً ، وعيناه تدمعان ، فإذا سكتتا سكت عنه البكاء ، و إذا غنّتا بكى ، فكنتُ أرى ابنَه عبد الرحمن إذا سكتتا يشيرُ إليهما أن تغنيا فيبكى أبوهْ !

فلما انقلب حسان من المأدبة إلى منزله استلقى على فراشه ، ووضع إحدى رجليه على الأخرى ، وقال : لقد أذكرَتنى رائقةُ وصاحبتُها أمراً ماسمعَتْه أذناىَ بعُيَيْد ليالى جاهليتنا مع جَبَلةَ بن الأيْهَم ، ثم تبسم وجلس فقال: لقد رأيت عَشْرَ قِيان ؛ خمسٌ روميات يغنين بالرومية بالبَرابط(٥) ، وخمسٌ يغنين غناء أهل الحيرة أهداهُنَّ

(*) الأغانى : ١٦ : ١٤ .

(١) المأدبة : كل طعام يصنع لدعوة أو عرس . (٢) هو شاعر رسول الله ، وقد نشأ فى الجاهلية ونبه شأنه فيها ، وعاش طويلا فى الإسلام ، ومات فى خلافة معاوية سنة ٥٤ هـ .

(٣) المزهر : عود يضرب به (٤) تونس : تبصر : اللسان مادة ــ عجب . ومادة ــ بلق . وجلق بكسرتين وتشديد اللام وقاف : اسم لكورة الغوطة كلها : وقيل قرية من قراها . وقيل دمشق نفسها (المراصد) (٥) البربط : العود .

إليه إياس بن قَبيصة ، وكان يفدِ إليه من يغنِّيه من العرب من مكة وغيرها ، وكان إذا جلس للشربِ فُرِش تحتــه الآسُ والياسمين وأصنافُ الرياحين ، وضرب له العنبر والمسك فى صحاف الفضة والذهب ، وأُتىَ بالمسك الصحيح فى صحاف الفضة ، وأوقد له المَندَّى إن كان شاتياً ، وإن كان صائفا أُتى هو وأصحابه بكِساء [1] صيفية يتفضّلون [2] بهـا ، وفى الشتاء يؤتى بفراء الفَنَك [3] وما أشبهـه ، ولا والله ما جلستُ معه يوماً قط إلا خلع علىَّ ثيابه التى عليه فى ذلك اليوم وعلى غيرى من جلسائه ، هذا مع حِلْمٍ عمن جَهِل وضحك ؛ وبَذْلٍ من غير مسألةٍ ، مع حُسْنِ وجه وحسن حديث ، ما رأيت منه خَنًا قط ولا عَرْبدة ، ونحن يومئذ على الشِّرك .

فجاء الإسلام فمَحَا الكفر وتركْنا الخمروما كَرِه . وأنتم اليوم مسلمون تشربون هذا النبيذ من التمر ، والفَضيخ [4] من الزهر والرطب ؛ فلا يشرب أحدُكم ثلاثة أقداح حتى يذهب بعقله ودينه ؛ أفلا تنتهون !

---

(١) الكساء : جمع كسوة . (٢) التفضل : التوشح ؛ وأن يخالف المرء بين أطراف ثوبيه (٣) الفنك : دابة فروتها أطايب أنواع الفراء وأشرفها . (٤) الفضيخ : شراب يتخذ من بسر .

٤ ـ الأعشى والمحلق*

قال بعض أهل البادية :

كان لأبي المحلّق[1] شرفٌ ، فمات وقد أتلف مالَه ، وبقي المحلّق وثلاثُ أخواتٍ له ولم يترك لهم إلاَّ ناقةً واحداه وبُرْدين كان يشهدُ فيهما الحقوق .

فأقبل الأعشى[2] من بعض أسفاره يريد منزلَه باليمامة ، فنزل المـاء الذي به المحلّق فقَرَاهُ أهلُ الماء وأحسنوا قِرَاه . ثم أقبلت عمةُ المحلّق، فقالت : يابن أخي ، هذا الأعشى قد نزل بمائنا ، وقد قِراهُ أهلُ الماء والعربُ تزعم أنه لم يمدَحْ قوماً إلا رَفَعَهُم ، ولم يَهْجُ قوماً إلا وضعهم ، فانظر ما أقولُ لك واحتَلْ في زِقٍ من خمر من عند بعض التجار، وأرْسِل إليه بهذه الناقة والزِّقّ وبُرْدَيْ أبيك ، فوالله لئن اعتَلَجَ[3] الـكبدُ والسّنام والخمرُ في جوفه، ونظر إلى عِطْفَيْهِ في البُرْدَين ، ليقولَنَّ فيك شعراً يرفعك به . قال : ماأملك غيرَ هذه الناقة ، وأنا أتوقّع رِسْلَها[4] .

ثم أقبَلَ يدخل ويخرج ويَهُمُّ ولا يفعل ، فـكلما دخلَ على عمته حضَّته ، حتى دخل عليها فقال : قد ارتحل الرجلُ ومضى . قالت : الآن والله أحسن ما كان القِرَى؛ تُتْبِعه ذلك مع غلام أبيكَ ـ وهو مولى له أسود شيخ ـ فإذا لحقَه أخبرَهُ عنك أنك كنتَ غائباً عن الماءعند نزوله إياه ، وأنك لما وردتَ الماءفعلمتَ أنه كان

(*) الأغاني : ٩ : ١١٣ ، بلوغ الأرب : ٢ : ١٦٢ .

(١) المحلق : لقب عبد العزى بن حنتم من كلاب بن ربيعة ، ولقب بذلك يوم عضـه حصان في وجنته فترك بها أثراً على شكل الحلقة . (٢) هو أعشى قيس ، واسمه ميمون بن قيس، أحد الأعلام من شعراء الجاهلية وفحولهم ، وهو أول من سأل بشعره وانتجع به أقاصي البلاد ، أدرك الإسلام ولـكنه لم يسلم . توفي سنة ٧ هـ . (٣) اعتلج : اختلط . (٤) الرسل : اللبن .

به كَرِهتَ أن يَفوتك قِراه ؛ فإنَّ هــذا أحسنُ لموقِعِهِ عنده . ولم تزل تحضّه حتى أتى بعضَ التجار فكلمه أن يُقرضه ثمنَ زقٍّ خمرٍ ، وأتاه بمن يضمَنُ ذلك عنه فأعطاه . ثُم وَجَّهَ بالناقة والخمر والبُرْدين مع مولى أبيه ، فخرج يتبعه ؛ فكلما مرَّ بماء قيل : ارتحل أمسِ عنه ، حتى صار إلى منزل الأعشى بمَنْفُوحَةِ [١] اليمامة ؛ فوجد عنده عدةً من الفِتيان قد غدَّاهم بغير لحم ، وصَبَّ لهم فضيخاً [٢] ؛ فهمْ يشربون منه . وقرع الباب فقال : انظروا مَن هــذا ؟ فخرجوا فإذا رسولُ المحلَّق يقول كذا وكذا ؛ فدخلوا عليه وقالوا : هــذا رسول المحلَّق الـكلابى أتاكَ بكيتَ وكيتَ . فقال : ويحكم ! أعرابى والذى أرسل إلىّ لاقَدْرَ له ! والله لئن اعتلج الـكَبِدُ والسَّنَامُ والخمرُ فى جوفى لأقولَنَّ فيه شعراً لم أقل قطُّ مِثْلَه . فواثبه الفِتْيان وقالوا : غبتَ عنَّا فأطلتَ الغيبةَ ، ثم أتيناك فلم تُطعمنا لحماً وسقيتَنا الفضيخَ ؛ واللحمُ والخمرُ ببابك ، لا نرضى بذا منكَ . فقال : ائذنوا له ؛ فدخل فأدَّى الرسالة ، وقد أناخ الجزورَ بالباب ، ووضع الزِّق والبُرْدين بين يديه ؛ فقال : أقْرِه السلام ، وقل له : وَصَلَتْك رَحِم ، سيأتيكَ ثناؤُنا .

وقام الفِتيان إلى الجزور فنحروها وشقُّوا خاصرتَها عن كَبِدها وجلدَها عن سَنامِها ، ثم جاءوا بهما ، فأقبلوا يَشْوُون ، وصَبُّوا الخمر فشربوا ، وأكل معهم وشرب ؛ ولبس البردين ؛ ونظرَ إلى عِطْفَيْه فيهما ؛ فأنشأ يقول :

أَرِقْتُ وما هذا السُّهــادُ المؤرِّقُ ... وما بِىَ من سُقْمٍ ومابىَ مَعشقُ [٣]

وفيها يقول :

نَفَى الذمّ عن آلِ المحلَّقِ جَفْنَــةٌ ... كجابيةِ [٤] الشيخ العراقى تَفْهَقُ [٥]

---

(١) منفوحة : قرية فى نواحى اليمامة ؛ يسكنها الأعشى وفيها قبره . (٢) الفضيخ : شراب يتخذ من بسر. (٣) معشق: عشق. (٤) الجابية: حوض ضخم. (٥) فهق الإناء: امتلأ.

ترى القومَ فيها شارِعِيْنَ وبينهم   مع القومِ وِلْدَانٌ من النسلِ دَرْدَقُ(١)
لعمرى لقد لاحتْ عيونٌ كثيرة   إلى ضوء نارٍ باليَفاعِ(٢) تحرَّقُ
تُشَبُّ لِمقرُورَيْنِ يَصْطليانها   وبات على النار النَّدى والمحلَّقُ
رضيعىْ لبانٍ ثَدْىَ أمٍّ تقاسَما   بأَسْحَمَ(٣) داجٍ عوضُ لا نتفرَّقُ
ترى الجودَ يجرى ظاهراً فوق وجهه   كما زانَ مَتنَ الهُندُوانِىِّ رَوْنَقُ(٤)
يداهُ يدَا صِدْقٍ، فكَفٌّ مُبيدَةٌ   وكفٌّ إذا ما ضُنَّ بالمالِ تُنْفِقُ

وسار الشعر وشاع فى العرب . فما أتت على المحلَّق سنة حتى زوَّج أخواته الثلاث ، كل واحدة على مائة ناقة ؛ فأيسرَ وشَرُف .

٥ ـ احتِكَام الشُّعَرَاءِ فِى عُكَاظ *

حكى عن نابغة(٥) بنى ذُبيان أنه كانت تُضْرَبُ له قُبَّةٌ من أَدَم بسوق عُكاظ يجتمع إليه فيها الشعراء ، فدخل إليه حسانُ بن ثابت ، وعنده الأعشى ، وقد أنشده شعره ، وأنشدته الخنْساء قولها :

قَذًى بعينك أم بالعين عُوَّارُ   أمْ ذَرَّفَتْ(٦) إذْ خلَتْ من أهلِها الدارُ

حتى انتهت إلى قولها :

---

(١) الدردق : الصبيان الصغار . (٢) اليفاع : التل . (٣) الأسحم : الأسود ؛ والمراد الليل ، ودجا الليل : أظلم - وعوض : أبداً . (٤) الهندوانى: السيف عمل ببلاد الهند ، ورونق السيف : ماؤه وحسنه .

(*) الأغانى : ٩ : ٣٤٠ ، الشعر والشعراء : ١٢٣ .

(٥) هو أبو أمامة زياد بن معاوية ، أحد فحول شعراء الجاهلية وحكمهم بعكاظ ، ولقب بالنابغة لنبوغه فى الشعر فجاءة وهو كبير بعد أن امتنع عليه وهو صغير ، وهو من أشراف ذبيان ، وعمر طويلا ومات قبل البعثة . (٦) العوار : كل ما أعل العين . وذرفت : قطرت .

وإنَّ صخراً لتأتمُّ الهُــــداةُ به كأنه عَلَمٌ (١) فى رأســـه نارُ
وإنَّ صَخْراً لمَوْلانا وسيِّــدُنا وإن صَخْراً إذا نَشْتُو (٢) لنحَّارُ

فقال : لولا أن أبا بَصِير (٣) أنشدنى قبلَكِ لقلتُ : إنكِ أشعرُ الناس . أنتِ واللهِ أشعرُ من كل أنثى ! قالتَ : والله ومن كل رجل .

فقال حسان : أنا والله أشعرُ منكَ ومنها . قال : حيثُ تقول ماذا ؟ قال : حيث أقول :

لنـا الجَفَناتُ الغُرُّ يَلمَعْنَ بالضُّحا وأسيافُنـا يَقطُرْنَ من نجْدَةٍ دَمَا
ولدْنا بنى العَنْقَاءِ (٤) وابنَىْ محرِّقٍ فأكْرِمْ بنا خالًا وأكرِمْ بنا ابنَمَا

فقال : إنك شاعر لولا أنك قلت : « الجفنات » فقلَّلتَ العــدد ، ولو قلت : « الجفــان » لــكان أكثر . وقلت : « يَلمعن فى الضّحا » ، ولو قلتَ : « يَبْرُقْنَ بالدُّجا » لــكان أبلغ فى المديح ؛ لأن الضيف بالليــل أكثرُ طروقاً . وقلتَ : « يَقْطُرْنَ من نجدةٍ دماً » فدلَلْتَ على قِلّةِ القتل ، ولو قلتَ : « يَجْرِينَ » لــكان أكثر لانْصِبابِ الدم ، وفَخَرْتَ بما وَلَدْتَ ، ولم تَفْخَرْ بمن وَلَدَكَ .

فقام حسان منــكسراً منقطعاً !

---

(١) العلم : الجبل (٢) شتا القوم : أجدبوا فى الشتاء . (٣) أبو بصير : كنية الأعشى .
(٤) العنقاء : ثعلبة بن عمرو مزيقيا بن عامر بن ماء السماء . ومحرق : هو الحارث بن عمرو مزيقيا . وكان أول من عاقب بالنار .

٦ - عِنْدَ كِسْرَى *

خرج أبو سفيان فى جماعةٍ من قريش ، يريدون العراق بتجارة ؛ فلما ساروا ثلاثاً جمعهم أبو سفيان ؛ فقال لهم : إنا من مَسِيرنا هذا لعلى خَطَرٍ ، لقد قَدِمْنا على ملكٍ جبّار ، لم يأذنْ لنا فى القدوم عليه ، وليستْ بلادُه لنا بِمَتْجَر ، ولكن أيُّكم يذهبُ بالعِير ، فإن أُصيبَ فنحنُ بُرَآء من دمه ، وإن غَنِمَ فله نصفُ الربح . فقال غَيلان (١) بن سَلَمَة : دعونى إذَنْ ، فأنا لها .

فلما قَدِمَ بلاد كسرى تَخلَّق (٢) ، ولبسَ ثوبين أصفرين ، وشهرَ أمرَه ، وجلس بباب كسرى حتى أُذِن له ، فدخل عليه ، وخرج إليه الترْجُمَان (٣) وقال له : يقولُ لك الملك : ما أدخَلَك بلادى بغير إذنى !

فقال : قلْ له : لستُ من أهل عداوةٍ لكَ ، ولا أتيتُكَ جاسوساً لِضِدٍّ من أضدادكَ ؛ وإنما جئتُ بتجارة تَسْتَمْتِعُ بها ؛ فإن أردتَهَا فهىَ لكَ ، وإنْ لم تُرِدْها ، وَأَذِنْتَ فى بَيْعِها لرعيَّتِك بعتُهَا ؛ وإن لم تأذن فى ذلك رَدَدْتُهَا ؛ وجعل يتكلم ، فإذا سمع صوتَ كسرى سجد . فقال له الترْجُمَان : يقولُ لك الملكُ : لِمَ سجدت ؟ فقال : سمعتُ صوتاً عالياً ، حيث لا ينبغى لأحد أن يعلوَ صوتُهُ إجلالا للملك ، فعلمتُ أنه لم يُقْدِم على رفع الصوتِ هناك غيرُ الملك ؛ فسجدتُ إعظاماً له.

فاستحسنَ كسرى ما فعل ؛ وأمرَ له بِمِرْفَقَةٍ (٤) توضع تحته . فلما أُتِيَ بها

---

* بلوغ الأرب : ١ـ٣٢٠ ، العقد الفريد : ١ـ١٧٥ .

(١) غيلان بن سلمة الثقفى شريف شاعر جاهلى ، كانت له ثلاثة أيام : يوم يحكم فيه بين الناس ؛ ويوم ينشد فيه شعره ، ويوم ينظر فيه إلى جماله ، وأسلم بعد فتح الطائف . (٢) تخلق : تطيب .

(٣) الترجمان : بضم التاء المشددة وفتحها : المفسر . (٤) المرفقة : المخدة .

رأى عليها صُورَةَ الملك ؛ فوضعها على رأسه ؛ فاستجْهله كسرى واستحمقه . وقال للترجمان : قل له : إنما بعثنا بهذه لتجلس عليها . قال : قد علمتُ ، ولكنى لما أُتيتُ بها رأيتُ عليهاصورةَ الملك ، فلم يكن من حقّ مثلى أن يجْلِس عليها ؛ ولكن كان حقُّها التعظيم ؛ فوضعتها على رأسى ؛ لأنه أشرف أعضائى وأكرمُها علىّ !

فاستحسنَ فعله ، ثم قال له : ألك ولد ؟ قال : نعم ! قال : فأيُّهُمْ أحبُّ إليك ! قال : الصغير حتى يكبرَ ، والمريضُ حتى يَبْرَأ ، والغائب حتى يئوبَ . فقال كسرى : زِهْ ! ما أَدْخلَكَ علىّ ، ودلّك على هذا القول والفعل إلا حظُّكَ ! فهذا فعلُ الحكماء وكلامُهم ، وأنت من قومٍ جُفاة لا حكمة فيهم ؛ فما غذاؤك ؟ قال : خبز البُرّ . قال : هذا العقل من البُرّ لا من اللبن والتمر .

ثم اشترى منه التجارة بأضعاف ثمنها ، وكساه ، وبعث معه من الفُرس مَنْ بَنى له أُطُماً [1] بالطائف ، فكان أوّلَ أُطمٍ بُنِيَ بها .

---

(١) الأطم : القصر ، وجمعه آطام .

٧- عِنْدَ النجاشي *

قال عمرو [1] بن العاص :

لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخَنْدَق جمعتُ رجالاً من قريش كانوا يرون رأيي، ويسمعون مني ، فقلت لهم : تعلمون - والله - أني أرى محمداً يعلو الأمور عُلُوًّا منكراً؛ وإني قد رأيت أمراً فما ترون فيه ؟ قالوا : وماذا رأيت ؟ قال : رأيت أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده ، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي ، وإن ظهر قومُنا فنحن مَنْ قد عَرَفُوا ، فلن يأتينا منهم إلا خير . قالوا : إن هذا لرأى ! قلت : فاجمعوا لنا ما نُهْدِيه له ، وكان أحب ما يهدى إليه من أرضنا الأَدَم .

فجمعنا له أدماً كثيراً ، ثم خرجنا حتى قدمنا عليه ، فوالله إنّا لَعِنده إذ جاءه عمرو بن أمية الضَّمْرى - وكان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم قد بعثه إليه في شأن جعفر [2] وأصحابه . قال : فدخل عليه ، ثم خرج من عنده ، فقلت لأصحابي : هذا عمرو بن أمية الضَّمْرى ، لو قد دخلتُ على النجاشي فسألتُه إياه فأعطانيه ، فضربت عنقه ! فإذا فعلتُ ذلك رأتْ قريش أني قد أجْزأتُ عنها حين قتلتُ رسول محمد .

قال : فدخلت عليه ، فسجدت له كما كنت أصنع ، فقال : مرحباً بصديقي ؛ أهديتَ إليَّ من بلادك شيئاً ؟ قلت : نعم أيها الملك ؛ قد أهديت إليك أَدَماً كثيراً؛ ثم قربتُه إليه ، فأعجبه واشتهاه ، ثم قلتُ له : أيها الملك ؛ إني قد رأيتُ رجلا خرج

---

* الروض الأنف : ٢ - ١١٢ .

(١) هو عمرو بن العاص بن وائل أحد دهاة العرب وفصائحهم وساستهم وفاتح مصر على عهد عمر بن الخطاب ، توفى سنة ٤٣ هـ (٢) هو جعفر بن أبي طالب ، وكان قد هاجر إلى الحبشة

من عندك ؟ وهو رسولُ رجلٍ عدوٍّ لنا ، فأَعْطِينه لأقتلَه ، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخِيارنا .

فغضب ؛ ثم مدَّ يده فضرب بها أنفه ضربةً ظننتُ أنه قد كسره ؛ فلو انشقَّت لى الأرض لدخلتُ فيها[1] فرَقًا منه! ثم قلت له : أيها الملك، والله لو ظننتُ أنك تكره هذا ماسألتُكَه ! قال : أتسألنى أن أعطيك رسولَ رجلٍ يأتيه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى لِتَقْتُلَه ؟ قلت : أيها الملك ، أكذاك هو ؟ قال : ويحك ياعمرو ! أطِعْنِي واتّبعه ، فإنه واللهِ لَعَلَى الحقّ ، وليظهرنَّ على مَنْ خالفه ، كما ظهر موسى على فرعون وجنوده .

قلت : أفتبايعنى له على الإســلام ؟ قال : نعم ، فبسط يده فبايعتهُ على الإسلام، ثم خرجت إلى أصحابى ، وقد حالَ[2] رأيى عما كان عليه ؛ وكتمتُ أصحابى إسلامى . ثم خرجت عامداً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلقيتُ خالدَ بن الوليد ، وذلك قُبيل الفتح ، وهو مقبلٌ من مكة ، فقلت : أين يا أبا سليمان ؟ قال : والله لقــد استقام المِيسم ، وإن الرجلَ لنبيّ ، اذهب والله فأسْلم فحتى متى ؟ قلت : والله ماجئتُ إلا لأسْلم .

فقدمنا المدينة على رسول الله صلى الله عليــه وسـلم ، فتقدَّم خالد بن الوليد فأسلم وبايع ، ثم دنوتُ فقلت : يارسولَ الله ، إنى أبايعك على أن يُغفرَ لى ماتقدم من ذنبى ، ولا أذكر ما تأخر . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياعمرو ، بايعْ فإن الإسلام يَجبُّ[3] ما كان قبله ، وإن الهجرة تَجُبُّ ما كان، فبايعته ثم انصرفت.

---

(١) فرقا : خوفا . (٢) حال رأيى : تغير . (٣) يجب ما قبله : يقطع .

٨ - رَسُولُ اللهِ فِي سُوقِ عُكَاظ *

رَوى عبدُ الرحمن العامرى عن أشياخٍ من قومه ، قالوا :

أتانا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، ونحنُ بسوق عُكاظ ؛ فقال : ممَّن القوم؟ قلنا : من بنى عامر بن صَعْصَعَة! قال : من أيِّ بنى عامر؟ قلنا : بنو كعب بن ربيعة. قال : كيف المَنَعَةُ فيكم ؟ قلنا : لا يُرام ما قِبَلنا ، ولا يُصْطلى بنارنا ! فقال : إنى رسول الله ؛ فإن أتيتكم تمنعونى حتى أبلِّغ رسالةَ ربى ، ولم أُكْرِه أحداً منكم على شىء ؟ قالوا : ومن أيٍّ قريش أنت ؟ قال : من بنى عبد المطلب ؟ قالوا : فأين أنت من بنى عبد مناف ؟ قال : هم أولُ من كذّبنى وطرَدنى ! قالوا : ولكنا لا نطرُدك ولا نؤمن بك ، ولا نمنعك أنْ تبلِّغَ رسالةَ ربك .

فنزل إليهم والقوم يتسوّقون(١) إذ أتاهم بُجْرة بن قيس القُشيرى ؛ فقال: مَن هذا الذى أراه عندكم أنكره ! قالوا : هذا محمدُ بن عبدالله القرشى . قال : وما لكم وله؟ قالوا : زعم لنا أنه رسول الله ويطلب إلينا أن نمنَعه حتى يبلغ رسالةَ ربه . قال : فماذا رددتم عليه ؟ قالوا : قلنا : فى الرحب والسعَة ؛ نخرجك إلى بلادنا ؛ ونمنعك مما نمنع منه أنفسَنا . قال بُجرة : ما أعلم أحداً من أهل هذه السوق يرجع بشىء أشرَّ من شىء ترجعون به ، بدأتم لتنَابِذَكم الناس ، وترميكم العرب عن قوس واحدة ، قومُه أعلمُ به ؛ لو آنسوا منه خيراً لكانوا أسعدَ الناس به ، تعمِدون إلى مرهَّق(٢) قد طرده قومُه وكذبوه فتؤوونه ! فبئس الرأىُ ما رأيتم !

---

* أسواق العرب : ٢١٧ .

(١) تسوق القوم : إذا باعوا واشتروا . (٢) فلان مرهق : أى متهم بسوء وسفه .

ثم أقبل على رسول الله فقال : قم ؛ الحق بقومك ، فوالله لولا أنك عند قومى لضربتُ عنقك ! فقام رسول الله إلى ناقته فركبها . فغمزها بُجرة [١] فقَمَصَتْ [٢] برسول الله فألقته ، وعند بنى عامر يومئذ ضُباعَةُ بنت عامر بن قُرْط ، وكانت من النسوة اللاتى أسلمن مع رسول الله بمكة ، جاءت زائرة إلى بنى عمها ، فقالت : يا آل عامر ، أيُصنع هذا برسول الله بين أظهركم لا يمنعه أحد منكم ! فقام ثلاثة من بنى عمها إلى بجرة وثلاثة أعانوه ، فأخذ كل رجل منهم رجلا ، فجَلَد [٣] به الأرض ، ثم جلس على صدره ، فقال رسول الله : اللهم بارك على هؤلاء ، والْعنْ هؤلاء .

فلما صدَر الناسُ رجعتْ بنو عامر إلى شيخٍ لهم ، قد أدركته السنّ حتى لا يقدر أن يوافىَ معهم المَوْسم ، فكانوا إذا رجعوا إليه حدّثوه بما يكون فى ذلك الموسم . فلما قدموا عليه سألهم عمن كان فى الموسم ، فقالوا : جاءنا فتىً من قريش ، ثم حدّث أنه أحدُ بنى عبد المطلب ، يزعم أنه نبيّ يدعونا إلى أن نمنعه ونقومَ معه، ونخرج به معنا إلى بلادنا ! فوضع الشيخ يده على رأسه ، ثم قال : يا بنى عامر ! هل لها من تَلَاف ؟ هل لذُناباها [٤] تطَلُّب ؟ فوالذى نفس فلان بيده ما تقوّلها إسماعيلىٌّ قط ، ألَا إنها الحق ، فأين كان رأيكم !

---

(١) فى تاريخ الطبرى صفحة ٢٣٢ من الجزء الثانى : بجيرة بن فراس . (٢) قمصت : وثبت .
(٣) جلد به الأرض : ضربها . (٤) أصل الذنابى : الذنب .

٩ - الكريم طروب *

قدم عبدُ الله بنُ جعفر(١) على معاوية بالشام ، فأنزله دار عِياله ، وأظهر من إكرامه ما يستحقه ، فغاظ ذلك زوج معاوية ، ثم سمعتْ ذات ليلة غناء عند عبد الله ابن جعفر : فجاءت إلى معاوية ، وقالت : هلمَّ فاسمع ما فى منزل الذى جعَلْتَه من لحمك ودمك وأنزلْتَه بين حرَمك .

فجاء معاوية ؛ فسمع شيئاً حرّكه وأطربه ، فقال : والله إنى لأسمع شيئاً تكاد الجبال تخرُّ(٢) له ! ثم انصرف .

فلما كان فى آخر الليل سمع معاويةُ قراءةَ عبد الله بن جعفر ، وهو قائم يصلى ، فنبّه زوجه ، وقال لها : اسمعى مكان ما أسمعتنى ، هؤلاء قومى ملوكٌ بالنهار ، ورهبانٌ بالليل !

ثم إن معاوية أرِقَ ذات ليلة ؛ فقال لخادمه : اذهب فانظر مَنْ عند عبد الله ابن جعفر وأخْبِرْه أنى قادم عليه .

فذهب وأخبره ، فأقام عبد الله كلَّ من كان عنده ؛ فلما جاء معاوية لم يرَ فى المجلس غير عبد الله ، فقال : مجلسُ مَنْ هذا ؟ قال عبد الله : هذا مجلس فلان يا أمير المؤمنين . فقال معاوية : مُره فليرجع إلى مجلسه ، حتى لم يبق إلا مجلس رجل واحد . قال : مجلس مَنْ هذا ؟ قال : مجلس رجل يداوى الآذان يا أمير المؤمنين ؛ قال : إن أذُنِى عليلة فمُرْه أن يرجعَ إلى مجلسه ، وكان مجلس بُدَيح المغنى ، فأمره

* المستطرف : ٢ — ١٤٩ ، العقد الفريد : ٢ — ٤٩ ، الأغانى ٤ — ٢١٢ .

(١) هو عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، كان كريما جوادا يحب البذل ويرتاح للعطاء ، ويميل إلى سماع الغناء ، وأخباره فى الكرم والسماع كثيرة ، توفى سنة ٩٠ هـ. (٢) تخر : تسجد .

عبد الله بن جعفر فرجع إلى موضعه ، فقال له معاوية : داوِ أذنى من علّتها ، فتناول العودَ وغنى ، وقال :

ودّعْ هريرةَ إنَّ الركبَ مُرْتَحِل وهل تطيقُ وداعاً أيها الرجلُ(١)

فحرك عبد الله بن جعفر رأسه . فقال له معاوية : لم حركتَ رأسك يابن جعفر ؟ قال أرْيَحيَّة أجدها ياأمير المؤمنين لو لَقيتُ عندها لأبْلَيْت ، ولو سئلتُ لأعطيت .

وكان معاوية قد خَضب ، فقال ابن جعفر لبدَيح :غنِّ غير هذا ـ وكان لمعاوية جارية أعزُّ جواريه عليه ، وكانت تتولى خِضَابَه فغنَّى بُديح وقال :

أليس عندك شكرٌ للتى جَعَلَتْ ماابْيَضَّ من قادِماتِ(٢) الرأسِ كالحُمَمِ(٣)

وجــدّدتْ منك ماقدكان أخْلَقه صَرْفُ الزمانِ وطولُ الدهر والقدَمِ

فطرب معاوية طرباً شديداً ، وجعل يحرك رجله ، فقال له ابن جعفر : ياأمير المؤمنين ، إنك سألتنى عن تَحْريك رأسى فأجبتك وأخبرتُك ، وأنا أسألك عن تحريك رجلك ! فقال : كل كريم طروب !

ثم قام ، وقال : لا يبرح أحدٌ منكم حتى يأتىَ له إذْنى . ثم ذهب فبعث إلى ابن جعفر بعشرة آلاف دينار ومائة ثوب من خاصة كُسوته ، وإلى كل رجل منهم بألف دينار ، وعشرة أثواب .

---

(١) هريرةُ : اسم قينة كانت لرجل من آل عمرو بن مرثد أهداها إلى قريب له . والبيت من قصيدة لأعشى قيس . (٢) أصل القوادم : أربع ريشات فى مقدم الجناح ، والواحدة قادمة ، يريد مقدم الشعر . (٣) الحمم : الفحم .

١٠ـ الأعراب في جُهدِهم وضَنْك عَيشِهم*

قال زيادٌ لغَيلان بن خَرَشة : أحبُّ أن تحدِّثنى عن العرب وجهدها ، وضَنْك عَيشها ، لنحمد الله على النِّعمةِ التى أصْبَحنا بها ، فقال غيلان : حدثنى عمى قال :

توالت على العربِ سنونَ تسعٌ فى الجاهلية حَطَمت كلَّ شىء ، فخرجتُ على بَكْر لى فى العرب ، فمكثت سبعاً لا أطعَمُ إلا ماينَالُ منه بعيرى ، أو من حشرات الأرض ، فشددت على بطنى حجَراً من الجوع ، حتى دفعتُ فى اليوم السابع إلى حِوَاء[1] عظيم ، فإذا بيتٌ جُحِش[2] عن الحى ، فَمِلْتُ إليه ، فخرجت إلىَّ امرأة طُوَالة[3] حُسَّانة[4] ، فقالت : مَنْ ؟ قلتُ : طارقُ ليل ، يلتمسُ القِرى ! قالت : لو كان عندنا شىء لآثرْنَاكَ به ، والدالُّ على الخير كفاعله ، حِسَّ[5] هذه البيوت ، ثم انظرِ إلى أعظمها فإن يك فى شىء منها خيرٌ ففيه .

ففعلتُ حتى دَفَعْتُ إليه ، فرحَّب بى صاحبُه ، وقال : مَنْ ؟ قلت : طارق ليل ، يلتمس القِرى . فقال : يافلان ، فأجابه ، فقال : هل عندك طعَام ؟ فقال : لا ، فوالله ماوقرَ[6] فى أذُنى شىء كان أشدَّ علىَّ منه .

قال : فهل عندك شراب ؟ قال : لا . ثم تأوَّه ، فقال : قد بقَّينا فى ضرع الفُلَانة[7] شيئاً لطارق إن طرَق . قال : فأتِ به . فأتى العطَن[8] فابتعثها ، فما

---

* المحاسن والمساوىء : ٩٩ (طبعة ليبزج) ، عيون الأخبار : ٣ ـ ٢٤٤ .
(١) الحواء : جماعة البيوت المتدانية (٢) جحش : نحى وأبعد عن البيوت (٣) طوالة : طويلة القامة (٤) حسانة : حسناء (٥) حس : تعرف أحوالها (٦) وقر : ثقل (٧) الفلانة والفلان بالتعريف : كناية عن غير الآدميين (٨) العطن : مناخ الإبل حول وردها .

سمعتُ شيئاً قطُّ كان أشدمن شَخْبِ تِيك الناقةفى تلك العُلْبة(١) ، حتى إذا ملأها ، وفاضتْ من جوانبها ، وارتفعتْ عليها رَغْوَة كجُمَّة الشيخ ، أقبل بها يَهْوِى نحوى ، فعثَر بعود أو حجر ، فسقطتِ العُلبة من يده ، فما أُصِبْتُ بمصيبة أفزع لقلبى، ولا أعظم موقعاً عندى من انكفاء تلك العلبة على مثل الحال التى كنت فيها .

فلما رأى ذلك ربُّ البيت خرج شاهراً سيفه ، فبعثَ الإبلَ ، ثم نظر إلى أعظمها سَناماً ، ودفع إلىّ مُدْية ، وقال : ياعبد الله ، اصطلِ واحتمل .

فجعلت أهوِى بالبَضْعَة(٢) إلى النار ، فإذا بلغتْ إناها(٣) أكلتُها ، ثم مسحتُ مافى يدى من إهالتها(٤) على جلدى ، وقد قَحِلَ(٥) علىَّ عظمى ، حتى كأنه شَنٌ(٦) ، ثم شربتُ شربةَ ماء ، وخررْتُ مغشياً علىَّ ، فما أفقتُ إلى السَّحَر .

وقطع زيادٌ الحديث ، وقال : لا عليك ألاَّ تخبرنا بأكثر من هذا ، فَمن المنزولُ به ؟ قلتُ : عامرُ بنُ الطّفيل .

---

(١) العلبة : قدح ضخم من جلود الإبل ، أو من خشب يحلب فيها . (٢) البضعة . القطعة من اللحم (٣) بلغ إناه : نضجه وإدراكه . (٤) الإهالة : الشحم أو ما أذيب من الشحم .
(٥) قحل : يبس . (٦) الشن : القربة الخلق الصغيرة .

١١ ـ حفل غناء*

خرجت جميلةُ (١) حاجَّةً ، فخرج معها من الرجال المغنّين والنساء والأشراف وغيرهم جماعةٌ ، وحجّ معها من القيان مُشَيِّعَاتٍ لها ومعظِّماتٍ لِقَدْرِها ولِحَقِّها خمسون قَيْنَةً وَجَّهَ بِهِنَّ مواليهنّ معها ؛ وأَعطَوْهُنَّ النفقاتِ وحملوهنّ على الإبل فى الهوادج والقِباب وغير ذلك ؛ فأبتْ جميلةُ أن تُنفِقَ واحدةٌ منهنّ درهماً فما فوقه حتى رَجَعْنَ. وتخايَرَ مَن خرج معها فى اتخاذ أنواع اللباس العجيب الظَّريف والهوادج والقِباب، فلم يرَ أهلُ المدينة مثل ذلك الجمع سَفْراً (٢) طَيِّباً ، وحُسناً ومَلاحة .

ولما قاربوا مكة تلقّاهم سَعيدُ بن مِسْجَح وابنُ سُرَيْج والغريضُ وابنُ مُحْرِز والهُذَليُّون وجماعة من المغنين من أهل مكة وقِيانٌ كثيرٌ ، ومن غير المغنين عمرُ ابن أبى ربيعة ، والحارث بن خالد المخزوميّ والعَرْجى ، وجماعةٌ من الأشراف .

فدخلت جميلةُ مكة وما بالحجاز مُغَنٍّ حاذقٌ ولا مغنيةٌ إلا وهو معها وجماعةٌ من الأشراف ممن سمينا وغيرهم من الرجال والنساء . وخرج أبناء أهل مكة من الرجال والنساء ينظرون إلى جَمْعها وحُسْنِ هيئتهم .

فلما قَضَتْ حجّها سألها المكِّيُّونَ أن تجعل لهم مجلساً ؛ فقالت : للغناء أم للحديث ؟ قالوا : لهُمَا جميعاً . قالت : ما كنتُ لأَخْلِطَ جِدًّا بهَزْل ، وأبت أن تجلسَ للغناء . فقال عمر بن أبى ربيعة : أقسمتُ على مَن كان فى قلبه حبٌّ لاستماع

---

* الأغانى : ٨ ــ ٢٠٩ ، نهاية الأرب : ٥ : ٤٣ .

(١) هى جميلة مولاة بنى سليم ، كانت أصلا من أصول الغناء ، وعنها أخذ معبد وابن عائشة وحبابة وسلامة وغيرهم من المغنين والمغنيات ، توفيت سنة ١٢٥ هـ تقريباً .

(٢) السفر : المسافرون .

غنائها إلا خرج معها إلى المدينة فإنى خارج ، فعزَمَ القومُ كلُّهم على الخروج ، فخرجَتْ فى جمعٍ أكثرَ من جمعها بالمدينة

فلما قَدِمَت المدينةَ تلقَّاها أهلها وأشرافُهم من الرجال والنساء ؛ فدخلت بأحسنَ مما خرجتْ منها ، وخرج الرجالُ والنساء من بيوتهم فوقفوا على أبواب دُورهم ينظرون إلى جَمْعِها وإلى القادمين معها . فلما دخلت منزلها وتفرَّقَ الجمعُ إلى منازلهم ، ونزل أهلُ مكة على أقاربهم وإخوانهم أتاها الناسُ مُسَلِّمينَ ، وما اسْتَنْكَفَ من ذلك كبيرٌ ولا صغيرٌ .

فلما مضى لِمَقْدَمِها عشرةُ أيام جلستْ للغناء ، فقالت لعمر بن أبى ربيعة : إنى جالسةٌ لكَ ولأصحابك وإذا شئتَ فَعِدِ الناسَ لذلك اليوم ، فَغَصَّتِ الدارُ بالأشراف من الرجال والنساء ، فابتدأت جميلةُ فغنّت صوتاً بشعر عُمَرَ [1] :

هيهــاتَ من أَمَةِ الوَهَّابِ منزِلُنا — إذا حَلَلْنا بسيفِ [2] البحرِ من عَدَنِ
واُحْتَلَّ أهلُكِ أجْياداً [3] وليس لنا — إلا التــذكُّرُ أو حظٌّ من الحَزَنِ
لو أنهــا أبصرتْ بالجِزْعِ عَبرتَهُ — مِنْ أَنْ تَغَرَّدَ قُمْرِىٌّ على فَنَنِ
إذَنْ رَأَتْ غيرَ ماظَنَّتْ بصاحبها — وأيقنتْ أنَّ لَحْجاً [4] ليس من وطنى
ماأَنسَ لاأَنسَ يومَ الخَيْفِ [5] موقِفَهَا — وموقِفِى وكلانا ثَمَّ ذو شَجَنِ
وقولَهــا للثريا وهى باكيةٌ — والدمعُ منها على الخدين ذو سَنَنِ: [6]
باللهِ قولى له فى غــــير مَعْتَبَةٍ : — ماذا أَرَدْتَ بطولِ المُكْث فى اليمنِ؟
إن كنتَ حاولتَ دنيا أَوْ نَعِمْتَ بها — فمــا أصبتَ بتركِ الحجِّ من ثَمَنِ

---

(١) كان الحارث بن أبى ربيعة ينهى أخاه عن قول الشعر فيأبى أن يقبل منه ، فأعطاه ألف دينار على ألا يقول شعراً ، فأخذ المال وخرج إلى أخواله بلحج وأبين مخافة أن يهيجه مقامه بمكة على قول الشعر ، فطرب يوما فقال هذا الشعر ! (٢) سيف البحر : ساحله (٣) أجياد : موضع بمكة .
(٤) لحج : مخلاف باليمن (٥) الخيف : موضع بمنى ( ) ذو [illegible] : ذو طرائق .

فكلهم استحسنَ الغِناء وضَجَّ القومُ من حُسْن ماسمعوا ؛ ودَمَعَتْ عينُ عمر حتى جرى الدمع على ثيابه ولحيته ، ثم أقبلتْ على ابن سُرَيج فقالت : هاتِ ، فاندفع يُغنى ورفعَ صوتَه بشعر عمر :

أليسَتْ بالتى قالتْ لمولاةٍ لهـــا ظُهُرَا
أشـيرى بالسلام لهُ إذا هوَ نحوَنا نظَرَا
وقولى فى مُلاطفــةٍ لزَينبَ نَوِّلى عُمَرَا
وهــذا سِحْرُكَ النِّسْوا نَ قـد خَبَّرْننى الخبَرَا

فسُمع من ابن سُرَيج فى هـذا اللَّحْن من الحسن مايقال إنه ماسُمعَ مثلُه . ثم قالت لسعيد بن مِسجَح : هات ياأبا عثمان ، فاندفع فغنى :

قد قُلْتُ قبل البَيْنِ لمـا خَشِيتُه لِتُعْقِبَ وُدًّا أو لتعلمَ ماعنــدى
لكِ الخيرُ هَلْ من مصدرٍ تصْدُرِينَه (١) يُرِيحُ كما سَهَّلْتِ لى سُبُـل الوِرْدِ
فلما شَكَوتُ الحبَّ صـدّتْ كأنما شـكوتُ الذى ألقَى إلى حَجَرٍ صَلْدِ

فاستُحْسِن ذلك منه و برع فيه . ثم قالت : يامعبد ، هاتِ ؛ فغنَّى :

أحاربُ مَنْ حاربتَ من ذى عـداوةٍ وأحبسُ مالى إن غَرِمتَ فأعقلُ (٢)
و إنى أخوكَ الدائمُ العهــدِ لم أحُلْ إنَ ابزَاكَ (٣) خصمٌ أو نبا بكَ منزلُ
ستقطعُ فى الدنيا إذا ما قطعتَــنى يمينَك فانظر أىَّ كَفٍّ تبدَّلُ

قالت جميلة : أحسنتَ يامَعْبَدُ اختيار الشعر والغناء .

ثم قالت : هاتِ يابنَ مُحرِز ؛ فإنى لم أؤَخِّرْكَ لخساسةٍ بك ؛ ولا جهلا بالذى يجب فى الصناعةِ ؛ ولـكننى رأيتُك تحبُّ من الأمور كلِّهـا أوسطَها وأعدلَهـا ؛

(١) يقال : صدر هو ، وصدر غيره وأصدره (٢) يريد فأعقل عنه ، وعقل عنه : إذا غرم مالزمه من دية (٣) لم أحل : لم أتغير . ابزاك خصم : قهرك . والشعر لمعن بن أوس ، وهو شاعر فحل من مخضرمى الجاهلية والإسلام .

فجملتك — حيث تحبّ — واسطةً بين المكّيين والمدنيين ، فغنّى .

ثم قالت للغريض : هات ، فاندفع يغنى بشعر عَمْرو بن شاس :

فواندمى على الشبــاب وَوَانَدَمْ　　نَدِمْتُ وبان اليومَ منى بغــير ذَمْ

وإذ إخوتى حَوْلى وإذْ أنا شائخٌ　　وإذ لا أجيبُ العاذِلاتِ من الصَّمَمْ

أرادت عَرَاراً[1] بالهوان ومن يُرِدْ　　عَراراً لَعَمْرِى بالهوَانِ فقد ظَلَمْ

قالت جميلة : أَحْسَنَ عَمْرُو بن شأس ولم تحسن ؛ إذ أفسدتَ غِناءَك بالتّعريض ؛ والله ما وَضَعْناكَ إلا موضِعَك ، ولا نَقَصْناَ من حظك ، فماذا أَهَنَّاكَ !

ثم أقبلت على الجماعة فقالت : يا هؤلاء ، اصدُقوه وعرِّفوه نفسَه ليقنعَ بمكانه ؛ فأقبل القوم عليه ، وقالوا له : قد أخطأتَ إن كنتَ عرّضت . فقال : قد كان ذلك ! ولستُ بعائدٍ . وقام إلى جميلة فقبّلَ طرفَ ثوبها واعتذر ، فقبلَتْ عُذْرَه ، وقالت له : لا تَعُدْ .

ثم أقبلت على ابن عائشة فقالت : يا أبا جعفر ؛ هاتِ ، فتغنّى بشعر النابغــة :

سقى الغيثُ قبراً بين بُصْرَى[2] وجاسمٍ　　عليــه من الوَسْمِيِّ[3] جَوْدٌ ووابلُ

قالت جميلة : حَسَنٌ ما قلتَ يا أبا جعفر . ثم أقبلت على نافع وبُدَيح فقالت : أحب أن تُغَنِّيانى صوتاً واحداً ؛ فغنّيا جميعاً بصوتٍ واحد ولحنٍ واحد :

ألا يامَنْ يلومُ على التصابى　　أَفِقْ شيئاً لتسمعَ من جوابى

بَكَرْتَ تَلُومُنى فى الحبِّ جَهلا　　ومافى حبِّ مثلى من مَعَاب[4]

أليسَ من السعادة غيرَ شَكٍّ　　هَوَى متواصلَين على اقتراب

كريمٌ نال وُدًّا فى عفافٍ　　وسَتْرٍ من مُنَعَّمَةٍ كَعَابِ[5]

---

(١) هو عرار بن عمرو بن شأس ، وهو من أمة لعمرو سوداء ، وكان بينه وبين زوج أبيه نزاع وخصام ، فقد كانت تؤذيه وتعيره وتشتمه ، وحاول عمرو أن يصلح ما بينهما فلم يفلح فطلقها

(٢) بصرى وجاسم : موضعان بالشام .　　(٣) الوسمى . أ ل المطر لأنه يسم النبات .

(٤) معاب : عيب ؛ وهو مصدر ميمى .　　(٥) كعاب : ناهدة الثدى .

فقالت جميلة : هَوَاكُمَ واللهُ واحد ، وغِناَ كما واحد ، وأنتما مُحِبّان من بقية الكرم وواحدِ الشرف : عبد الله بن جعفر بن أبى طالب .

ثم أقبلت على الهذليِّين الثلاثةِ فقالت : غَنُّوا صوتاً واحداً ، فاندفعوا فَغَنَّوْا بشعر عنترةَ العبسيّ :

حُيِّيتَ من طَلَلٍ تقادَمَ عهدُهُ أقْوَى وأقفرَ بعدَ أمِّ الهيثمِ
كيفَ المزارُ وقد تربَّع أهلُها بعُنيزَتَيْنِ وأهلُنا بالغَيْلَمِ (١)
إن كنتِ أزمعتِ الفراقَ فإنما زُمَّتْ (٢) ركابُكُم بليلٍ مُظلمِ

قالت : ما رأيتُ شيئاً أشبهَ بغنائكم من اتفاق أرواحكم .

ثم أقبلت على نافعِ بن طُنْبُورة ، فقالت: هاتِ يا نَقْشَ الغَضَار (٣) ، ويا حَسَنَ اللسان ، فاندفع يغنى :

يا طُولَ ليلى وبتُّ لم أنَمِ وِسادِىَ الهمُّ مُبْطِنٌ سَقَمى
أنْ قُمْتُ يوماً على البَلاط (٤) فأبـ صرتُ رَقاشاً وليتَ لم أَقُمِ

فقالت جميلة : حسنٌ والله !

ثم قالت : يامالك ؛ هاتِ ؛ فإنى لم أؤخرك لأنك فى طبقة آخرهم ، ولكنى أردتُ أن أختمَ بك يومنا تبرُّكاً بك ، وكى يكونَ أولُ مجلسنا كآخره، ووسطُه كطرَفه ، فإنك عندى ومعبداً لفى طريقةٍ واحدة ومذهب واحد ، لا يدفع ذلك إلا ظالمٌ ، ولا ينكرُه إلا عاضلٌ (٥) ، الحقَّ أقولُ ، فمن شاء فلينكر ، فسكت القوم كلهم إقراراً لما قالت ؛ واندفع يغنى :

عدوٌّ لمنْ عادَتْ وسِلْمٌ لِسلْمِها ومن قَرَّبَتْ سلْمَى أَحَبَّ وقرَّبَا

(١) عنيزتين : موضع ، والغيلم : موضع فى ديار بنى عبس . (٢) زم البعير : خطمه .
(٣) الغضار : الطين اللازب الأخضر ، وهو لقب له .
(٤) البلاط : الأرض ، وقيل : الأرض المستوية الملساء (٥) العضل : المنع .

هَبِينى امرأً إما بريئاً ظلمتِه ... وإما مُسيئاً تاب بعدُ وأعْتبا
أقول ـ الشَّماسَ العذرِ لمَّا ظلمتنِي ... وحَمَّلتنِي ذنباً وما كنتُ مُذْنباً
لِيَهْنِئْك إشماتُ العدوِّ بهَجرنا ... وقطعُك حبل الوَصل حتى تَقَضَّبا(١)

قالت جميلة : ليتَ صوتَك يامالك قد دام لنا ودُمْنا له ! وقطعت المجلس ؛ وانصرف عامةُ الناس و بقي خواصُّهم .

فلما كان اليومُ الثانى حضر القوم جميعاً ، فقالت لطُوَيس : هاتِ يا أبا عبد النعيم ، فابتدأ طويس فغنى :

قد طال لَيلى وعادَ لِى طَرَبِى ... من حُبِّ خَوْدٍ(٢) كريمةِ الحسبِ
غَرّاءَ مثلِ الهلالِ آنسةٍ ... أو مثلِ تمثالِ صورة الذَّهبِ
صادتْ فؤادى بجيدِ مُغْزِلَة(٣) ... تَرْعَى رِياضاً مُلْتَفَّةَ العُشْبِ

فقالت جميلة : حسنٌ والله يا أبا عبد النعيم !

ثم قالت للدَّلال : هاتِ يا أبا يزيد ، فاندفع فغنى :

قد كنتُ آمُلُ فيكُمُ أمَلا ... والمرء ليس بمدرِكٍ أمَلَهْ
حتى بَدَا لِى منكُم خُلُفٌ ... فزجَرْتُ قلبى فارْعَوَى جَهَلَهْ
ليسَ الفتى بمُخَلَّدٍ أبداً ... حَيًّا ، وليسَ بفائتٍ أجَلَهْ

قالت : حسنٌ والله يا أبا يزيد ! ثم قالت لِهيتٍ : إنّا نُجِلُّكَ اليومَ لِكِبرِ سِنِّك ورِقَّةِ عظمِكَ . قال : أجل !

ثم قالت لبَرْدِ الفؤادِ ونَوْمَةِ الضُّحَى : هاتيا جميعاً لحنا واحداً فغنيًا :

إنى تذكرتُ فلا تَلْحَنِي ... لؤلؤة مكنونة تَنطِقُ

(١) تقضب : تقطع (٢) الخود : الحسنة الخلق الشابة .
(٣) المغزلة : الظبية ذات الغزال .

فقالت جميلة : أحسنتما .

ثم قالت لفند ورحمة وهبة الله : هاتوا جميعا صوتا واحداً ؛ فإنكم متفقون فى الأصوات والألحان ؛ فاندفعوا فغنَّوْا :

أشاقَكَ من نحو العَقيقِ بُرُوقُ لوامعُ تَخفَى تارة وتَشُوقُ
وما لِيَ لا أهْوَى جَوَارِىَ بَرْبَرٍ ورُوحى إلى أرواحهنّ تَتُوقُ
لهنّ جمالٌ فائقٌ ومَـــــلاحةٌ وَدَلٌّ على دَلِّ النساء يَفُوقُ

وكان بَرْبَرٌ حاضراً ، فقال : جوارىّ والله على ما وصفْتُمْ ؛ فمن شاء أقرّ ومن شاء أنْكَرَ . فقالت جميلة : صَدَقَ . ثم غَنَّتْ جميلة بشعر الأعشى :

بَانَتْ سُعَادُ وَأَمْسَى حبلُها انْقَطَعَا وَاحْتَلَّتِ الْغَوْرَ فَالْجُدَّيْنِ فالفرَعا(١)
واستنكرتْنى وما كان الذى نَكِرتْ من الحوادثِ إلا الشَّيْبَ والصَّلَعَا
تقولُ بِنتى وقد قَرَّبتُ مُرْتَحِلا : يارَبِّ جَنِّبْ أبى الأوْصابَ والوَجَعا
وكان شىءٌ إلى شىءٍ فغـــــيَّرَه دَهْرٌ مُلِحٌّ على تَفْرِيقِ ماجَمَعَا

فلم يُسْمَعْ شىءٌ أحسنُ من ابتدائها بالأمس وخَتْمِها فى اليومِ الثانى ، وقطعت المجلسَ ، فانصرف قوم وأقام آخرون .

فلما كان اليومُ الثالث اجتمع الناسُ ، فضربتْ سِتارة وأجلست الجوارىَ كلَّهن فضرَبْنَ وضرَبتْ . فضرَبْنَ على خمسين وتراً ، فتزلزلتِ الدارُ ؛ ثم غنَّت على عودها ؛ وهنّ يضربن على ضربها بهذا الشعر :

فإن خَفِيتْ كانتْ لعَيْنِكَ قُرَّةً وإن تَبْدُ يوماً لم يُعَمِّمْك(٢) عارُها
من الخفِرَاتِ البيضِ لم تَرَ غِلْظةً وفى الحسب الضخمِ الرفيعِ نجارُها

---

(١) الجدان والفرع : موضعان .
(٢) لم يعممك : لم يلحقك .

فما رَوْضَةٌ بالحَزْنِ طيبةُ الثرى   يمجُّ الندى جَثْجاثُها (١) وعَرارُها
بأطيبَ من فيها إذا جئتَ طارقاً   وقد أُوقِدَتْ بالمَنْدَلِ (٢) الرطبِ نارُها

«فدمعتْ أعينُ كثيرٍ منهم حتى بلُّوا ثيابهم وتنفسُّوا الصُّعَداء ، وقالوا : بأنفسنا أنت ياجميلة ، ثم قالت للجوارى : اكففْنَ ، فكففْنَ ؛ وقالت : ياعزُّ ؛ غنى ، فغنت بشعر لعمرَ :

تذكرتَ هنداً وأعصارَها (٣)   ولم تقضِ نفسُك أوطارَها
تذكَّرَتِ النفسُ ما قد مَضى   وهاجتْ على العين عُوّارها (٤)
لِتَمْنحَ رامةَ منَّا الهوى   وتَرْعَى لِرَامةَ أسرارَها
إذا لم نَزُرْها حِذارَ العِدَا   حَسَدْنا على الزَّوْرِ زُوَّارها

فقالت جميلة : ياعَزُّ ، إنكِ لباقيةٌ على الدهر ، فهنيئاً لكِ حسنُ هذا الصوت مع جَوْدَةِ هذا الغناء !

ثم قالت لِحَبابَةَ وسَلَّامَةَ : هاتيا لحناً واحداً ، فغنَّتا :

كفى حَزَناً أنى أغِيب وتَشْهَدُ   وما نَلْتَقى والقلبُ حَرَّانُ مُقْصَدُ (٥)
ومن عجبٍ أنى إذا الليلُ جَنَّنى   أقومُ من الشوق الشديد وأقعدُ
أَحِنُّ إليكم مثلَ ما حَنَّ تائقٌ   إلى الوِرْدِ عطشانُ الفؤاد مصرَّدُ (٦)
ولى كَبِدٌ حَرَّى يعذِّبها الهوَى   ولى جَسَدٌ يَبْلى ولا يتجدَّدُ

فاستُحْسن غناؤُهما .

---

(١) الجثجاث : من أحرار الشجر ، له زهرة صفراء طيبة . والعرار : نبت طيب الريح وهو النرجس البرى . (٢) المندل : أجود العود . (٣) الأعصار : جمع عصر ، يريد الأوقات التى كان يجتمع معها فيها . (٤) العوار : ما عار فى العين من القذى والرمد فأوجعها .
(٥) مقصد : مجروح . (٦) التصريد : سقى دون الرى .

ثم أقبلت على خُلَيْدَة ، فقالت لها : بنفسى أنت ! غَنّى ، فغنت :

ألا يامَنْ يلومُ على التَّصابى أَفِقْ شيئاً لِتَسْمَعَ من جوابى
بكَرْتَ تلومُنى فى الحبِّ جَهْلًا وما فى حبِّ مثلى من مَعَابِ
أليس من السعادة غير شكٍّ هوًى مُتَوَاصِلَين على اقترابِ
كريمٌ نال وُدًّا فى عَفافٍ وسَتْرٍ من مُنَعَّمةٍ كَعَابِ

فاستُحسن منها ما غنت . ثم قالت لعُقَيلَة والشَّمَّاسية : هاتيا فغنَّتا :

هجرتِ الحبيبَ اليومَ فى غير ما اجْتَرَمْ وقطَّعْتِ من ذى وُدِّكِ الحبلَ فانصرمْ
أطعتِ الوشاةَ الكاشحين ومَنْ يُطِع مقالةَ واشٍ يَقْرَع السنَّ من نَدَمْ

ثم قالت لِفَرْعة وبُلْبُلَة ولذةِ العيش : هاتين فَغَنِّينَ ، فاندفعن بصوت واحد

لَعَمْرِى لئن كان الفؤادُ من الهوَى بَغَى سَقَمًا إنى إذنْ لسَقِيمُ
علىَّ دماء البُدْن إن كان حُبُّها على النأى فى طول الزمان يَرِيمُ
تُلِمُّ مُلِمَّاتٌ فيُنْسَيْنَ بَعدها ويُذْكَرُ منها العهدُ وهو قديمُ
فأقسمُ ماصافيتُ بعدكِ خُلَّةً (١) ولا لكِ عندى فى الفؤاد قَسيمُ

قالت : أحسَنْتُن ، وهو لَعَمْرِى حسنٌ !

وقالت لسُعْدَةَ والزرقاء : غنيا ، فغنتا ، فاستُحْسِن غناؤهما .

ثم قالت للجماعة : غَنّوا جميعاً ؛ فغنَّوْا ، وانفضَّ المجلسُ ، وعاد كل إنسان إلى وطنه . فما رُئِىَ مجلس ولا جمعٌ أحسنُ من هذه الأيام !

---

(١) الخلة : الخليلة .

١٢ ـ الغناء يحيي القلب *

حدَّث مَن يفهم الغناء، قال:

بلغني أن جميلةَ قعدتْ يوماً على كرسيٍّ لها وقالت لآذِنتها: لا تحجُبي عنا أحداً اليوم، واقعُدي بالباب، فكلُّ من يمرُّ بالباب فاعرِضي عليه مجلسي؛ ففعلت ذلك حتى غَصَّتْ الدارُ بالناس؛ فقالت جميلة: اصعَدوا إلى العَلالِيّ (١)؛ فصعِدت جماعةٌ حتى امتلأتْ السطوح.

فجاءتها بعضُ جواريها فقالت لها: ياسيدتي؛ إنْ تمادَى أمرُكِ على ماأرَى لم يبقَ في دارِكِ حائطٌ إلا سقط، فأظهري ماتريدين؟ قالت: اجلسي!

فلما تعالىَ النهار واشتد الحر استسقى الماءَ الناسُ، فدعتْ لهم بالسَّويق(٢)، فشرب مَنْ أراد، ثم قالت: أقسمتُ على كل رجل وامرأة دخل منزلي إلا شرب، فلم يَبْقَ في سُفْلِ الدار ولا عُلوها أحدٌ إلَّا شَرِبَ، وقام على رءوسهم الجواري بالمناديل والمَراوِح الكبار، وأمرت جوارِيَها فَقُمْنَ على كراسيّ صِغارٍ فيما بين كل عشرةٍ جاريةٌ تُروِّح.

ثم قالت لهم: إني قد رأيت في منامي شيئا أفزعني وأرعبني، ولستُ أعرفُ ماسببُ ذلك، وقد خفتُ أن يكون قربَ أجلي، وليس ينفعني إلا صالحُ عملي، وقد رأيتُ أن أتركَ الغناء كراهَةَ أن يَلْحَقني منه شيء عند ربي!

فقال قوم منهم: وفَّقكِ الله وثبَّتَ عزمَكِ! وقال آخرون: لا حَرَج عليكِ في الغناء. وقال شيخ منهم ذو سِنٍّ وعلمٍ وفقهٍ وتجربة: قد تكلمتِ الجماعة،

---

* الأغاني: ٨ ـ ٢٢٤.

(١) العلالي: جمع علية، وهي الغرفة (٢) السويق: شراب يتخذ من الحنطة والشعير.

وكلُّ حزبٍ بما لديهم فَرِحُون ، ولم أعترض عليهم فى قولهم ، ولا شَرِكْتُهُمْ فى رأيهم فاسْتَمِعوا الآن لقولى ، وأَنْصِتوا ولا تَشْغَبُوا[1] إلى وقت انقضاء كلامى ، فمن قَبِلَ قولى فالله موَفِّقُهُ ، ومن خالفنى فلا بأسَ عليه إذ كنتُ فى طاعة ربى .

فسكت القومُ جميعاً ، وتكلم الشيخُ فحَمِدَ الله وأثنى عليه وصلّى على محمد النبيِّ صلى الله عليه وسلم . ثم قال : يامعشرَ أهلِ الحجاز ، إنكم متى تخاذلتم فشلتم ، ووثبَ عليكم عدُوّكم ، وظفِر بكم ، ولا تُفلِحوا بعدها أبداً . . . إلى أن قال : إن الغناء من أكبر اللذات ، وأسَرُّ للنفوس من جميع الشهوات ، يُحيى القلب ، ويزيد فى العقل ، ويَسرُّ النفس ، ويَفْسَحُ فى الرأى ، ويتيسر به العسيرُ ، وتُفْتَح به الجيوش ، ويذلّل به الجبارون حتى يمتهنوا أنفسهم عند استماعه ، ويُبرئُ المرضى ومن مات قلبُهُ وعقلُه وبصرُه ، ويزيدُ أهل الثروة غنًى وأهلَ الفقر قناعة ورضًا باستماعه ، فيَعزِفُون[2] عن طلب الأموال . من تمسّك به كان عالما ، ومن فارقه كان جاهلا ؛ لأنه لا منزلة أرفعُ ، ولا شيءَ أحسنُ منه ، فكيف يُسْتَصْوَبُ تركه ، ولا يُستعان به على النشاط فى عبادةِ ربنا عزّ وجل ! وكلام كثيرٌ غير هذا .

فما ردَّ عليه أحد ، ولا أنكَرَ ذلك منهم بَشرٌ ، وكلٌ عاد بالخطأ على نفسه ، وأقرّ بالحق له !

ثم قال لجميلة : أوَعَيْت ماقلتُ ؟ ووقع من نفسِك ماذكرتُ ؟ قالت : أجل ! وأنا أستغفرُ الله . قال لها : فاختمى مجلسَنا وفرِّقى جماعتنا بصوتٍ فقط ، فغنَّت :

أَفى رَسْمِ دارٍ دمْعُك المترقرقُ   سَفَاهاً ! وما استنطاقُ ماليس ينطِقُ
بحيثُ الْتَقى جَمْعٌ وأقصى مُحَسِّرٍ[3]   مَغَانِيه قد كادتْ عن العهد تَخْلَقُ

(١) شغبت على القوم : هيجت الشر عليهم . (٢) عزفت نفسى عن الشيء : تركته وزهدت فيه وانصرفت عنه . (٣) جمع : علم للمزدلفة . ووادى محسر : موضع بين منى والمزدلفة .

مُقامٌ لنـــــا بعد العِشاء ومَنزلٌ   به لم يـكدِّرْهُ علينـــا مُعَوِّقُ
فأحسنُ شيء كان أولُ ليلنـا   وآخـــــــرهُ حُزنٌ إذا نتفرّقُ

فقال الشيخ : حسَنٌ واللهِ ! أمثلُ هذا يُترَك ! لا واللهِ ولا كرامةَ لمن خالف الحقَّ . ثم قام وقام الناسُ معه ، وقال: الحمد لله الذى لم يفرّق جماعتَنا على اليأس من الغناء ولا جحودِ فضيلته ، وسلامٌ عليكِ ورحمة الله ياجميلة .

١٣ـ ضَرب مِنَ التّمثِيل*

قال أبو عبد الله : جلستْ جَمِيلةُ يوماً ولَبِسَتْ بُرْنُساً[1] طويلا ، وألْبَسَتْ مَنْ كان عنـدها بَرَانِسَ دونَ ذلك ، وكان فى القوم ابنُ سُرَيْج ، وكان قبيحَ الصَّلعِ ، قد اتخذ وَفْرَةَ[2] شعْر يضعُها على رأسه ، وأحبّتْ جميـلةُ أن ترى صَلَعَتَه[3] ، فلمـا بلغ البرنسُ إلى ابن سُرَيج قال : دبَّرْتِ علىّ وربِّ الـكعبة ! وكشف صَلَعته ووضع القَلَنْسِيَةَ[4] على رأسه ، وضحك القوم من قُبْح صَلَعته .

ثم قامت جميلةُ ورقصَتْ، وضربتْ بالعودِ ، وعلى رأسها البُرْنُسُ الطويل ، وعلى عاتقها بُرْدَةٌ يمانيةٌ ، وعلى القوم أمثالُها ، وقام ابن سُرَيج يرقُص ومَعْبَدوالغَريض وابن عائشةَ ومالكٌ ، وفى يد كل واحدٍ منهم عُودٌ يضربُ به عَلَى ضَرْب جميـلة ورَقْصِها ، فغنّتْ وغنّى القوم على غنائها :

ذهب الشبابُ وليتَــه لم يَذْهَبِ   وعَلَا المَفارقَ وقعُ شَيْبٍ مُغرِبِ[5]

---

* الأغانى : ٨ ــ ٢٢٦ .
(١) البرنس : قلنسوة طويلة ، أو كل ثوب رأسه منه ، دراعة كان أوجبة أو ممطراً .
(٢) الوفرة : الشعر المجتمع على الرأس (٣) الصلعة : بفتح اللام وسكونها : موضع الصلع .
(٤) القلنسية : القلنسوة : ما يلبس فى الرأس . (٥) مغرب : أبيض .

والغانياتُ يُرِدْن غيركَ صاحباً ، وَيَعِدْنَكَ الهِجْرَانَ بعد تَقَرُّبِ
إنى أقول مقالةً بتجــــاربٍ حَقًّا ، ولم يُخْبِرْكَ مثلُ مُجَرِّبِ :
صَافِ الكريمَ وكُنْ لِعِرْضِكَ صائِناً وعن اللئــيم ومثلِهِ فتنكَّبِ

ثم دَعَتْ بثياب مُصَبَّغَةٍ ووَفْرةِ شعرٍ مثلِ وَفْرة ابن سُرَيج فوضعتها على رأسها، ودعت للقوم بمثلِ ذلك فلبسوا ، ثم ضربت بالعود وتمشَّت وتمشَّى القوم خَلْفَها ، وغنَّتْ وغنّوا بغنائها بصوت واحد :

يَمشين مَشْيَ قَطَا البطَاح تأوُّداً (١) قُبُّ (٢) البُطُون رواجحَ الأكْفَالِ
فيهنَّ آنسةُ الحديثِ حَيِيَّــةٌ ليست بفاحشــةٍ ولا مِتْفَالِ (٣)
وتـكون ريقتُهــا (٤) إذا نبهْتَهَا كالمسك فوق سُلَافة الجِرْيَالِ (٥)

ثم نَعَرَتْ (٦) ونَعَرَ القومُ طرباً ، ثم جَلَست وجلسوا وخلعوا ثيابهم، ورجعوا إلى زِيِّهم ، وأَذِنَتْ لمن كان ببابها فدخلوا ، وانصرف المُفَتَّون ، وبقى عنـدها من يطارِحُها من الجوارى !

١٤ - وفودُ ابنِ مِسْجح عَلى عَبدالملك بن مروَان *

قال دَحْمان الأشقر : كنتُ عاملا لعبد الملك بن مرْوان بمكة ، فنُمِيَ إليــه أنَّ رجلا أسودَ يقال له : سَعيدُ بنُ مِسْجَح (٧) أفسدَ فِتْيان قريش ، وأنفقوا عليه أموالَهم ؛ فـكتب إليَّ : أن اقبض ماله وسيِّره ، ففعلتُ .

(١) تأود الشىء : تعوج ، وتثنى . (٢) قب البطون : ضامرى البطون .
(٣) المتفال : المتغيرة الريح لترك التطيب . (٤) الريق : ماء الفم ويؤنث فى الشعر .
(٥) الجريال : من أسماء الخمر . (٦) نعر الرجل : صاح ، وصوت بخيشومه .
* الأغانى : ٣ — ٢٧٢ .
(٧) سعيد بن مسجح . أحد الموالى ، مكى أسود ، مغن مقتدر ، كان أول من غنى الغناء العربى بمكة ، وهو الذى علم ابن سريج والغريض .

فتوجّه ابنُ مسجح إلى الشام ، فصحبه رجلٌ له جَوَارٍ مُغَنِّياتٌ فى طريقه ، فقال له : أين تُرِيد ؟ فأخبره خبرَه ، وقال له : أُرِيدُ الشام . قال له : فتكونُ معى ؟ قال : نعم .

فصحِبه حتى بلغا دِمَشق ، فدخلا مسجدَها ، فسألا : مَنْ أخصُّ الناس بأمير المؤمنين ؟ فقالوا : هؤلاء النفرُ من قريش ، فوقف ابن مِسْجَح عليهم وسلّم ، ثم قال : يافِتيانُ ؛ هل فيكم من يُضيف رجلا غريباً من أهل الحجاز ؟ فنظر بعضُهم إلى بعض ـ وكان عليهم موعد أن يذهبوا إلى قَينة يقال لها «بَرْقُ الأُفُق» ـ فتثاقلوا به إلا فتى منهم تَذَمَّمَ (١) ؛ فقال : أنا أضيفك . وقال لأصحابه : انطلقوا أنتم، وأنا أذهب مع ضيفى . قالوا : لا ، بل تجىء أنتَ وضيفُك .

فذهبوا جميعاً إلى بيت القَيْنة ؛ فلما أتُوا بالغَداء قال لهم سعيد : إنى رجل أسود، ولعل فيكم من يَقْذَرُنى (٢) ، فأنا أجلسُ وآكلُ ناحيةً ، وقام . فاستحْيَوْا منه ، وبعثوا إليه بما أكل ، فلما صاروا إلى الشراب قال لهم مثلَ ذلك ، ففعلوا به كما فعلوا فى المأكل . وأخرجوا جاريتين فجلستا على سرير قد وُضِعَ لهما فغنّتا إلى العشاء . ثم دخلتا ، وخرجت جاريةٌ حسنَةُ الوجه والهيئةِ ، وهما معها ، فجلست على السرير وجلستا أسفلَ منها عن يمين السرير وشماله ، قال ابن مسجح : فتمثّلتُ هذا البيت :

فقلت أشمسٌ أم مصابيحُ بِيعةٍ (٣) بَدَتْ لك خلف السَّجْف (٤) أم أنت حالمُ!

فغضبت الجاريةُ ، وقالت: أيضرِبُ هذا الأسود بى الأمثالَ! فنظروا إلىَّ نظرا مُنْكراً ، ولم يزالوا يسكّنُونها ، ثم غنّت صوتاً . فقلت : أحسنتِ والله ! فغضب

(١) تذمم : خشى الذم واللوم . (٢) قذرت الشىء : استقذرته وكرهته .
(٣) البيعة : كنيسة النصارى . (٤) السجف ـ بالفتح ويكسر : الستر .

مولاها ، وقال : أمثلُ هذا الأسود يُقدِمُ على جاريتى ! فقـال لى الرجل الذى أنزلنى عنده : قم فانصرف إلى منزلى ؛ فقد ثقُلْتَ على القوم . فذهبتُ أقُوم فتذمَّم القوم ، وقالوا لى : بل أقِم وأحْسن أدَبك ، فأقمت وغنّت . فقلت : أخطأتِ والله وأساْتِ ! ثم اندفعتُ فغنيتُ الصوت . فوثبتِ الجارية وقالت لمولاها : هذا والله أبو عثمان سعيدُ بن مِسْجح ! فقلت : والله أنا هو ، والله لا أقيم عنـدكم ! فوثب القُرشيون ؛ فقال هذا : يكونُ عندى . وقال هذا : يكون عندى . وقال هذا : بل عندى ! فقلت : والله لا أقيم إلا عند سيِّدكم ـ يعنى الرجلَ الذى أنزله منهم .

ثم سألوه عمّا أقدَمه ؛ فأخبَرهم الخبر ، فقال له صاحبه : إنى أسْمُرُ الليـلةَ مع أمير المؤمنين ؛ فـ تُحْسِنُ أن تحْدُوَ ؟ قال : لا ! ولـكنى أستَعْمِلُ حُدَاء

قال : فإن منزلى بحذَاء منزل أمير المؤمنين ؛ فإن وافقتُ منـه طيبَ نفس أرسلتُ إليـــك .

ومضى إلى عبد الملك ، فلما رآه طيِّب النّفْس أرسل إلى ابن مِسْجَح ، فأخرَجَ رَأْسَه من وراء شُرَفِ القصر ، ثم حدَا :

إنكَ يا مُعاذُ يابنَ الفضَّـــلِ إن زُلْزِلَ الأقدامُ لم تزَلْزَلِ
عن دين موسى والـكِتابِ المُنْزَلِ تُقيمُ أصْداغَ القرونِ المُيَّـــلِ (١)
* للحقّ حتى ينْتَحُوا للأعْدَلِ *

فقال عبد الملك للقرشى : مَن هذا ؟ قال له : رجل حجازىّ قَدِمَ علىَّ . قال : أحْضره . فأحضره وقال له : احْدُ مُجِـدًّا ، ثم قال : هل تغنى غناء الرُّكبان ؟ قال : نعم . قال . غنّه . فتغنّى . فقال له : فهل تغنى الغناء المُتقَن ؟ قال : نعم . قال : غنّه ، فتغنى .

(١) الصدغ : مابين العين والأذن . والقرنان : جانبا الرأس ، والصدغ : الميل ، ومنه : « لأقيمن صدغك ، أى ميلك .

فاهتزَّ عَبْدُ الملك طَرَباً . ثم قال : أُقْسم إن لك فى القوم لأسْماء كثيرةً ! من أنت؟ ويلك! قال له :أنا المظلوم، المقبوض مالُه، المسيَّر عن وطنه سعيد بن مِسْجَح، قَبَضَ مالى عاملُ الحجاز ونَفَانى !

فتبسَّم عبد الملك . ثم قال له : قد وضح عُذْرُ فتيـان قريش فى أن يُنفقوا عليك أموالهم . وأمّنه ووصله ، وكتب إلى عامله بردِّ ماله عليـه وألّا يعرِض له بسُوء .

١٥- دعَايَـة الوَطَن *

كان بعضُ ولاةِ الـكوفة يذمُّ الحِيرَةَ فى أيَّام بنى أميةَ ، فقال له رجل من أهلها ـ وكان عاقلا ظريفاً : أَتعيبُ بلدةً بها يُضرَب المثلُ فى الجاهلية والإسلام ! قال : وبماذا تُمْدَحُ ؟ قال : بصحَّةِ هوائها ، وطيب مائها ، ونُزْهةِ ظاهرها ، تَصْلُحُ لِلْخُفِّ والظِّلْفِ ، سَهلٌ وجَبَل ، وبادِيةٌ وبُسْتَانٌ ، وبرٌّ وبحْرٌ ، محلُّ الملوكِ وَمَزَارُهُم ومَسكنُهُم ومَثْوَاهم ، وقد قَدِمْتَها ـ أصلحك الله ـ مُخِفًّا (١) فرجعتَ مُثْقِلا ، وَوَرَدْتَهَا مُقِلاً فأصارتْكَ مُكْثِراً ، قال : فـكيف نَعرِفُ ماوصَفْتَها به من الفضل ؟ قال : بأن تصيرَ إلىَّ ، ثم أدعُ ماشئتَ من لذَّاتِ العيش ، فو الله لا أجوزُ بك الحِيرَةَ فيه !

قال : فاصنع لنا صَنِيعا(٢) ، واخرُجْ من قولك . قال : أفعل ، فصنع لهم طعاماً ، وأطعمهم من خُبْزِها وسمكها وما صِيدَ من وَحْشها : من ظباء ونَعـام وأرانبَ وَحُبَارَى(٣) ، وسقاهم ماءها فى قِلاَلِها ، وأجْلَسَهُم على رَقْمِها(٤) ، ولم يستخدم لهم

* الأغانى : ٢ ـ ٣٥١ .

(١) يقال أخف الرجل : إذا خفت حاله ورقت . (٢) الصنيع هنا : الطعام . (٣) طائر طويل العنق رمادى اللون . (٤) الرقم : الوشى المخطط .

حُرًّا ولا عبداً إلا مِنْ مُوَلَّدِيها ومولَّداتِها ، من خدمٍ ووصائف ووُصَفاء كأنهم اللؤلؤ، لُغَتُهم لغَةُ أهلِها ، ثم غنَّاهم حُنَيْنٌ وأصحابُه فى شِعْرِ عدىٍّ بن زيد شاعرِهم وأعشى هَمْدَان لم يتجاوزْهما ، وحيَّاهم برَيَاحِينِهَا ، ونَقَّلَهم(١) على شرابها — وقد شربوا — بفواكهها . ثم قال له : هل رأيتنى استعنتُ على شيء مما رأيتَ وأكلتَ وشربتَ وافترشْتَ وشممتَ وسمعت بغير مافى الحِيرَة ؟ قال : لا والله ، ولقد أحسنتَ صفةَ بلدكَ ، ونَصَرْتَه فأحسنتَ نُصْرَتَه والخروجَ مما تضمَّنته ، فبارك الله لكم فى بلدكم .

١٦ـ أىُّ الأمم أعقل ؟ *

قال شبيب(٢) بن شيبة أحد بلغاء العرب وجليس الملوك :

كنا وقوفاً بالمِرْبَد(٣) ، وكان المِرْبَد مألَفَ الأشراف ، إذ أقبل ابن المقفَّع(٤) فبشِشْنا به وبدأناه بالسلام ، فردَّ علينا السلام ثم قال : لو مِلتُم إلى دار نَيْرُوز

(١) نقلهم : أطعمهم النقل .

* أسواق الذهب : ٤٠٠ ، بلوغ الأرب : ١ — ١٥٩ .

(٢) هو شبيب بن شيبة بن عبد الله المنقرى التميمى خطيب البصرة فى زمانه. نشأ فى البصرة وامتاز بنبالة نفس وسخاء كف ، وحسن تواضع ونزاهة لسان . وعرف شبيب أبا جعفر المنصور قبل خلافته ، ثم اتصل به بعدها ، فجعله فى حاشية ولى عهده المهدى ، وبقى كذلك حتى ولى المهدى الخلافة فصار من خيرة سماره وجلسائه إلى أن مات سنة ١٧٠ هـ . (٣) مربد البصرة: هو فى الأصل متسع للإبل تعرض فيه للبيع ، ثم أصبح على عهد الأمويين سوقاً عامة تتخذ فيه المجالس وتتعدد الحلقات يتوسطها الشعراء والرجاز ويؤمها الأشراف فيتناشدون ويتفاخرون ويتهاجون ويتشاورون (٤) كان عبد الله بن المقفع من أبناء الفرس الذين نشئوا بين العرب، ولد سنة ١٠٦ هـ ونشأ بالبصرة وكان أبوه مجوسياً يجمع خراج فارس للحجاج بن يوسف وبقى ابن المقفع أكثر أيامه على دين المجوسية ، ثم أسلم فى آخر عمره ، وتعلم صناعة الكتابة ، وبرع فى ذلك ، وكتب لكثير من الأمراء ، وكان غاية فى الذكاء ، اشتهر ببلاغته ورشاقة عبارته، وكان فوق ذلك من كبار المترجين والمؤلفين ، ومات مقتولا سنة ١٤٢ هـ .

وظلّها الظليل ، وسورها المديد ، ونسيمها العجيب ، فعوّدتُمْ أبدانَكُمْ تمهيدَ الأرض ، وأرحتُمْ دَوابَّكم من جَهْدِ الثقل ! فإن الذى تطلبونه لم تفُلتوه[1] ، ومهما قضَى الله لكم من شئ تنالوه .

فقبلنا ومِلْنا ، ولما استقرَّ بنا المكانُ قال لنا : أىُّ الأمم أعقل؟ فنظر بعضُنا إلى بعض ! فقلنا : لعله أراد أصلَه من فارس ، فقلنا : فارس ، فقال : ليسوا بذلك ؛ إنهم ملكوا كثيراً من الأرض ، ووجدوا عظيما من المُلكِ ، وغلبوا على كثير من الخَلْقِ ، ولبثَ فيهم عَقْدُ الأمر ، فما استنبطوا شيئاً بعقولهم ، ولا ابتدعوا باقى حُكْمٍ فى نفوسهم . . .

قلنا : فالروم ، قال : أصحاب صَنْعة . قلنا : فالصين ، قال : أصحاب طُرفة . قلنا : فالهند . قال : أصحاب فلسفة . قلنا : فالسودان ، قال : شرُّ خَلْقِ الله . قلنا : فالتركُ . قال : كلاب مُخْتَلِسة . قلنا : فالخزَر ، قال : بقرٌ سائمة . قلنا : فقل ، قال : العرب !

فضحكنا جميعاً ؛ فقال : أمَا إنى ما أردتُ مُوافقتكم ، ولكن إذ فاتنى حظى من النسبة ، فلا يفوتنى حظى من المعرفة ؛ إن العرب حكَمَتْ على غير مثال لها ، ولا آثار أُثِرَتْ ؛ أصحابُ إبل وغنم ، وسكانُ شَعر وأدَم ، يجود أحدُهم بقُوته ، ويتفضّل بمجهوده ، ويشارك فى ميسوره ومعسوره ، ويصف الشىء بعقله فيكون قُدْوَة ، ويفعله فيصير حجّة ، ويحسّن ماشاء فيَحْسُن ، ويقبّح ماشاء فيقبح ؛ أدَّبَتْهم أنفسُهم ورفعتهم هممهُم ، وأعْلَتْهُمْ قلوبُهم وألسنتُهم ، فلم يزل حِباء الله فيهم ، وحِباؤهم فى

---

(١) أى لم ينفلت منكم .

أنفسهم حتى رفعَ لهم الفخر ، وبلغ بهم أشرف الذكر ، وختَم لهم بمُلكهم الدنيا على الدهر ، وافتتح دينه وخلافته بهم إلى الحشر ، ولهم قال سبحانه : «إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَٱلْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» (١) .

فَمَنْ وضع حقهم خسِر ، ومن أنكر فضلهم خُصِم (٢) ، ودَفْعُ الحقِّ باللسان أكْبتُ للجنان .

---

(١) سورة الأعراف ، آية ١٢٧ . (٢) خصم : غلب بالحجة .

١٧ - قِرانُ العِلْيَة*

قال خادمُ أمير المؤمنين المأمون[١] : طلبنى أمير المؤمنين ليلة ، وقد مضى من الليل ثُلثه ، فقال لى : خُذْ معك فُلانًا وفلانًا وسمَّاهما : أحدهما على بن محمد ، والآخر دينار الخادم ، واذهبْ مسرعًا لما أقوله لك ؛ فإن أصحابَ الأخبار قد أكثروا فى أنَّ شيخًا يحضُرُ ليلا إلى آثار البرامكة ، ويُنشد شعراً ويَذكُرهم ذكراً جميلا ، ويندُبُهم ويبكى عليهم ، ثم ينصرف ، فامضِ الآن أنت وعلىّ ودينار حتى تَرِدُوا هذه الخرِبات ، فاستَتِرُوا خَلْفَ جِدَارٍ من هذه الجدُر ، فإذا رأيتم الشيخ قد جاء وبكى وندب ، وأنشد شيئا فأتونى به .

قال : فأخذتهما ومضينا حتى وردْنا الخرِبات ، وإذا نحن بغلام قد أتى ، ومعه بساط وكرسىّ جديد ، وإذا شيخٌ وسيم ، له جمال وعليه مَهَابة وصَلَف ، فجلس يبكى وينتحب ويقول :

ولمَّا رأيتُ السيفَ جَلَّلَ[٢] جعفرا ... ونادى منادٍ للخَليفةِ فى يحيى
بكيتُ على الدنيا وأيقَنْتُ أنَّهُ ... قُصارَى الفتى يوماً مُفارَقَةُ الدُّنيا
أجعفرُ إن تَهْلِكْ فَرُبَّ عظيمةٍ ... كشَفْتَ ونُعْمَى قد وصلتَ بها نُعْمَى
فقل للَّذِى أبْدَى ليحيى وجَعْفَرٍ ... شماتَتَهُ : أبشِرْ ، لَتَأْتِيهُمُ العقبَى

---

* العقد الفريد للملك السعيد : ٨٩ ، المحاسن والمساوئ : ١٢٢ ــ طبع ليبزج .

(١) هو عبد الله المأمون بن هارون الرشيد ، بويع بالخلافة بعد مقتل الأمين سنة ١٩٨ هـ ، كان ميالا للعفو مطبوعا على الخير ، راغبا فى العلم ، محبا للجدل ، وأخباره فى كل هذا مشهورة مأثورة ، توفى سنة ٢١٨ هـ .

(٢) جلله : علاه .

لَئِنْ زَالَ غُصْنُ الملكِ عن آلِ برْمكٍ فما(١) زَالَ حتى أثمر الغُصْنُ وَاسْتَعلَى
وَمَا الدَّهْرُ إلّا دولةٌ بعــدَ دَوْلَةٍ تُبدِّلُ ذَا مُلْكٍ وَتُعْقِبُ ذَا بَلْوَى
على أنها ليستْ تَدُومُ لأهلهـــــا ولَوْ أنَّها دامَتْ لَكُنْتُمْ بهـــا أوْلى
بَنِى بَرْمَكٍ كنتمْ نُجُوما مُضيئــــةً بها يَهتَدِى فى ظُلْمَةِ اللَّيلِ مَنْ أسْرَى
لِكُلِّكُمُ أَبْكِى بِعَيْنٍ غزيرَةٍ وَقَلْبٍ قَرِيحٍ لَا يَمُوتُ وَلَا يَحْيَا

قال . فتراءينا(٢) له لما فرَغَ ، ثم قبضنا عليه ؛ فجزع وفزِع ،وقال : مَنْ أنتم؟ فقلتُ له : حاجبُ أمير المؤمنين ، وهــذا فلان وفلان ! قال : وما تريدون منى ؟ فأعلمته ما أمرَ به أمير المؤمنين من أَخْذِهِ إلى مجلسه ؛ فقال : ذَرْنِى أوصِ وصيةً ؛ فإنى لا آمنُ العَطب . ثم تقدَّم إلى بعض الدكاكين ، وأخذ ورقة ، وكتب فيهــا وصيةً دفعها إلى غلامه ؛ ثم سِرْنا به .

فلما دخلَ إلى المجلس ومَثَلَ بين يدى أمير المؤمنين زَجرَه ، وقال له: مَنْ أنتَ؟ وبماذا استوجب منك البرامكةُ ما تفعَلُه فى خَرِبات دورهم ؟ فقال : ياأمير المؤمنين ؛ للبرامكةِ عندى أيادٍ خضراء ، أفتأذنُ لى أن أحدّثك عن حالى معهم ؟ قال : قل .

قال : أنا ياأمير المؤمنين المنذر بن المغيرة من أهل دِمَشقَ ، كنتُ بها من أولاد الملوك ، فزالت عنى نعمتى كما تزول عن الرجال ، فلما ركبتْنى الديونُ ، واحتجْتُ إلى بَيْعِ مَسْقط رأسى ورءوس آبائى ، أشارُوا علىَّ بالخروج إلى البرامكة ، فخرجت من دِمَشق ومعى نيِّفٌ وثلاثون امرأة وصبياً وصبية ، وليس معنا ما يُباع ولا ما يرهن ، حتى دخلنا بَغْداد ونزلنا بباب الشام فى بعض المساجد ، فدعوت بثيابٍ لى كنتُ

(١) الجواب للشرط مع تقدم القسم ، وهو قليل ، وإليه أشار ابن مالك فى قوله :
وربما رجح بعد قسم شرط بلاذى خبر مقدم
وهو مذهب الفراء ، ويرى الجمهور أن مثل البيت اللام فيه زائدة (٢) تراءى له : تصدى :

قد أعددتها لأستَميح [١] بها الناسَ فلبستها ، وخرجت وتركتُهم جياعاً لا شيء عندهم ، ودخلتُ شوارعَ بغداد أسألُ عن دُور البرامكة . فإذا أنا بمسجد مزخرَف ، وفيه مائةُ رجل بأحْسَنِ زِيّ وزينة وبِزَّة ، وعلى الباب خادمان .

فطمعتُ فى القوم ، وَوَلَجت المسجد ، وجلست بين أيديهم ، وأنا أُقدِّم وأؤخر ، والعرقُ يسيل منى ، لأنها لم تكن صناعتى ، وإذا بخادم قد أقبل فحدَّث الخادِمَيْن فدخلوا وأزعجوا القوم ، فقاموا وأنا معهم .

فأدخلونا دَارَ يحيى بن خالد ؛ ودخلت معهم ، فإذا يحيى جالسٌ على دَكَّةٍ [٢] له وَسْطَ بستان ، فسلمنا وهو يَعُدُّنا مائةً وواحدا ، و بين يدى يحيى عشرة من ولده ، و إذا غلام أمْرَدُ حين عَذَرَ [٣] خَدَّاه . قد أقْبَلَ من بعض المقاصير ، بين يديه خدام مُقَرْطَقُونَ [٤] ، فى وسط كل خادم مِنْطقة من ذهب يقْرُب وزنها من ألف مثقال ، ومع كل خادم مِجْمَرة من ذهب ، فى كل مِجمرة قطعةٌ من عود كهيئة الفِهْرِ [٥] ، قد ضُمّ إليه مثله من العنبر السلطانى ؛ فوضعوه بين يدى الغلام ، وجلس الغلام إلى جنب يحيى .

ثم قال يحيى للزبْرِقىّ القاضى : تكلم فقد زوجتُ بنتى عائشة من ابن عمى هذا . فخطب القاضى وزوَّج ، وشهدتْ أولئك الجماعة ، وأقبلوا علينا بالنِّثَار [٦] و بَنَادِقِ المسك والعنبر ، فالتقطتُ والله يا أمير المؤمنين ملء كمى ، ونظرتُ وإذا نحنُ مائةٌ واثنا عشر رجلا ، فخرج إلينا مائة خادم واثنا عشر خادماً ، مع كل خادم صِينية فضة ، عليها ألفُ دينار شاميَّة ؛ فوضع بين يدى كل رجل منا صينيَّته ،

---

(١) استمحته : سألته العطاء (٢) الدكة والدكان : الذى يقعد عليه (٣) عذر الغلام : نبت شعر عذاره (٤) القرطق كجندب : ضرب من الثياب ، (معرب كرته) (٥) الفهر : الحجر ملء الكف (٦) النثار : ماتناثر من الشىء .

فرأيت القاضىَ والمشايخ يصبّون الدنانير فى أكمامهم، ويجعلون الصوانى تحت آباطهم، ويقوم الأول فالأول حتى بقيتُ بين يدى يحيى لا أَجْسُرُ على أخذ الصينية، فغمزنى الخادم فجَسَرْتُ وأخذتُها ، وجعلت الذهبَ فى كُمِّى ، وأخَذْتُ الصينية فى يدى وقمتُ ، فجعلتُ ألتفتُ ورائى مَخَافَة أن أُمْنَع من الذهاب بها .

فبينا أنا كذلك فى صَحْن الدار أُكْثِرُ من الالتفات ، ويَحْيَى يَلْحَظنى ، قال للخادم : ائتنى بذلك الرجل . فرُدِدْتُ إليه ، فأمر فسكبتُ الدنانير والصينية وما كان فى كمى ، ثم أمرنى بالجلوس فجلست ؛ فقال : مِمَّنِ الرجل ؟ فقصصت عليه قصتى . فقال : علىَّ بموسى ، فَأُتِىَ به ، فقال : يابنىّ ؛ هذا الرجلُ غريب ، فخُذْه إليك واحفظه بنفسك ونعمتك .

فقبض موسى على يدى ، وأخذنى إلى بعض دُوره ، فأكرمنى وعاشرنى يومى وليلتى أَكْلًا وشُرْبًا ؛ فلما أصبح دعا بأخيه العباس ، وقالَ : إنَّ الوزير أمرنى بالعطف على هـذا الفتى ، وقد علمتَ اشتغالى فى دار أمير المؤمنين ، فاقبضه إليك وَأَكْرِمْه ، ففعل ، ثم لم أَزَل فى أيدى القوم يتداولوننى عشرة أيام ، لا أعرفُ خَبَرَ عِيالى وصِبْيانى ؛ أفى الأموات هم أم فى الأحْياء ؟

فلما كان اليوم العاشر دُفعت إلى يد الفضل ، فعطف علىَّ وزاد فى الكرامة ، فلما كان اليوم الحادى عشر جاءنى خادم ومعه جماعةٌ من الخدم ، فقالوا : قمْ فاخرج إلى عِيَالك بسلام . فقلت : وَاوَيْلَاه ! سُلِبت الدنانيرُ والصينية ، وقد تمزقت ثيابى واتّسَخَتْ وأخرجُ إلى عيالى على هـذه الحالة ! إنا لله وإنا إليه راجعون ! فرفع الستر الأول ، ثم الثانى ، ثم الثالث ، ثم الرابع ، ثم الخامس والسادس ، فلما رفع الخادمُ السترَ السابع قال لى : تمنَّ ما شِئْتَ ، وتقدَّمْ إلىَّ بقضاء جميع ما تأمر به . فلما رفعَ الستر رأيتُ حُجْرَةً كالشمس حسناً ونُوراً ، استقبلنى

منهـا رائحةُ النَّدِّ والعود ونفحاتُ المسكِ ، وإذا أنا بصبيانى يتقلّبون فى الحرير والديباج ، وقــد حُمل إلىّ ألف ألف درهم مبدّرة ، وعشرةُ آلاف دينار ، وقَبَالتَانِ (١) بضَيْعَتَين ، وتلك الصينية فيهـا الدنانير والبنادق ، فبقيتُ يا أميرَ المؤمنين مع البرامكة فى دورهم ثلاث عشرة سنة ، لا يعلم الناس أمِنَ البرامكة أنا أم رجل غريب اصْطَفَوْنِى !

فلما جاءت القومَ البليةُ ، ونزلَتْ بهم من أمير المؤمنين الرشيدِ النازلةُ ،قصدنى عمرُو بن مسعدة وألزمنى فى هاتين الضيعتين من الخراج مالا يفى دخْلُهُما به ، فلما تحامَلَ علىّ الدهر كنتُ فى أواخر الليل أقصد خَرِبات القوم ، فأندُبهم وأذكرُ حسنَ صنيعهم إلىّ ، ووفاءَ لهم على إحسانهم .

فقال المأمون : علىّ بعمرو بن مسعدة . فلما أُتِى به قال له : ياعمرو ؛ أتعرفُ هذا الرجل ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، هو بعضُ صنائع البرامكة ، قال : كم ألزمتَه فى ضيعتيه ؟ قال : كذا وكذا . فقال : رُدَّ عليــه كل ما استأْدَيْتَهُ (٢) إياه فى مُدَّتِه ، وأَوْغِرُوا (٣) ضيعتَيه تـكونان له ولعَقِبه من بعده .

فعَلَا نحيبُ الرجل ! ولمّا طال بكاؤه قال له المأمون : أحسَنَّا إليك فَلِمَ تبكى ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ؛ وهـذا أيضاً من صنيع البرامكة . أرأيتَكَ يا أمير المؤمنين لو لم آتِ خَرِباتِهِمْ فأبـكيهم وأندبهم حتى اتّصلَ خبرى بأمير المؤمنين ففعل بى ما فعل ، من أين كنتُ أصلُ إلى ما وصلتُ إليه !

قال إبراهيم بن ميمون : فلقد رأيت المأمون وقد دَمَعَتْ عيناه ، واشتدَّ حزنُه على القوم ، وقال : صدقْتَ ! لعمرى هذه أيضاً من صنائع البرامكة ؛ فعليهم فابْكِ وإياهم فاشـكر ، ولهم فأوْفِ ، ولإحسانهم فاذكُر !

---

(١) القبالة : الـكفالة . (٢) استأداه مالا : إذا صادره وأخذه منه .

(٣) أوغر الملك الرجل الأرض : جعلها له من غير خراج .

١٨ - في قصور بني أمية*

قال محمد بن أحمد المكي : حدثني أبي قال : دخلتُ إلى عَلَّوَيْهِ[1] أعودُه في علةٍ اعتلَّها ثم عُوفي منها . فجرى حديثُ المأمون فقال : كِدْتُ - علم الله - أذهبُ دفعة ذات يوم وأنا معه ، لولا أن الله تعالى سلَّمني ووهب لي حلمَه . فقلت : كيف كان السببُ في ذلك ؟ فقال : كنتُ معه لما خرج إلى الشام، فدخلنا دمشق فطُفْنَا فيها، وجعل يطوفُ على قصورِ بني أمية ويَتَّبِعُ آثارهم ، فدخل صحنا من صُحُونهم ، فإذا هو مفروش بالرخام الأخضر كلّه ، وفيه بِرْكَةُ ماء فيها سمك ، و بين يديها بستانٌ على زواياه أربعُ سَرَوات[2] كأنها قُصَّتْ بمقراض من التفافها ، أحسنُ ما رأيتُ من السروات قدًّا وَقَدْراً .

فاستحسَن ذلك وعزم على الصَّبوح ، وقال : هاتُوا لي الساعةَ طعاماً خفيفاً ، فأتى به بين ماء وورد ، فأكل ودَعَا بشرابٍ ، وأقبل عليَّ وقال : غَنِّني ونَشِّطْني ، فكأن الله عز وجل أنساني الغناء كله إلا هذا الصوت :

لو كان حولي بنو أميَّـــة لمْ تَنطِقْ رجـــالٌ أرَاهُمُ نَطَقُوا

فنظر إليَّ مُغضباً ، وقال : عليك وعلى بني أمية لعنةُ الله ! ويلك ! أقلتُ لك سُؤْني أو سُرَّني ! ألم يكن لك وقتٌ تذكرُ فيه بني أمية إلا هـــذا الوقت ؟ تُعَرِّض بي !

---

* الأغاني : ١٠ - ١٢٤

(١) هو علي بن عبد الله بن سيف ، ويكنى علويه أبا حسن ، كان مغنيا حاذقا ، ومؤدبا حسنا . وضاربا متقدما مع خفة روح ، وطيب مجالسة ، وملاحة نوادر ، علمه إبراهيم الموصلي وعني به جداً، فبرع ، وغني لمحمد الأمين ، وعاش إلى أيام المتوكل

(٢) السرو : شجر واحدته سروة .

فتحيَّلتُ(١) عليه ، وعلمتُ أنى قد غلطت فقلت : أتلومُنى على أن أذكُر بنى أمية ! هـذا مولاكم زِرْياب(٢) عندهم يركب فى مائتى غلام مملوكٍ له ويملك ثلاثمائة ألف دينار وهَبُوها له سوى الخيل والضِّياع والرقيق. وأنا عندكم أموت جوعًا! فقال : أو لم يكن لك شىء تُذَكِّرُنى به نفسك غيرُ هذا ؟ فقلت : هكذا حَضَرنى حين ذكرتهُ . فقال : اعْدِلْ عن هذا وغننى . فأنسانى الله كلّ شىء أُحْسِنُهُ إلا هذا الصوت :

الحَيْنُ(٣) ساق إلى دِمَشْق ولم أكن أرْضَى دِمَشْقَ لأهلنـــا بَلَدَا

فرمانى بالقَدَح فأخطأنى فانكسر القـدح . وقال : قم عنى إلى لعنة الله وحرِّ سَقَر . وقام فركب .

فكانت والله تلك الحال آخر عهدى به حتى مرض ومات .

ثم قال لى : ياأبا جعفر ، كم ترانى أحسنُ أغنِّى؟ ثلاثة آلاف صوت ، أربعة آلاف صوت ، خمسة آلاف صوت ، أنا والله أغنِّى أكثر من ذلك . ذهب — علم الله — كلُّه ، حتى كأنى لم أعرفْ غيرَ ماغَنَّيْت . ولقد ظَنَنْتُ أنه لو كانت لى ألفُ رُوح ما نجتْ منه واحـدةٌ منهـا ، ولـكنه كان رجـلا حليما ، وكان فى العُمْرِ بقية !

---

(١) التحيل : الاحتيال (٢) هو على بن نافع ، نابغة الموسيقى فى زمنه ، رحل إلى الأندلس وذاعت شهرته هناك ، ، وفضله عبد الرحمن بن الحكم على ما عداه ، وأقام بقرطبة إلى أن مات سنة ٢٣٠ هـ . (٣) الحين : الهلاك .

١٩ - فى دار الفضل بن الربيع *

قال أحمد بن يحيى المكّى : دعانى الفضل (١) بن الرّبيع ودعا عَلّوَيْه ومُخارِقاً ، وذلك فى أيام المأمون بعدرجُوعه ورضَاه عنه، إلا أن حاله كانت ناقصة مُتضَعْضِعَة؛ فلما اجْتَمَعْنا عنده كتب إلى إسحاقَ (٢) الموصلى يسأله أن يصيرَ إليه ويُعلِمه الحالَ فى اجتماعنا عنده . فكتب إليهم : لا تنتظرونى بالأكل ، فقد أكلتُ وأنا أصير إليكم بعد ساعة .

فأكلنا وجلسْنا نشرب حتى قَرُب العصر ، ثم وافى إسحاقُ فجلس ، وجاء غلامُه بقَطْرَميز (٣) نبيذٍ ، فوضعه ناحيةً ، وأمرَ صاحبَ الشراب بإسْقَائِه منه ؛ وكان عَلّوَيْه يُغنِّى الفضلَ بن الربيع فى لَحْنٍ اقترحَه الفَضْلُ عليه وأعجبه ، وهو :

فإن تَعْجَبِى أو تُبصرى الدهرَ طَمّنِى (٤) بأحْداثه طَمَّ المقصِّصِ بالجَلَمْ (٥)
فقد أتْرُكُ الأضيافَ تَنْدَى رحالُهم وأُكرِمُهم بالمَحْضِ والتامِكِ السَّنِم (٦)

فقال له إسحاق : أخطأتَ يا أبا الحسن فى أدَاء هذا الصوت ؛ وأنا أصْلحه لك .

فجُنّ عَلّوَيْه واغتاظ ، وقامت قيامتهُ . ثم أقبل إسحاق على عَلّوَيْه فقال له : ياحبيبى ، ما أردتُ الوَضْعَ (٧) منك بما قلتُه لك ؛ وإنما أردتُ تهذِيبَك وتقويمك ،

---

* الأغانى : ٥ – ٣٠٦

(١) كان الفضل بن الربيع وزيراً للرشيد بعد زوال دولة البرامكة ، وبعد موت الرشيد استوزر للأمين ، ووقف معه ضد المأمون ، وبعد قتل الأمين تشفع طاهر بن الحسين للفضل عند المأمون فرضى عنه ؛ ومات سنة ٢٠٨ هـ (٢) إسحاق الموصلى : من أشهر ندماء الخلفاء تفرد بصناعة الغناء وكان عالما باللغة والموسيقى والتاريخ وعلوم الدين وعلم الكلام ورواية الشعر وحافظا للأخبار . توفى سنة ٢٣٥ هـ (٣) القطرميز : قلة كبيرة من الزجاج (٤) طمنى : غمرنى (٥) الجلم : الذى يجزبه الشعر والصوف . والمقصص : الشىء الذى يقص (٦) المحض : اللبن الخالص بلا رغوة . والتامك : العظيم السنام من الإبل ، ومثله السنم . (٧) الوضع : الضعة.

لأنك منسوبُ الصوابِ والخطأ إلى أبى و إلىَّ ، فإن كرهتَ ذلك تركتُك ؛ وقلتُ لك أحسنتَ وأجملْتَ . فقال له عَلّوَيْهِ : والله ما هذا أردتُ ، ولا أردتُ إلا مالا تتركه أبداً من سوء عِشرتك ! أخبرنى عنك حين تجىء هذا الوقت لمّا دعاك الأمير وعرّفك أنه قد نشط للاصطباح : ما حملك على الترفّع عن مُباكرته [1] وخِدْمَته مع صَنَائِعِهِ عندك ؟ وما كان ينبغى أن يَشْغَلَك عنه شىء إلا الخليفة ! ثم تجيئه ومعك قَطْرَمِيزُ نبيذ ترفّعاً عن شرابه ، كما ترفّعتَ عن طعامه ومُجَالسته إلّا كما تَشْتَهِى وحين تَنْشَط ، كما تفعل الأكفاء [2] ، بل تزيد على فِعْلِ الأكفاء . ثم تعمِدُ إلى صوتٍ قد اشتهاه واقترحه، وسمِعَه جميعُ مَن حضر ، فما عابه منهم أحد، فتَعيبه ليَتِمَّ تنغيصُك إياه لذّته ! أما والله لو الفضلُ بن يحيى أو أخوه جعفر دعاك إلى مثلِ ما دعاك إليه الأمير ، بل بعضُ أتباعهم ؛ لبادرت وباكرت ؛ وما تأخرتَ ولا اعتذرتَ . فأمسك الفضلُ بن الربيع عن الجواب إعجاباً بما خاطب به عَلّوَيْهِ إسحاق .

فقال له إسحاق : أمّا ماذكرتَه من تأخرى عنه إلى الوقت الذى حضرتُ فيه، فهو يعلمُ أنى لا أتأخرُ عنه إلا بعائقٍ قاطع ، إنْ وَثِق بذلك منى ، وإلا ذكرتُ له الحجةَ سراً من حيث لا يكون لك ولا لغيرِكَ فيه مَدْخَل . وأما ترفّعى عنه فكيف أترفّع عنه وأنا أنتسبُ إلى صنائعه ، وأستَمْنحه وأعيشُ من فَضْلِه مذ كنت ؟ وهذا تَضْرِيبٌ [3] لا أبالى به منك ، وأما حملى النبيذ معى فإن لى فى النبيذ شَرْطاً من طَعْمِه وريحه ؛ وإن لم أجِده لم أقدِر على الشرب ، وتنغّصَ علىّ يومئذ ، وإنما حملتُه ليتِمّ نشاطى ويُنْتَفَعَ بى ، وأما طَعْنى على ما اختاره فإنى لم أطعن على اختياره،

---

(١) باكره : أتاه بكرة : غدوة (٢) الأكفاء : النظراء المماثلون.

(٣) التضريب : الإغراء بين القوم .

وإنما أردتُ تقويتَكَ ؛ ولستَ والله تراني متتبعاً لك بعد هذا اليوم، ولا مُقوِّماً شيئاً من خَطَئِكَ ، وأنا أغنَى له ــ أعزّه الله ــ هذا الصوتَ فيعلم ونعلم ؛ ويعلمُ مَن حضر أنك أخطأتَ فيه وقصّرت . وأما البرامكةُ ومُلازمتي لهم فأشهرُ من أن أجْحَدَه ، وإني لحقيق فيه بالمعذرة ، وأحْرَى أن أشكرهم على صَنيعهم، وبأن أذيعَه وأنشرَه؛ وذلك ــ والله ــ أقلُّ ما يستحقونه مني .

ثم أقبلَ على الفضل ــ وقد غاظه مدحُه لهم ــ فقال : اسمع مني شيئاً أُخبرك به مما فعلوه ، ليس هو بكبير صنائعهم عندي ولا عند أبي قَبْلِي ، فإنْ وَجَدْتَ لي عذراً وإلا فَلُمْ : كنتُ في ابتداء أمري نازلا مع أبي في داره ، فكان لا يزالُ يجري بين غِلماني وغلمانه وجواريّ وجواريه الخصومةُ ؛ كما تجري بين هذه الطبقات فيشكونهم إليه ؛ فأتبين الضجَرَ والتنكّرَ في وجهه ، فاستأجرتُ داراً بقُرْبه ؛ وانتقلتُ إليها أنا وغِلماني وجواريّ ، وكانت داراً واسعةً ، فلم أرضَ ما معي من الآلة لها ، ولا لمن يدخل إليّ من إخواني أن يروا مثلَه عندي .

ففكرت في ذلك ، وكيفَ أصْنَع ؛ وزاد فِكْري حتى خَطَر بقلبي قُبْح الأحْدوثة من نزول مثلي في دارٍ بأجرة ، وأني لا آمنُ في وقتٍ أن يَستأذنَ عليّ صاحبُ داري ، وعندي من أحْتَشم منه (١) ولا يعلم حالي فيقال : صاحبُ دارك ، أو يوجِّه في وقتٍ فيطلبَ أجرةَ الدار ، وعندي مَن أحتشم منه ؛ فضاقَ بذلك صَدْري ضيقاً شديداً حتى جاوز الحدّ .

فأمرتُ غُلَامي بأن يُسْرِجَ لي حِماراً كان عندي، لأمْضيَ إلى الصحراء أتفرّجُ فيها مما دخل على قلبي، فأسرَجَه وركبتُ بِرداء ونَعْلٍ ، فأفْضَى بي المسير وأنا مفكّرٌ لا أميِّز الطريق التي أسلكُ فيها ، حتى هجم بي على باب يحيي بن خالد ، فتواثب

(١) احتشم منه : استحيا .

غلمـانُه إلىّ ، وقالوا : إلى أين ؟ فقلت : إلى الوزير . فدخلوا فاستأذنوا لى ، وخرج الحاجبُ فأمرنى بالدخول ؛ وبقيتُ خَجِلا ، قد وقعتُ فى أمرين فاضحَيْن : إنْ دخلتُ إليه برداء ونعلٍ ؛ وأعلَمْتُه أنى قصدته فى تلك الحال كان سوء أدب ، وإن قلتُ له كنتُ مجتازاً ، ولم أقصِدْكَ فجعلتُكَ طريقاً كان قبيحاً .

ثم عزمتُ فدخلت ؛ فلما رآنى تبسم وقال : ماهذا الزّى ياأبا محمد ! قد علمنا أنكَ جعلتنا طريقاً ، فقلت : لا والله ياسيدى ، ولـكنى أصْدُقك . قال : هاتِ . فأخبرتُه القصةَ من أولها إلى آخرها ، فقال . هذا حق مستوٍ ؛ أفهذا شَغَل قلبك ؟ قلتُ : إى والله ! وزاد فقال : لا تَشْغَلْ قلبك بهذا . ياغلام ، ردُّوا حماره ، وهاتوا له خِلْعَةً . فجاءونى بخِلْعة تامَّةٍ من ثيابه فلبستُها ، ودعا بالطعام فأكلت ، ووُضعَ النبيذ فشربت وشرب فغنّيته، ودعا فى وسَطِ ذلك بدَوَاةٍ ورُقْعة ، وكتب أربع رقاع ظننتُ بعضَها توقيعا لى بجائزة ؛ فإذا هو قد دعا بعضَ وكلائه فدفع إليه الرِّقاع وسارَّه بشىء ، فزاد طَمَعِى فى الجائزة ، ومضى الرجلُ وجلسنا نشرب ، وأنا أنتظر شيئاً فلا أراه إلى العَتَمة[1] ، ثم اتّـكأ يحيى فنام . فقمت وأنا منكسر خائب ، فخرجت وقُدِّم لى حمارى .

فلما تجاوزتُ الدار قال لى غلامى : إلى أين تمضى ؟ قلت : إلى البيت . قال : قد والله بِيعَتْ دارُكَ، وأُشهِدَ على صاحبها ، وابتيع الدَّرْبُ كلُّه وَوُزِنَ ثمنه، والمشترى جالسٌ على بابك ينتظرُكَ ليعرِّفَك، وأظنه اشترى ذلك للسلطان ، لأنى رأيتُ الأمر فى استعجاله أمراً سلطانياً ، فوقعتُ من ذلك فيما لم يكن فى حِسابى ، وجئتُ وأنا لا أدرى ماأعمل ، فلما نزلتُ على باب دارى إذا أنا بالوكيل الذى سارَّه يحيى قد قام إلىّ . فقال لى : ادخل ــ أيّدك الله ــ دارَكَ حتى أدخلَ لمخاطبتك فى أمر أحتاجُ

(١) العتمة : وقت صلاة العشاء .

إليك فيه ، فطابت نفسى بذلك ، ودخلتُ ، ودخل إلىّ فأقرأنى توقيعَ يحيى : « يُطْلَقُ لأبى محمد إسحاق مائةُ ألف درهم يُبتاع لهُ بهـا داره وجميعُ مايجـاورها ويلاصقها » . والتوقيع الثانى إلى ابنه الفَضْل : « قد أمرتُ لأبى محمد إسحاق بمائة ألف درهم يُبْتَاعُ له بها دارُه ، فأطلِقْ إليه مثلَها لينفقَها على إصلاح الدار كما يريد وبنائها على ما يشتهى » . والتوقيع الثالث إلى جعفر : « قد أمرتُ لأبى محمد إسحاق بمـائة ألف درهم يُبتاع له بهـا منزلٌ يسكنه ، وأمَر له أخوك بدَفْع مائة ألف درهم ينفقها على بنائهـا ومَرَمَّتها على مايريد ، فأطْلِق له أنت مائة ألف درهم يَبتاع بها فرشاً لمنزله » . والتوقيع الرابع إلى محمد : « قد أمرت لأبى محمد إسحاق أناوأخواك بثلثمائة ألف درهم لمنزلٍ يبتاعه ونفقة ينفقُها عليه ، وفرش يبتذِلُه[1] ، فمر له أنت بمائة ألف درهم يصرفها فى سائر نفقته » . وقال الوكيل ، قد حملتُ المال واشتريتُ كل شىء جاورك بسبعين ألف درهم ، وهذه كُتُب الابتياعات باسْمِى والإقرار لك ، وهذا المال بُورِك لك فيه فاقْبِضْه .

فقبضتُه وأصبحتُ أحسن حالا من أبى فى منزلى وفَرْشى وآلتى ، ولا والله ماهذا بأكبرِ شىء فَعَلُوه لى أفألام على شكرِ هؤلاء !

فبكى الفضل بن الربيع وكلٌّ من حضر . وقالوا : لا والله لا تُلام على شكر هؤلاء . ثم قال الفضل : بحيـاتى غَنِّ الصوتَ ، ولا تبخل على أبى الحسن بأن تقوِّمه له ! فقال : أفعل . وغناه فتبين عَلّوَيْهِ أنه كما قال . فقام فقبّل رأسَه ، وقال : أنت أستاذُنا وابن أستاذِنا وأولى بتقويمنا واحتمالنا من كل أحد ، وردّه[2] إسحاق مراتٍ حتى استوى لعَلّوَيْهِ .

---

(١) الابتذال : ضد الصيانة . (٢) رده : أعاده ، مثل ردده .

٢٠ـ المعتصم فى يوم العيد *

قال حمدون بن إسماعيل النديم : حضر العيدُ ، فعبّى المعتصم[(١)] بالله خيلَه تعبية لم يُسْمَعْ بمثلها ، ولم يُرَ لأحدٍ من ولدِ العباس شبيهٌ بها ، وأمر بالطريق فمُسِح[(٢)] من باب قصره إلى المصلَّى ، ثم قسم ذلك على القواد ، وأعطى كل واحد منهم مَصافَّه[(٣)] .

فلما كان قبلَ الفِطْرِ بيوم حضر القوّادُ وأصحابُهم فى أجملِ زِىّ وأحسن هيئة ، فلزموا مصافّهم منذ وقت الظهر ، إلى أن ركب المعتصمُ بالله إلى المصلَّى ، فكان الموضع الذى وقع لإبراهيم بن المهدى بعد الحَرَسِى[(٤)] بحذاء مسجد الخوارزمى ، وإبراهيمَ واقفٌ وأصحابُه فى المصافّ .

فلما أصبح المعتصم أمر القواد الذين لم يرتّبوا فى المصاف بالمصير إلى المصلَّى على التعبية التى حدَّها ، ولبس ثيابَه ، وجلس على كرسى ينتظرُ مُضىّ القوّاد . فلما انقضى أمرهم تَقَدَّم إلى الرَّجَّالة فى المسير بين يديه ، فتقدم منهم سبعة آلاف ناشبٍ من الموالى ، كلٌّ ثلاثمائة منهم فى زِىّ مخالف لزىّ الباقين ، وأربعة آلاف من المغاربة ، وأمر الشيعة فكانوا وراءه بالأعمدة ، وعِدّتهم أربعة آلاف ، وركبتُ لا أدرى منزلتى أين هى ، ولا أعرفُ مرتبتى ، ولم أعلم أين أسيرُ من الموكب ؟

---

* المحاسن والمساوىء : ١٦٤ .

(١) هو أبو إسحاق محمد بن هارون الرشيد ، ولقب بالمعتصم بالله فى اليوم الذى دعى له بالخلافة سنة ٢١٨ هـ ، وكان شجاعا مقداما شديد البأس محبا للعمارة ، منصرفا إلى الجيش ، وتوفى سنة ٢٢٧ هـ . (٢) يقال : مسح الأرض ، أى ذرعها . (٣) المصف : موضع الصف ، وجمعه مصاف . (٤) الحرسى : واحد حرس السلطان .

فلما وضع رِجلَه فى الركاب ، واستوى على سَرْجه التفتَ إلىّ ، وقال : ياحمدون ، كُنْ أنتَ خَلْفِى ، فلزمتُ مؤخّرَ دَابَّتهِ ، فلما خرج من باب القصر تلقّاهُ القوّاد وأصحابُ المصافّ : يخرجُ الرجل من مصافّه ، فإذا قرب نزل وسلّم عليه بالخلافة ، فيأمره بالركوب ويمضى ، حتى وصل إلى إبراهيم بن المهدى فنزل وسلم عليه بالخلافة فرد عليه السلام ، فقال : كيف أنتَ ياإبراهيم ؟ وكيف حالُك ؟ وكيف كنتَ فى أيامك ! اركب فركب فلما جاوزه التفت إلىّ وقال : ياحمدون ، قلت : لبيك ياأميرَ المؤمنين ! قال : تذكُر ؟ قلت : إى والله ياسيدى ! وأمسك .

فنظرتُ فيما قال فلم أجدنى أذكر شيئاً فى ذلك الموضع مما يشبه ما كنّا فيه ! فنغص علىّ يومى ، وما رأيت من حسنه وسروره بالمرتبة التى أهّلنى بها ، وقلت : الخلفاء لا يعاملون بالكذب ، ولا يجوزُ أن يسألنى عند انصرافى عن هذا الأمر ، فلا يكونُ له عندى جواب ولا حقيقة ! وتخوفت أن ينالنى منه مكروه ، فلم أزلْ واجماً فى طريقى إلى وقتِ انصرافه ، ثم أجمعتُ على مغالطته إن أمكننى ، وإعمالِ الحيلة فى التخلص إن يسائلنى .

فلما استقرّ فى مجلسه ، وبُسط السِّماط[1] ، وجلس القوّاد على مراتبهم للطعام أقبلتُ أخدم وأختلف ، ليست لى همةٌ غير ما كان قد قاله لى ، لا أغفلُ عن ذلك ، حتى انقضى أمرُ السِّماط ، ورفع الستر ، ونهض أميرُ المؤمنين ، ودخل الحجرة ، ومضى إلى المرْقد ، فلم ألبثْ أن جاء الخادم وقال : أَجِبْ أميرَ المؤمنين ، فمضيتُ .

فلما دخلتُ ضحك إلىّ ، وقال ياحمدون ، رأيتَ ؟ قلت : نعم ياسيدى قد رأيت ! فالحمدُ لله الذى بلغ بى هذا اليوم وأرَانيه ؛ فما رأيتُ ولا سمعتُ لأحدٍ من الخلفاء والملوك بأجلّ منه ولا أبهى ولا أحسن ؟ قال : ويحك ! أرأيتَ إبراهيم

(١) السماط : ما يمد عليه الطعام .

ابن المهدى ؟ قلت : نعم يا سيدى ! قال : رأيتَ سلامَه علىَّ وردّى عليه ، ونزولَه إلىّ ؟ قلت : نعم ! فقال : إنه لما كان من أمره ما كان – يعنى الخلافة – قسَّم الطريقَ فى يوم عيدٍ من منزله إلى المصلَّى كقِسْمتى إياه فى هذا اليوم بين قوّاده ، فوقعَ موضعى منه الموضع الذى كان به هذا اليوم ، فلما حاذانى نزلتُ فسلمت عليه ، فردّ علىّ مثل ماردَدتُ حرفاً حرفاً على ماقال لى .

فدعوتُ له ، وانفرج عنى ما كنتُ فيه ، وتخلّى عنى الغمُّ والكَرْب . ثم قال : يا حمدون ؛ إنى لم آكل شيئاً ، وأنا أنتظر أن تأكل معى ، فامض إلى حجرة الندماء ؛ فإنك تجدُ إبراهيم هنالك ، فاجلسْ إليه وعاتبه وضاحِكه ، وأَجْرِ له هذا الحديث ، وقل له : إنك رأيتَه فى ذلك اليوم فَعل بى فِعْلى به فى هذا اليوم ؛ وانظرْ إلى وجهه وكلامه ، وما يكون منه فعرِّفنيه على حقيقته ، وأصدُقنى عنه ، وعجِّل ولا تحتبس ! قلت : نعم ياسيدى !

فمضيتُ ، وقد دُفعت إلى أغلظَ مما كنتُ فيه ؛ لعلمى بأن إبراهيم لو كان من حَجَرٍ لأثَّر فيه هذا القول وتغيَّر ، وظهر منه ما يُكرَه ، وخِفْتُ أن يأتى بما يُسفَك به دَمُه ، فمضيتُ حتى دخلتُ الحجرة ، فجلست إلى إبراهيم ، وقلت ماأمرنى به ، وأنا مبادِرٌ خوفاً من خادم يلحقنى ، أو رسول ، فلا يمكننى معه تحسين الأمر ، وما يظهر لى منه ؛ فقلتُ لإبراهيم : كيف رأيتَ ياسيدى هذا اليوم ؟ أمَا أعجبك حسنُه ؟ وما كان من تعبية أمير المؤمنين ؟ قال : بلى والله إنه أعجبنى ! فالحمد لله الذى بلّغنيه وأرانيه ، وأطنب فى الدعاء للمعتصم .

فلما أمسَكَ قلت : ياسيدى ؛ أذكّرك ، فى أيامك ، وقد ركبتَ فعبّيت شبيهاً بهذه التعبية ، وقسّمت الطريق مثل هذه القسمة ؛ فوقع لأمير المؤمنين الموضع الذى وقع لك واجتزتَ به ، فنزل إليك وسلّم ، فرددتَ عليه ترده عليك فى هذا اليوم !

فوالله ما قلتُ له ذلك حتى اربدّ لونه ، وجفّ ريقُه ، واعتُقِل لسانه ، وبقى لا يتكلم بحَرْف ، ثم قال بلسان ثقيل : لكأنى فى ذلك الموضع فى ذلك اليوم ! فالحمد لله الذى رأيتُه لأمير المؤمنين ، فعل الله به وفعل .

فتغنّمتُ[1] ذلك وقت ، وأنا ألتفتُ ، ونهضتُ حتى أتيت المعتصم ، فقال لى: هِيه يا حمدون ! فقلت : يا أميرَ المؤمنين ؛ أتيتُ إبراهيم ، وقلتُ له ما أمرتنى به ، فأظهر سروراً ودعاء ، وقال : كيت وكيت . فقال : والله قال ! بحياتى ! قلت : وحياتِك يا أميرَ المؤمنين ! قال : فكيفَ رأيتَ وجهه ! فلم أدر ما أقولُ ، فقلتُ: يا أمير المؤمنين ، بالله لما تركتَنى من وجه عمّكَ الذى لا يتبيّن فيه فرح ولا حزن . فاستضحك ، ثم أمسك ، ودعا بالطعام فأكلنا ، ثم رقد .

فلما انتبه وجلس دعا بإبراهيم وسائِر الندماء ، فشرب وبرّ إبراهيم وألْطَفَه .

٢١ - رُسُل الرُوم عِنْدَ النَّاصِر*

رحل الناصر[2] لدين الله من قَصْرِ الزَّهْرَاء[3] إلى قصر قُرْطَبة[4] لدخول وفود الروم عليه ، وقعد لهم فى بَهْوِ المجلس الزاهر قعوداً حسناً نبيلًا ، وقعد عن يمينه ولىُّ العهد من بَنِيه ، وقعد عن يساره مُنْذِر بن سعيد ؛ وحضر الوزراء على مراتبهم يميناً وشمالًا ، ووقف الحجّابُ من أهل الخِدْمَة من أبناء الوزراء والموالى وغيرهم ، وقد

---

(١) تغنمه : انتهز غنمه ، وعده غنيمة .

* نفح الطيب : ١٧٢١

(٢) هو عبد الرحمن الناصر لدين الله ثامن ملوك الأندلس وأول من تلقب بالخلافة منهم ؛ وكانت أيامه أيام جهاد ، وكان عادلا محسنا محبا للعلم ، شغوفاً بالعمارة ، توفى سنة ٣٥٠ هـ (٣) هى المدينة التى بناها الناصر (٤) قرطبة : حاضرة الخلافة بالأندلس ، وكانت أخت بغداد عزاً وعلواً وحضارة وفيها المسجد الجامع الذى بناه عبد الرحمن الأموى سنة ٧٩٢ م ، وهو الآن الكنيسة [illegible] .

بُسِطَ صَحْنُ الدار أجمع بعِتَاقِ البُسط ، وكرائم الدَّرَانك(١) ، وظُلِّلَتْ أبوابُ الدار وحنَايَاها بغَالِي الديباج ورَفيع السُّتور .

فوصل رسلُ ملك الروم حائرين مما رأوْه من بهجـة الملك وفخامة السلطان ، ودفعوا كتابَ ملـكهم صاحب قُسْطَنْطِينية العظمى ؛ وهو فى رَقٍّ(٢) مصبوغ بلونٍ سماوى ، مكتوب بالذهب بالخط الإغريقى ، وداخل الـكتاب مُدْرَجَةٌ(٣) مصبوغة أيضاً مكتوبة بفِضَّة بخط إغريقى أيضاً ، فيها وصفُ هديتهِ التى أرسل بها وعددُها ، وعلى الـكتابِ طابعُ ذهب وَزْنُه أربعة مثاقيل ، على وجهٍ منه صورةُ المسيح وعلى الآخر صورةُ الملكِ وصورةُ ولده .

وكان الـكتابُ بداخل دُرْجٍ(٤) فضة منقوش ، عليه غطاء ذهب ، فيه صورة الملك من الزجاج الملون البديع ، وكان الدرج داخل جَعْبة ملبَّسة بالديباج .

ولما احتفل الناصرُ لدين الله هذا الاحتفال أحبَّ أن يقوم الخطباء والشعراء بين يديه ليذكروا جَلالَةَ مُلْـكِه ، وعظيمَ سلطانه ، ويَصِفوا ما تهيَّأ من توطيد الخلافة فى دولته .

وتقدم إلى الأمير الحـكم ابنهِ وولىِّ عهده بإعداد من يقومُ بذلك من الخطباء ؛ فأمرَ الحـكمُ الفقيهَ محمـد بن عبد البر الـكَيْسانى بالتأهّب لذلك ، وإعداد خطبةٍ بليغةٍ يقومُ بها بين يدى الخليفة ، وكان يَدَّعى من القـدرة على تأليف الـكلام ما ليس فى وُسع غيره . وحضر المجلسَ السلطانى ، فلما قام يحاول التكلم بما رأى هاله وبهرَه هولُ المقام وأبَّهة الخلافة ، فلم يهتدِ إلى لفظة ، بل غُشى عليه ، وسقط إلى الأرض .

---

(١) الدرانك : الطنافس (٢) الرق : ما يكتب فيـه ، وهو جلد رقيق

(٣) أدرجت الـكتاب : طويته .

(٤) أصل الدرج : السفط الصغير تضع فيه المرأة متاعها وطيبها .

فقيل لأبي علي القالي (١) ــ وهو حينئذ ضيفُ الخليفة الوافدُ عليه من العراق ، وأميرُ الــكلام ، وبَحْرُ اللغة : قم فارْقَع هــذا الوَهْي ، فقام فحمد الله وأثنى عليه ، ثم انقطع القولُ بالقالي ، فوقف ساكتاً مفــكراً في كلام يدخل به إلى ذِكر ما أريد منه . فلما رأى ذلك مُنْذِرُ (٢) بن سعيد قام ، فوصل افتتاح أبي علي لأول خطبته بكلام عجيب ، ونادَى من الإحسان في ذلك المقام كلَّ مجيب ، يَسُحُّه سحًّا ، كأنما كان يحفظه قبل ذلك بمدة ، وبدأ من المــكان الذي انتهى إليه أبو علي فقال (٣) :

أما بعدَ حمد الله والثناء عليه والتعدادِ لآلائه ، والشــكرِ لنعمائه ، والصلاة والسلام على محمــد صفيه وخاتم أنبيائه ، فإنّ لــكلّ حادثةٍ مقاماً ، ولــكل مقامٍ مقالًا ، وليس بعد الحق إلا الضلال ، وإني قمتُ في مقامٍ كريم بين يدي ملكٍ عظيم ، فاصغُوا إليّ معشرَ الملإِ بأسماعكم ، وألقوا إليّ بأفئدتــكم ، إن من الحق أن يُقــال للمُحِقّ صدقت ، وللمبطل كذبت ، وإن الجليل ــ تعالى في سمائه وتقدّس بصفاته وأسمائه ــ أمرَ كَلِيمَه موسَى أن يُذَكِّرَ قومَه بأيام الله عزّ وجلّ عندهم ، وفيه وفي رسولِ الله أسوةٌ حسَنةٌ ، وإني أذكِّركم بأيام الله عنــدكم ، وتلافيه لــكم بخلافة أمير المؤمنين ، التي لمّتْ شعثــكم ، وأمّنَتْ سِرْبكم ، ورفعت قُوَّتــكُمْ ؛ بعد أن كنتم قليلاً فــكثّركم ، ومستضعفين فقواكم ، ومستذلّين فنصركم . . .

واستمر كذلك بكلام عجيب بهَر العقولَ جزالةً ، وملأ الأسماع جلالةً ؛ فخرج الناسُ يتحدثون عن حسن مقامه وثباتِ جَنانه ، وبلاغةِ لسانه ؛ وكان الناصرُ أشدَّهم تعجباً منه ؛ فأقبل على ابنه الحــكم ؛ فسأله عنه ؛ فقال له : هــذا منذر بن

(١) هو إسماعيل بن القاسم صاحب الأمالي ، رحل إلى المغرب ، ودخل الأندلس في أيام عبد الرحمن الناصر واستوطن قرطبة ، توفي ســنة ٣٥٦ هـ (٢) كان إماماً فقيهاً خطيباً شاعراً فصيحاً ، ولي القضاء بقرطبة أيام عبد الرحمن ، وتوفي بقرطبة ســنة ٣٣٥ هـ .

(٣) الخطبة بتمامها في نفح الطيب: ١ ــ ١٧٢ طبع المطبعة الأزهرية، وصبح الأعشى: ١ ــ ٢٧٦ .

سعيد البلوطى ! فقال : والله لقد أحسن ماشاء ، ولئن أخّرنى الله بعدُ لأرفعنَّ مِن ذِكْرِه ، فضَعْ يدكَ ياحكمُ عليه،واستخلصه وذكّرْنى بشأنه؛فما للصنيعة مذهبٌ عنه. ثم ولّاه الصلاةَ والخطابةَ فى المسجد الجامع بالزّهراء .

٢٢ـ لَيْـلَةٌ بِمَـالَقَـةَ*

قال أبو الطاهر إسماعيل بن أحمد التُّجيبيّ : كنتُ بمدينة مالَقَة (١) من بلاد الأندلس سنة ست وأربعمائة ، فاعتَلَلْت بها مدّة انقطعتُ فيها عن التصرّف،ولزمتُ المنْزل ، وكان يمرّضُنى (٢) حينئذ رفيقان كانا معى ، يَلُمّان من شَعَثى ، ويَرْفُقَان بى.

وكنتُ إذا جنّنى الليل اشتدّ سهرى ، وخَفَقَتْ حولى أوتارُ العيدان والطنابير والمعازف من كلّ ناحية ، واختلطت الأصواتُ بالغناء ؛ فكان ذلك شديداً علىّ ، وزائداً فى قَلَقِى وتألّمى ؛ فكانت نفسى تَعافُ تلك الضروبَ طبعاً ، وتكره تلك الأصواتَ جِبِلّة ، وأودّ لو أجدُ مَسْكَناً لا أسمعُ فيه شيئاً من ذلك ، ويتعذّر علىّ وجودُه لغَلَبَةِ ذلك الشأن على أهل تلك الناحية وكثرته عندهم .

وإنى لساهرٌ ليلةً بعد إغفاءةٍ فى أول ليلتى ، وقد سكنتْ تلك الألفاظُ المكروهة ، وهدأت تلك الضروبُ المضطربة ، وإذا ضربٌ خفىّ معتدِل حسن لا أسمعُ غيرَه ، فكأن نفسى أنِست به ، وسكَنَتْ إليه ، ولم تنْفِرْ منه نِفَارَها من غيره ، ولم أسمعْ معه صوتاً ، وجعل الضرب يرتفعُ شيئا فشيئاً ، ونفسى تتَبّعه ، وسَمْعِى يُصْغِى إليه ، إلى أن بلغَ فى الارتفاع إلى ما لا غاية وراءه ، فارتحتُ له ،

* شرح المختار من شعر بشار ١٤ .

(١) مدينة بالأندلس كانت ثغراً حصيناً على بحر الروم ، أسسها الفينيقيون ، وكان لها شهرة أيام الرومان والقرطاجيين ، وكان بها بنو حمود من ملوك الطوائف (٢) مرضه : قام عليه فى مرضه .

ونسيتُ الألم ، وتداخلنى سرورٌ وطرَب ، وخُيِّلَ إليَّ أن أرضَ المنزل ارتفعتْ بى ، وأن حيطانه تمُورُ (١) حولى ، وأنا فى كل ذلك لا أسمعُ صوتاً .

فقلتُ فى نفسى : أمَّا هذا الضربُ فلا زيادةَ عليه ؛ فليت شِعرى كيف صوتُ الضارب ! وأين يقع من ضرْبه ؟ ولم ألبثْ أن اندفعتْ جاريةٌ تغنّى فى هذا الشعر بصوتٍ أندَى من النوّار ، غِبَّ القِطَار (٢) ، وأحلى من البارد العَذْب ، على كبد الهائم الصَّبِّ ؛ فلم أملك نفسى أن قُمْتُ ورفيقاىَ نائمان ، ففتحتُ الباب ؛ وتبعتُ الصَّوْت ، وكان قريباً منى ؛ فاطلعت من وسط منزلى على دار فسيحة ، وفى وسط الدار بستانٌ كبير ، وفى وسط البستان شَرْب (٣) نحو من عشرين رجلاً ، قد اصطفّوا و بين أيديهم شراب وفاكهة ، وجوارٍ قيامٌ بعِيدان وطنابير وآلات لهْو ، ومزامير لا يحرّكْنها ، وجاريةٌ جالسةٌ ناحية ، وعودُها فى حِجْرِها ، وكلٌّ يرمقها ببصره ، ويُوعِيها سمعَه ، وهى تغنّى وتَضْرِبُ ، وأنا قائم بحيث أراهم ولا يروْننى ، وكلما غنّت بيتاً حفظتُه ؛ إلى أن غنّت عدة أبيات وقطعتْ ؛ فعُـدتُ إلى موضعى ، يشهدُ الله وكأنما أُنشِطْتُ من عِقَال ، وكأن لم يكن بى ألم ، وقد وَعيتُ الأبيات وهى :

مابالُ أنجُمِ هــــذا الليـلِ حائرةً ... أضلّتِ القَصْد ، أم لَيْسَتْ على فَلَك ؟
عادتْ سَوَاريهِ وقْفاً لا حَرَاكَ بهـا ... كأنمــا جُنَّتْ صَرْعَى بمُعْتَرَكِ (٤)
هل من بشـيرٍ بنورِ الصبح ، تُنقِذُنى ... بُشْرَاه من طُولِ وَجْدٍ غــيرِ متّرَكِ
فقـــد أجدَّ التَوَاه الليل لى شجَناً ... وأضجعتنى تبَارِيحى على الحسَكِ (٥)
خُذْ ياشَمُولُ كئوسَ الراح مُتْرَعةً ... فسقِّنيهـــا ولا تسألْ عن الدَّرَكِ (٦)

(١) تمور : تتحرك وتذهب وتجىء (٢) القطار : جمع قطر ، وهو المطر (٣) جمع شارب.
(٤) السوارى : جمع سار . (٥) تباريح الشوق : توهجه ، والتباريح : الشدائد . الحسك: نبات ورقه كورق الرجلة وأدق ، وعند ورقه شوك صلب ذو ثلاث شعب (٦) شمول : اسم غلام صقلبى من صقالبة المنصور .

وهجْ بألْحَانك الطُّنْبُورَ : إن له   على شُجُونِ المغَنّى سَطْوَةَ المَلِكِ

ثم انصرفتُ فى صباح تلك الليـلة ، فلقيتُ صديقاً لى من أهل العلم قرطبيًّا سكَنَ مالَقَةَ ، فأخبرتُه الخبر ، وأنشدتُه الشعْرَ ، ووصفتُ له الدار ، فاغرَوْرَقَتْ عيناه وقال : الدارُ للوزير فلان ، والجاريةُ فلانة البغداديّة ، إحدى المحْسِنات من جوارى المنصور بن أبى عامر ؛ وصارت إلى هذا الوزير بعد موت المنصور ، وتمزّقِ مُلـكِه .

البَابُ الثَّانِي

فى القصص التى تتضمن معتقداتهم ، وأخبار كهانهم وكواهنهم، وتبسط ما كانوا يعرفون من حقائق التوحيد والبعث، والدار الآخرة، وما كانوا يتوسّلون به من إقامة الأوثان ، وتعهدها بألوان الزُّلْفَى والقُرْبان .

٢٣- قَوم عَاد يُستسقُون بمَكّة

لما كذَّبت عادٌ هودا ـ عليه السلام ـ توالت عليهم ثلاثُ سنوات ، لم يرَوْا فيها مطراً . فبَعثوا من قومهم وفداً إلى مكة ؛ ليستسقوا لهم ، ورَأَّسُوا [1] عليهم قَيْلَ بن عُنُق ولُقَيْمَ بن هَزَّال ، ولقمان بن عاد ، وكان أهل مكة إذ ذاك العماليق ، وكان سيِّدَهم بمكة معاوية بن بكر .

فلما قدموا نزلوا عليه ؛ لأنهم كانوا أخوالَه وأصهاره ؛ فأقاموا عنده شهراً ، وكان يكرِمُهم ، والجرَادتَان [2] تُغنيانهم ؛ فنسُوا قومَهم ؛ فقال معاوية : هلك أخوالى ، ولو قلتُ لهؤلاء شيئا ظنوا بى بخلاً ، فقال شعراً ، وألقاه إلى الجرَادتين ، فأنشدتاه ، وهو :

ألا ياقَيْلُ [3] وَيْحَكَ قم فَهَيْنِمْ [4] ... لعلَّ الله يبعثُها غَمَاما !
فيسقى أرضَ عاد ؛ إنَّ عاداً ... قدَ أمْسَوْا لا يُبِينون الكلاما
من العَطَشِ الشديد فليس نرجو ... به الشيخَ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهمُ بخير ... فقد أمست نساؤهم أيَامَى [5]
وإن الوحشَ يأتيهم جهاراً ... ولا يخشى لعادىّ سِهَاما
وأنتم هاهنا فيما اشتهيتم ... نهاركم وليلكم التماما [6]
فقُبِّح وَفْدُكم من وفدِ قوم ... ولا لُقُّوا التحيةَ والسلاما

* البداية والنهاية لابن كثير : ١ ـ ١٢٦ ، مجمع الأمثال : ١٠ ـ ١١٥ ، المسعودى : ١ ـ ٣٢١ ، ٢ : ٤٥٦ .

(١) رأسوه : جعلوه رئيساً (٢) الجرادتان : مغنيتان لمعاوية المذكور ، كانتا بمكة (٣) قيل : هو رئيسهم من عاد (٤) الهينمة : الصوت الخفى ، والمراد الدعاء (٥) الأيامى : جمع الأيم : وهى من لا زوج لها (٦) الالتمام : النزول .

فلما غنّتهم الجرادتان بهذا قال بعضُهم لبعض : يا قوم ؛ إنمـا بعثَـكم قومُـكم يتغوّثون(١) بكم !

فقاموا ليـدعُوا ، وتخلّف لقمان ، وكانوا إذا دَعَوْا جاءهم نداءٌ من السماء : أَنْ سَلُوا ما شئتم ، فتعطَوْنَ ما سألتم ! فدعَوْا ربهم ، واستَسْقَوا لقومهم ، فأنشأ الله ثلاث سَحَابات : بيضاء وحمراء وسوداء ، ثم نادى مناد من السماء : يا قَيْلُ ، اخترْ لقومك ولنفسك واحدةً من هذه السحائب !

فقال : أما البيضاء فَجِفْل (٢) ، وأما الحمراء فَعارِض(٣) ، وأما السوداء فهُطِلٌ ، وهي أكثر ماء ، فاختارها !

فنادى مُنَادٍ : قد اخترتَ لقومك رَمَاداً رِمدِداً (٤) ، لا تَذَر من عاد أحـداً ، لا والداً ولا ولداً !

وسيّر الله السحابةَ التى اختـارها إلى عاد ونُودى لقمان سَلْ ، فسأل عُمْرَ ثلاثة (٥) أنسر ، فأُعطى ذلك !

وكان يأخذ فرخ النسر من وَكْرِه ، فلا يزال عنده حتى يموت ! وكان آخرُها لُبدَ ، وهو الذى يقول فيه النابغة :

أضحتْ خَلَاءً وأضحى أهلُها احتملوا   أَخْنَى عليها الذى أخْنَى على لُبَـدِ

---

(١) غوث الرجل واستغاث : صاح واغوثاه (٢) الجفل : السحاب هراق ماءه ومضى (٣) العارض . السحابة المعترضة فى الأفق (٤) الرمدد بالكسر : المتناهى فى الدقة (٥) يقال سبعة

٢٤ـ زَيد بن عَمرو يَتَلَمَّس الدِّين الصَّحيح *

خرج زيدُ(١) بن عَمْرو إلى الشام يسأل عن الدِّين ويتّبعه ، فلقي عالماً من اليهود ، فسأله عن دِينهم ، فقال : لعلّى أدين بدينكم فأخبرْنى به ؛ فقال اليهودىّ: إنك لا تكونُ على ديننا حتى تأخذَ بنصيبك من غَضب الله . فقال زيد بن عمرو: لا أفِرُّ إلّا من غضب الله ، وما أحمل من غضب الله شيئاً أبداً وأنا أستطيع ، فهل تدلنى على دينٍ ليس فيه هذا ؟ قال : ماأعلَمُه إلا أن يكون حَنيفا، قال: ومَاالحنيف؟ قال : دينُ إبراهيم . فخرج من عنده وتركهُ .

فأتى عالماً من علماء النصارى ، فقال له نحواً ممّا قال لليهودىّ . فقال له النصرانى : إنّك لَنْ تكون على ديننا حتى تأخذَ بنصيبك من لَعْنَة الله ، فقال : إنى لاأحملُ من لعنةِ اللهولا من غضبه شيئًا أبداً وأنا أستطيع، فهل تدلُّنى على دينٍ ليس فيه هذا ؟ فقال له نحواً مما قال اليهودى ؛ لا أعلمه إلا أن يكون حنيفاً . فخرج من عندهما ، وقد رضى بما ، أخبرَاه واتّفقا عليه من دينِ إبراهيم ، فلما برزَ رفع يدَه ، وقال : اللهمّ إنى على دِينِ إبراهيم .

---

* الأغانى : ٣ ـ ١٢٦ .

(١) كان زيد بن عمرو أحد من اعتزل عبادة الأوثان وامتنع من كل ذبائحها وكان يقول : يامعشر قريش ، أيرسل الله قطر السماء ، وينبت بقل الأرض ، ويخلق السائمة فترعى فيه ، وتذبحوها لغيره ! توفى سنة ١٧ ق . هـ .

٢٥ ـ النعمان بن المنذر يتنصر *

خرج النعمان بن المنذر إلى الصيد ومعه عَدِيّ بن زيد ، فمرّوا بشجرة ، فقال له عديّ بن زيد : أيُّها الملكُ ، أتدرى ماتقولُ هذه الشجرة ؟ قال : لا ، قال تقول :

رُبَّ رَكْبٍ قد أناخوا عندنا يشربون الخمرَ بالماء الزُّلالِ
عصفَ الدهرُ بهم فانقرضوا وكذاكَ الدهرُ حالاً بعد حالِ

ثم جاوز الشجرةَ فمرّ بمقْبَرةٍ ، فقال له عديّ : أيها الملك ، أتدرى ماتقولُ هذه المقبرة ؟ قال : لا ، قال : تقول :

أيهـــا الركبُ المخِبُّو نَ على الأرض المجِدُّونْ
فكما أنتمُ كنّا(١) وكما نحن تكونُونْ

فقـــال له النعمان : إن الشجرةَ والمقبرة لا تتكلّمان وقد علمتُ أنك إنما أردت عِظَتى ، فما السبيلُ التى تُدْرِكُ بها النجاةُ ؟ قال . تدعُ عبادةَ الأوثان وتعبدُ الله ، وتَدِينُ بدين المسيح عيسى بن مريمَ ، قال : أوَ فى هـذا النجاة ؟ قال : نعم ، فتنصَّر يومئذ !

---

* الأغانى : ٢ ـ ٩٦ .

(١) جاء فى الأغانى : أن الشعر من مجزوء الرمل المسبغ وتقطيعه :

فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتان

فيكون على هذا غير موزون .

٢٦- طَرِيفَةُ الكَاهِنَةُ*

كانت العمارةُ فى أرض سَبَأٍ أزيد من مَسيرة شَهْرَيْن للراكب المجدّ ، وكان أهلُها يقتبسون النارَ بعضهم من بعض مسيرة أربعة أشهر ، ثم مُزِّقُوا كلَّ مُمزّق .

وكان أولَ مَن خرجَ من اليمن فى أوّل الأمر عَمْرُو بن عامر مُزَيقياء[١] ، وكان سبب خروجه أنه كانت له زوجةٌ كاهنةٌ ، يقال لها طَرِيفة الخير ، وكانت رأت فى منامها أنّ سحابةً غَشِيتْ أرضَهُم ، فأرعدتْ وأبرقتْ ، ثم صَعَقتْ[٢] فأحرقت كلَّ ماوقعتْ عليه . ففزعت طريفةُ لذلك فزعاً شديداً وأتت المَلِكَ عَمراً ، وهى تقول : «ماراأيتُ كاليوم ، أزال عنى النومَ ! رأيتُ غيماً أرْعَدَ وأبرق ، وَزَمْجَرَ وأصعق ، فما وقع على شىء إلا أحرق» . فلما رأى ماداخلها من الفزع سكّنَها .

ثم إن عمراً دخل حديقةً له ، ومعه جاريتان مِنْ جَواريه ؛ فبلغ ذلك طريفة ، فخرجتْ إليه وخرج معها وَصِيف[٣] لها اسمه سِنان ؛ فلما برزت من بيتها عرض لها ثلاثُ مَنَاجد[٤] منتصبات على أرجلهن ، واضعات أيديهن على أعينهن ، فقعدت إلى الأرض واضعةً يديها على عينيها ، وقالت لوصيفها : إذا ذهبت هذه المناجد فأخبرنى . فلما ذهبتْ أخبرها ، فانطلقتْ مُسرعة ، فلما عارضَها الخليج الذى فى حديقة عمرو وَثَبَتْ من الماء سُلَحفاة ، فوقعت فى الطريق على ظهرها ، وجعلت

---

* شرح مقامات الحريرى : ١ ـ ٢٦٥ ، بلوغ الأرب : ٣ ـ ٢٨٣ ، مجمع الامثال: ١ ـ ٢٥٢ ، السعودى : ١ ـ ٢٤٤ ، معجم البلدان : مأرب .

(١) ملك اليمن ، ومزيقياء : لقبه ، فقد كان يلبس كل يوم حلتين ويمزقهما بالعشى ، يكره العود فيهما ، ويأنف أن يلبسهما غيره (٢) أصابت بصاعقة : وهى نار تسقط من السماء مع الرعد الشديد (٣) الوصيف : الخادم ، غلاماً كان أو جارية (٤) هى دواب تشبه اليرابيع ، واليربوع : دويبة نحو الفأرة ، لكن ذنبه وأذنيه أطول منها ، ورجليه أطول من يديه .

تَرُوم الانقلابَ فلا تستطيع ، وتستعين بذَنَبها فتَحْثُو الترابَ على بطنها من جَنَباته، وتقذِف بالبول قَذْفاً .

فلمّا رأتها طريفةُ جلست إلى الأرض ، فلما عادت السلحفاةُ إلى الماء مضت طريفةُ إلى أن دخلتْ على عمرو ، وذلك حين انتصف النهار في ساعة شديدٍ حرّها؛ فإذا الشجرُ يتكَفّأ (١) من غير ريح ، فلما رآها استحيا منها ، وأمر الجاريتين بالانصراف إلى ناحية ؛ ثم قال لها : هلُمّي يا طريفة ، فكَهَنتْ (٢) له ، وقالت : « والنورِ والظّلماء ، والأرضِ والسماء ؛ إن الشجرَ لَهَالِك ، وليعودَنّ الماء كما كان في الزمن السّالك » .

قال عمرو : مَنْ أخبركِ بهذا ؟ قالت : أخبرني المناجد ، بسنينَ شدائد، يَقطع فيها الولدُ الوالد . قال : ما تقولين ؟ قالت : « أ ين قولَ النّدْمان لَهْفا ، لقد رأيت سُلَحْفا (٣) ، تجرِفُ الترابَ جَرْفا ، وتقذِفُ البول قَذْفاً » ؛ فدخلتُ الحديقة ،فإذا الشجر من غير ريح يتكَفّأ !

قال : ما تَرَيْنَ في ذلك ؟ قالت : هي داهية دَهْيَاء (٤) من أمور جسيمة ، ومصائبَ عظيمة ! قال : وما هو ويلك ! قالت : « أجل ؛ إن فيه الويل ، ومالَكَ فيه من قَيْل (٥) ، وإنّ الويل فيما يجيء به السيل » !

فألقى عمرو نفسه عن فراشه ، وقال : ما هذا يا طَرِيفة ! قالت : «خَطْبٌ جليل ، وحُزْنٌ طويل، وخَلَفٌ (٦) قليل!» قال . وما علامةُ ما تذكرين ؟ قالت : «اذهب إلى السدّ ، فإذا رأيت جُرَذاً (٧) يُكثِرُ بيديه في السدّ الحَفْر ، ويقلّب برجليه

---

(١) يميل · (٢) كهن له : قضى له بالغيب (٣) السلحفاة (٤) داهية دهياء : شديدة
(٥) قال قيلا : نام في القائلة ، وهي نصف النهار ، والمراد الإقامة والمكث .
(٦) الخلف : ما استخلفته من شيء (٧) ضرب من الفئران .

من أَجَلٍ الصخر ، فاعلم أن غَمْرَ الغَمْرِ[1] ، وأن قد وقع الأمر » .

قال : وما الذى تَذْكُرين أنه يقع ؟ قالت : «وعدٌ من الله تعالى نزل ، وباطل بَطل ، ونَكالٌ بنا نَكل ؛ فبغيرك يا عمرو يكون الثَّكل [2] »!

فانطلق عمرو فإذا الجُرَذ يقلب برجليه صخرةً ما يقلبُها خمسون رجلا ، فرجع إلى طَرِيفة فأخبرها الخبر ، وهو يقول :

أبصرتُ أمراً عادنى منـــه ألَمْ ... وهاج لى من هَوْله بَرْحُ السَّقَمْ [3]
من جُرَذٍ كفَحل خنزير الأُجُمْ [4] ... أو كَبْش صِرْمٍ [5] من أفاريق [6] الغَنَمْ
يَسْحَبُ صَخْراً من جلاميــد العَرِمْ ... له مخاليبُ وأنيـــابٌ قُضُمْ [7]
* ما فاتَه سَحْلاً [8] من الصخر قَصَمْ [9] *

فقالت طَرِيفة : وإن علامة ذلك الذى ذكرتُه لك أن تجلس فتأمر بزجاجة فتوضعَ بين يديك فإن الريحَ تملؤها من تراب البَطْحاء من سِهْلَةِ [10] الوادى ورَمْله ، وقد علمتَ أن الجِنانَ مُظَلَّلةٌ لا يدخلها شمسٌ ولا ريح .

فأمر عَمْرو بزجاجة فوُضِعَتْ بين يديه ، ولم تمكثْ إلا قليلًا حتى امتلأتْ من التراب ، فأخبرها بذلك ، وقال لها : متى يكونُ ذلك الخراب الذى يَحْدُث فى السدّ ؟ قالت : فيما بينى وبينك سبع سنين ! قال : ففى أيها يكون ؟ قالت : لا يعلم بذلك إلا الله تعالى ، ولو علمه أحدٌ لعلمتُه ، وإنه لا تأتى علىّ ليلة فيما بينى وبين سبع السنين إلا ظننتُ هلاكَه فى غَدِها أو مَسائها !

---

(١) الغمر : الماء الكثير .
(٢) الثكل : كسبب وقفل : الموت والهلاك (٣) البرح : الشدة (٤) الأجم : جمع أجمة ، وهو الشجر الكثير الملتف (٥) الصرم : الجماعة (٦) الأفاريق : الفريق تجمع على فرق ، وجمعت فى الشعر على أفارق وجمع الجمع أفراق وجمعه أفاريق (٧) قضم قضما : أكل بأطراف أسنانه .
(٨) سحله : قشره ونحته . (٩) قصم : كسر (١٠) السهلة : تراب كالرمل يجىء به الماء .

ثم رأى عمرو فى منامه سيلَ العَرِم [1] ، وقيل له : إن آيةَ ذلك أن ترى الحَصْباء قد ظهرت فى سعف النخل ؛ فنظر إليها فوجد الحصباء قد ظهرت فيها ، فعلم أنه واقعٌ ، وأن بلادَهم ستخرَب .

فكتم ذلك ، وأجمع على بَيْعِ كلِّ شىء له بأرضِ مَأْرِب ، وأن يخرج منها هو وولده ؛ ثم خشىَ أن تُنْكِرَ الناسُ عليه ذلك ، فأمر أحدَ أولادِه إذا دعاه لِمَا يدعوه إليه أَنْ يتأَبَّى عليه [2] ، وأن يفعلَ ذلك به فى الملأ من الناس ؛ وإذا لطَمَه يرفعُ هو يده ، ويَلْطِمُهُ .

ثم صنع عمرو طعاماً ، وبعث إلى أهل مَأْرِب : إن عمراً قد صنع طعاماً يوم مَجْدٍ وذكر ، فاحضَروا طعامه !

فلما جلس الناس للطعام جلس عنده ابنُه الذى أمره بما قد أمره ، فجعل يأمره فيتأَبَّى عليه ؛ فرفع عمرٌو يده فلطمه ، فلطمه ابنُه ؛ فصاح عمرو : واذلّاه يوم فخرِ عمرو! يهيجُهُ صَبِىٌّ ويَضْرِبُ وجهه ! وحلف ليقتلنّه ، فلم يزالوا به حتى تركه ، وقال : والله لا أقيمُ بموضع صُنِع هذا بى فيه ! ولأبيعنَّ أموالى حتى لا يرثَ بعدى منها شيئاً !

فقال الناسُ بعضهم لبعض : اغتنموا غَضْبَةَ عمرو ، واشتروا منه أمواله قبل أن يَرْضَى ؛ فابتاع الناسُ منه كلَّ ماله بأرض مَأْرِب ، وفشا بعضُ حديثه فيما بلغه من شأن سَيْلِ العَرِم ، فقام ناسٌ من الأَزْدِ فباعوا أموالَهم ؛ فلما أكثروا البيعَ استنكر الناسُ ذلك فأمسكوا عن الشراء ! فلما اجتمعت إلى عمرو أموالُه أخبر الناسَ بشأن السيل وخرج ، فخرج لخروجه منها بَشَرٌ كثير .

---

(١) العرم : السيل الذى لا يطاق ، وقيل : هو المطر الشديد وقيل هو اسم واد (٢) تأبى عليه : امتنع .

٢٧ - عُفَيْرَاءُ وَمَرْثَدُ بن عبد كُلَال *

قفل مَرْثَد (١) بن عبد كُلال من غَزَاةٍ غزاها بغنائمَ كثيرة ، فوفدَ عليه زعماء العرب وشعراؤها وخطباؤها يهنئونه ؛ فرفع الحجابَ عن الوافدين ، وأوسعهم عطاء ، واشتدَّ سُرُوره بهم .

فبينما هو كذلك إذ نام يوماً ؛ فرأى رُؤْيا فى المنام أخافَتْهُ وأذْعَرتْهُ ، فلما انْتَبَهَ أُنْسِيهَا ، حتى لم يذكر منها شيئاً،وثبت فى نفسه ارتياعُه بها ، فانْقَلَبَ سرورُه حزناً ، واحتجب عن الوفود ، حتى أساءوا به الظنّ .

ثم إنه حَشَر الكُهَّانَ : فجعل يخلو بكاهنٍ بعد كاهنٍ ، ثم يقول له : أخبرنى عما أُريدُ أن أسألَك عنه ! فيجيبه الكاهنُ : بأن لا علمَ عندى ! حتى لم يَدَعْ كاهناً عَلِمَه إلا كان إليه منه ذلك ! فتضاعفَ قَلَقُهُ ، وطالَ أَرَقُه ، وكانت أُمُّهُ قد تَكَهَّنَتْ (٢) ، فقالت له : أبيتَ اللعن أيُّها الملك ! إن الكواهنَ (٣) أهْدَى إلى ما تسألُ عنه ، لأنَّ أتباعَ الكواهن من الجان ، ألطفُ وأظرف من أتباع الكهان .

فأمر بحشْر الكواهن إليه ، وسألهنَّ كما سأل الكهان ، فلم يجدْ عند واحدة منهنَّ علماً مما أراد عِلْمَه ، ولما يئس من طَلِبَتِهِ سَلَا عنها ، ثم إنه بعد ذلك ذهب يتصيَّد ، فأوْغَل (٤) فى طَلَب الصيد ، وانفرد عن أصحابه ، فرُفعت له أبياتٌ من

---

* بلوغ الأرب : ٣ — ٢٩٦ ، الأغانى : ١٠ — ٢١

(١) هو أخو تبع بن حسان لأمه ، وكان ذا رأى وبأس وجود ، وملك إحدى وأربعين سنة.

(٢) تكهنت : قضت بالغيب (٣) الكواهن : جمع كاهنة (٤) أوغل فى طلب الصيد : بالغ فى ذلك وأمعن

ذَرَا (١) جبل ، وكان قد لَفَحَه (٢) الهَجِيرُ ، فعدَل إلى الأبيات ، وقصد بيتاً منها منفرداً عنها ، فبرزتْ إليه منه عجوز ، فقالت له : انزِلْ بالرَّحْب والسَّعة ، والأَمْن والدَّعة ، والجَفْنة المُدعْدَعة (٣) ، والعُلْبة (٤) المُتْرَعَة .

فنزل عن جَوَادِه ، ودخلَ البيت ، فلما احتجبَ عن الشمس ، وخفقت عليه الأَرْواح (٥) ، نام فلم يستيقظ حتى تصرَّم الهَجِيرُ ، فجلس يمسحُ عينيه ، فإذا بين يديه فتاةٌ لم يرَ مثلها قَوَاماً ولا جمالاً ؛ فقالت : أبيت اللعن أيُّهـا الملك الهُمَام ! هل لك فى الطعام ؟ فاشتدّ إشفاقُه ، وخاف على نفسه لَمَّا رأى أنها عرفته ، وتصامّ عن كلمتها ، فقالت له : لا حَذَر ، فِدَاكَ البَشر ، فجَدُّك الأكبر ، وحظُّنا بك الأَوْفَر .

ثم قرَّبت إليه ثريداً وقديداً وحَيْساً (٦) ، وقامت تَذُبُّ عنه حتى انتهى أكلُه ، ثم سقته لبناً صَرِيفاً وضَرِيباً (٧) ، فشرب ما شاء ، وجعل يتأَمَّلها مُقبِلةً مُدْبِرة ، فملأَت عينه حُسْناً ، وقلبهَ هوًى ، فقال لها : ما اسمُكِ ياجارية ؟ قالت : اسمى عُفَيراء ، فقال لها : ياعُفَيراء ، مَنِ الذى دعوتِه بالملك الهمام ؟ قالت : مَرْثد العظيم الشَّان ! حاشرُ الكواهن والكُهَّان ، لِمُعضِلة (٨) بَعُدَ عنها الجان !

فقال : يا عفيراء ، أتعلمين تلك المعضلة ؟ قالت : أجل أيها الملك ! إنهـا رؤيا مَنام ، ليست بأضغاث أحْلام !

قال الملك : أصبتِ ياعفيراء ! فما تلك الرؤيا؟ قالت : رأيتَ أعاصيرَ (٩) زوابع،

---

(١) ذرا الجبل : كنفه وستره (٢) لفحه : أحرقه ، والهجير : نصف النهار وشدة الحر .
(٣) الجفنة : القصعة ، والمدعدعة : التى ملئت بقوة ثم حركت حتى تراص ما فيها ، ثم ملئت بعد ذلك
(٤) العلبة : إناء من جلد الإبل أو من خشب يحلب فيها ، والمترعة : المملوءة .
(٥) الأرواح : جمع ريح (٦) القديد : اللحم المقدد ، والحيس : تمر وأقط وسمن .
(٧) الصريف : اللبن آن الحلاب يصرف عن الضرع إلى الشارب . والضريب : اللبن الذى يحلب من عدة لقاح فى إناء واحد فيضرب بعضه ببعض (٨) المعضلات : الشدائد : وبعد عنها الجان : لم يطيقوها (٩) الأعاصير الزوابع : هى من الرياح ما يثير التراب فيعليه فى الجو ويديره .

بعضُها لبعض تابع ،فيها لَهَبٌ لا مع . ولما دُخَان ساطع (١) يقفوها نهرٌ مُتدَافِع ، وسمعتَ فيما أنتَ سامع، دعاء ذي جَرْس (٢) صادع : هلموا إلى المشارع (٣) ؛فرَوِيَ جارع (٤) ، وغَرِق كارع (٥) !

فقال الملك : أجَلْ ! هذه رؤياى ! فما تأويلُها يا عُفيراء ؟ قالت : الأعاصير الزوابع ملوك تبَابع (٦) . والنهر علم واسع . والداعى نبيٌّ شافع . والجارع ولىٌّ تابع والكارع عدو منازع !

فقال الملك : ياعفيراء ، أسِلْمٌ هذا النبىُّ أم حرب؟ فقالت: أُقْسِمُ برافعِ السماء؛ ومُنزلِ الماء من العَمَاء (٧) ، إنه لَمطِلٌ (٨) الدماء ، ومُنَطِّقُ (٩) العقائل نُطُقَ الإماء .

فقال الملك : إلامَ يدعو يا عفيراء ؟ قالت : إلى صلاةٍ وصيامٍ ، وصلةِ أرْحَامٍ، وكَسْرِ أصنام ، وتعطيل أزْلام (١٠) ، واجتناب آثام !

فقال الملك : يا عُفَيْرَاء ؛ إذا ذبحَ قومُهُ فمن أعضادُه (١١) ؟ قالت : أعضادُه غطاريفُ (١٢) يمانُون، طائرُهم به ميمون ، يُغزِيهم فيَغزون ؛ ويُدَمِّثُ (١٣) بهم الحُزُون ، وإلى نَصْرِه يَعْتَزُون !

فأطرق الملك يُؤامِرُ (١٤) نَفْسَه فى خطبتها ؛ فقالت : أبيت اللعن أيها الملك! إن تابعى غَيور ، ولأمرى صَبُور ، والكَلَفُ بى ثُبُور (١٥) .

فنهض الملك،وحَالَ (١٦) فى صَهْوَةِ جواده وانطلق؛فبعث إليها بمائة ناقة كَوْماء (١٧) !

---

(١) ساطع : مرتفع (٢) الجرس : الصوت (٣) المشارع : جمع مشرعة وهى التى ينحدر إليها الماء (٤) أى من شرب جرعا روى (٥) أى ومن أمعن فى الشرب غرق (٦) التبابع جمع تبع ، وهو لقب لملوك اليمن (٧) العماء : السحاب الكثيف (٨) طل دمه . هدر ، أو ألا يثأر به (٩) منطق العقائل : الكرائم من النساء ؛ أى يسبيهن فيشددن النطق على أوساطهن كالإماء للمهنة والخدمة .

(١٠) الأزلام : سهام كانوا يستقسمون بها فى الجاهلية ؛ أى يطلبون معرفة ما قسم لهم .

(١١) الأعضاد : الأنصار : أى إذا قطعوه وتركوا نصرته (١٢) الغطاريف : السادة ، وتريد الأنصار وهم من أهل اليمن (١٣) يدمث : يسهل (١٤) يؤامر نفسه : يشاور (١٥) ثبور: هلاك

(١٦) حال : أى وثب واستوى ، والصهوة : مقعد الفارس من ظهر فرسه (١٧) الكوماء : الناقة العظيمة السنام .

٢٨ - كاهنة بني سعد*

نذَر عبدُ المطلب بن هاشم أنه متى رُزق عشرة أولاد ذكوراً ، ورآهم بين يَدَيْهِ رجالًا أن ينحرَ أحدَهم عند الكَعْبَةِ شكراً لربه !

فلما استكمل وَلَدُه العَدد ، وصاروا مِنْ أظْهرِ العُدَد ، قال لهم : يابَنيَّ ؛ كنتُ نذَرْتُ نَذْراً علمتموه قبل اليوم ، فما تقولون ؟

قالوا : الأمرُ لك وإليك . ونحنُ بين يديك ! فقال : لينطلقْ كلُّ واحدٍ منكم إلى قِدْحِه (١) ، وليكتبْ عليه اسمه ، ففعلوا ؛ ثم أتَوْه بالقِدَاح فأخذها .

ثم دعا بالأمين الذى يَضْرِبُ بالقداح ، فدفع إليه قِدَاحَهم ، وقال : حرِّك ولا تَعْجَلْ .

وكان أحبَّ ولد عبد المطلب إليه عبدُ الله . فضرب صاحبُ القِداح السهمَ ، فخرج على عبد الله ؛ فأخذ عبد المطلب الشَّفْرَة (٢) ، وأتى بعبد الله وأضجعه بين إساف (٣) ونائلة .

وهمّ بذبحه ، فوثب إليه ابنُه أبو طالب ، وكان أخا عَبْدِ الله لأبيه وأمّه ، وأمسك بيده عن أخيه .

فلما سمعت بنو مخزوم بذلك ـ وكانوا أخواله ـ وثَبُوا إلى عبد المطلب ، فقالوا : يا أبا الحارث ، إنا لا نُسلم إليك ابنَ أختنا للذبح ، فاذبحْ مَنْ شئتَ مِنْ ولدك غيره !

---

* بلوغ الارب : ٣ ـ ٤٦ ، ابن هشام : ١ ـ ١٠٣ ، الطبرى : ٢ ـ ١٧٤

(١) القدح : السهم (٢) الشفرة : السكين العظيم (٣) إساف ونائلة : صنمان كانا لقريش ، وضعهما عمرو بن لحى على الصفا والمروة ، وكان يذبح عليهما تجاه الكعبة .

فقال : إنى نذرتُ نذراً ، وقد خرج القِدْح ، ولا بدّ من ذبحه ! قالوا : كلّا ! لا يكونُ ذلك أبداً ، وفينا روُح ؛ وإنا لنفْديه بجميع أموالنا من طارفٍ وتالد .

ثم وثب الساداتُ من قريش إلى عبد المطلب ، فقالوا : يا أبا الحارث ؛ إن هذا الذى عزمْتَ عليه لعظيم ، وإنك إن ذبحتَ ابنَك لم تَتَهنَّأ بالعيش من بعده ، ولكن تثبتْ حتى نصيرَ معك إلى كاهنةِ بنى سعد ، فما أمرتْك من شىء فامْتَثِلْه .

فقال عبد المطلب : لكم ذاك .

ثم خرج فى جماعةٍ من بنى مَخْزُومْ نحو الشام [1] إلى الكاهنة ؛ فلما دخلوا عليها أخبرَها عبدُ المطلب بما عزَم عليه من ذَبْح ولده . فقالت الكاهنةُ : انصرفوا عنى اليوم . فانصرفوا .

وعادوا من الغَدِ ، فقالت : كم دِيَةُ الرجلِ عندكم ؟ قالوا : عشر من الإبل . قالت : فارجعوا إلى بلدكم ، وقرّبوا هذا الغلام الذى عزمتم على ذبحه ، وقدّموا معه عشراً من الإبل ، ثم اضربوا عليه وعلى الإبل القِدَاح ، فإن خرج القِدْحُ على الإبل فانحروها ، وإن خرج على صاحبكم فزِيدوا على الإبل عشراً عشراً حتى يَرْضَى ربكم .

فانصرف القومُ إلى مكةَ ؛ وأقبلوا عليه يقولون : يا أبا الحارث ؛ إن لكَ فى إبراهيمَ أسوةً حسنة ؛ فقد علمْتَ ما كان من عَزْمه على ذبح ابنه إسماعيل وأنت سيدُ ولد إسماعيل ، فقدّم مالَك دون ولدك !

فلما أصبحَ عبدُ المطلب قرّبَ عَبْدَ الله وعشراً من الإبل ، ثم دعا بأمينِ القِدَاح وجعل لابنه قِدْحاً ، وقال : اضرب ولا تَعْجَلْ ، فخرج القِدْحُ على عبد الله ،

(١) فى سيرة ابن هشام والطبرى : فانطلقوا حتى قدموا المدينة .

فجعلها عشرين ، فضرب فخرج على عبد الله ؛ فجعلها ثلاثين فضرب فخرج القِدْح على عبد الله ؛ فجعلها أربعين ، . . . وكلما خرج القِدْح على ابنه زادها عشراً ، حتى جعلها مائة ، فضرب فخرج القِدْح على الإبلِ ، فكبّر عبدُ الله وكبّرت قريش ، وقالت : يا أبا الحارث ؛ إنه قد رَضِيَ رَبُّك ، وقد نجا ابنُك من الذبح .

فقال : لا والله حتى أضرِب عليه ثلاثاً ! فضرب الثانيةَ فخرج على الإبل ، فضرب الثالثة فخرج على الإبل ، فعلم عبدُ المطلب أنه قد بلغ رِضاَ ربه فى فِدَاء ابنه .

فقُرّبت الإبلُ ، وهى مائةٌ من جِلّة إبلِ عبد المطلب ، فنُحِرَت كلها ، فداء لعبد الله ، وتُرِكَتْ فى مواضعها ، لا يُصَدُّ عنها أحدٌ ينتابها ممن دبّ ودرّج (١) ؛ وانصرف عبد المطلب بابنه عبد الله فرحاً .

---

(١) درج : مشى ودب : مشى على هينته ، و المقصود كل واحد .

٢٩ - كهانة سَطيح*

لما كانت الليلة التي وُلد فيها رسولُ الله ارتجس [1] إيوانُ كسرى ، وسقطت منه أربعَ عشرةَ شُرْفَة ، وخمدت نارُ فارس ، ولم تخمُد قبل ذلك مائةَ عام ، وغاضت بُحيرة ساوَةَ ، ورأى المُوبذان إبلًا صِعابًا [2] ، تقودُ خيلًا عِرَابًا [3] ، قد قطعت دِجْلة وانتشرت في بلادها .

فلما أصبح كسرى أفزَعَهُ ما رأى ، فصبر تشجّعًا ، ثم رأى ألا يكتمَ ذلك عن وزرائه ومرازبته [4] ؛ فلبس تاجَهُ ، وقعد على سريره ، وجمعهم إليه . فلما اجتمعوا أخبرهم بالذى بعث إليهم فيه ؛ فبينما هم كذلك إذ ورد عليه كتابٌ بخمود النار ؛ فازداد غما إلى غمّه ، فقال المُوبذان [5] : وأنا — أصلح الله الملك — قد رأيتُ في هذه الليلة رؤيا ، وقصّ عليه الرؤيا في الإبل ، فقال له : وأىّ شيء يكون هذا يامُوبذان، وكان أعلمَهم عند نفسه بذلك — فقال : ما عندى فيها ولا في تأويلها شيء ، ولكن أرسل إلى عاملك بالحيرة يوجه إليك رجلا من علمائهم ، فإنهم أصحاب علم بالحِدْثان. فكتب عند ذلك : « من كسرى ملك الملوك إلى النعمان بن المنذر ، أما بعد ، فوجِّهْ إلىّ رجلا عالما بما أريدُ أن أسألَه عنه » . فوجَّه إليه عبد المسيح بن عمرو بن بُقَيْلَةَ [6] الغسّاني .

فلما قدم عليه ، قال له : أعندك علم بما أريد أن أسألك عنه ؟ قال : ليخبرْنى

---

* السيرة الحلبية : ١ — ٧٠ ، بلوغ الأرب : ٣ — ٢٨١ ، العقد الفريد : ٢ — ١٠٨ ، الطبرى ٢ — ١٣١ ، لسان العرب — مادة سطح ، الفائق للزمخشرى : ١ — ٤٦٠ .

(١) ارتجس : ارتجف (٢) بعير صعب : غير منقاد (٣) خيل عراب : عربية منسوبة إلى العرب (٤) المرازبة : جمع مرزبان : وهو الفارس الشجاع المقدم على القوم دون الملك (٥) الموبذان : للمجوس كقاضى القضاة للمسلمين (٦) فى اللسان : نفيلة .

الملك فإنْ كان عندى منه علم وإلّا أخبرتُه بمَنْ يعلمه له . فأخبرَه بما رأى ، فقال : علمُ ذلك عند خالٍ لى يسكن مَشارِفَ الشام ، يقال له سَطِيح . قال : فأْتِه فاسأله عما سألتُك وأتنى بجوابه ، فركب عبدُ المسيح راحلتَه حتى قدم على سَطيح وقد أشفى على الموت ، فسلّم عليه وحيّاه فلم يجبه ، وكلّمه فلم يردّ عليه ، فقال :

أصمّ أم يَسْمَعُ غِطْرِيفُ[1] اليمنْ ... أمْ فَادَ فازْلَمّ بِهِ شَأْوُ الْعَنَنْ[2]
يا فاصِلَ الخطّةِ أعيتْ مَنْ ومَنْ ... أتاكَ شيخُ الحىِّ من آلِ سَنَنْ
وأمّـــه من آلِ ذِئْبِ بنِ حَجَنْ ... أبيَضُ فَضْفاضُ[3] الرِّدَاء والبَدَنْ
رَسُولُ قَيْلِ[4] العُجْم يسرى للوَسَنْ ... لا يرهب الرَّعْدَ وَلَا رَيْبَ الزَّمَنْ
تَجُوبُ بِى الأرْضَ عَلَنْدَاةٌ شَزَنْ[5] ... تَرْفَعُنى وَجْنٌ[6] وتَهْوِى بى وَجَنْ
حتّى أتى عارِى الجآجِى والقَطَنْ[7] ... تلُفُّه فى الريحِ بَوْغَاءُ الدِّمَنْ[8]

فلما سمع سَطيح شعره رفع رأسه وقال : عبدُ المسيح ، على جملٍ مُشيح[9] جاء إلى سَطيح ، وقد أوفى على الضريح[10] بعثك ملكُ بنى ساسان ، لارتجاس الإيوان ، وخُمود النيران ، ورؤيا المُوبذان : رأى إبلا صِعابًا ، تقود خيلا عِرابًا ، قد اقتحمتْ فى الواد ، وانتشرت فى البلاد ؛ ثم قال : يا عبدَ المسيح ؛ إذا كَثُرت التلاوة ، وبُعِثَ صاحبُ الهِرَاوة[11] ، وفاض وادى السَّماوة ، وغاضَتْ بُحيرة ساوَة ، وخمدت نار الفرس ، فليست الشامُ لسطيح شاما ، يملك منهم مُلوكٌ ومَلِكات ، على عدد

(١) الغطريف : السيد العريف (٢) فاد : مات ، وأزلم : ذهب مسرعاً . وشأوه . سبقه إليه ، والعنن : ما ينوبك من عارض (٣) فضفاض : واسع (٤) القيل : الملك أو هو دون الملك (٥) علنداة : ناقة ضخمة طويلة ، وشزن : فيها نشاط (٦) الوجن : هى الأرض الغليظة الصلبة (٧) القطن : أسفل الظهر (٨) البوغاء : التراب الناعم . والدمن : ما تدمن منه أى تجمع (٩) مشيح : جاد مسرع (١٠) الضريح : القبر ، والمراد الموت (١١) الهراوة : العصا ، وصاحب الهراوة هو سيدنا محمد ، لأنه كان يمسك العصا كثيراً عند مشيه .

الشُّرفات ؛ وكل ماهو آتٍ آت ، ثم قُبِض سطيحٌ مكانه ، ونهض عبد المسيح إلى راحلته وهو يقول :

شمِّرْ فإنكَ ما عُمِّرتَ شِمِّيرُ ... لا يُفزِعَنَّكَ تفريقٌ وتغييرُ
إن يُمسِ مُلكُ بني ساسانَ أفرَطَهُمْ ... فإنَّ ذا الدهرَ أطوارٌ دَهارِيرُ [1]
فربَّما ربما أضحَوْا بمنزلةٍ ... تهابُ صَولَهُمُ أسدٌ مَهاصيرُ [2]
منهم أخو الصَّرحِ بَهرامٌ وإخوتُهُمْ ... وهُرْمُزانٌ وسابورٌ وسابورُ
والناسُ أولادُ عَلّاتٍ [3] فمَنْ عَلِموا ... أن قد أقلَّ فمهجورٌ ومحقورُ
وهمْ بنو الأمِّ لمّا أنْ رأَوْا نَشَباً ... فذاكَ بالغيبِ محفوظٌ ومنصورُ
والخيرُ والشرُّ مقرونانِ في قَرَنٍ [4] ... فالخيرُ مُتَّبَعٌ والشرُّ محذورُ

فلما قدم عبد المسيح على كسرى أخبره بقول سَطيح . فقال : إلى أن يملك منا أربعةَ عشرَ ملكا تكون أمور ، ويدور الزمان . فملك منهم عشرة في أربع سنين ، وملك الباقون إلى زَمَن عثمان بن عفان رضى الله عنه !

---

(١) أفرطهم : تركهم . والدهارير : تصاريف الدهر ونوائبه ، مشتق من لفظ الدهر ليس له واحد من لفظه كعبابيد (٢) المهاصير : جمع مهصار أو مهصير ، وهو الأسد (٣) أولاد العلات : أولاد أمهات شتى لرجل واحد . (٤) القرن : الحبل .

٣٠ - مَصْرع العُزَّى*

كانت العُزَّى شيطانةً تأتى ثلاث سَمُراتٍ[1] ببطن نَخْلَة[2] . فلما افتتح النبى صلى الله عليه وسلم مكةَ بعث خالدَ بن الوليد ، فقال له : إيت بطنَ نخلة ؛ فإنك تجد ثلاثَ سمُراتٍ فاعضدِ[3] الأولى ! فأتاها فعضدَها. فلما جاء إليه ـ عليه السلام ـ قال : هل رأيتَ شيئًا ؟ قال : لا . قال : فاعضِدِ الثانية ! فأتاها فعضَدها . ثم أتى النبيَّ عليه السلام ، فقال : هل رأيت شيئًا ؟ قال : لا. قال : فاعضدِ الثالثة! فأتاها، فإذا هو بحبشيَّة نافشةٍ شعرَها ، واضعةٍ يديْها على عاتقها ، تَصرِف[4] بأنيابها ، وخلفَها دُبَيَّة بن حَرَمىّ الشَّيبانى وكان سادِنَها[5] ـ فلما نظر إلى خالد قال :

أعُزَّاء شُدِّى شَدَّةً لا تُكذِّبى على خالدٍ ! ألقِى الخِمارَ وشَمِّرِى !
فإنك إلّا تَقْتُلى اليومَ خالدا تبُوئى بذُلٍّ عاجلاً وتَنَصَّرِى

فقال خالد :

ياعُزُّ كفرانَك لا سبحانَكِ إنى رأيتُ الله قد أهانَكِ !

ثم ضربها ففلقَ رأسَها ، فإذا هى حُمَمَة[6] . ثم عضَدَ الشجرة ، وقتل دُبَيَّة السّادِن . ثم أتى النبى صلى الله عليه وسلم ، فأخبرهُ . فقال : « تلك العُزَّى ، ولا عُزَّى بعدها للعرب ! أما إنها لن تُعْبَد بعد اليوم » .

---

* الأصنام لابن الكلبى : ٢٥ .

(١) سمرات جمع سمرة ، وهى نوع من الشجر (٢) بطن نخلة : قرية من المدينة .
(٣) فاعضد : فاقطع . (٤) تصرف : تصوت (٥) السادن : خادم الكعبة وبيت الأصنام
(٦) الحمم : الفحم ، واحدته بهاء .

٣١ - أُمَيَّةُ بنُ أبِي الصَّلْتِ ورؤيا شَقِّ الصَّدرِ *

دخل يوماً أمية [1] بن أبي الصَّلْت على أُخْتِهِ ، وهى تُهيِّئُ أَدَماً [2] لها، فأدركه النَّوْم ؛ فنام على سَرِيرٍ فى ناحية البيت ، ثم انشقَّ جانبٌ من السقف فى البيت ، وإذا بطائرَيْن قد وقع أحدُهما على صَدْرِه ؛ ووقف الآخرُ مكانه ، فشقَّ الواقعُ صدرَه فأخرج قلبَه فشقَّه ، فقال الطائر الواقف للطائر الذى على صدره : أَوَعَى ؟ قال : وَعَى ، قال : أَقَبِلَ ؟ قال : أَبَى . قال : فرُدَّ قلبَه فى موضعه . ثم نهض فأتبعهما أمية طَرْفَهُ ، وقال :

لَبَّيْكما لبيكما هأنذا لَدَيْكُما

لا برىء فأعتذر ، ولا ذو عشيرة فأَنْتَصِر .

فرجَع الطائر فوقع على صـدره فشقَّه ، ثم أخرج قلبَه فشقه ؛ فقال الطائر الأعلى : أوَعى ؟ قال : وَعَى ، قال : أقَبِل ؟ قال : أبى ؛ ونهض ، فأتبعهما أمية بصرَه وقال :

لبيكما لبيكما هأنذا لديكما

لا مالٌ يغنينى ؛ ولا عشيرةٌ تحمينى . فرجَع الطائر فوقع على صدره فشقَّه ؛ ثم أخرج قلبه فشقَّه . فقال الطائر الأعلى : أوَعَى ؟ قال : وَعى . قال : أقبِلَ ؟ قال : أبى . ونهض فأتبعهما أمية بصره ، وقال :

---

* الأغانى : ٤ ــ ١٢٧

(١) كان أمية قد نظر فى الكتب وقرأها قبل بعثة النبى صلى الله عليه وسلم ولبس المسوح تعبدا، وحرم الخمر ، وشك فى الأوثان . ولما بعث النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إنما كنت أرجو أن أكونه » . ولم يسلم (٢) تهيئه وتقدره قبل القطع وتقيسه لتقطع منه مزادة أو قربة أو خفا .

لبيكما لبيكما هأنذا لديكما

محفوفٌ بالنعم ، محوط من الرِّيَب . فرجع الطائرُ فوقع على صدره فشقَّه ، وأخرج قلبه فشقَّه ، فقال الأعلى : أوَعَى ؟ فقال : وَعى . قال : أقَبِل ؟ قال : أبى . ونهض فأتبعهما أمية بَصَرَه ، وقال :

لبيكما لبيكما هأنذا لديكما
إنْ تَغْفِرِ اللهم تَغْفِرِ جمّا وأىُّ عبدٍ لك لا ألمّا(١)

قالت أخته : ثم انطبقَ السقف ؛ وجعل أمية يمسح صدرَه ، فقلت : يا أخى ، هل تجدُ شيئاً ؟ قالَ : لا ، ولكنى أجد حرًّا فى صدرى ، ثم أنشأ يقول :

ليتنى كنتُ قبلَ ما قد بدا لى فى قِنَانِ(٢) الجبال أرْعى الوُعُولا
اجعَلِ الموتَ نُصْبَ عينيك واحذَرْ غَوْلَةَ الدهرِ إن للدهر غُولَا(٣)

---

(١) ألم : ارتكب اللمم ، وهو صغار الذنوب (٢) القنان : أعالى الجبال ، واحدها قنة .
(٣) كل ما اغتال الإنسان فأهلكه .

٣٢- أم العَــوّام !*

خرج رَكبٌ من ثَقِيف إلى الشام ، وفيهم أُميةُ بنُ أبى الصَّلت ، فلما قَفَلوا راجعين نَزلوا منزلا ليتعشَّوْا بعَشَاء ، إذْ أقبلت عَظَايةٌ [1] حتى دَنَتْ منهم ، فَحَصَبَها بعضُهم بشىء فى وَجْهِها ، فرجعت ، وكفتُوا [2] سُفرَتَهُمْ ، ثم قاموا يرحَلون مُمْسين ، فطلعت عليهم عجوزٌ من وراء كثيبٍ مقابلٍ لهم تتوكَّأ على عصا ، فقالت : مامنعكم أن تُطعِمُوا رَجيمةَ ، الجاريةَ اليتيمةَ ، التى جاءتكم عَشِيّة ! قالوا : ومن أنتِ ؟ قالت : أنا أمّ العوّام ، إمْتُ [3] منذُ أعوام ؛ أما وربِّ العباد ، لتَفترقُنّ فى البلاد ! وضربَت بعصاها الأرْضَ ، ثم قالت ؛ بَطِّئى إيابَهم ، ونَفِّرى ركابَهم ؛ فوثبتِ الإبلُ كأنَّ على ذِرْوَةِ كلٍّ بعيرٍ منها شيطاناً ، مايُمْلَكُ منها شىء ، حتى افترقت فى الوادى .

قال الراوى : فجمعناها فى آخرِ النهار من الغَدِ ولم نَكَدْ ، فلما أنخْنَاها لنُرحِلَها طلعت علينا العجوزُ ، فضربت الأرضَ بعصاها ، ثم قالت كقولها الأول ، ففعلت الإبلُ كفعلها بالأمس ، فلم نَجْمعها إلا الغَدَ عشية ؛ فلما أنخْنَاها لنُرحِلها أقبلت العجوز ، ففعلت كفعلها فى اليومين ، ونفَرت الإبل .

فقلنا لأُميَّة : أينَ ما كنتَ تُخبرنا به عن نفسك ؟ فقال : اذهَبُوا أنتم فى طلب الإبل ودَعُونى ؛ فتوجّه إلى ذلك الكثيبِ الذى كانت العجوزُ تأتى منه حتى عَلَاه،

---

* الأغانى : ٤ ـ ١٢٥ .

(١) العظاية : دويبة ملساء ، تشبه سام أبرص ، من طبعها أنها تمشى مشيا سريعاً ثم تقف .

(٢) كفت الشىء : ضم بعضه إلى بعض . والسفرة : مايبسط تحت الخوان من جلد أو غيره .

(٣) آمت المرأة : إذا فقدت زوجها .

وهبط منه إلى وادٍ ؛ فإذا فيه كنيسةٌ وقناديل ، وإذا رجلٌ أبيضُ الرأسِ واللحية مُضْطَجع معترض على بابها ؛ فلما رأى أميةَ قال : إنك لمَتْبُوع ، فمن أين يأتيك صاحبُك ؟ قال : من أذني اليسرى ؛ قال : فبأى الثياب يأمُرك ؟ قال : بالسَّواد ؛ قال : هذا خَطيب الجنّ ، كدتَ والله أنْ تكونه ولم تفعل ؛ إن صاحبَ النبوّة يأتيه صاحبُه من قِبَل أذنِه اليُمنى ، ويأمُره بلباس البياض ، فما حاجتُك ؟ فحدَّثه حديثَ العجوز ؛ فقال : هى امرأةٌ يهودية من الجن ، هلك زوجُها منذ أعوام ، وإنها لن تزالَ تصنعُ ذلك بكم حتى تُهلِككم إن استطاعت .

فقال أمية : وما الحيلةُ ؟ فقال : جمّعوا ظَهْرَكم[1] ؛ فإذا جاءتكم ففعلتْ كما كانت تفعلُ فقولوا لها : « سَبْع من فوق ، وسَبْع من أسفل ، بِاسْمِك اللهمّ » ! فلن تضرّكم .

فرجع أميةُ إليهم وقدِ جمّعوا الظّهر ؛ فلما أقبلت قال لها ماأمرَه به الشيخ ، فلم تضرّهم . فلما رأتِ الإبلَ لم تَتَحرّكْ قالت : قد عرفتُ صاحبَكم ، وليَبْيَضنّ أعلاه ، وليَسْوَدَّنّ أسفلُه ؛ فأصبح أمية وقد برِص فى عِذارَيْه واسودّ أسفلُه .

فلما قدِموا مكةَ ذكروا لهم هذا الحديث ؛ فكان ذلك أولَ ما كَتَبَ أهلُ مكة : « باسْمِك اللهم » فى كُتُبهم !

(١) الظهر : الركاب التى تحمل عليها الأثقال فى السفر .

٣٣ - عُمَارة بن الوَليد وَالسَّواحِر*

كان عُمَارَةُ (١) بن الوليد المخزومى قد خرج هو وعَمْرو بن العاص بن وائل السَّهْمى - وكانا كلاهما تاجرين - إلى النجاشى ، وكانت أرضُ الحبشة لقريش مَتجَراً وَوَجْهاً ، وكلاهما مُشرِكٌ شاعر فاتك وهما فى جاهليَّتهما ؛ وكان عُمارة مُعْجَباً بالنساء صاحبَ مُحادثة ، فركبا فى السفينة ليالىَ . وحذِر عمرٌو على زوجته من عُمارة ، فجعل إذا شرب معه أَقَلَّ عمرٌو من الشراب ، وأَرَقَّ لنفسه بالماء ؛ مخافةَ أن يسكر فيغلبَه عُمَارةُ على أهله .

ثم إن عَمْراً جلس إلى ناحية السفينة ، فدفعه عُمَارة فى البحر . فلما وقع فيه سبح حتى أخذ بالقَلْس (٢) ، فارتفع فظَهَرَ على السفينة . فقال له عُمَارة : أما والله لو علمتُ ياعمرو أنك تُحْسن السِّباحة ما فعلْتُ ؛ فاضطَغَنَها عمرو، وعلم أنه أراد قتله .

فمضيا على وجههما ذلك ، حتى قدِما أرضَ الحبشة ونزلاها ، وكتب عمرو بن العاص إلى أبيه العاص : أن أخْلَعْنى (٣) ، وتبرأْ من جَرِيرَتى (٤) إلى بنى المُغيرة وجميع بنى مخزوم . وذلك أنه خشى على أبيه أن يُتْبَع بجريرته وهو يَرْصُدُ (٥) لعُمارة مايَرصد.

فلما ورد الكتابُ على العاص بن وائل مشى فى رجالٍ من قومه إلى بنى المغيرة

---

* الأغانى : ٩ - ٥٦ .

(١) عمارة بن الوليد : هو الذى دفعت به قريش إلى أبى طالب حين طلبوا إليه أن يسلم إليهم محمدا (ص) ويأخذه عوضا عنه (٢) القلس : حبل غليظ من حبال السفن (٣) يقولون : إنا خلعنا فلاناً ، فلا نأخذ أحداً بجناية تجنى عليه ، ولا نؤاخَذ بجناياته التى يجنيها . (٤) جريرتى: جنايتى (٥) رصده رصداً ؛ رقبه .

وغيرهم من بنى مخزوم ؛ فقال : إن هذين الرجُلَيْنِ قد خرجا حيث علمتم ، وكلاهما فاتكٌ صاحبُ شَرّ ، وهما غَيرُ مأمونَيْن على أنفسهما ، ولا ندرى مايكون ؛ وإنى أبْرَأُ إليكما من عَمْرٍو من جَرِيرته ، وقد خلعتُه .

فقالت بنو المغيرة و بنو مخزوم : أنت تخاف عَمْراً على عُمارة ! وقد خَلَعْنا نحن عُمَارةَ ، وتبرأنا إليك منْ جَرِيرته ، فَخَلِّ بين الرجلين .

فقال السَّهميُّون[1] : قد قَبِلنا ؛ فابعثوا مُنَادِياً بمكة : إنّا قد خلعناهما ، وتَبَرَّأَ كلُّ قوم من صاحبهم ومما جرّ عليهم . فبعثوا منادياً يُنَادِي بمكة بذلك . فقال الأسود ابن المطَّلب : بَطَلَ والله دمُ عُمَارة بن الوليد آخرَ الدهر !

فلما اطمأنَّا بأرض الحبشة لم يلبث عُمارة أن دَبَّ لامرأةٍ عند النجاشي فأدخَلَته فاختلف إليها . وجعل إذا رجع يُخْبِر عَمْرو بن العاص بما كان من أمره . فجعل عمرو يقول : ماأصدِّقُ أنك قدَرتَ على هذا الشأن ! إن المرأة أرفعُ من ذلك .

فلما أكثر على عمرو بما كان يخبرُه قال له: إن كنتَ صادقاً فقل لها : تَدْهُنُك من دُهْنِ النجاشي الذى لا يدَّهِنُ به غيرُه فإنى أعرفه ، لو أتيتَنى به لصدَّقتُك ! ففعل عُمارةُ فجاء بقارورة من دُهْنه ؛ فلما شمَّه عرَفه . فقال له عمرو عند ذلك : أنت صادق ! لقد أصبتَ شيئاً ماأصاب أحدٌ مثلَه قطُّ من العرب ، ونلتَ من المرأة شيئاً ؛ ماسمعنا بمثل هذا ــ وكانوا أهلَ جاهلية ــ ثم سكت عنه ؛ حتى إذا اطمأنَّ دخل على النجاشي فقال : أيها الملك ! إن ابن عمى سَفيهٌ ، وقد خشيتُ أن يَعُرَّنى[2] عندك أمرُه ، وقد أردتُ أن أُعلِمك شأنَه ؛ ولم أفعل حتى استبنتُ أنه قد دخَل على بعض نسائك ، وهذا من دُهْنِك قد أعْطيَه وَدَهننى منه .

(١) السهميون : قوم عمرو بن العاص . (٢) عره : لطخه بعيب .

فلما شمَّ النجاشى الدُّهن قال : صدَقتَ . هذا دُهنى الذى لا يكون إلاعندى. ثم دعا بِعُمَارةَ ودعا بالسَّوَاحِرِ فجرَّدوه من ثيابه فَنفخْنَ فيه ، ثم خلّى سبيله ؛ فخرج هاربًا .

فلم يزل بأرض الحبشة حتى كانت خلافةُ عمرَ بنِ الخطاب ؛ فخرج إليه عَبْدُ الله بن أبى ربيعة ، فرَصَده على ماء بأرض الحبشة ، وكان يَرِدُه مع الوحش فورَد ، فلما وجد رِيْحَ الإنْسِ هرَب ، حتى إذا أجهده العطشُ ورَد فشرِب حتى تملّأ(١) ونفر ، فخرجوا فى طلبه .

قال عبدُ الله بن ربيعةَ : فسعيتُ إليه فالتزمته ؛ فجعل يقول لى : يابَحِير(٢) ؛ أرْسِلْنى ! يابحير أرسلنى ، إنى أموت إن أمسكتمونى .

قال عبد الله : وضغطتُه فمات فى يدى مكانه . فواريتُه ثم انصرفت ، وكان شَعرُه قد غطى كل شىْ منه

---

(١) امتلأ (٢) كان اسم عبد الله فى الجاهلية بحيراً ، وسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله .

٣٤ـ في حَفْرِ زَمْزَم*

قال عبدُ المطَّلب بن هاشم : إنى لنائم فى الحِجْرِ[١] إذ أتانى آتٍ ، فقال : احفِر طِيْبَةَ[٢] ، قلت : وما طِيبَة ؟ فذهب عنى . فلما كان من الغدِ رجعت إلى مَضْجَعى ، فنمتُ فيه ، فجاءنى فقال : احْفِر بَرَّة[٣] ، فقلت : وما بَرَّة ؟ فذهب عنى. فلما كان الغَدُ رجعتُ إلى مضجَعى فنمتُ فيه ، فجاءنى فقال: احْفِر المَضْنُونة[٤] ، فقلت : وما المضنونة ؟ فذهب عنى . فلما كان الغد رجعتُ إلى مضجعى ، فنمتُ فيه فجاءنى ، فقال : احْفِر زمزم ، إنك إن حفرتها لا تندم . فقلت : وما زمزم ؟ قال : لا تُنْزَفُ أبداً ولا تُذَمّ[٥] ، تَسقِى الحَجِيجَ الأعظم ، وهى بين الفَرْثِ والدم[٦] ، عند نُقْرَةِ الغُرَاب الأعصم[٧] ، عند قَرْيَةِ[٨] النمل .

قال ابن إسحاق : فلما بيَّن له شأنَها ، ودلَّه على موضعها ، وعرف أنه قد صدق

---

* سيرة ابن هشام : ١ ـ ٩٨ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٢ ـ ٢٢٤

(١) الحجر : ما حواه الحطيم المدار بالكعبة من جانب الشمال (٢) طيبة بكسر الطاء : اسم زمزم ، قيل سميت بذلك لأنها للطيبين والطيبات من أولاد إسماعيل. أما طيبة بفتح الطاء فهى اسم لمدينة الرسول

(٣) برة : اسم لزمزم أيضاً . قال فى الروض الأنف : هو اسم صادق عليها لأنها فاضت للأبرار

(٤) المضنونة : سميت المضنونة ، لأنه ضن بها على غير المؤمنين (٥) لاتذم : من قول العرب: بئر ذمة ، أى قليلة الماء ، والمعنى أن ماءها لاينقطع أبدا (٦) روى أنه لما قام ليحفرها رأى ما رسم له من قرية النمل ونقرة الغراب ولم ير الفرث والدم ، فبينا هو كذلك ندت بقرة من جازرها ، فلم يدركها حتى دخلت المسجد الحرام ، فنحرها فى الموضع الذى رسم لعبد المطلب ، فسال هناك الفرث والدم ، فحفر عبد المطلب حيث رسم له (٧) الغراب الأعصم : الذى فى جناحيه بياض (٨) شبه مكة ــ مكان زمزم ــ التى يرد إليها الحجيج والعمار من كل جانب فيحملون إليها البر والشعير وغير ذلك ، وهى لاتحرث ولا تزرع ، بقرية النمل التى لا تحرث ولا تزرع ولا تبذر ، وتجلب إليها الحبوب من كل جانب .

غـدا بمعْوله ، ومعه ابنُه الحارثُ بنُ عبد المطلب ، ليس معه يومئذ ولد غـيره ، يحفر فيها .

فلما بدا له الطَّوِىُّ[1] كبَّر ، فعرَفتْ قريش أنه قد أدرك حاجتَه ، فقاموا إليه ، فقالوا : ياعبدَ المطلب ؛ إنها بئرُ أبينا إسماعيل ؛ وإنّ لنا فيها حقا ، فأشْرِكنا معك فيهـا . قال : ما أنا فاعل ؛ إن هـذا الأمر قد خُصِصْتُ به دونـكم ، وأُعطيتُه من بينـكم . فقالوا له : فأنْصِفنا ؛ فإنّا غيرُ تاركيكَ حتى نخاصِمَك فيهـا ، قال : فاجعلوا بينى و بينـكم مَن أُحَاكِمُـكُم إليه . قالوا : كاهِنَةُ بنى سَعْد . قالَ : نعم ــ وكانت بالشام .

فركب عبدُ المطلب ومعه نَفَرٌ من بنى أمية من بنى عَبْد مناف ، وركب من كل قبيلة من قريش نفرٌ ــ والأرض إذ ذاك مَفَاوز ــ فخرجوا حتى إذا كانوا ببعض تلك المفاوز بين الحجاز والشام فَنِىَ ماء عبد المطلب وأصحـابه ، فظمئوا حتى أيقنوا بالهَلَـكة ، فاستَسقوْا مَن معهم من قبائل قريش ، فأبَوْا عليهم ؛ وقالوا : إنّا بمفَازة ونحن نَخْشَى على أنفسنا مِثْلَ ماأصابكم .

فلما رأى عَبْدُ المطلب ماصَنع القوم ؛ وما يتخوّفُ على نفسه وأصحابه قال: ماذا ترَوْن ؟ قالوا : مارأْيُنا إلا تَبعٌ لرأيك ، فمُرْنا بما شئتَ . قال : فإنى أرى أن يَحْفِرَ كلُّ رجل منكم حُفرَتَه لنفسه بمـا بكم الآن من القوة ، فـكلما مات رجلٌ دفَعه أصحابُه فى حُفْرَته ، ثم وَارَوه حتى يـكونَ آخرُكم رجلاً واحداً ؛ فضيْعَةُ رجلٍ واحد أيسَرُ من ضَيْعَةِ رَكْب جميعه . قالوا : نِعْمَ ماأمرتَ به ! فقام كلُّ واحد منهم فحفر حُفْرَته ؛ ثم قعد ينتظر الموت عطشاً .

ثم إن عبدَ المطلب قال لأصحـابه : والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت ــ

(١) الطوى : البئر المطوية بالحجارة .

لا نضربُ فى الأرض ، ولا نبتغى لأنفسنا — لَعَجْزٌ ، فعسى الله أن يرزقَنا ماء ببعض البلاد، ارتحلوا . فارتحلوا حتى إذا فرغوا ، ومَن معهم من قبائل قريش ينظرون إلى ماهم فاعلون ، تقدَّم عبد المطَّلب إلى راحلته فركبها ؛ فلما انبعثت به انفجرتْ من تحت خُفّها عينٌ من ماء عذب ، فكبّر عبد المطلب وكبّر أصحابُه ؛ ثم نزل فشربَ وشربَ أصحابُه ، واستقوُا حتى ملئوا أسقيتهم .

ثم دعا القبائلَ من قُرَيش ؛ فقال لهم : هَلُمُّوا إلى الماء فقد سقَانا اللهُ ؛ فاشربوا واستقوا . فجاءوا فشربوا واسْتَقَوْا ؛ ثم قالوا : والله قد قُضِى لك علينا ياعبدَ المطلب ؛ والله لا نخاصِمُك فى زمزم أبداً ؛ إن الذى سقاك هذا الماء بهذه الفَلَاة لَهُوَ الذى سقاك زَمْزَم ! فارْجع إلى سِقَايَتِك رَاشِداً . فرجع ورجعوا معه ، ولم يصلوا إلى الكاهنة ، وخلّوا بينه وبينها !

٣٥ ـ سَيفُ بن ذي يزن والبشارة برسول الله*

لما ظَفِر سَيفُ[(١)] بنُ ذي يَزَن بالحبشة ؛ أتى وفودُ العرب : خطباؤها وأشرافُها وشعراؤُها لتَهنئَتِه ومَدْحِه ، وذِكْرِ ما كان من بلائه وطلبه بثأر قومه . وقدم إليه وفدُ قريش ، وفيهم عبدُ المطلب بن هاشم ، وأميّةُ بنُ عبد شمس ، وعبدُ الله بن جُدْعان ، وأسَد بن خُوَيلد بن عَبد العُزّى ، في ناسٍ من أشراف قريش. فلما قدموا عليه وجَدُوه في رَأْس قَصْرٍ يقال له غُمدان ؛ فأستأذنوا عليه ، فأذن لهم ؛ فدخلوا عليه ، فإذا الملك مُضَمّخٌ بالعَنْبَر[(٢)] ، يُرَى وَبِيصُ الطيبِ من مَفرِقِهِ[(٣)] ، عليه بُرْدَان مُؤْتزِرٌ بأحدها ، مُرْتَدٍ بالآخر ، سيفُه بين يديه ، وعن يمينه وعن يساره الملوكُ وأبناء الملوك والمقاول[(٤)] .

فدنا عبدُ المطلب واستأذن في الكلام؛ فقال له : إنْ كنتَ مِمّنْ يَتكلّمُ بين يدي الملوكِ فتكلّمْ، فقد أذِنّا لك. فقال عبد المطلب: إن الله أحلّك - أيها الملك - محلا رفيعاً ، صَعْباً مَنيعاً ، شامخاً باذخاً ، وأنبَتَك مَنْبِتاً طابت أرُومَتُه[(٥)] ، وعزّت جُرْثُومَته[(٦)] ، وثبت أصلُه ، وبَسَقَ فَرْعُه[(٧)] . في أكرم مَوْطن ، وأطيب مَعْدِن ، وأنت - أبيتَ اللعن[(٨)] - مَلِكُ العرب وربيعُها الذي به تُخصِب ، وأنت - أيها الملك - رَأْسُ العَرب الذي إليه تنقاد ، وعَمودها الذي عليه العِماد ، ومَعْقِلُها الذي تلجأ إليه العِباد ، سَلَفُك

---

* البداية والنهاية لابن كثير : ٢ - ٣٢٨ ، الأغاني : ١٦ - ٧٥ ، طبعة بولاق ، العقد : ١ - ١٧٥ ، بلوغ الأرب : ٢ - ٢٦٦ ، المختار من نوادر الأخبار - مخطوط .

(١) هو ملك اليمن من قبل كسرى أنوشروان ، كان يكاتبه و يصدر عن رأيه إلى أن قتل بيد الأحباش قبيل الإسلام (٢) التضميخ : لطخ الجسم بالطيب حتى كأنه يقطر (٣) الوبيض : اللمعان ، ومفرق الرأس حيث يفرق فيه الشعر (٤) المقاول : جمع مقول ، وهو الرئيس دون الملك (٥) الأرومة : الأصل (٦) الجرثومة : الأصل (٧) بسق : طال (٨) من تحيات ملوك العرب في الجاهلية .

خيرُ سلف ، وأنت لنا منهم خيرُ خَلَف ، ولن يَخْملَ ذِكرُ من أنتَ سَلَفُه ، ولن يهلِك مَنْ أنتَ خَلَفُه . ونحن ـ أيها الملك ـ أهلُ حرَم الله وسَدَنَةُ بيته ، أشْخَصَنا إليك الذى أبْهَجَنا ؛ لكشف الكَرْب الذى فدَحنا ؛ فنحنُ وفدُ التَّهْنئَةِ لا وفدُ المَرْزِئَة (١) .

فقال ابنُ ذى يزن : فأيّهم أنت أيُّها المتكلم ؟ فقال : أنا عبد المطلب بن هاشم. قال : ابنُ أختنا ؟ قال : نعم ابنُ أختكم . قال : ادْنُ ، فأدْناه وقال : مرحباً وأهلاً، وناقةً ورَحْلاً ، ومُسْتَنَاخاً سَهْلاً ، ومَلِكاً رِبَحْلا (٢) ، يُعْطى عطاء جزلا . قد سمع الملكُ مَقالَتَكم ، وعرف قرابتَكم ، وقَبِلَ وَسِيلتَكم ، فأنتم أهلُ الليل والنهار ، لكم الكَرامَةُ ما أقمتُم ، والحِباءُ (٣) إذا ظعنتم . ثم استُنْهِضُوا إلى دار الضيافة والوفود؛ فأقاموا شَهْراً لا يُؤْذَنُ لهم ولا يَصِلُون إليه .

ثم انتبه انتباهةً ؛ فأرسل إلى عبد المطلب ، فأخْلاه (٤) وأدنى مجلسه ، وقال : ياعبدَ المطلب ؛ إنى مُفْضٍ إليك مِنْ سِرِّى وعلمى مالو كان غيرُك لم أبُحْ له ؛ ولكنى رأيتُكَ مَعدِنَهُ ، فأطلعتك عليه ؛ فليَكنْ عندك مطويًّا حتى يأذنَ الله فيه ؛ فإنّ الله بالغٌ أمْرَه . إنى أجدُ فى الكتاب المكنون ، والعلمِ المخزون ، الذى اختزنّاه لأنفسنا ، واحتجبناه دون غيرنا ، خبراً عظيما ، وخطراً جسيما ، فيه شرفُ الحياة ، وفضيلةُ الوَفَاة ، وهو للناس عامة ، ولرهطك كافّة ، ولك خاصّة .

قال عبدُ المطلب : أيّها الملك ؛ فمثلُك مَنْ سَرّ وبرّ ، فما هو ، فِدَاك أهلُ الوَبَر ، زُمَراً بعد زُمَر ، قال : إذا وُلِدَ بتِهامة غلام بين كتفيه شامَة ، كانت له الإمامَةُ ولكم به الزّعامة ، إلى يوم القيامة .

(١) رزأه ماله : أصاب منه شيئاً ورزأه رزءاً ومرزئة : أصاب منه خيراً ، أى لسنا وافدين للعطاء (٢) الربحل : الكثير العطاء (٣) الحباء : العطاء (٤) أخلاه : خلا به .

فقال له عبدُ المطلب : أبيتَ اللعن ! لقد أُتيتُ بخبرٍ ما أُتِيَ بمثله وافد ، فلولا هيبةُ المَلِك وإجلاله وإعظامُه، لسألتهُ مِنْ كشف بشارته إياى ماأَزْدَادُ به سروراً .

قال ابنُ ذِى يَزَن : نبيٌّ هذا حِينهُ الذى يولَدُ فيه ـ أو قد وُلِدَ ـ اسمه أحمد ؛ يموت أبوه وأمه ، ويكفله جدُّه وعمُّه ، واللهُ باعثهُ جهاراً ، وجاعل منّا له أنصاراً ، يُعِزُّ بهم أولياءه، ويُذِلّ بهم أعداءه؛ يُكَسِّر الأوثان، ويخمِد النيران ، ويعبدالرحمٰن، ويزجر الشيطان ؛ قولُه فصلٌ ، وحكمُه عَدْل ؛ يأمر بالمعروف ويفعله ، وينهى عن المنكر ويبطله .

قال عبد المطلب : أيها الملك ؛ عزَّ جَدُّك ، وعلا كَعْبُك ، وطاب مُلْكك ، وطال عُمرك ! فهل الملك سارِّى بإفصاح ؛ فقد أَوْضَح بعض الإيضاح !

فقال ابن ذى يَزَن : والبيتِ ذى الحُجُب ، والعلامات والنُّصُب [1] ، إنك يا عَبْدَ المطّلب ، لجدُّه غير الكَذِب . فخرَّ عبد المطلب ساجداً ثم رفع رأسه ؛ فقال له ابن ذى يَزَن : ارفع رأسك ، ثَلِجَ صدرك ، وعَلا أمرُك ! فهل أحسستَ شيئا مما ذكرتُ لك ؟ فقال : نعم ؛ أيها الملك ! كان لى ابنٌ وكنتُ عليه شفيقاً ، وبه رفيقاً ؛ فزوّجْتُه كريمةً من كرائم قَوْمِي ، وهى آمنةُ بنتُ وَهْب بنِ عبد مناف ؛ فأتت بغلامٍ سَمّيْتُه محمداً ، مات أبوه وأمّه ، وكفلتُه أنا وعَمّه ، بين كتفيه شامَة ، وفيه كلُّ ماذكر الملكُ من علامة .

قال ابنُ ذى يَزَن : إن الذى قلتُ لك لكما قلتُ ؛ فاحتفظ بابْنِك ، واحذر عليه من اليهود ؛ فإنهم له أعداء ، ولن يجعلَ الله لهم عليه سبيلا ، والله مظهرٌ دَعْوَته، وناصرٌ شِيعته ؛ فاطْوِ ماذكرتهُ لك دون هؤلاء الرّهط الذين معك ، فإنى لستُ آمنُ

(١) النصب : كل ما عبد من دون الله ، جمه أنصاب .

أن تُدَاخِلهم النَّفاسَة[1]، من أن تـكونَ لك الرياسة؛ فيَبغُونَ له الغوائل. ويَنصبون له الحبائلَ، وهم فاعلون ذلك، أو أبناؤهم: ولولا أنى أعلم أن الموتَ يجتاحُنى قبل مَبْعَثِه لسرتُ بخَيْلى ورَجِلى حتى أصيرَ بيَثْرِبَ دارِ مُلْـكه؛ فأكونَ أخاه ووزيره، وصاحبَه وظهيره؛ فإنى أجدُ فى الـكتاب المـكنون، والعلمِ المخزون، أنّ فى يثربَ استحكامَ أَمْرِه، وأَهْلَ نُصْرَته، وارتفاعَ ذكره؛ وموضعَ قَبْرِه، ولولا الذِّمَامَةَ[2] لأظهرتُ أمْرَه، وأوطأتُ العرب كَعْبَه، على حداثةِ سنّه؛ ولـكنى صارفٌ ذلك إليك، عن غير تقصير بك.

ثم أمر لـكل رجُلٍ من القوم بعشرة أعبد وعشر إماء سُود، وحُلّتين من حُلل اليمن، وخمسة أرطال ذهب وعشرة أرطال فِضّة، وكَرِشٍ مملوءةٍ بالعنبر. ولعبد المطلب بعشرة أمثال ذلك.

وقال له: إذا حال الحوْلُ فأْتنى بأمره وما يكونُ من خبَره. فمات ابنُ ذى يزن قبل أن يحُولَ الحوْلُ!

فـكان عبدُ المطلب كثيراً ما يقول: يامعشرَ قريش؛ لا يَغْبِطَنّى رَجُلٌ منكم بجزيل عطاء الملك، وإن كان كثيراً، فإنه إلى نفَاد، ولـكن ليغبطنى بما يبقى لى ولِعَقِبى ذكرُه وفخره وشرَفه.

فإذا قيل له: وما ذاك؟ قال: ستعلمون ما أقولُ لـكم بعدَ حِين!

---

(١) النفاسة: الحسد، نفس عليك فلان ينفس نفساً ونفاسة: حسدك (٢) الذمامة: كل حرمة تلزمك ـ إذا ضيعتها ـ المذمة.

٣٦- بِشَارةُ بَحِيرَى*

خرج أبو طالب [١] بن عبد المطلب فى رَكْبٍ إلى الشام تاجراً ، فلمّا تهيّأ للرحيل وأجمع المسير ، صَبَّ [٢] به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فيما يزعمون ، فرقّ له وقال : والله لأخرجنّ به معى ولا يفارقنى ولا أفارقه أبداً . فخرج به.

فلما نزل الرّكب بُصْرَى [٣] مرّوا ببَحِيرَى [٤] ـ وكانوا كثيراً مايمرّون به قبل ذلك فلا يكلّمهم ، ولا يعرض لهم ـ حتى كان ذلك العام ، فلمّا نزلوا به قريباً من صَومعته صنع [٥] لهم طعاماً كثيراً ، ثم أرسل إليهم فقال : إنى قد صنعتُ لكم طعاماً يامعشر قريش ، وأُحِبُّ أن تحضروا كلُّكم صغيركم وكبيركم ، وعبدكم وحرُّكم . قال له رجل منهم : والله يابَحيرى إنَّ لكَ لَشأناً اليوم ! ما كنتَ تصنع هـذا بنا وقد كُنّا نمرُّ بك كثيراً ! فما شأنُك اليوم ؟ قال له بَحيرى : صدقت ، قد كان ما تقولُ ؛ ولكنكم ضَيْف [٦] ، وقد أحببتُ أنْ أُكرِمكم وأصنعَ لكم طعاماً ، فتأكلوا منه كلُّكم .

فاجتمعوا إليه ، وتخلّف رسول الله من بين القوم لحداثة سنّه ، فى رحال القوم تحت الشجرة ، فلما نظر بَحيرى فى القوم ،ولم ير الصفةَ التى يعرفُ ويَجِدُها عنده قال :

---

* ابن هشام : ١ ـ ١١٨ .

(١) كان أبو طالب هو الذى ولى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد وفاة جده عبد المطلب

(٢) الصبابة : رقة الشوق ، يقال : صبيت (بكسر الباء) أصب ، وكانت سن رسول الله إذ ذاك تسع سنين فيما ذكر بعض من ألف فى السير ، وقال الطبرى : كانت سنه اثنتى عشرة سنة .

(٣) بصرى : من أرض الشام . (٤) كان بحيرى يقيم فى صومعة له هناك وكان إليه علم أهل النصرانية (٥) زعموا أنه رأى رسول الله وهو فى صومعته فى الركب حين أقبلوا وغمامة تظلله من بين القوم ، ثم أقبلوا فنزلوا فى ظل شجرة قريباً منه ، فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة ، وتهصرت أغصان الشجرة على رسول الله حتى استظل تحتها (٦) الضيف : يطلق على الواحد والجمع .

يامَعْشَرَ قرُيش ، لا يتخلفَنّ أحدٌ منكم عن طعامى . قالوا له : يابحيرَى ، ماتخلّفَ عنك أحدٌ ينبغى له أن يأتيك إلا غلاماً ، وهو أحدثُ القوم سنًّا . فقال : لاتفعلوا ، ادْعُوه فليحضر هذا الطعام معكم .فقال رجل من قريش مع القوم : واللّاتِ والعُزّى إن كان لَلوْم بنا أن يتخلّف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعامٍ من بيننـا . ثم قام إليه فاحتضنه ، وأجلسه مع القوم .

فلما رآه بَحِيرى ، جعل يلحظه لحظًا شديداً ، وينظر إلى أشياء من جسده — وقد كان يجدها عنده من صِفَتِه — حتى إذا فرغ القومُ من طعامهم وتفرّقوا ؛ قام إليه بَحيرى فقال : ياغلام ؛ أسألُك بحقِّ اللاَّتِ والعُزّى إلّا ماأخبرتنى عما أسألك عنه — وإنما قال له بَحِيرى ذلك لأنه سمع قومَه يحلفون بهما .

قال الراوى : زعموا أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : لا تسألنى باللات والعُزّى شيئاً ، فوالله ما أبغضتُ شيئاً قطّ بغضَهما ! فقال له بَحيرى : فبالله إلّا ما أخبرتَنى عمّا أسألك عنه ! فقال له : سَلْنى عمّا بدا لك . فجعل يسأله عن أشياء من حاله فى نومه وهيئته وأموره ، فجعل رسولُ الله يُخْبِرُه ؛ فيوافق ذلك ماعند بحيرى من صفته ، ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتَمَ النبوّة بين كتفيه على موضعه من صفته التى عنده .

فلما فرغ أقبل على عَمّه أبى طالب ، وقال له : ماهذا الغلامُ منك ؟ قال : ابنى . قال له بَحِيرى : ماهو بابنك ، وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حيًّا ! قال : فإنه ابنُ أخى . قال : فما فَعَلَ أبوه ؟ قال : مات وأمّه حُبْلَى به . قال : صدقت ! فارجع بابن أخيك إلى بلده ، واحذر عليه يَهود ، فوالله لئن رأَوْه وعرفوا منه ماعرفتُ ليَبْغُنّه شرًّا ، فإنّ لابْنِ أخيك هذا شأنًا عظيماً ، فأَسْرِع به إلى بلدك . فخرج به أبو طالب سريعاً حتى أقدمَه مكة حين فرغ من تجارته بالشام !

٣٧- في بعثة رسول الله*

قال العباس بن عبد المطلب :

خرجتُ في تجارة إلى اليمن ، في ركبٍ منهم أبو سفيان بن حَرب ، فقدِمتُ اليمنَ ، فكنتُ أصنعُ يوماً طعاماً وأنصرفُ بأبي سفيان و بالنَّفَر ، و يصنع أبوسفيان يوماً ، فيفعل مثلَ ذلك . فقال لي في يومي الذي كنتُ أصنعُ فيه : هل لك ياأبا الفضل أن تنصرفَ إلى بيتي وتُرسلَ إلى غَدائك ؟ فقلت : نعم ، فانصرفتُ أنا والنفرُ إلى بيته وأرسلْتُ إلى الغداء .

فلما تغدَّى القوم قاموا واحتبسني فقال لي : هل علمتَ ياأبا الفضل أن ابنَ أخيك يزعمُ أنه رسولُ الله ؟ قلت : وأيُّ بَني أخي ؟ قال أبو سفيان : إياي تكتم ! وأيُّ بني أخيك ينبغي أن يقولَ هذا إلا رجلٌ واحد ! قلت : وأيُّهم هو على ذلك ؟ قال : محمد بن عبد الله . قلت : مافعل ! قال : بلى قد فعل ! ثم أخرج إليّ كتاباً من ابنه حَنْظلة بن أبي سفيان فيه : « إن محمداً قام بالأبْطح[1] غُدْوَةً فقال : أنا رسولُ اللهِ أدعوكم إلى الله » .

قلتُ : ياأبا حَنْظلَة ، لعلَّه صادق ! قال : مهلاً ياأبا الفضل ؛ فوالله ماأُحبُّ أن تقولَ مثلَ هذا ، و إني لأخْشَى ن تكون على بَصَرٍ من هذا الأمر . ثم قال : يابني عبد المطلب ، إنه والله مابرِحتْ قريشٌ تزعُمُ أن لكم يُمْنَةً وشؤْمةً ، كلّ

* الأغاني : ٦ — ٣٤٩ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٢ — ٣١٨ .

(١) أبطح مكة : مسيل واديها .

واحدة منهما عامّةٌ ، فنشدتكُ الله ياأبا الفضل هل سمِعْتَ ذلك ؟ قلت : نعم . قال : فهذه والله إذَنْ شُؤْمتكم . قلت : فلعلّها يُمْنَتُنا !

فما كان بعد ذلك إلا ليال حتى قدِم عَبْدُ الله بن حُذَافة السّهميّ بالخبر وهو مُؤمِنٌ ، فَفَشَا ذلك فى مجالس أهلِ اليمن يُتحدّث به فيها ، وكان أبو سفيان يجلسُ إلى حَبْرٍ من أَحْبَار اليمن ، فقال له اليهودى : ماهذا الخبر الذى بلغنى ؟ قال : هو ماسمعت ، قال : أينَ فيكم عَمُّ هذا الرجل الذى قال ماقال ؟ قال أبو سفيان :صدَقوا، وأنا عمّه . قال اليهوديّ : أأخو أبيــه ؟ قال : نعم . قال : حَدِّثنى عنه . قال : لا تسألنى ، فما كنتُ أحسبُ أن يَدّعى هذا الأمر أبداً ، وما أُحِبُّ أن أعيبَه وغيرُه خيرٌ منه . قال اليهوديّ : فليس به أذًى ؛ ولا بأس على يهودَ وتوراةِ موسى منه .

قال العباس : فتأدَّى إلىَّ الخبرُ فحَمِيتُ وخرجتُ حتى أجلس إلى ذلك المجلس من غَدٍ ، وفيه أبو سفيان والحَبْر . فقلت للحَبْر : بلَغنى أنك سألتَ ابنَ عمِّى هذا عن رجلٍ منّا يزعم أنه رسولُ الله فأخبركَ أنه عمُّه ؛ وليس بعمّه ، ولكنه ابن عمّه وأنا عمّه أخو أبيه . فقال : أأخو أبيه ؟ قلتُ : أخو أبيه .

فأقبل على أبى سفيان فقال : أصَدَق ؟ قال : نعم صدَق . قال : فقلت : سَلْنِى عنه ، فإن كذبتُ فليردد علىَّ .فأقبل علىَّ فقال : أنشدُك الله ، هل فشَتْ لابن أخيك صَبْوَةٌ أو سَفْهَةٌ ؟ قلت : لا وإله عبد المطّلب ، ولا كذب ولا خانَ ، وكان اسمُه عند قريش الأمين . قال : فهل كتب بيده ؟ قال عبّاس : فظننتُ أنه خيرٌ له أن يكتبَ بيده ، فأردتُ أن أقولَها ، ثم ذكرتُ مكانَ أبى سفيان ، وأنه مُكَذِّبِى ورادٌّ علىّ ، فقلت : لا يكتب. فذهب الحَبْروترَكَ رِداءه وجعل يصيح : ذُبحتْ يهود ! قُتِلَتْ يهود !

قال العباس : فلما رجعنا إلى منزلنا قال أبو سفيان : ياأبا الفضل ، إن اليهوديّ

لَقَرِعٌ من ابن أخيك . قلت : قد رأيت مارأيتَ ! فهل لك ياأباسفيان أن تُؤمن به ، فإن كان حقًّا كنتَ قد سبقْت ، وإن كان باطلا فمعك غيرُك من أكفائك ؟ قال : لا والله ماأومن به حتى أرى الخيْلَ تطلعُ مِنْ كَدَاء[1] ! فقلت : ماتقول؟ قال : كلمةٌ والله جاءت على فمى ما ألقيتُ لها بالاً ، إلا أنى أعلَمُ أنَّ الله لايترك خيلا تطلُع من كَدَاء .

قال العباس : فلما فتح رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مكةَ ونظرنا إلى الخيل قد طلَعت مِنْ كَدَاء ، قلتُ ، ياأبا سفيان ، أتذكُر الكلمة ؟ قال لى : والله إنى لذاكرُها ! فالحمدُ لله الذى هدانى للإسلام !

(١) كداء : جبل بمكة .

٣٨ - تطيّر المنصور*

قال الربيع [١] : نام المنصورُ [٢] ليلةً — وكان فى قصره فى بغداد — فانْتَبَهَ مرعوباً ، ثم عاوده النومُ فانتبه كذلك فَزِعاً مرعوباً ، ثم راجع النوم فانتبه كذلك ، ثم قال : يا ربيع ! فقلت : لَبَّيْكَ يا أمير المؤمنين ! قال : لقد رأيت فى منامى عجباً ، قلت : ما رأيتَ ، جعلنى الله فداك ! قال : رأيتُ كأنّ آتياً أتانى ، فهَيْنَم [٣] بشىء لم أفهمه ؛ فانتبهتُ فَزِعاً ، ثم عاودْتُ النوم فعاودنى يقولُ ذلك الشىء ، ثم عاودنى يقولُه حتى فهمتُه وحفظته وهو :

كأن بهذا القصرِ قد بادَ أهلُه ... وعُرِّىَ منه أهلُه ومنازِلُهْ

وصار رئيسُ القوم من بعد بهجةٍ ... إلى جَدَثٍ تُبْنَى عليه جنادِلُهْ

وما أحسبنى يا ربيعُ إلا حانَتْ وفاتى ، وحضر أَجَلِى ، ومالى غيرُ ربّى ! قُمْ فاجعل لى غُسْلًا [٤] . ففعلت فاغتسل وصلّى ركعتين ، وقال : أنا عازم على الحج ، فهيِّئْ لى آلة الحج ، فخرج وخرجْنا ، حتى إذا انتهى إلى الكوفةِ ، ونزل النَّجَف [٥] أقام أياماً ، ثم أمر بالرحيل ، فتقدمتْ جنودُه ، وبقيتُ أنا وهوَ

---

* محاضرات الأبرار : ١٤٢

(١) هو الربيع بن يونس ، كان يخدم المنصور ، ثم تدرج فى المناصب عنده إلى أن استوزره وكان جليلا نبيلا عارفاً بخدمة الخلفاء ، مات سنه ١٧٠ هـ (٢) هو أبو جعفر عبد الله بن محمد بن على ثانى خلفاء بنى العباس وأعظمهم شدة وبأسا و يقظة وثباتاً . توفى سنة ١٥٨ هـ (٣) الهينمة: الصوت الخفى (٤) الغسل : بالضم والكسر الماء الذى يغتسل به .

(٥) النجف : التل . أو النجفة التى بظهر الكوفة ، وهى تمنع السيل أن يعلو منازل الكوفة وقبورها . والنجفة أيضا : موضع بين البصرة والبحرين .

بالقصر ، فقال لى : يا ربيع ؛ جئنى بِفَحْمَةٍ من المطبخ ، وقال لى : اخرج فكن مع دابتى إلى أن أخرج ، فلما خرج وركب رجعتُ إلى المكان كأنى أطلب شيئًا ، فوجدته قد كتب على الحائط بالفحمة :

المرء يهوى أن يعيش وطولُ عيش قد يَضُرُّه
تَفْنَى بشاشتُه ويبقى بعد حُلْوِ العيش مرُّه
وتخونُه الأيامُ حتى ما يَرى شيئًا يسرُّه
كَمْ شامتٍ بى إن هلكتُ وقائل : لِلّهِ دَرُّه !

٣٩ـ المنصورُ تُنْعي إليه نفسُه*

قال الفضلُ بن الربيع : كنتُ مع المنصور في السفر الذي مات فيه ، فنزل منزلًا من المنازل ، فبعث إليّ وهو في قُبّة ، ووجهُه إلى الحائط ، فقال لي : ألم أنْهَكَ أن تدَعَ العامة يدخلون هذه المنازل ، فيكتبوا مالًا خيرَ فيه ؟

قلت : وما هو ياأمير المؤمنين ؟ قال : أما ترى على الحائط مكتوبًا :

أبا جعفرٍ حانتْ وفاتُك ، وانقضتْ سِنُوكَ وأمرُ الله لا بدَّ نازلُ

أبا جعفرٍ هل كاهنٌ أو مُنَجِّمٌ يردُّ قضاءَ اللهِ أم أنتَ جاهلُ !

فقلت : والله ما أرى على الحائط شيئًا ! وإنه لنقيٌّ أبيض ! قال : إنها والله إذَنْ نفسي نُعِيَت إليّ ، الرّحيلَ ! بادرْ بي إلى حَرَم ربي وأمْنه ، لأهربَ من ذنوبي وإسْرَافي على نفسي ، فرحلنا وقد ثقل ، حتى إذا بلغنا بئر مَيْمُون تُوفي بها !

---

* المسعودى : ٢ ـ ٣٤٥

٤٠ ـ رُؤيـا الرَّشـيدِ*

قال جبريل بن بَخْتَيْشُوع :

كنتُ مع الرشيد(١) بالرَّقة(٢) ، وكنتُ أولَ مَنْ يدخلُ عليه فى كلّ غَدَاة ، فأتعرّف حاله فى ليلته ، فإن كان أنكر شيئاً وصفَه ، ثم يَنْبَسِط فيحدثنى بحديث جواريه وما عمل فى مجلسه ، ثم يسألنى عن أخبار العامة وأحوالها ؛ فدخلتُ عليه فى غَداةِيوم ، فسلّمتُ فلم يكَدْ يرفعُ طَرْفه، ورأيته عابساًمفكراً مهموماً؛فوقفتُ بين يديه مَلِيًّا ، وهو على تلك الحال .

فلمّا طال ذلك أقدمتُ عليه فقلت : يا سيّدى ؛ جعلنى الله فِدَاك ! ما حالُك هكذا ! أعلّة ! أخبرْنى عنها فلعله يكونُ عندى داؤُها؛ أو حادثةفى بعض مَن تُحبّ فذلك مالا يُدْفع ولا حيلة فيه إلا بالتسليم ، والغمّ لا دَرْكَ فيه ؛ أو فتقٌ وَرَدَ عليك فى مُلْكِك ، فلم تَخْلُ الملوكُ من ذلك ، وأنا أوْلَى مَن أفضَيْتَ إليه بالخبر ، وتَرَوَّحْتَ إليه بالمشورة .

فقال : وَيْحَكَ ياجبريل ! ليس غَمّى وكرْبِى لشىء مما ذكرتَ ، ولكن لرؤيا رأيتُها فى ليلتى هذه ، وقد أفزعَتْنى ، وملأتْ صَدْرِى ، قلت : فَرّجتَ عنّى

---

* الطبرى : ١٠ ـ ١١٠

(١) هو هارون الرشيد بن محمد المهدى ، كان دينا محافظا ، كثير الجهاد ، توفى سنة ١٩٣ هـ. وجبريل هو طبيب هارون الرشيد وجليسه توفى سنة ٢١٣ هـ (٢) الرقة : مدينة مشهورة على الجانب الأيسر للفرات بولاية حلب ، ويقال لها : الرقة البيضاء ، وبقربها كانت واقعة صفين المشهورة .

ياأمير المؤمنين ! فدنوتُ منه فقبّلت رِجْلَه ، وقلت : أهذا الغمّ كله ! الرؤيا إنما تكون من خاطرٍ أو غيره ؟ وإنما هي أضغاثُ أحلام !

بعد هذا كله قال : فأقصّها عليك : رأيتُ كأنى جالس على سريرى هذا إذ بدَتْ من تحتى ذِرَاعٌ أعرِفها ، وكفٌّ أعرِفها ، وأفهمُ اسمَ صاحبها، وفى الكف تُربةٌ حمراء ، فقال لى قائلٌ أسمعه ولا أرى شخصه : هـذه التربةُ التى تُدْفَنُ فيها ؛ فقلتُ : وأين هذه التربة ؟ قال : بِطُوس [١] . وغابت اليَدُ وانقطع الكلام وانتبهتُ .

فقلت : ياسيّدى ؛ هذه والله رؤيا بعيدةٌ ملتبسة، وأحسبُك أخذتَ مضجعك، ففكّرت فى خُرَاسان وحروبها ، وما قد وَرَدَ عليك من انتقاض بعضها . قال : قد كان ذلك .

قلت : فلذلك الفِكْرُ خالَطَك فى منامك ما خالَطَك ؛ فولّد هذه الرؤيا ، فلا تحفلْ بها — جعلنى الله فداك — وأتبِـعْ هذا الغمّ سروراً يخرجُه من قلبك .

وما برحتُ أطيّبُ نَفْسَه بضروبٍ من الحيل حتى سَلَا وانبسط ، وأمر بإعْداد ما يشتهيه ويزيدُ فى ذلك اليوم من لهوه .

ومرّت الأيامُ فنسى ونسينا تلك الرؤيا فما خطرتْ لأحدٍ منا ببالٍ ، ثم قدِّر مسيرُه إلى خُراسان حين خرج رَافع [٢] ، فلما صار فى بعض الطريق ابتدأت به العلّة ، فلم تزل تتزايدُ ، حتى دخلنا طُوس ؛ فبينما هو يُمرَّضُ فى بستان إذ ذكر تلك الرؤيا ؛ فوثب متحاملًا يقوم ويسقط ، فاجتمعنا إليه ، كلٌّ يقول : ياسـيدى ماحالك ؟ وما دَهَاك ؟

---

(١) طوس : مدينة بخراسان ، وبها مات الرشيد (٢) هو رافع بن الليث ، خرج إليه الرشيد سنة ١٩٢ هـ حينما استفحل أمره فيما وراء النهر .

فقال : ياجبريل ! تذكرُ رؤياى بالرّقة ؟ ثم رفع رأسه إلى مسرور ، فقال : جئنى بشىء من تربة هذا البستان ؛ فمضى مسرور فأتى بالتّربة فى كفّه حاسراً عن ذراعه ، فلما نظر إليه قال : هذهوالله الذراع التى رأيتها فى منامى،وهذه والله الكفّ بعينها ، وهذه والله التربة الحمراء ، ما خرمتُ شيئاً ، وأقبل على البُكاء والنحيب، ثم مات بها ـ والله ـ بعد ثلاثة ، ودفن فى ذلك البستان !

٤١ ـ تطير الأمين*

قال إبراهيم بن المهدى : خرج الأمينُ (١) ذات ليلة يريد أن يتفرّجَ من الضيق الذى هو فيه ، فصار إلى قَصْرٍ له ، ثم أرسل إلىّ ، فحضرت عنده ، فقال : ترى طيبَ هـذه الليلة ، وحسنَ القمر فى السماء ، وضوءه فى الماء على شاطئ دِجْلة ! فهل لك فى الشراب ؟ فقلت : شأنك ! فشرب رطلاً ، وسقانى آخر ، ثم غنّيتهُ ما كنتُ أعلم أنه يحبُّه ؛ فقال لى : ماتقولُ فيمن يضربُ عليك؟ فقلت :ماأحوجنى إلى ذلك !

فدعا بجارية متقدّمة عنده اسمها « ضَعْف » ، فتطيَّرْتُ من اسمها ونحن على تلك الحال (٢) ، فقال لها : غنى ؛ فغنّت بشعر الجَعْدِى :

كُليبٌ لَعمرِى كان أكثر ناصراً وأيْسَرَ جُرْماً منك ضُرِّج بالدّم

فاشتدّ ذلك عليه ، وتطيَّر منه ، وقال : غَنِّى غيرَ ذلك ، فغنّت :

أبْكى فِراقُهُمُ عينى فَأَرَّقَها إنّ التفرُّقَ للأحباب بَكّاء

مازال يَعدو عليهم ريبُ دهرِهم حتى تفَانَوْا ـ وريبُ الدّهرِ عدّاء

---

* الطبرى ١٠ ـ ١٩٥ ، المحاسن والمساوئ : ٣٦١ ـ طبع ليبزج ، المسعودى : ٢ ـ ٣٠١

(١) الأمين : هو محمد بن هارون الرشيد ، اتخذ الفضل بن الربيع وزيراً ، فأغرى الفضل بينه وبين المأمون فنصب محمد ابنه موسى لولاية العهد بعده ، وأخذ له البيعة ، وجعله فى حجر على ابن عيسى ، وأمر علياً بالتوجه إلى خراسان لمحاربة المأمون سنة ١٩٥ هـ ووجه المأمون طاهر ابن الحسين ، فالتقيا بالرى فاقتتلا ، ولم يزل القتال بينهما حتى قتل الأمين سنة ١٩٨ هـ (٢) كان الأمين قد حاصره طاهر بن الحسين من قبل المأمون .

فقال لها : لعنك الله ! أما تعرفين من الغناء غيرَ هذا ؟ فقالت : ماتغنَّيتُ إلا ماظننتُ أنك تُحِبُّه ! ثم غنّت :

أما وربِّ السكونِ والحركِ إن المنايا كثيرةُ الشَّرَكِ
ما اختلفَ الليلُ والنهارُ ، وما دارَتْ نجومُ السماء فى الفَلَكِ
إلا لنقْلِ النعيم مِنْ مَلِكٍ قد زال سلطانُه إلى مَلِكِ
وملْكُ ذِى العرشِ دائمٌ أبداً ليس بِفَانٍ ولا بمشتَرَكِ

فقال لها : قُومى ، غَضِبَ الله عليكِ ولعنك !

وكان له قَدَحٌ من بلَّوْرٍ حسَنُ الصَّنعة ، وكان موضوعاً بين يديه ، فَعثرت الجارية به فكسرتهُ ، فقال : ويحك ياإبراهيم ! أما ترى ماجاءت به هذه الجارية؟ ثم ما كان من كَسْرِ القدَح ! والله ماأظن أمرى إلا قد قَرُب . فقلت : يُدِيمُ الله مُلكك ، ويُعِزّ سلطانك ، ويَكْبِتُ عدوك ! فما استتمّ الكلام حتى سمعنا صوتاً : « قُضِىَ الأمرُ الذى فيهِ تَسْتَفْتيان » . فقال : ياإبراهيم ، أما سمعتَ ؟ قلتُ : ماسمعتُ شيئاً ، وكنتُ قد سمعْتُ ؛ قال : تسمع حسًّا ! فدنوت من الشط فلم أرَ شيئاً ، ثم عاوَدْنا الحديث ، فعاد الصوتُ بمثله .

فقام مُغْتمًّا إلى مجلسه بالمدينة . فما مضى إلا ليلة أو ليلتان حتى قُتِل !

٤٢ ـ ذنب لا يطمع صاحبه في غفرانه*

قال يوسف الكوفي ـ وكان قد رَوَى الأشعارَ والأحاديث :

حججتُ ذاتَ سنةٍ ، فإذا أنا برجلٍ عند البيت ، وهو يقول : اللهم اغفرْ لى وما أراكَ تفعَلُ ! فقلت: ياهذا ؛ ماأعجبَ يأسَك مِنْ عَفوالله ! قال: إن لى ذنباً عظيما ! فقلت : أخبرنى .

قال : كنتُ مع يحيى بن محمد بالمَوْصِل ، فأمَرَنا يومَ جمعة ؛ فاعترضْنا المسجد ؛ فقتلنا ثلاثين ألفاً ؛ ثم نادى مناديه : من عَلق سَوْطه على دار فالدارُ وما فيها له ، فعلقت سوطى على دار ودخلتُها ، فإذا فيها رجلٌ وامرأة وابنان لهما، فقدَّمْتُ الرجلَ فقتلتُه ، ثم قلتُ للمرأة : هاتى ماعندك ! وإلا ألحقتُ ابنيكِ به ؛ فجاءتنى بسبعة دنانير : فقلتُ : هاتى ماعندك ؟ فقالت : ماعنــدى غيرها ، فقدّمتُ أحــد ابنيها فقتلتُه . ثم قلت : هاتى ماعندك وإلا ألحقْتُ الآخر به ، فلما رأت الجدّ منى قالت: ارْفُق ! فإنّ عندى شيئاً كان أوْدعنيه أبوهما ، فجاءتنى بِدِرْعٍ مُذهبة لم أر مثلها فى حُسْنها ؛ فجعلتُ أقلّبها فإذا عليها مكتوب بالذهب :

إذا جارَ الأميرُ وحاجِبـاه ... وقاضى الأرض أسرفَ فى القضاء

فويلٌ ثم ويلٌ ثم ويلٌ ... لقاضِى الأرضِ من قاضى السماء

فسقط السيفُ من يدى، وارتعدتُ ، وخرجت من وجهى إلى حيث ترى .

* أمالى الزجاجى : ٣٥ .

٤٣ـ طيرة ابن الرومي*

قال عليُّ بن إبراهيم : كنتُ بِدَارِي جالساً ؛ فإذا حجارةٌ سقطَتْ بالقرب منى، فبادرْتُ هارباً ؛ وأمرتُ الغلامَ بالصعود إلى السَّطْح ، والنظرِ إلى كلِّ ناحية ، من أين تأتينا الحجارة ؟ فرجع إليَّ وقال لى : امرأة من دار ابن الرومى (١) الشاعر ! قد تشوفَتْ (٢) ، وقالت ؛ اتقوا الله فينا ، واسقُونا جرَّةً من ماء ! وإلا هلكنا ، فقد مات مَنْ عندنا عطَشاً !

فتقدمتُ إلى امرأةٍ عندنا ذاتِ عقل ومعرفة : أن تصعدَ إليها وتخاطبَها ، ففعلتْ وبادرتْ بالجرَّة ، وأتْبَعَتْها شيئاً من الطعام ، ثم عادتْ إلىَّ فقالت : ذكرتِ المرأةُ أن البابَ عليها مُقْفَلٌ منذ ثلاثة أيام بسبب تطير ابنِ الرومى ؛ وذلك أنه يلبس ثيابَه كلَّ يوم ويتعوَّذُ ؛ ثم يصير إلى الباب ، والمِفتاح معه ؛ فيضعُ عينَه على ثَقْبٍ فى خشبِ الباب ، فتقعُ على جارٍ له كان نازلا بإزائه ؛ وكان أحدَب يقعدُ كل يوم على بابه ؛ فإذا نظر إليه رجع ، وخلع ثيابَه ، وقال : لا يفتح أحدٌ الباب !

فعجبتُ لحديثها ، وبعثتُ بخادمٍ لى كان يعرِفُه ، فأمرتُه أن يجلسَ بإزائه ـ وكانت العينُ تميل إليه ـ وتقدّمتُ إلى بعض أعوانى أن يدعوَ الجارَ الأحدب . فلما حضر عندى أرسلتُ وراءَ غلامى ، لينهضَ إلى ابن الرومى ، ويستدعيه . فإنى لجالسٌ ، ومعى الأحدب ؛ إذ وافى أبو حُذَيفة الطَّرَسُوسِى ؛ ومعه

---

* زهر الآداب : ٢ ـ ١٧٧ ، ذيل زهر الآدب : ٢٢٣ ، معجم الأدباء : ١٣ ـ ٢٩٦

(١) هو أبو الحسن على بن العباس الرومى ، ولد ببغداد وعاش فيها متأثراً بالأدب اليونانى وبالثقافة العربية كذلك ، فكان شعره صورة طريفة فى الأدب العربى من حيث الابتكار والتنسيق المنطقى والاستقصاء فى أسلوب جزل متين ، ومات سنة ٢٨٣ هـ (٢) تشوفت : نظرت وتطاولت .

برْذَعَة الموَسْوس ، صاحبُ المتضد ؛ ودخل ابنُ الرومى ؛ فلما تخطّى عتبةَ باب الصَّحْن عَثَرَ ؛ فانقطع شِسْعُ (١) نَعْله ، فدخل مذعوراً ! وكان إذا فاجأَهُ الناظرُ رأى منه منظراً يدل على تغيّر حاله .

فدخل ، وهو لايرى جارَه المتطيّر منه ؛ فقلت له : يا أبا الحسن ، أيكون شىء فى خروجك أحسن من مخاطبتك للخادم ، ونظرك إلى وجهه الجميل ؟ فقال : قد لحقنى ما رأيتَ من العَثْرَة ، لأنى فكرتُ أنَّ به عاهةً ! وهى قَطْع أُنْثَيَيْه (٢) ! قال برْذَعَة : وشيخُنا يتطيّر ؟ قلت : نعم ويُفرِط ! قال : ومَنْ هو ؟ قلت : على ابن العباس (٣) . قال : الشاعر ؟ قلت : نعم ! فأقبل عليه وأنشده :

ولمــا رأيتُ الدهرَ يُؤْذِنُ صَرْفُه ... بتَفْرِيقِ ما بينى وبين الحبائبِ (٤)
رجعتُ إلى نفسى فوطّنْتُهــا على ... ركوبِ جميلِ الصبرِ عند النّوائبِ !
ومَنْ صَحِبَ الدنيا على جَوْرِ حُكْمِها ... فأيّامُه محفوفــةٌ بالمصائبِ
فَخُذْ خُلْسَةً مِنْ كلِّ يومٍ تَعيشُه ... وكُنْ حَذِراً من كامِنَاتِ العَوَاقِبِ
وَدَعْ عنكَ ذِكْرَ الفألِ والزَّجْرِ واطّرِحْ ... تَطَيُّرَ جارٍ أو تفاؤلَ صاحبٍ !

فبَقِىَ ابنُ الرومى باهتاً ينظر إليه ! ولم أدرِ أنه قد شَغَلَ قلبه بحفظ ما أنشده ، ثم نهض أبو حذيفة و برْذَعَة معه .

فخلف ابنُ الرومى لايتطيَّرُ أبداً مِنْ هذا ولا مِنْ غيره ، وعجب من جودة الشعر ومعناه ؛ وحُسْن مَأْتاه ، فقلت له : ليْتَنا كَتَبْناه ! قال : اكْتُبْهُ فقد حفظتُه وأَمْلاهُ علىّ !

---

(١) الشسع : أحد سيور النعل ، وهو الذى يدخل بين الإصبعين ويدخل طرفه فى الثقب الذى فى صدر النعل المشدود فى الزمام (٢) يعنى أنه مجبوب (٣) هو اسم ابن الرومى (٤) الحبائب : مفرده حبيبة .

٤٤ ـ تطيُّر الرشيد بن المعتمد*

قال ابنُ اللّبانه (١) : كنتُ بين يدى الرشيد بن المعتمد فى مجلس أُنسه ، فورد الخبر بأخْذِ يوسف بن تاشفين غَرْناطة ، فتفجَّع وتلهَّف ، واسترجع (٢) وتأسّف ، وذكر قصر غَرْناطة ، فدعَوْنا لقصره بالدوام ، وللملكِه بتراخى الأيام ، وأمر عند ذلك أبا بكر الإشبيلى بالغناء ؛ فغنى :

يا دارَ ميَّـــةَ بالعَلْياءِ فالسَّنَدِ … أقْوَتْ (٣) وطال عليها سالِفُ الأَمَدِ

فاستحالَتْ (٤) مَسرّته ، وتجهَّمت أسِرَّتُه ، وأمر بالغناء من ستارته فغُنِّى :

إنْ شئتَ ألّا ترى صَـبْراً لمصطَبِر … فانظر على أى حالٍ أصْبَحَ الطَّلَلُ

فتأكّد تطيُّره ؛ واشتدَّ ارْبِدادُ وجهه وتغيُّره ، وأمر مغنيةً أخرى بالغناء ، فغنّت :

يا لَهف نفسى على مالٍ أُفرِّقُه … على المُقلِّين (٥) من أهـلِ المروءاتِ

إنَّ اعتذارى إلَى مَن جاءَ يسألُنى … ما لستُ أملِكُ ، من إحدى المُصيباتِ

فتلافيتُ الحال بأنْ قلت :

محل مَكرمَة لا هُــدَّ مَبْناه … وشَمْـــل مَأثرةٍ لا شَتَّتَ اللهُ

البيت كالبيت لكن زاد ذَا شرفاً … أنّ الرشيدَ مع المعتــدّ رُكناهُ

ثاوٍ على أنْجُمِ الجوزَاء مقعــدهُ … ورَاحِــلٌ فى سبيل السَّعْدِ مَسْرَاهُ

* نفح الطيب : ٢ ـ ٣٩٢

(١) هو أبو بكر الدانى ، ويعرف بابن اللبانة ، وقد قال عنه فى المطمح ص ٢٥٦ : المديد الباع ، الفريد الانطباع الذى ملك للمحاسن مقاداً ، وغدا له البديع منقاداً ... (٢) استرجع عند المصيبة: قال : إنا لله وإنا إليه راجعون . (٣) أقوت : خلت (٤) استحالت : تغيرت . (٥) أقل :افتقر.

حتمٌ على المَلْكِ أن يَقْوَى وقد وصلت   بالشرق والغَرْبِ يُمْنَاه ويُسْرَاه

فلعمري لقد بَسَطتْ من نفسه، وأعادَتْ عليه بَعْضَ أُنْسِه . على أنى وقعتُ فيما وقعوا فيه لقولى : « البيت كالبيت » .

وأمر إثر ذلك أبا بكر بالغناء ، فغنى :

ولمـــا قَضَيْنا مِنْ منًى كلَّ حاجةٍ   ولم يَبْقَ إلا أن تُزَمَّ (١) الرَّكائب

فأيقنَّا أن هذا التطيّر يعقبُه التغيّر !

---

(١) زم البعير : خطمه .

٤٥ - رُؤْيـــا *

قال عبد الله بن المعلم : خرجنا من المدينة حُجَّاجاً ، فإذا أنا برَجُلٍ من بنى هاشم من بنى العباس بن عبد المطلب ؛ وقد رفضَ الدنيا ، وأقبل على الآخرة ، فجمعتنى وإياه الطريقُ ، فأنِسْتُ به ؛ وقلتُ له : هل لك أن تعادِلَنى (١) ؛ فإنَّ معى فضلًا من راحلتى ! فجزانى خيراً ، ثم أنِسَ إلى ؛ فجعل يحدِّثنى ؛ فقال :

أنا رجلٌ من وَلَدِ العباس ، كنت أسكنُ البَصْرَةَ ، وكنت ذا كِبْرٍ شديد ؛ ونعمةٍ طائلة ، ومالٍ كثير ، وبَذَخٍ زائد . فأمرت يوماً خادماً لى أن يحشوَ لى فِرَاشاً من حرير ومخدَّة بورْدٍ نثير ! ففعل .

فإنى لنائم إذا بِقِمَعِ وَرْدَةٍ قد نَسِيَه الخادم ، فقمتُ إليه ، فأوجعته ضرباً ؛ ثم عُدْتُ إلى مَضْجَعى بعد إخراج القِمَع من المِخَدَّة ؛ فأتانى آتٍ فى منامى فى صورةٍ فظيعةٍ ، فهزَّنى ؛ وقال : أفِقْ من غَشْيتِك ، وانتبه من رَقْدتك ، ثم أنشأ يقول :

يا خِلُّ ، إنك إن توَسَّدْ لَيِّناً وُسِّدْتَ بعدَ اليَوْمِ صُمَّ الجَنْدَلِ
فامْهَدْ لِنفْسِكَ صالحاً تَسْعَدْ به فلَتَنْدَمَنَّ غداً إذا لم تَفْعَلِ

فانْتَبَهْتُ مرعوباً ، وخرجتُ من ساعتى هارباً إلى ربى !

---

* مجانى الأدب : ٤ ـ ٢٠ .
(١) عادله فى المحمل : ركب معه .

الباب الثالث

فى القصص التى تجلو علومهم ومعارفهم، وتتوضح منها ثقافتهم، وما كان متداولا بينهم من مسائل العقل والنقل التى هدتهم إليها فطرهم، أو أنهتها إليهم تجاربهم.

٤٦ ـ فراسة أبناء نزار*

لما حضرتْ نزَاراً الوفاةُ جَمعَ بَنِيه : مُضَرَ وإياداً وربيعة وأنماراً ، وقال لهم : يا بَنِيّ ؛ هذه القبّةُ الحمراء ـ وكانت من أدَم (١) ـ لمضر ، وهذا الفرسُ الأدهم (٢) والخباء (٣) الأسود لربيعة ، وهذه الخادم ـ وكانت شمطاء (٤) ـ لإياد ، وهذه النَّدوة (٥) والمجلس لأنمار يجلس فيه ؛ فإن أشكل عليكم كيف تقتَسِمُون فأتوا الأفْعَى الجُرْهمى ، ومنزلُه بنَجْران (٦) . فلما ماتَ تشاجرُوا فى ميراثه ، فتوجَّهوا إلى الأفعى الجرهمى .

فبينماهم فى مسيرهم إليه ، إذ رأى مُضَرُ أثرَ كَلَأً قد رُعِى ؛ فقال : إن البعير الذى رَعَى هذا لأعْوَر ! قال ربيعة : إنه لَأَزْوَر (٧) ! قال إياد : إنه لأبْتَر (٨) ! قال أنمار : إنه لَشَرُود (٩) !

ثم ساروا قليلا فإذا هم برجل يُنشِدُ (١٠) جملَه ، فسألهم عن البعير ، فقال مضر: أهوَ أعْوَر ؟ قال : نعم ؛ قال ربيعة : أهو أزْوَر ؟ قال : نعم ، قال إياد : أهو أبْتَر؟ قال : نعم . قال أنمار : أهو شَرُود ؟ قال : نعم ! وهذه والله صِفَةُ بعيرى فدُلُّونى عليه . قالوا : والله ما رأيناه ، قال : هذا والله الكذب ! وتعلق بهم ، وقال : كيف أصدّقكم وأنتم تَصِفُون بعيرى بصفَتِه ! فساروا حتى قدموا نَجْرَان .

---

* مجمع الأمثال : ١ ـ ١٥ ، بلوغ الأرب : ٣ ـ ٢٦٤ ، المسعودى : ١ ـ ٣٠٢ .
(١) الأدم : الجلد (٢) الأدهم : الأسود (٣) الخباء : يكون من وبر أو صوف أو شعر (٤) شمطاء : برأسها شيب يخالط السواد (٥) الندوة : مجلس القوم نهاراً (٦) نجران : مدينة شهيرة باليمن ، جرت فيها حوادث قصة « أصحاب الأخدود » (٧) الأزور : من يمشى على شق . (٨) الأبتر : مقطوع الذنب (٩) الشرود : النافر . (١٠) أنشد الضالة : طلبها .

فلما نزلوا نادى صاحبُ البعير : هؤلاء أخذُوا جَمَلِي ، ووصفوا لى صِفتَه ، ثم قالوا : لم نَرَه .

فاختصموا إلى الأفعى الجرهمى ـ وهو حَكَم العرب ـ فقال الأفعى : كيف وصفتُموه ولم ترَوْه ؟ قال مُضَر :رأيته رَعَى جانبا وترك جانبا؛فعلمت أنه أعور.وقال ربيعة : رأيتُ إحدى يديه ثابتةَ الأثَر والأخرى فاسدَتَه ؛ فعلمت أنه أزور ؛ لأنه أفسده بشدة وَطْئه لازْوِرَاره . وقال إياد : عرفتُ أنه أَبْتَر باجتماع بَعْرِه ، ولو كان ذَيَّالًا(١) لمَصَعَ به(٢) . وقال أنمار : عرفتُ أنه شَرُود ، لأنه كان يرْعَى فى المكان الملتفِّ نبتُه ، ثم يجوزُه إلى مكانٍ أرقَّ منه وأخبثَ نبتاً ؛ فعلمتُ أنه شَرُود. فقال للرجل : ليسوا بأصحابِ بعيرك فاطلبه !

ثم سألهم : من أنتم ؟ فأخبروه ،فرحّب بهم ، ثم أخبروه بما جاء بهم ، فقال : أتحتاجون إلىّ وأنتم كما أرى ! ثم أنزلهم ، فذبح لهم شاة ، وأتاهم بخَمْر ، وجلس لهم الأفعى ، حيث لا يُرَى وهو يَسْمَعُ كلامهم . فقال ربيعة : لم أرَ كاليوم لحماً أطيبَ منه ، لولا أن شاتَهُ غُذِيتْ بلبن كَلْبة ، فقال مضر : لم أر كاليوم خمراً أطيبَ منه لولا أن حُبْلَتَها(٣) نبتَتْ على قَبْر ، فقال إياد : لم أر كاليوم رجلا أسرى(٤) منه لولا أنه ليس لأبيه الذى يُدْعَى له ، فقال أنمار : لم أرَ كاليوم كلاماً أنفع فى حاجتنا من كلامنا ؛ وكان كلامُهم بأُذُنِه ، فقال : ما هؤلاء إلا شياطين !

ثم دعا القَهْرَمان(٥) فقال : ماهذه الخمر ؟ وما أمرُها ؟ قال : من حُبْلَةٍ غرسْتها على قَبْرِ أبيك لم يكن عندنا شَرَابٌ أطيبُ من شرابها ، وقال للراعى :ماأَمْرُهذه

---

(١) ذيالا : له ذيل طويل . (٢) مصع به : يقال مصعت الدابة بذنبها ؛ أى حركته .
(٣) الحبلة : الكرم أو أصل من أصوله (٤) السرو : المروءة فى شرف (٥) القهرمان: القائم بأمور الرجل .

الشاة ؟ قال : هي شاةٌ صغيرة أرضعتها بلبن كلبة ، وذلك أن أمّها كانت قدماتت ولم يكن في الغنم شاةٌ وُلدت غيرها.

ثم أتى أمّه فسألها عن أبيه فأخبرتْه أنها كانت تحت ملك كثير المال ، وكان لا يُولَدُ له ، قالت : فخفتُ أن يموتَ ولا وَلَدَ له فيذهبَ المُلكُ !

فخرج الأفعى عليهم ، فقصَّ القومُ عليه قصتَهم ، وأخبروه بما أوصى به أبوهم ، فقال : ما أشبهَ القُبّةَ الحمراء من مال فهو لمضر ، فذهب بالدنانير والإبل الحُمْر ، فسمى مُضر الحمراء لذلك . وقال : أما صاحبُ الفرَس الأدْهم والخِباء الأسود فله كل شيء أسود ، فصارت لربيعة الخيلُ الدهْم ، فقيل : ربيعة الفرس . وما أشبه الخادم الشمطاء فهو لإياد ، فصارت له الماشية البلق من الحَبَلّق[1] والنَّقَد[2] ، فسمى إياد الشمطاء ، وقَضَى لأنمار بالدراهم وبما فَضَل ، فسُمّى أنمار الفضل ، وصَدَرُوا[3] من عنده على ذلك !

---

(١) الحبلق : غنم صغار لا تكبر ، أو قصار المعز ودمامها (٢) النقد : جنس من الغنم قبيح الشكل.
(٣) صدروا : رجعوا

٤٧ ـ ارعَىْ وَاحْـذَرِى*

خرج أعرابىٌّ مكفوفُ البصر ، ومعه ابنةُ عمٍّ له لرَعْىِ غنمٍ لهما ، فقال الشيخ: أجدُ ريحَ النسيم قد دنا ، فارفعى رأسَك فانظرِى ، قالت : أراها كأنها رَبْرَب[1] معزى هَزْلى ، قال : ارْعَىْ وَاُحْذَرِى .

ثم قال لها بعد ساعة : إنى أجدُ ريح النسيم قد دنا ، فارفعى رأسك فانظرى . قالت: أراها كأنها بغَالُ دُهْم ، تجرُّ جِلَالها ؛ قال : ارْعَىْ وَاُحْذَرِى .

ثم مكث ساعة ، ثم قال : إنى لأجدُ ريح النسيم قد دنا فانظرى . قالت : أراها كأنها بطنُ حمارٍ أصْحَرَ[2] . فقال : ارعَىْ وَاُحْذَرِى. ثم مكث ساعة ، فقال إنى لأجُد رِيح النسيم فما تَرَيْن؟ قالت : أراها كما قال الشاعر[3] :

دانٍ مُسِفٌّ[4] فُوَيْقَ الأرضِ هَيْدَبُهُ[5] ... يَــكادُ يَدْفَعُهُ مَنْ قَامَ بالرَّاحِ
كأنمـــا بين أعـــلاه وأسْفَـــلِهِ ... رَيْطٌ[6] مُنَشرةٌ أو ضَوْء مصباحِ
فَمَنْ بِنَجْوَتِهِ[7] كَمَنْ بِعَقْوَتِهِ[8] ... والمُسْتَكِنُّ كَمَنْ يَمْشِى بِقِرْوَاحِ[9]

فقال : انجِى ، لا أبالك ! فما انقضى كلامُه حتى هطلت السماء عليهما !

---

* الأغانى : ١١ ــ ٧١

(١) الربرب : القطيع (٢) الصحرة : حمرة فى غبرة (٣) هو عبيد بن الأبرص

(٤) المسف : الذى قد أسف على الأرض ، أى دنا منها (٥) الهيدب : السحاب يقرب من الأرض كأنه متدل (٦) الريط : جمع ريطة وهى كل ملاءة غير ذات لفقين ، كلها نسج واحد

(٧) النجوة : المكان المرتفع الذى تظن أنه نجاؤك (٨) العقوة : ساحة الدار (٩) القرواح : أرض قرواح : واسعة . والقرواح أيضا : البارز الذى لا يبرزه عن السماء شىء .

٤٨ - طِبّ الحارث بن كَلَدَة*

وفد الحارث[١] بن كَلَدَة الثّقفى على كسرى أنو شروان ، فأَذِن له بالدخول عليه ؛ فلما وقف بين يديه ، قال له : مَنْ أنتَ ؟ قال : أنا الحارث بن كَلَدَة الثقفى. قال : فما صناعتُك ؟ قال : الطب ، قال : أعْرابى أنت ؟ قال : نعمْ ، مِن صميمها ، وبُحبوحة[٢] دارها . قال : فما تصنع العرب بطبيبٍ مع جهلِها ، وضعفِ عقولها ، وسوء أغذيتها ؟ قال : أيها الملك ؛ إذا كانت هذه صفتُها كانتْ أحوجَ إلى مَنْ يُصْلِحُ جَهْلَهَا ، ويقيم عِوَجها ، ويَسُوسُ أبدانها ، ويعدل أَمشاجها[٣] ، فإن العاقل يعرفُ ذلك من نفسه .

قال كسرى : فكيف تعرفُ ماتورده عليها ؟ ولو عرفتِ الحلْمَ لم تُنْسَب إلى الجهل !

فقال : أيها الملك ؛ العقل من قسم الله تعالى ، قسَّمه بين عباده كقِسْمةِ الرزق فيهم ، فكلٌّ من قسمته أصاب ، فمنهم مُثْرٍ ومُعْدِم ، وجاهل وعالم ، وعاجز وحازم ، وذلك تقديرُ العزيزِ العليم . فأَعْجِبَ كسرى بكلامه .

ثم قال : فما الذى تَحْمَد من أخلاقها ، ويعجبُك من مذاهبها وسجاياها ؟ قال الحارث : أيها الملك ، لها أنفسٌ سَخِيّة ،وقلوبٌ جرية[٤] ، ولغةفصيحة،وأَلْسن بليغة،

---

* بلوغ الأرب : ٣ — ٣٢٨ ، العقد الفريد : ٤ — ٣٤١

(١) كان الحارث من الطائف ، وهو طبيب العرب فى عصره ، سافر إلى فارس وتعلم الطب ، وعرف الداء والدواء،وكان يضرب بالعود ، تعلم ذلك بفارس واليمن ، وبقى أيام رسول الله وأبى بكر وعمر وعثمان وعلى معاوية وتوفى نحو سنة ٥٠ . (٢) بحبوحة : صميم (٣) الأمشاج : الأخلاط . (٤) جرية : جريئة .

وأنساب صحيحة ، وأحسابٌ شريفة ، يمرُق (١) من أفواههم الكلامُ مُرُوقَ السهم من نَبْعةِ الرّامِ (٢) ، أعْذَبَ من هواء الربيع ، وألينَ من سلسبيل المَعِين (٣) ؛ مُطْعِمُو الطعام فى الجَدْبِ ، وضارِبُو الهامِ فى الحربِ ، لا يُرامُ عِزُّهم ، ولا يُضَامُ جارُهم ، ولا يُسْتَبَاحُ حَرِيمهم ، ولا يُذَلّ كريمهم ، ولا يقرُّون بفضلٍ للأنام ، إلّا للملكِ الهمام ، الذى لا يقاسُ به أحد ، ولا يوازيه سُوقَة (٤) ولا مَلِك !

فاستوى كسرى جالساً ، وسُرّ لمّا سمع من مُحْكَمِ كلامه ؛ وقال لجلسائه : إنى وجدتهُ راجحاً ، ولقومه مادِحاً ، وبفَضِيلتهم ناطقاً ، وبما يُورِدُهُ من لفظه صادقاً ؛ وكذا العاقل مَنْ أحكمَتْهُ التجارب ! ثم أمره بالجلوس فجلس ، فقال له : كيف بَصرُك بالطِّبِّ ؟ قال : ناهيك !

قال: فما أصلُ الطبِّ ؟ قال : ضَبْطُ الشفتين ، والرِّفقُ باليدين . قال : أصبتَ ! فما الداء الدَّوِىّ (٥) ؟ قال : إدخال الطعام على الطعام ، هو الذى يُفْنى البريّة ، ويُهلِك السباعَ فى جَوْف البرّيّة . قال : فما الجَمْرةُ التى تلهّب منها الأدواء ؟ قال : هى التّخَمة ، إن بقيتْ فى الجوف قَتلت ؛ وإن تحلَّلت أَسقمت . قال : صدقت .

فما تقول فى الحِجَامة ؟ قال : فى نقصان الهلال ، فى يوم صَحْوٍ لا غَيْم فيه ، والنفسُ طيبة ، والعروقُ ساكنة ، لسرورٍ يفاجئك ، وهمٍّ يباعدك . قال : فما تقولُ فى دخول الحمام ؟ قال : لا تدخُلْه شَبْعان ، ولا تنم بالليل عُرْيَان ، ولا تقعد على الطعام غَضْبَان ، وارفقْ بنفسك يكنْ أرخى لبالك ، وقلِّلْ من طعامك يكنْ أَهْنَأ لنومك .

قال : فما تقول فى الدّواء ؟ قال : ما لزمَتْكَ الصحةُ فَاجتنبْه ، فإن هاج داء

---

(١) يمرق : يخرج (٢) الرام : شجر (٣) السلسبيل : العذب . والمعين : الماء الجارى
(٤) السوقة : خلاف الملك (٥) الداء الدوى : المهلك .

فاحْسِمه بما يَرْدَعُه قبل استحكامه ؛ فإنَّ البدَنَ بمنزلة الأرض ؛ إن أصلحتَها عَمَرتْ ، وإن تركتَها خَرِبت .

قال : فما تقولُ فى الشراب ؟ قال : أطيَبه أهْنَاه ، وأرقُّه أمْرَاه ، وأعذبُه أشهاه ، لا تشربه صِرْفاً (١) فيورثَك صُداعاً ، ويثيرَ عليك من الأدواء (٢) أنواعا .

قال : فأىّ اللُّحمَان أفضل ؟ قال : الضأن الفتِىّ ؛ والقديدُ المالح مهلكٌ للآكل ؛ واجتنب لحمَ الجزُور والبقر .

قال : فما تقول فى الفواكه ؟ قال : كُلْها فى إقبالها وحينَ أوانها ، واتركها إذا أدبرت وولَّتْ وانقضى زمانُها ؛ وأفضلُ الفواكه الرمّان والأُتْرُجُّ ، وأفضلُ الرياحين الورد والبَنَفْسَج ، وأفضل البقول الهِنْدِباء (٣) والخس .

قال : فما تقول فى شُرْب الماء ؟ قال : هو حياةُ البدن ، وبه قوامُه ، ينفع ما شرِبَ منه بقَدْرِ الحاجة ، وشربُه بعد النوم ضرر ، أفضلَه أمْراه ، وأرقّه أصْفاه .

قال : فما طعمُه ؟ قال: شىء لا يوصف ، قال : فما لونُه ؟ قال : اشتبَه على الأبصار لونُه ؛ لأنه يحكى لونَ كلِّ شىء يكون فيه .

قال : فما النورُ الذى فى العينين ؟ قال : مُرَكَّب من ثلاثة أشياء : فالبياض شحم ، والسواد ماء ، والناظرُ رِيح .

قال : فعلى كم جُبِلَ وطُبِـعَ البدن ؟ قال : على أربعة طباع : المِرَّةُ السوداء وهى باردةٌ يابسة ، والمِرَّةُ الصفراء وهى حارَّةٌ يابسة ، والدم وهو حارٌّ رطب ، والبلغم وهو باردٌ رطب . قال : فلِمَ لم يكن من طَبْعٍ واحدٍ ؟ قال : لو خُلِقَ من طَبْع واحد لم يأكل ولم يشرب ؛ ولم يمرض ولم يهلك ! قال : فمن طبيعتين لو كان

(١) صرفا : غير ممزوج . (٢) جمع داء . (٣) بقلة نافعة للمعدة والكبد والطحال

اقتصر عليهما ! قال : لم يَجُزْ لأنهما ضدان يقتتلان ؟ قال : فمن ثلاث ؟ قال : لم يصلح مُوافِقَانِ ومُخالِف ! فالأربع هو الاعتدال .

قال : فأجمِل لى الحارّ والباردَ فى أحْرُفٍ جامعة ؟ قال : كلّ حلو حار ، وكل حامض بارد ، وكلّ حرّيف[1] حار ، وكل مرّ معتدل ، وفى المرّ حار وبارد . قال: فأفضلُ ماعُولج به المرة الصفراء ؟ قال : كلُّ باردٍ لين ، قال : فالمرة السوداء ؟ قال : كل حارّ لين . قال : فالبلغم ؟ قال : كل حار يابس . قال : فالدّم ؟ قال : إخراجه إذا زاد ، وتَطفئته إذا سخُن بالأشياء الباردة اليابسة . قال : فالرِّياح ؟ قال : بالحقن اللينة ، والأدْهَان الحارة الليّنة . قال : أفتأمر بالحقنة ؟ قال : نعم ! قرأت فى بعض كتب الحكماء أنّ الحقْنَة تُنَقِّى الجوْفَ وتَكْسَح الأدْوَاء عنه ، والعجبُ لمن احتقن كيف يَهْرَم أو يعْدَمُ الولد ! وإن الجاهلَ مَنْ أكل ماقد عرَف مضرّته ، ويؤثِرُ شهوته على راحة بدَنه .

قال : فما الحِمْيَة ؟ قال : الاقتصادُ فى كل شى ، فإن الأكلَ فوق المقدار يُضَيِّق على الروح ساحتَها ، ويسدُّ مَسامَّها .

قال : فما تقول فى النساء[2] ... وأيهن القلبُ إليها أميلُ ، والعينُ برؤيتها أسرّ ؟ قال : إذا أصبتَها مديدةَ القامة،عظيمة الهامَة[3] ، واسعةَ الجبين ، قنواء العِرْنين[4] ، كَحْلَاء[5] لَعْسَاء[6] ، صافيةَ الخد ، عريضة الصدر ، مليحة النَّحْر[7] ، فى خدِّها رِقّة ، وفى شفتيها لَعَس ، مقرونة الحاجبين ، ناهدة الثَّدْيين ، لطيفة الخصْر[8]

(١) الحريف : الذى يلذع اللسان .

(٢) عبارات فى الأصل حذفت هنا (٣) الهامة : الرأس (٤) قنواء : بينة القنا ، وهو ارتفاع أعلى الأنف واحديداب وسطه وسبوغ طرفه . والعرنين : الأنف كله أو ماصلب منه .

(٥) الكحلاء : التى كأنها مكحولة ولم تكحل (٦) لعساء : فى شفتها سواد (٧) النحر : أعلى الصدر (٨) الخصر : وسط الإنسان .

والقدمين ، بيضاء فَرْعاء [١]، جَعْدَة [٢] غَضّة بضّة [٣]، تخالها فى الظلمة بَدْراً زاهراً تبسم عن أُقْحوان وعن مَبْسم [٤] كالأُرْجُوان [٥] ، كأنها بَيْضَة مكنونة ، ألين من الزُّبْد ، تفرحُ بقُرْبها ، وتسرُّك الخَلْوَةُ معها .

فاستضحك كسرى حتى اختلجت كَتِفاه ! وقال : لله دَرُّكَ من أعرابى ! لقد أُعْطِيتَ علماً،وخصِصت فِطْنَةً وفَهْما ! وأحسنَ صلته ، وأَمَرَ بتدوين مانطقَ به.

---

(١) الفرعاء : التامة الشعر (٢) جعدة : غير سبطة الشعر (٣) بضة : ناعمة
(٤) المبسم : الثغر . الأقحوان : نبت من نبات الربيع ، له نور أبيض . كأنه ثغر جارية حديثة السن
(٥) الأرجوان : صبغ أحمر .

٤٩ ـ حَديث قُس بن سَاعدَة مَع مَلك الرّوم*

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلى :

حضرتُ مجلسَ المأمون ، فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ ألا أُحَدِّثُك عن الفضلِ ابن يحيى ؟ قال : بلى ! فقلت : دخلتُ دار الرشيد، و إذا الفضلُ بن يحيى و إسماعيل ابن صبيح ، وعبدُ الملك بن صالح فى بعض تلك الأرْوِقَة يتحدّثون ؛ فلما بَصُرَ بى الفضلُ أوْمأ إلىّ ، وقال : يا إسحاق ؛ انتظرْنَاك منذ الغَدَاة ؛ لتساعدَ على مانحنُ فيه من المُذاكرة ! فقلت : ياسيدى ؛ أنا السُّكَيْتُ [١] إذا أُجْرِيت الجِيَاد ، وفاز السابق والمُصَلِّى ! فقال عبد الملك : مدحتَ نفسك ، ولما تكذب .

ولما فرغ عبدُ الملك من حديثه قال الفضل : إن لقُسٍّ [٢] حديثاً سمعتُه من الخليل بن أحمد ؛ فهل عند واحدٍ منكم له ذِكْرٌ ؟ فسكت القومُ ، فقلتُ: ياسيدى؛ ما نعرفُ له حديثاً إلا حديثَ خُطبته بعُكاظ ! قال : ذاك شىء قد فَهِمَتْه العامَّةُ واختَبَرَتْه الخاصة . ثم أطْرَقَ ساعة ، فقلنا : إن رأيتَ أنْ تحدِّثنا ؟ فقال :

حدَّثنى الخليل بن أحمد: أنَّ قيصر ملك الروم بعث إلى قُسّ بن ساعدة أسْقفَ نَجْرَان ـ وكان حكيما طبيباً بليغاً فى مَنْطِقه ؛ فلما دخل عليه ومثَل بين يديه حمِد الله

* المحاسن والمساوى : ٣٥١ ـ طبع ليبزج .

(١) السكيت : الذى يجىء فى الحلبة آخر الخيل (٢) هو قس بن ساعدة خطيب العرب قاطبة ، والمضروب به المثل فى البلاغة والحكمة ، والموعظة الحسنة . كان يدين بالتوحيد، ويؤمن بالبعث ويدعو العرب إلى نبذ الأوثان ، فى المحافل العامة ، ومواسم الأسواق وسمعه النبى قبل البعثة يخطب بعكاظ ، فعجب من حسن كلامه وأثنى عليه ، وعمر طويلا ومات قبيل البعثة .

وأثنى عليه ، فأمره بالجلوس ، فجلس ورحّب به ؛ وأدْنَى مجلسه ، وقال : مازِلْتُ مشتاقاً إليك لِماَ سمعتُ من مُناَظَرَتِكَ فى الطب .

فكان أول ما سأله عن الشراب ، فقال : أىُّ الأشربة أفضل عاقبةً فى البدن؟ قال : ما صَفَا فى العَيْنِ ، واشتدَّ على اللسان ، وطابت رائحته فى الأنف من شراب الكَرْم . قال : فما تقول فى مطبوخه ؟ قال : مرعًى ولا كالسَّعدان (١) ! قال : فما تقول فى نَبِيذ الزبيب ؟ قال : مَيّت أُحْيِى ، وفيه بعضُ المُتعة وما كاد يَقْوى شىء بعد الموت ! قال:فما تقول فى نبيذ العسل ؟ قال : نِعْم شرابُ الشيخ للمعدة الفاسدة. قال : فما تقول فى أنبذة التمر ؟ قال : أوساخ يطيبُ مذاقها فى اللَّهَوَات ، وتسوء عاقبتُها فى البدن ، وتولّد الأرواح (٢) فى البَطْنِ لرقّتها .

قال : فمن أى شىء يكون الثمَل الذى يُذهب الغمّ ويطيّب النفس ؟ قال : زعموا أنَّ العقلَ تُصَعِّده سَوْرَةُ الشراب إلى الدِّماغ؛فإذا صعدت السَّوْرَة إلى الدماغ الذى هو أصله ، احتجب البصرُ بغير عمى ، والسمع بغير صَمَم ، واللسانُ بغير خرَس؛ فلا يزال العقلُ كذلك محتجباً حتى تفكّه الطبيعة من إسارِ السكر ، إمّا بقوة فيعجل ، وإما بضَعْفٍ فيبطىء .

قال : فمِنْ أَىِّ شَىْء الخُمَار (٣) من بَعْدِ صَحْوِ السكران ؟ قال : من إعْيَاء الطبيعة عن مُجاَهَدة السَّورة فى افتكاك العَقْلِ وتخلصه ، حتى يردّها النومُ إلى هُدُوء وما أشبهه . قال : الصِّرْف أفضلُ أم المزوج ؟ قال : الصِّرْفُ سلطانٌ جائر ، والجائر مذموم ، والممزوج سلطانٌ عادل ، والعادل محمود .

قال : فصِفْ لى الأطعمةَ . قال : الأطعمةُ كثيرة مختلفة . وجملةُ ما آمرُك به

---

(١) السعدان : نبت ذو شوك ، وهو من أنجع المرعى ، وهـذا مثل يضرب للشىء يفضل على أقرانه وأشكاله (٢) الأرواح : جمع ريح (٣) الخمار : بقية السكر .

الإمساكُ عن غاية الإكثار ، فإن ذلك من أفضل ما بَلَوْناه من الأدوية ، ورأسَ ما نأمرُ به من الحِمْيَةِ . قال له : عَمَّنْ حملتَ الحكمة ؟ قال: عن عِدةٍ من الفلاسفة. قال : فما أفضلُ الحكمة ؟ قال : معرفةُ المرء بقَدْرِه . قال : فما تقولُ فى الحلم ؟ قال حلمُ الإنسان ماء وجهه. قال : فماتقول فى المال وفضله؟قال : أفضلُ المال ماأُعطى منه الحق . قال : فما أفضلُ العطيَّة ؟ قال : أن تُعْطِيَ قبل السؤال .

قال : فأخبرنى عما بَلَوْتَ[1] من الزمان وتصرّفه ، ورأيتَ من أخلاقِ أهْلِه . قال : بَلَوْنا الزمانَ فوجدناهُ صاحباً يخونُ صاحبَه ، ولا يعتِب مَن عاتبه ، ووجدنا الناسَ صورةً من صُوَر الحيوان، يتفاضلون بالعقول،ووجَدْنا الأحسابَ ليست بالآباء والأمهات ، ولكنّها فى أخلاقٍ محمودة ، وفى ذلك أقول :

لقــــد حَلَبْتُ الزمانَ أشْطُرَهُ ثم مَخَضْتُ[2] الصريحَ[3] مِنْ حَلَبِ
فــلم أرَ الفَضْــلَ والمعَالِيَ فى قَوْلِ الفَــتى : إنّنى مِن العَرَبِ
حـــتى نَرَى سامياً إلى خُلُقٍ يَذُودُ محْمُــودُهُ عن النَّسَبِ
ما ينفـــعُ المرءَ فى فُكاهَتِهِ من عَقْلِ جَدٍّ مضَى وعَقْلِ أَبِ
ما المرءُ إلا ابْنُ نَفْسِــــه فَبِهَا يُعْرَفُ عنـــد التحصيل للنُّوَبِ

ووجدنا أبلغَ العظاتِ النظرَ إلى محلِّ الأموات ، وأحمَد البلاغة الصمتَ ، ووجدنا لأهل الحَزْمِ حذاراً شديداً ، و بذلك نجَوا من المكروه ، والكرمُ حسنُ الاصطبار ، والعزُّ سُرعةُ الانتصار ، والتجربةُ طولُ الاعتبار .

قال : خبرنى هل نظرتَ فى النجوم ؟ قال : مانظرتُ فيهــا إلا فيما أردتُ به الهِدَاية ، ولم أنظر فيما أردتُ به الكَهانة ، وقد قلت فى النجوم :

---

(١) بلوت : خبرت . (٢) مخض اللبن : أخذ زبده (٣) الصريح : الخالص .

عـــلم النجوم على العقول وَبَالُ   وطِلَابُ [1] شىء لا يُنـالُ ضَلَالُ
ماذا طِلابُكَ عــلمَ شىء أُغلِقَتْ   من دُونه الأفـــلاكُ ليس يُنالُ
هيهاتَ ما أحـــدٌ بغامض قَدْرِه   يـــدرى كم الأرزاقُ والآجالُ
إلا الذى فوق السماء مـــكانه   فلوَجْهِـــهِ الإكرامُ والإجلالُ

قال : فهل نظرتَ فى زَجْر [2] الطير ؟ قال : نحن معاشرَ العرب مولَعون بزَجْرِ الطير . قال : فما أعجبُ ما رأيته منه ؟ قال : شَخَصتُ أنا وصاحبٌ لى من العرب إلى بعض الملوك ، فألفيناهُ يريد غَزو قوم كانوا على دين النصرانية ، فخرج حتى إذا كان على فراسخَ من مدينته أمر بضرب فَساطيطه وأرْوِقَتِه لتتوَافى إليه جنودُه، وضُرب له فُسطاط على شاطىء نهر ، وأمر بخباء فضُرِب لى ولصاحبى ، فبينـا نحن كذلك إذ أقبل طائران : أسود وأبيض ، وأنا وصاحبى نرمُقُهما ، حتى إذا كانا على رأسه رَفْرَفا ، ثم غابا ، ثم رجعا أيضًا ، حتى إذا كانا قريبًا منه طوَيَاه ، ثم أقبلا نحونا فوقعا ثم رَتَعَا [3] . فقال صاحبى : ما رأيتُ كاليوم طائرين أعجبَ منهما ، فأيهما أنتَ مختار ؟ فقلت : الأسود . قال : الأبيض أعجبهما إلىّ ،فما تأوّلتَهما ؟ قلت: الليل والنهار يطويان هذا الرجلَ فى سفره فيموت ، وتأوَّلت اختيارك الأبيض أنك تنصرف بيد بيضاء مُخْفِقَةٍ [4] من المال . فإذا هو قد غضب .

فلما جَنَّ الليل بعثَ إلينا الملك لِنَسْمُر عنده ، فإذا صاحبى قد أخبره بالخبر ، فسألنى فأخبرته وصدقتُه . فغَضِب ، وقال : هذه حَمِيّةٌ منك لأهلِ دينك ! فقلت : أما أنا فقد صدقْتُك . فأمر بحَبْسى ومضى لوجهه . فلم يتجاوزْ إلا قليلًا حتى مات ! فأوْصَى لى بعشرين ناقة ، وقال : قاتل الله قُسًّا ! لقد مَحَضنى النصيحة . فانصرفتُ من سفرى ذلك بعدَّةٍ من الإبل ، وانصرف مُخْفِقًا من المال .

(١) طلاب : طلب (٢) الزجر : ما يحدث من بعض الناس من التكلم بالغيب عند سنوح طائر أوحيوان (٣) الرتع : الأكل والشرب رغداً فى الريف (٤) مخفقة : خالية .

قال الملك : وما رأيتَ أيضًا من الزجر أعجب ؟ قلت : ما رأيتُ مرةً عند الملك الهُمَام أَبِي قَابُوس ، وقد خرج عليه خارجٌ من مُضَر يريد مُلْكه ، وقد حشد له ، فبعث إلى بعض عمّاله فى توجيه أربعمائة فارس ، ووجّهنى مع الرسول ، وأمرنا بالشدّ على أيديهم فى جَمْع الخيلِ والرجال ـ وكان الرسولُ شاعراً ، فبينا نحن نسير إذ سنحت لنا ظباء فيها تَيْس (١) يقدُمُها ، وكان أبو قابوس يواعد للقائه فى يوم كذا وكذا ، فنحن نقول : إن كان الملكُ خرج فى يوم كذا فهو اليوم فى موضع كذا ، وقد أقبلنا ، ونحن نقود جيشًا عَرَمْرَما ، فأنشأ الرسول يقول :

أَلا لَيْتَ شعرِى ما تقولُ السّوانحُ   أغادٍ أبو قَابُوس أمْ هُو رائحُ ؟

فنظرت إلى التَّيْس عند فراغه من هـذا البيت ، فوجدته قد دخـل فى مَـكْنِسِه (٢) حتى توارى فيه ، فدخلنى من ذلك مالم أقدر على أَنْ أُمْسك نفسى ؟ حتى استرجعت ، فقال لى رفيقى : مالك ؟ قلت : إن صَدَق الزجر فصاحبُـك قد ثَوَى فى التراب ، والتحفَتْ عليه أطباقُ الثَّرى ! قال : كيف ذلك ؟ قلت : وافَقَ فراغُك من البيت دخولَ التيس فى مَـكْنِسه ، فأعْرَض عنى .

فلما أصبحتُ فى اليوم الذى واعدَنا للقائه لم يُوَافِ ، ولم يكن بأَوْشَكَ من أن أتانا الخبرُ بهلاكه وقُعود ابنه .

فأكرمه قَيْصَر وأحسنَ جائزته .

قلنا : أيَّد الله الوزير ! لقد بلغْتَ ما بلغْتَ باستحقاق ، ولقد حُزْتَ قصبـة الرهان فى كل مَنْقَبة ، فتبسَّم وقال : عِزُّ الشريف أدبُه ، وإذا رسولُ الرئيس قد وافاه فنهض نحوه ، وتصدَّع المجلس وانصرفنا .

---

(١) التيس : الذكر من الظباء والمعز والوعول (٢) المكنس ـ بكسر النون : مولج الوحش من الظباء والبقر تسكن فيه من الحر .

فلما مضى من الليلِ بعضُه إذا أنا بطارق قد طرقنى ، و بين يديه غلمـان على أعناقهم البِدَر(١) ، و إذا رسولُ الفَضْل وقد حمل إلىّ مائة ألف درهم ،وقال :الوزيرُ يقرأ عليك السلام . ويقول : ضجرتَ باستماع الأحاديث،وأوجبْتَ علىّ بذلك مِنّة، وهذا عطاء وَتِحٌ(٢) فى جنب قَدْرِك عندى ، فخذه ولا تعتدّ به .

فقلت : سبحان الله الذى خلق هذا الرجل ! وَجَبَلَه على كرم بذّ به من مَضَى ومَنْ غَبَر . و إذا هو قد وجّه إلى أصحابى الذين كانوا معى بمثل الذى وجّه به إلىّ ، فغدوتُ إليه وأردتُ أن أشكره ، فقال : والله لئن ذهبتَ تـكشفُ ما سَتَر اللهُ لأجْفُوَنّك! فـكأنما ألقمنى حجراً . واحتبسنى عنده، فطعِمْت وشربت ، ورُحْت وقد حملنى على عِدّة أفراس بِسُروج ولُجُم مُذْهَبَة ، ووجّه معى بعشرة تخوت(٣) ثياب وعشر بِدَرٍ .

فقال المأمون : وَيْحك يا إسحاق ! ثوابُ حديثك ضعفُ ماأمر لك به الفضل، وقد أمَرتُ لك بمائة ألف درهم .

فقبضْتُ ذلك وانصرفت .

---

(١) البدر : جمع بدرة : كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم . (٢) وتح : قليل .
(٣) التخت : وعاء تصان فيه الثياب .

٥٠ـ أعرابى فى سفر*

زعموا أن رجلا من كَعْب خرج فى جماعةٍ ، ومعه سِقَاء[1] من لبن ، فسار صَدْرَ يومه ، فعطش فأناخ ليشرب ؛ فإذا غرابٌ ينْعَب[2] ، فأثار راحلته ، ثم سار ، فلما أظْهَرَ[3] أناخ ليشرب ، فنَعَب الغراب وتمرّغَ فى التراب ، فضرب الرجلُ السِّقَاء بسيفه ، فإذا فيه أسودُ[4] ضَخْمٌ فقتله .

ثم سار ، فإذا غرابٌ واقعٌ على سِدْرَة[5] ، فصاح به فوقع على سَلَمة[6] ،فصاح به ، فوقع على صَخْرة ، فانتهى إليها ، فأثار كَنْزاً .

فلما رجع إلى أبيه قال له : إيه ماصنعت ؟ قال : سرتُ صَدْرَ يومى ، ثم أنَخْتُ لأشربَ فنَعبَ الغراب ، قال : أثِرْها ، وإلا فلستَ بابنى ! قال : أثرتُها ، ثم أنختُ لأشربَ ؟ فنَعَب الغراب ، وتمرّغ فى التُّراب ، قال : اضربِ السقاء ، وإلّا فلستَ بابنى ! قال : فعلتُ ، فإذا أسودُ ضَخْم ، قال : ثم مَهْ ! قال : ثم رأيتُ غراباً على سِدْرة ، قال : أطِرْهُ وإلا فلستَ بابنى ! قال : فعلتُ . فوقع على سلَمة ، قال : أطِرْهُ وإلا فلست بابنى ! قال : فعلت ، فوقع على صخرةٍ ، قال : أخبرنى بما وجدت ، فأخبره !

---

* نهاية الأرب : ٣ـ١٤٠ ، بلوغ الأرب : ٣ـ٣٠٩ .

(١) السقاء : مايوضع فيه اللبن . (٢) نعب الغراب : صاح . (٣) أظهر : سار فى الظهر
(٤) الأسود : العظيم من الحيات (٥) السدرة : شجرة النبق (٦) السلم : شجرة من العضاه ، الواحدة سلمة .

٥١ - فى موتِ رسولِ الله *

قال أبو ذُؤيب الهذَلى[١] : بلغَنا أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عليل ؛ فأوجس أهلُ الحيِّ خِيفةً عليه ، فبتُّ بليلةٍ ثابتةِ النجوم ، طويلةِ الأناة، لاينجابُ دَيْجورها[٢] ولا يَطْلُع نورُها ، حتى إذا قَرُب السَّحَر غَفوْتُ ، فهتَف لى هاتفٌ يقول :

خَطْبٌ أجَلُّ أناخَ بالإســـلامِ بين النخيل ومَقْعَـــد الآطامِ[٣]
قُبِضَ النبِيُّ محمــــد فعيونُنـا تُذْرِى الدموعَ عليه بالتَّسْجامِ[٤]

فوثبْتُ من نومى فَزِعا ؛ فنظرتُ إلى السماء فلم أر إلا سَعْد الذابح[٥] ؛ فتفاءلتُ به ذَبْحًا يقع فى العرب ، وعلمتُ أن النبى صلى الله عليه وسلم قد مات ، أو هو ميِّت من علّته .

فركبتُ ناقتى وسِرْتُ حتى أصبحتُ ، فطلبتُ شيئا أزْجره ، فعنَّ لى شَيْهَم[٦] قد أرَم[٧] على صِل[٨] ، وهو يتلوّى ، والشَّيْهم يقْضَمهُ حتى أكله ، فزجرتُ ذلك شيئا مُهِمًّا ؛ فقلت : تلوِّى الصِّلِّ انفتالُ[٩] الناس عن الحق على القائم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أوَّلتُ أكْلَ الشَّيْهم إياه : غَلبَة القائم على الأمر .

---

* بلوغ الأرب : ٣ ـ ٣١٥ ، نهاية الأرب : ٣ ـ ١٤٢ ، معاهد التنصيص : ١ ـ ١٩٣ .

(١) أبو ذؤيب الهذلى : شاعر مقدم من شعراء هذيل ، كان فى جند عبد الله بن سعد حينما فتح إفريقية وعاد إلى مصر ومات بها (٢) الديجور : الظلام (٣) الأطم : القصر وكل حصن مبنى بحجارة وكل بيت مربع مسطح ، جمعه آطام (٤) سجم الدمع : قطر وسال قليلا أو كثيرا (٥) منزل من منازل القمر. (٦) الشيهم : ذكر القنافذ (٧) أرم عليه : عض (٨) الصل : الحية . (٩) انفتل عن الشىء : انصرف .

فجئتُ ناقتي حتى إذا كنتُ بالعلْيَةِ[1] زجرتُ الطير فأخبرني بوفاته . ونعب غرابٌ سانحا[2] بمثل ذلك ، فتعوّذت من شرّ ما عَنّ لى فى طريقى ، ثم قدمتُ المدينة ، ولأهلها ضَجيج كضجيج الحجيج ، أهلّوا جميعاً بالإحرام ، فقلت : مَهْ ! قالوا : قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجئتُ المسجد فأصبته خاليا ، فأتيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فأصبتُ بابه مُرتجاً[3] ، وقد خلا به أهلُه ، فقلت : أينَ الناس ؟ فقيل : فى سقيفة بنى ساعِدة ، وصارُوا إلى الأنصار .

فجئتُ السقيفةَ ، فوجدتُ أبا بكر وعمر رضى الله عنهما ، وأبا عُبَيْدَة وسالما ، وجماعة من قريش ، ورأيتُ الأنصارَ فيهم سَعْدُ بن عبادة ومعهم شعراؤهم ، وأمامهم حسانُ بن ثابت ، فى مَلَأ منهم ، فأويت إلى الأنصار ، فتكلموا فأكثروا ، وتكلّم أبو بكر ، فللّه من رجل لا يُطيل الكلام ، و يعلم مواضِعَ الفَصْل .

والله لقد تكلّم بكلام لم يسمعْه سامعٌ إلا انْقادَ له ومال إليه . وتكلم بعده عمرُ رضى الله عنه بكلام دونَ كلامه ، ومدَّ يَدَه فبايَعَه ، ورجع أبو بكر رضى الله عنه ، ورجعت معه ؛ فشهدتُ الصلاةَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشهدتُ دفْنَه !

---

(١) علية القوم : جلتهم (٢) نعب الغراب : صاح . والسانح : ما أتاك عن يمينك من ظبي أو طائر أو غير ذلك . والعرب تختلف فى العيافة ، فنهم من يتيامن بالسانح : و يتشاءم بالبارح ، ومنهم من يخالف ذلك (٣) أرتج الباب : أغلقه .

٥٢ - عِيَافَةُ لِهْبٍ*

تعشق كُثَيِّر[١] امرأةً من خُزاعة يقال لها أمّ الحُوَيْرِث ؛ فشبَّب بها فكرِهَتْ أن يُسمِّع بها ويفضَحها كما سَمَّع بِعَزَّة ، فقالت له : إنك رجل فقير لا مالَ لك فابْتَغِ مالاً ، ثم تعالَ فاخطبْنى كما يخطبُ الكِرامُ ، قال : فاحلفى وَوَثِّقى أنك لا تتزوَّجين حتى أَقْدَمَ عليك ، فحلفَتْ ووثَّقتْ له . فمدح عبدَ الرحمن ابن إبريق الأزْدىّ وخرج إليه ، فلقى ظباءً سوانح[٢] ، ولقى غُراباً يفحصُ التراب بوجهه ، فتطيَّر من ذلك ، حتى قدم على حىّ من لِهْب[٣] ، فقال : أيُّكم يَزْجُر[٤] ؟ قالوا : كلّنا ! فمن تريد ؟ قال : أعْلَمُكم بذلك ! قالوا : ذلك الشيخ المنحنى الصُّلْب ، فأتاه فقصّ عليه القصَّة فكرِه ذلك له ، وقال : قد ماتت أو تزوجتْ رجلاً من بنى عمِّها ؛ فقال كُثَيِّر :

تيمَّمْت لِهْباً أبتغِى العلم عندهم ... وقد رُدَّ علمُ العائفينَ إلى لِهْبِ
فيمَّمتُ شيخاً منهمُ ذَا بَجَالَةٍ[٥] ... بصيراً بزَجْرِ الطير مُنْحَنِيَ الصُّلْبِ !
فقلتُ له : ماذا ترى فى سَوانِحٍ ... وصوتِ غرابٍ يفحص الوَجْه بالتُّرْبِ
فقال : جرى الطيرُ السَّنِيحُ بِبَيْنِهَا ... ونادَى غُرَابٌ بالفراقِ وبالسَّلْبِ

---

* نهاية الأرب : ٣ ــ ١٤٠ ، الأغانى : ٩ ــ ٣٤

(١) كثير بن عبد الرحمن : من الشعراء الغزلين ، ولكنه كان دعياً فى الحب غير مرغوب فيه لقبح صورته وهوان شخصيته فوق نفاقه السياسى ، وتردده بين الشيعة وبنى أمية. فأخذ يشهر بعزة بنت حميد الضمرى حتى عرف بها ، وكانت وفاته سنة ١٠٥ هـ. (٢) السانح : ما أتاك عن يمينك من ظبى أو طائر أو غير ذلك ، والبارح : ما أتاك من ذلك عن يسارك (٣) لهب : قبيلة من اليمن معروفة بالعيافة وزجر الطير . (٤) الزجر : ضرب من التكهن ، وهو اليمن والتشاؤم بالطير وغيرها . (٥) يبجله الناس ويعظمونه .

فإلاَّ تَـكنْ ماتت فقد حَالَ دونهـا   سِوَاكَ خليـلٌ بَاطنٌ من بنى كَعْبِ

ثم مـدح الرجلَ الأزدىَّ فأصـاب منه خـيراً ، ثم قدِمَ عليها ، فوجدها قد تزوَّجتْ رجلا من بنى عمِّها ، فأخذه الْهلاَس(١) ، فَـكُشِحَ(٢) جَنْبَاه بالنار ، فلما انْدَمَل(٣) من عِلّته ، وضع يدَه على ظهره ؛ فإذا هو بِرَقْمتين(٤) ؛ فقال : ماهذا ؟ قالوا : أخذكَ الهُلَاس ، وزعم الأطباء أنه لا عِلَاجَ لك إلا بالـكَشْح بالنـار ، فـكُشِحْتَ بها ، فأنشأ يقول :

عفا الله عن أمِّ الْحوَيْرِثِ ذَنْبَها   عَلَامَ تُعَنِّينى وتَـكْمِى(٥) دَوَائيا ؟

ولو آذَنُونى قبل أن يرقُموا بهـا   لقلتُ لهم : أمُّ الْحوَيْرِث دَائيـا

---

(١) الهلاس : الضمور ، أو مرض السل .   (٢) كشح : كوى .   (٣) اندمل : برئ .
(٤) المرقوم من الدواب : الذى يكون على أوظفته كيات صغار ، وكل واحدة منها رقمة ، والمراد أنه وجد أثر كيتين .   (٥) كمى الشىء : ستره وكتمه .

٥٣ - أبو النَّشْنَاس ولِهْبٌ*

كان أبو النَّشْنَاش من لُصوص بنى تميم ، وكان يعترضُ القوافلَ فى شُذَّاذٍ (١) من العرب بين طريق الحجاز والشام ، فيَجْتاحُها ، فظَفِر به بعضُ عمال مروان بن الحكم ، فحبسه وقيَّده مدة ، ثم استطاع أن يهرُب فى وقت غِرَّة ، فهرب ، ومرَّ بغُرَاب على بَانَة (٢) ، يَنْتِفُ ريشه وينعَب ، فجزِع من ذلك ، ثم مرَّ بحىٍّ من لِهْب ، فقال لهم : رجل كان فى بلاء وشر ، وحَبْس وضيق ، فنجا من ذلك ، ثم نظر عن يمينه فلم يرَ شيئاً ، ونظر عن يساره فرأى غراباً على شجرة بَانٍ ، ينتف ريشه ، وينعَب ! فقال له اللِّهبي : إن صدَقتِ الطيرُ يُعادُ إلى حَبْسه وقَيْده ، ويطول ذلك به ، ويُقتَل ويُصلب ، فقال له : بفِيكَ الحجَر ! قال : لا ، بل بفيك! وأنشأ يقول :

وسائلةٍ أين الرحيـــلُ وسائلٍ ... ومَنْ يسأل الصُّعلوكَ أينَ مَذاهِبه ؟

مذاهبـــه أن الفِجاجَ عريضـة ... إذا ضَنَّ عنـــه بالنَّوالِ أقاربه

إذا المرء لم يَسْرَح (٣) سَواماً ولم يُرِحْ ... سَواماً ولم يَبْسُطْ له الوجهَ صاحبُه

فلَلْمَوْتُ خـيرٌ للفتى من قعوده ... عــديماً ومِن مَوْلًى تُعَافُ مشاربُه

ودَوِّيَّة (٤) قَفْرٍ يحارُ بها القطا (٥) ... سَرَتْ بأبِي النَّشْنَاشِ فيهـا ركائبُه

ليُدْرِكَ ثأراً أو ليـكسب مَغْنَماً ... ألا إن هـــذا الدهرَ تَتْرَى عجائبُه

فلم أرَ مثـلَ الفقرِ ضاجَعَهُ الفتى ... ولا كَسَواد الليـــل أخفقَ طالبُه

فعِش مُعْدِماً (٦) أو مُتْ كريماً فإننى ... أرى الموتَ لا يُبقى على مَنْ يُطَالِبُه

* الأغانى : ١١ — ٤٢ ، ديوان الحماسة : ١ — ٣١

(١) الشذاذ : الذين لم يكونوا فى حيهم ومنازلهم . (٢) البان : شجر لحب ثمره دهن طيب

(٣) يقال سرح الماشية سرحاً : أخرجها بالغداة إلى المرعى ، والسوام والسائمة: الإبل أرسلت لترعى ، وأراح الماشية : ردها من العشى إلى مراحها ليلا . (٤) الدوية : منسوبة إلى الدو، وهو الفلاة البعيدة الأطراف . (٥) يضرب المثل بالقطا فى الهداية فيقال : أدل من قطاة .

(٦) المعدم : الذى افتقر .

٥٤ ـ غرابٌ يُبَشِّر بموتِ الحجَّاج*

قال مُحدِّث : كنتُ فى حَبْس الحجاج ؛ فحُبِس معنا رجل ، فأقام حِيناً لا نسمعهُ يتكلمُ بكلمة ، حتى كان اليوم الذى مات الحجاجُ فى الليلة التى تليه ، فأقبل غراب فى عشيَّةِ ذلك اليوم ، فوقع على حائط السجن فنعق (١) ، فقال الرجل : ومَنْ يقدرُ على ما تقدرُ عليه ياغراب ؟ ثم نعق الثانية فقال : مثلُك مَنْ بشَّر بخير ياغراب ! ثم نعق الثالثة فقال : مِنْ فِيك إلى السماء ياغراب !

فقلت له : ماسمعناك تكلَّمتَ مذ حُبِست إلى الساعة ، فما دعاك إلى ماقلت ؟ قال : إنه نعق فقال : إنى وقعْتُ على سِرّ الحجاج ، فقلت : ومن يقدرُ على ما تقدر عليه ؟ ثم نعق الثانية ، فقال : إن الحجاج أصابه وَجَع ، فقلت : مثلُك مَنْ بشَّر بخير ! ثم قال فى الثالثة : الليلة يموت ! فقلت : مِنْ فِيك إلى السماء .

ثم قال الرجل : إن انسَلخ (٢) الصبحُ قبل أن أخرجَ فليس علىَّ بأس ، وإن دُعيتُ قبل الصبح فستُضْرَبُ عنق ، ثم تلبثون ثلاثاً لا يدخلُ عليكم أحدَ ، ثم يُدْعَى بكم فى اليوم الرابع ، فيهتف على رءوسكم بالكفالة ، فمن وَجَدَ له كفيلا خلَّى سبيله ، ومن لم يَجِدْ له كفيلا فويلٌ له طويلا .

فلما دخل الليل سمعنا الصراخَ على الحجاج ، ثم أُخْرِج الرجل قبل الصبح ، فضُربَ عنقه ، ثم لم يدخل علينا أحد ثلاثاً ، ثم دُعِى بنا وطلب منا الكفالة ، ثم صار الأمر إلىّ ، فكثتُ طويلا حتى خِفت أن أُرَدَّ إلى الحبس ، ثم تقدم رجل فضمِننى ، فقلت له : يا عبدَ الله ؛ مَن أنتَ حتى أشكرك ؟ فقال لى : اذهبْ ، ولستُ بمسئولٍ عنكَ أبداً ، فانطلقت .

* الفرج بعد الشدة : ١ ـ ١١٤ .

(١) نعق الغراب : نعب وصاح (٢) انسلخ النهار من الليل : خرج منه خروجا لا يبقى معه شىء من ضوئه .

٥٥ ـ صَدقَ الزاجر(١)*

كان المنصورُ أَلزمَ خالدَ بنَ برمك ثلاثةَ آلاف درهم ، ونذَرَ دَمَه فيهــا ، وأجّلَه ثلاثة أيام ، فقال خالدٌ ليحيي ابنه : إنى قد طُولبتُ بما ليسَ عندى ، وإنما يُرَادُ بذلك دمى ، فانصرفْ إلى أهلك فما كنتَ فاعلا بعد موتى فافعله ، ثم قال : يا بُنىّ ؛ ولا يمنعنَّك ذلك من أن تَلْقَى إخوانَنا ، فتُعلِمهم حالنا .

قال يحيى : فأتيتُ إخوانَ والدى ، فمنهم مَن جَبَهَنى(٢) بالرد ، ثم بعثَ إلىّ بمالٍ جليلٍ ، ومنهم مَن لم يأذنْ لى ، وبعثَ بمالٍ فى أثَرِى لكيلا يُخْبر به المنصور .

فدخلتُ على عُمَارة(٣) بن حَمْزَة ، وهو متّجِهٌ بوجهه إلى الحائط ، فسلّمتُ فردَّ ردًّا ضعيفًا ، فضاقت بى الأرضُ ، ثم كلّمتُه فيما كنتُ أتيتُـه فيه ، فقال : إن أمكننا شيء فسيأتيك . فانصرفتُ عنه ، وصِرْتُ إلى أبى ، فأعلمتُـه ذلك ، وقلتُ : أراكَ تَثِقُ من عُمَارة بما لا يُوثَقُ به .

فوالله إنى لفى ذلك الحديث ، إذ طلع رسولُ عُمَارة بمائة ألف درهم ، ورسولُ صاحب المصلى بمائة ألف درهم ، ورسول مبارك التركى بمائتى ألف درهم ، فجمعنا فى يومين ألفى ألف درهم ، وبقِيَتْ ثلاثمائة ألف درهم ، فتعذَّر ذلك ، فوالله إنى لمارّ بالجسر مهموماً مغموماً ، إذ وَثَبَ إلىَّ زاجرٌ ، فقال : قف أخبرك ، فلم ألتفت

---

* المحاسن والمساوىء : ٣٤٩ .

(١) الزجر : العيافة والتكهن (٢) جبهه : رده عن حاجته واستقبله بما يكره (٣) عمارة ابن حمزة : من الولاة الأجواد الشعراء جمع له بين ولاية البصرة وفارس والأهواز واليمامة والبحرين ، وله فى الكرم أخبار عجيبة ، وتوفى نحو سنة ١٨٠ هـ .

إليه ، فلحقنى وتعلقَ بى ، فقلت : وَيْحك ! اذهبْ عنى ، فإنى مشغولٌ عنك ، فقال : أنت والله مهموم ، والله ليفُرجنَّ همك ، ولتمرنّ غدا فى هـذا الموضع واللواء بين يديك ، فأقبلتُ أعجب من قوله ، فقال لى : إن كان ذلك فلى عليك خمسةُ آلاف درهم ! قلت : نعم ! ولو قال خمسين ألف درهم لقلت نعم ؛ لبُعْدِ ذلك عنى !

ثم مضيتُ ؛ فو الله ما انصرفتُ حتى وردَ على المنصور الخبرُ بانتقاض أمْرِ الموصل ، وانتشار الأكراد بها ؛ فقال المنصور : ويحكم ؟ مَنْ لها ؟ — وكان المسيّبُ (١) بن زُهير عند المنصور . وكان صديقاً لخالد — فقال : عندى — والله — مَنْ يكفيكه ، وأنا أعلمُ أنك ستلقانى بما أكره ، ولكنى لا أدَعُ على حالٍ نُصْحَك ! فقال المنصور : ويحك ! قل ، فلستُ أردّ عليك . قال : يا أمير المؤمنين ، ما ترميها بمثل خالد ! فقال المنصور : ويحك ! وتراه يصلُحُ لنا بعد ما آتيناه به ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، وأنا زعيمه بذلك ، والضامنُ عليه .

فتبسمَ المنصورُ ، وقال : صدقتَ . والله مالها غيرُه ، فليحضر غداً ! فأُحْضِر ، فصفح عما بقى عليه ، وعقد له .

قال يحيى : فمررْنا والله بالزاجر واللواء بين يدىّ ، فلما رآنى قال : أنا ها هنا أنتظرك منذ غُدوة .

فتبسمتُ إليـــه وقلتُ : امضِ ، فمضى معى ، ودفعتُ إليه خمسة آلاف الدرهم !

---

(١) كان المسيب بن زهير على شرطة المنصور والمهدى العباسيين ، وتوفى ببغداد سنة ١٧٥ هـ .

٥٦ ـ علم المأمون وسعة معارفه*

قال جعفر بن محمد الأنماطي :

لما دخل المأمون[1] بغداد ، وقرَّ بها قَرَارُه ، أمر أن يَدْخُل عليه من الفقهاء والمتكلمين وأهل العلم جماعةٌ يختارهم لمجالسته ومحادثته ، وكان يقعد في صَدْر نهاره على لُبُودٍ في الشتاء وعلى حصيرٍ في الصيف ، ليس معها شيء من سائر الفُرُش ، ويقعد للمظالم في كل جمعة مرتين ، لايمتنعُ منه أحد .

واختيرَ له من الفقهاء لمجالسته مائةُ رجل ، فما زال يختارُهم طبقةً بعد طبقة حتى حصّل منهم عشرة ، كان منهم أحمدُ بن أبي دُواد ، و بشرٌ المَريسي ، وكنت أحدَهم .

فتغدَّينا يوماً عنده ، فظننتُ أنه وضعَ على المائدةِ أكثرَ من ثلثمائة لَوْن ، فكلما وُضِع لونٌ نظر المأمونُ إليه ، فقال : هذا يصلحُ لكذا ،وهذا نافع لكذا؛ فمن كان منكم صاحبَ بلغم ورطوبة فليجتنب هذا ، ومن كان صاحبَ صفراء فليأكل من هذا ، ومن غلبتْ عليه السَوْدَاء فليأكل مِنْ هذا ، ومن أحبَّ الزيادة في لحمه فليأكل من هذا ، ومن كان قصدُه قِلَّةَ الغذاء فليقتَصِرْ على هذا .

فو الله إن زالت تلك حاله في كل لون يقدَّم ، حتى رُفِعت الموائد .

فقال له يحيى بن أكثم : ياأمير المؤمنين ؛ إن خُضْنا في الطب كنتَ جالينوس

---

* عصر المأمون : ١ ـ : ٣٦٠ .

(١) هو عبد الله المأمون بن هارون الرشيد ، من أعاظم خلفاء بني العباس وعلمائهم وحكمائهم ، كان وافر الخلق ، عظيم الحلم ، محباً للعلم ، مؤثراً للحكمة ، توفي سنة ٢١٨ هـ .

فى معرفته ! أو فى النجوم كنت هِرْمِس فى حسابه ! أو الفقه كنت علىّ بن أبى طالب فى علمِهِ ! أو ذَكَرْنا السخاء فأنت فوق حاتمٍ فى جوده ! أو ذَكَرْنا صِدْق الحديثِ كنتَ أبا ذَرٍّ فى صدقِ لَهْجَتِه ! أو الكرمَ ، كنتَ كعبَ بن مامة فى إيثاره على نفسه !

فسُرَّ بذلك الكلام ، وقال : يا أبا محمد ؛ إن الإنسان إنما فُضِّلَ على غيره من الهوَامِّ بفعله وعقلِهِ وتمييزه ، ولولا ذلك لم يكن لحمٌ أطيبَ من لحم ، ولا دمٌ أطيبَ من دم !

٥٧ - وُفودُ الفارابِي عَلَى سَيْفِ الدَّولة *

نزل أبو نَصْر الفارابي (١) بدمَشْق ، ودخل على سيف الدولة (٢) بن حَمْدان ، وهو إذ ذاك سلطانها ، ووقف بين يديه ؛ فقال له سيفُ الدولة : اجلس ! قال : أجْلِسُ حيث أنا أو حيث أنْتَ ؟ فقال : حيث أنت .

فتخطّى رقابَ الناس حتى انتهى إلى مُسْند (٣) سيفِ الدولة ، وزاحمه فيه ، حتى أخرجه عنه .

وكان على رأس سيف الدولة مماليكُ ؛ وله معهم لسانٌ خاص يسارُّهم به ؛ فقال لهم بذلك اللسان : إن هذا الشيخَ قد أساء الأدب ؛ وإني سائلُه عن أشياء ، إن لم يعرفْها فاخرجُوا به !

فقال له أبو نَصْر بتلك اللغة : أيها الأمير ؛ اصبر ؛ فإن الأمورَ بعواقبها . فعجِبَ سيفُ الدولة منه ، وعَظُم عنده .

ثم أخذ يتكلم مع العلماء والحاضرين فى كل فن ، فلم يزل كلامُه يعلو وكلامُهم يسفل ، حتى صمَتُوا ، وبقِيَ يتكلم وحده .

ثم أخذوا يكتبون ما يقول ؛ فصرفهم سيفُ الدولة ، وخَلاَ به ، فقال له :

---

* ثمرات الأوراق للحموى : ٩٧

(١) نشأ الفارابى بالشام واشتغل فيها ، وكان فيلسوفا كاملا ، بارعا فى كل فن ، وألف كتباً كثيرة فى مواضع لم يسبقه إليها أحد ، توفى سنة ٣٣٩ هـ (٢) سيف الدولة : هو على بن عبد الله ، صاحب المتنبى وممدوحه . وهو أول من ملك حلب من بنى حمدان ، توفى سنة ٣٥٦هـ (٣) كل شىء أسندت إليه شيئا فهو مسند بالضم ؛ وكذلك مايسند إليه يسمى مسنداً بكسر الميم .

هل لك فى أن تأ كلَ ؟ قال : لا ؛ قال : فهل لك أن تشرَب ؟ قال : لا . فقال : هل تسمع ؟ قال : نعم .

فأمر سيفُ الدولة بإحضار القِيان ، فحضر كلُّ ماهر فى الصَّنْعة ، فخطَّأ الجميع ؛ فقال له سيفُ الدولة : هل تحسِنُ هذه الصنعةَ ؟ قال : نعم .

ثم أخرج من وَسطِهِ خريطة (١) ففتحها ، فأخرج منها عيداناً وركَّبها ، ثم لعب بها ؛ فضحك كلُّ من فى المجلس ؛ ثم فكّها وركّبها تركيباً آخر ؛ فبكى كلُّ من فى المجلس ؛ ثم فكّها وغير تركيبها ، فنام كلُّ من فى المجلس ، فتركهم نياما وخرج !

---

(١) الخريطة : مثل الكيس تكون من الخرق والأدم تشد على ما فيها بالعرا .

البَابُ الرَّابِع

في القصص التي يُرَى بها ما كانوا يتغنَّوْن به من المكارم والمفاخر ، وما كانوا يتهمون به من المناقص والمعرَّات ، سواء أكان ذلك فيما يتعلق بكل منهم في نفسه أم فيما يتصل بالأقربين من ذويه ، أم فيما يضم أهل قبيلته ؛ أم فيما يشمل الناس جميعا .

٥٨ - سَبَقَ السَّيْفُ العَـذَل

كان للنعمان بن ثَواب العبدى بنون ثلاثة : سعد وسعيد وساعِدَة ، وكان ذا شرف وحكْمة ، يوصى بنيه ، ويحملهم على أدبه .

أما ابنه سعد فكان شجاعاً بَطَلاً من شياطين العرب ، لم تفتْه طَلِبَتُه قط ، ولم يفرّ عن قِرْن .

وأما سعيد فكان يُشْبه أباه فى شرَفه وسُودَدِه .

وأما ساعِدَة فكان صاحبَ شراب وندَامى[1] و إخوان .

فلما رأى الشيخُ حال بنيه دعا سعداً ـ وكان صاحب حرب ـ فقال : يابُنَىَّ ، إن الصارِمَ ينبُو ، والجوادَ يكبو ، والأثر يعفو ، فإذا شهدْت حربا ، فرأيتَ نارها تستعر ، و بطلَها يخطر ، وبحرَها يزخر ، وضعيفها يُنصر ، وجبانها يجسر ، فأقلل المكثَ والانتظار ، فإن الفرار غيرُ عار إذا لم تكن طالب ثار ، و إياك أن تكون صيد رماحها ، ونطيحَ نطاحها .

وقال لابنه سعيد ـ وكان جواداً ـ : يابنىّ ؛ لايبخل الجواد ، فابذُل الطارفَ والتِّلاد[2] ، وأقللِ التلاَحِ[3] ، تُذْكر عند السماحِ ، وابلُ إخوانك ، فإنّ وَفيّهم قليل ، واصنع المعروفَ عند مُحْتَمِله .

---

* الأمثال : ١ ـ ٦٤ .

(١) جمع ندمان ، وهو النديم الذى يرافقك ويشاربك (٢) الطارف من المال : المستحدث وهو ضد التالد (٣) التلاحي : التشاتم .

وقال لابنه ساعدة ـ وكان صاحبَ شراب ـ يابُنَيّ ، إن كثرةَ الشراب تفسدُ القلب ، وتقلِّلُ الكسبَ ؛ فأبصر نديمك ، واحمِ حريمك ، وأعِن غريمَك ، واعلم أنّ الظمأ القامح (١) خيرٌ من الرِّيِّ الفاضح ، وعليك بالقَصْدِ فإنّ فيه بُلاغاً .

ثم إن أباهم النعمان بن ثوّاب توفى ، فقال ابنه سعيدٌ ـ وكان جواداً سيداً : لآخُذَنّ بوصية أبى ، ولأَبْلوَنّ إخوانى وثقاتى .

فعمد إلى كبْش فذبحه ، ثم وضعه فى ناحية من خِبائه وغشّاه ثوباً ، ثم دعا بعض ثِقاته ، فقال : يافلان ، إن أخاك من وفى لك بعهدِه ، وحاطك برِفْدِه ، ونصرك بوُده . قال : صدقت ! فهل حدثَ أمر ؟ قال : نعم ! إنى قتلتُ فلاناً ـ وهو الذى تراه فى ناحية الخباء ـ ولا بدّ من التعاون عليه ، حتى يُوارَى ! فما عندك ؟

قال : يالَهَا سوْأة وقعتَ فيها ! قال : فإنى أريدُ أن تُعيننى عليه حتى أُغيّبه ! قال : لستُ لك فى هذا بصاحب ! وتركه وخرج . فبعث إلى آخرَ من ثِقَلته ، فأخبره بذلك ، وسأله معونته فردّ عليه مثل ذلك ! حتى بعث إلى عدد منهم ، كلُّهم يردُّ عليه مثلَ جواب الأول .

ثم بعَثَ إلى رجلٍ من إخوانه يقال له خُزَيم بن نوْفل ، فلما أتاه ، قال له : يا خُزَيم ، مالى عندك ؟ قال : ما يَسُرُّك ، وما ذاك ؟ قال : إنى قتلتُ فلاناً ، وهو

---

(١) الظمأ القامح : الشديد ، والمعنى : العطش الشاق خير من رى يفضح صاحبه (اللسان ، مادة قمح) .

الذى تراه مُسَجًّى ! قال : أَيسرُ خطب ! فتُريدُ ماذا ؟ قال : أريد أن تُعيننى حتى أغيّبه ! قال : هانَ ما فزِعتَ فيه إلى أخيك !

وكان غلامٌ لسعيد قائماً بينهما ، فقال خُزَيم : هل اطّلَع على هذا الأمر أحدٌ غير غلامك هذا ؟ قال : لا ! قال : انظر ما تقولُ ! قال : ما قلت إلا حقًّا . فأهوى خُزَيم إلى غلامه ، فضربه بالسيف فقتله ، وقال : ليس عبدٌ بأخٍ لك .

فارتاع سعيد ، وفزِع لقتل غلامه ، وقال : ويحك ! ما صنعت ! وجعل يلومه . فقال خزيم : إن أخاك من واساك [1] !

قال سعيد : فإنى أردتُ تجربتك ! ثم كشفَ له عن الكبش ، وخبره بما لقى من إخوانه وثقاته ، وما ردّوا به عليه ، فقال خزيم : سَبَقَ [1] السيفُ العذل [2] !

(١) ذهبت أمثالا (٢) العذل : اللوم ، ويضرب لما قد فات .

٥٩ - إيثار ابن مامة الإيادي*

خرج كَعب [1] بن مامَة الإيادى فى قَفَلٍ [2] معهم رجلٌ من بنى النَّمِر بن قاسط ، وكان ذلك فى حرِّ الصيف ، فضلوا وشحّ ماؤُهم ، فكانوا يتصافَنُونه [3] الماء — وذلك أن يُطْرَح فى القعب [4] حَصَاة ، ثم يُصبَّ فيه من الماء بِقَدْرِ ما يَغْمُرُ الحصاة ؛ فيشرب كلُّ واحدٍ منهم قَدْرَ مايشربُ الآخر .

ولما نزلوا للشُّرْب ، ودارَ القعب بينهم ، حتى انتهى إلى كعب ، رأى الرجلَ النَّمَرى يُحِدّ النظرَ إليه ، فآثره بمائه على نفسه ، وقال للساقى : اسق أخاك النمرِى ، فشرب النّمرى نصيبَ كعب من الماء ذلك اليوم !

ثم نزلوا من الغد منزلهم الآخر ، فتصافَنُوا بقيةَ مائهم؛ فنظر إليه كنظره أمس وَقال كعب كقولهِ أمس ، وارتحل القوم ، وقالوا : يا كعبْ ، ارتحل ، فلم يكن له قوة للنهوض ، وكانوا قد قربوا من الماء ، فقالوا له : رِدْ يا كعبُ ، إنك وارد ، فعجز عن الجواب . ولما أيسُوا [5] منه خيّموا عليه بثوبٍ يمنعهُ من السبع أن يأكله وتركوه مكانه ، فمات ونجا رفيقُه !

---

* بلوغ الأرب : ١ — ٨١ ، المحاسن والمساوئ : ٢٠٥ — طبعة ليبزج ، الأمثال : ١—١٦٧ .

(١) هو كعب بن مامة بن عمرو بن ثعلبة الإيادى ، الذى يضرب المثل بجوده ، وكان أبوه ملك إياد

(٢) القفل (بفتح الفاء) : اسم جمع القافل ، أى راجع (٣) تصافنوا الماء : اقتسموه بالحصص

(٤) القعب : القدح يروى الرجل (٥) يئسوا .

٦٠ ـ وَفَـاءُ السَمَوْءَل*

لمـا أراد امرؤ القيس المضىّ إلى قيصر ملك الروم ، أودع عند السَّمَوْءَل (١) دروعاً وسلاحاً وأمتعة ، تساوى جملةً كثيرة ؛ فلما مات امرؤ القيس أرسلَ ملكُ كندةَ يطلب الدروع والأسلحة المُودعةَ عند السموءل ، فقال السموءل : لا أدفعُها إلا إلى مستحقّها ، وأبى أن يدفعَ إليه منها شيئاً ؛ فعاوده ، فأبى ؛ وقال : لا أغدِر بذمّتى ، ولا أخونُ أمانتى ، ولا أتركُ الوفاء الواجبَ علىّ .

فقصده ذلك الملكُ من كندة بعسكره ، فدخل السموءل فى حِصنه (٢) ، وامتنع به ، فحاصره ذلك الملك . وكان ولدُ السموءل خارجَ الحِصْنِ ، فظفِر به الملك ، وأخذه أسيراً ، ثم طاف حول الحصن ، وصاح بالسموءل ، فأشرف عليه من أعلى الحصن ، فلما رآه قال له : إن ولدَك قد أسرتُه ، وهو ذا معى ، فإن سلّمتَ إلىّ الدروع والسلاح رحلت عنك ، وسلّمت إليك ولدك ، وإن امتنعت من ذلك ذبحتُ ولدكَ وأنت تنظرُ ! فاختَرْ أيهما شئت .

---

* المستطرف : ١ ـ ٢٠١ ، الغرر : ١٩ ، بلوغ الأرب : ١ ـ ١٣٦

(١) هو السموءل بن غريض بن عادياء شاعر جاهلى حكيم أشعر شعره لاميته التى مطلعها :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه ... فكل رداء يرتديه جميل

ويضرب المثل بوفائه . توفى نحو سنة ٦٥ ق . هـ. (٢) هذا الحصن يسمى الأبلق الفرد ، وقد بناه أبوه بتيماء وفيه يقول السموءل :

لنا جبل يحتله من نجيره ... منيع يرد الطرف وهو كليل
هو الأبلق الفرد الذى شاع ذكره ... يعز على من رامه ويطول
رسا أصله تحت الثرى وسما به ... إلى النجم فرع لا ينال طويل

فقال له السموءل : ما كنت لأُخْفِرَ ذِمَامى(١) ، وأبطل وَفَائى ؛ فاصْنَعْ ماشئت ! فذبح ولده ، وهو ينظر . ثم لما عجز عن الحصن رجع خائباً ، واحتسب السموءلُ ذَبْح ولده ، وصبر محافظةً على وفائه ؛ فلما جاء الموسم وحضر ورثةُ امرىء القيس ، سلّم إليهم الدروعَ والسلاح ، ورأى حِفْظَ ذِمامه ، ورعايةَ وفائه أحبَّ إليه من حياة ولده وبقائه ! وقال فى ذلك :

وفيتُ بأدرُع الكِنْدِىّ إنى ... إذا ما خَانَ أقوامٌ وفيتُ

٦١ ـ لاحُرَّ بوَادِى عَوْف*

لما مات لَيْثُ بن مالك أخذت بنو عبس فرسَه وسَلَبه(٢) ثم مالوا إلى خِبائه فأخذوا أهلَه ، وسلبوا امرأته خُمَاعةَ بنتَ عَوْف بن مُحَلِّم ، وكان الذى أصابها عَمْرو بن قارب وذُؤاب بن أسماء ؛ فسألها مروان(٣) القرَظ بن زنباع : من أنت ؟ فقالت : أنا خُمَاعة بنت عوف بن محلِّم ، فانتزعها من عمرو وذؤاب ، لأنه كان رئيسَ القوم ، وقال لها : غَطِّى وجهك ، والله لا ينظر إليه عربىٌّ حتى أردَّك إلى أبيك ، وضمَّها إلى أهله ؛ حتى إذا دخل الشهرُ الحرام أحسنَ كُسوتها وأخدمها وأكرمها وحملها إلى عُكاظ .

فلما انتهى بها إلى منازل بنى شَيْبان قال لها : هل تَعْرِفين منازلَ قومك ومنزلَ

* الأمثال : ٢ ـ ٢٩٩ ، بلوغ الأرب : ١ ـ ١٢٥

(١) أخفر الذمة : إذا لم يف بالعهد. (٢) السلب : ما يأخذه أحد القرنين فى الحرب من قرنه مما يكون معه وعليه من سلاح ودابة . (٣) سمى مروان القرظ : لأنه كان يغزو اليمن وهى منابت القرظ ، ويضرب به المثل فى العز ، فيقال : أعز من مروان القرظ .

أبيك ؟ فقالت : هـذه منـازلُ قومى ، وهذه قُبةُ أبى ! قال : فانطلقى إلى أبيك ؛ فانطلقت فخبَّرت بصَنِيع مروان .

ثم إن مروان غزا بكرَ بن وائل فقصُّوا أثرَ جيشه ؛ فأسره رجلٌ منهم، وهو لا يعرفُه ، فأتى به أمَّه ، فلما دخل عليهـا قالت له أمّه : إنك لتختَالُ بأسيرك كأنك جئتَ بمرْوان القرظ ! فقال لهـا : وما ترْتَجِين من مروان ؟ قالت : عِظَمَ فِـدَائه . قال : وكم ترتجين من فِدَائه ؟ قالت : مائة بَعير ! قال مروان : ذلك لكِ على أن تؤدينى إلى خُمَاعة بنت عوف بن محلّم !

فمَضَتْ به إلى عوف[1] بن محلّم ، فبعث إليه عمرو ابن هند أن يأتيَه به ـ وكان عمرو وَجَد[2] على مروان فى أمر ، فـآلى ألَّا يعفو عنه حتى يضعَ يده فى يده؛ فقال عوف ـ حين جاءه الرسول : قد أجارته ابْنَتى ! وليس إليه سبيل ، فقال عمرو بن هند : قد آليتُ ألا أعفوَ عنه أو يضع يدَه فى يدى . قال عوف : يضع يدَه فى يدك على أن تـكونَ يدى بينهما ! فأجابه عمرُو ابن هند إلى ذلك .

فجاء عوف بمروان فأدخله عليه ، فوضع يده فى يده ، ووضع يده بينهما ، فعفا عنه . وقال عمروٌ : لا حُرَّ بوادى[3] عوف .

---

(١) من أشراف العرب فى الجاهلية ، كان مطاعا فى قومه ، قويا فى عصبيته ، وكانت تضرب له قبة فى عكاظ ، توفى نحو سنة ٤٥ ق . هـ (٢) وجد : غضب (٣) أى لاسيد به يناوئه .

٦٢ - مروءة حاتم

كان عَبْدُ قَيْس بن خفاف البُرْجُمِيّ أتى حاتم طيء(١) في دِماء حملها عن قومه ، فأسْلَمُوه فيهـا ، وعجزَ عنها ؛ فقال : واللهِ لآتِيَنّ من يحملها عنى ، وكان شريفاً شاعراً شُجاعاً .

فلما قدِمَ عليه قال : إنه وقعتْ بيني و بين قومي دماء فتَوَا كَلُوها(٢) ، وإني حملتُها في مالي وأهْلي ؛ فقدّمت مالي وأُخّرْتُ أهلي ، وكنتَ أملي ، فإن تَحَمّلْتَهـا فربّ حقٍّ قد قضيتَهُ ، وهمٍّ قد كَفَيْتَه ، وإن حال دون ذلك حائِلٌ لَمْ أَذْمُم يومك ، ولم أيأس من غَدِك ، ثم أنشأ يقول :

حملتُ دماءً للبَرَاجِمِ جَمّـةً ... فجئتُك لمّا أسلَمَتْني بَرَاجِمُ(٣)
وقالوا سَفَاهاً : لِمْ حَمَلْتَ دِماءنا ... فقلت لهم : يكفي الحمالةَ حاتِمُ
متى آتِهِ فيها يَقُلْ لِيَ مَرْحباً ... وأهلاً وسهلاً أخْطأتكَ الأشائِمُ(٤)
فيحملها عنى ، وإن شئتُ زادني ... زيادةَ مَنْ حلّتْ عليه المكارمُ
يعيشُ النّدَى ماعاشَ حاتمُ طيّءٍ ... فإن مات قامتْ للسخاء مآتمُ
يُنَادينَ:مات الجودُ معْك فلا نرى ... مُجيباً له ما حامَ في الجوّ حائمُ
وقال رجالٌ : أنْهبَ العامَ مالَه ... فقلتُ لهم : إني بذلكَ عالمُ

* الأغاني : ٨ – ٢٤٦ ، ذيل الأمالي : ٢٢ ، السمط : ١٢

(١) هو حاتم بن عبد الله بن سعد الطائي من أشهر أجواد العرب في الجاهلية ، مات نحو سنة ٤٥ ق . هـ (٢) تواكلوا : اتكل بعضهم على بعض (٣) أسلمه : خذله ، والبراجم : قوم من أولاد حنظلة بن مالك (٤) الأشائم : ضد الميامن .

ولـكنّه يُعْطى مِنَ امْوال طيِّءٍ   إذا جَلّفَ (١) المالَ الحقوقُ اللوازمُ
فيُعطى التي فيهـــا الغنَى وكأنه   لتصغيره تلك العطيـــةَ جارم (٢)
بذلك أوصاهُ عَـــدِيٌّ وحَشْرَجٌ   وسَعْـــدٌ وعبد الله تلك القَمَاقم (٣).

فقال له حاتم: إني كنتُ لأحِبُّ أن يأتيَني مثلُك من قومك، هذا مِرْباعِي (٤) من الغارة على بني تميم فخُذه وافراً ؛ فإن وَفَى بالحمالةِ ، وإلا أكملتُها لك ، وهو مائتا بعير سوى نِيبِها وفِصالها ، مع أنى لا أُحِبُّ أن تؤبِّسَ (٥) قومَك بأموالهم .

فضحك أبو جُبَيْل ، وقال : أيّ بعير دفعتَه إليّ ، وليس ذَنَبه في يَدِ صاحبه فأنت منه برِئ ، فدفعها إليه وزادَه مائةَ بعير ، فأخذها وانصرف راجعاً إلى قومه ؛ فقال حاتم في ذلك :

أتاني البُرْجُميُّ أبو جُبَيـــلٍ   لهمّ في حَمَالَتِهِ طويـــلِ
فقلت له : خُـــذِ المِرْباع مِنْهَا   فإني لستُ أرْضَى بالقليـــلِ
على حالٍ ولا عوّدتُ نفسي   عَلَى عِلّاتِهَا عِلَلَ البَخيـــلِ
فخذها إنهـــا مائتَا بعـــيرٍ   سوى النابِ الرَّذِيَّةِ (٦) والفَصِيل (٧)
فـلَا مَنٌّ عليك بهـــا ، فإني   رأيتُ المنَّ يُزْرِي بالجميـــلِ
فآبَ البُرجُميُّ وما عليـــه   مِنَ اعْباء الحَمَالَةِ من فَتيـــلِ
يَجُرُّ الذَّيْلَ ينفُضُ (٨) مِذْرَوَيْهِ   خفيفَ الظهر من حِمْـــلٍ ثقيل !

---

(١) جلف : ذهب به واستأصله (٢) جارم : مذنب (٣) القماقم : جمع قمقام وهو السيد العظيم ، وهؤلاء الذين وردوا فى البيت هم أجداد حاتم (٤) المرباع : ما يأخذه الرئيس من الغنيمة خاصة دون أصحابها وهو ربع الغنيمة (٥) تؤبس : تروع (٦) الرذية : المهزولة الضعيفة (٧) الفصيل : ولد الناقة إذا فصل عن أمه (٨) قال فى القاموس : جاء ينفض مذرويه : باغياً متهدداً ، والمذروان: ناحيتا الرأس مثل الفودين ، ثم استعير للمنكبين والإليتين والطرفين

٦٣ - ماويّة تتحدّث عن كرم حاتم*

قالت ماويّة امرأة حاتم :

أصابتْنا سَنَةٌ اقشعرّتْ لها الأرضُ ، واغبرّ أفُق السماء ، وراحت الإبلُ حُدْبًا حَدَابير[1] ، وضَنّتِ المراضعُ على أولادها ، فما تَبِضُّ[2] بقَطْرة ، وحلَقتْ[3] السَّنَةُ المال ، وأيْقنّا بالهلاك . فوالله إنا لفى ليلةٍ صِنَّبْر[4] ، بعيدةِ ما بين الطرفين ، إذ تَضَاغى[5] صِبْيَتُنا جوعًا : عبدُ الله ، وعَدِىّ ، وسَفّانَة . فقام حاتم إلى الصَّبِيَّيْن ، وقمتُ أنا إلى الصَّبِيَّةِ . وأقبل يعلّلنى بالحديث ؛ فعرفتُ مايريد ، فتناومتُ .

فلما تَهوّرت[6] النجوم ، إذا شىءٌ قد رَفَع كِسْرَ البيت[7] ثم عاد . فقال حاتم : مَنْ هذا ؟ قالت : جارتُك فلانةُ ، أتيتُك من عند صِبْيَةٍ يتعاوَوْن عُواء الذئاب ، فما وجدتُ مُعوَّلا إلّا عليك يا أبا عدىّ . فقال : أعْجِليهم ، فقد أشبعك الله وإياهم !

فأقبلت المرأةُ تحمل اثنين ، ويمشى بجانبها أربعة ، كأنها نعامة حَوْلها رِئالُها[8] .

فقام حاتمٌ إلى فرسه فوَجأ[9] لَبّتَه بمُدْية فخرّ ، ثم كشَطَه عن جِلْده ، ودفع

---

* العقد الفريد : ١ ـ ١٠٨ ، أمثال الميدانى : ١ ـ ١٢٣ .

(١) الحدب : جمع أحدب وهو صفة للجمل عند الجوع ، والحدابير : جمع حدبار وهى الناقة الضامرة (٢) تبض : تسيل قليلاقليلا (٣) أىأهلكته واستأصلته كما تستأصل الموسىالشعر (٤) صنبر : باردة (٥) تضاغوا : تصايحوا (٦) تهورت : انحدرت إلى المغرب (٧) الكسر : الشقة السفلى من الخباء (٨) الرئال : أولاد النعام . (١) وجأ : طعن

المديةَ إلى المرأة ، فقال لها : شأنَك ! فاجتمعنا على اللحم نَشْوى ونأكل . ثم جعل يمشى فى الحىّ يأتيهم بيتاً بيتاً ، فيقول : هُبُّوا أيُّها القوم ، عليكم بالنار! فاجتمعوا والتَفَع فى ثوبه ، وجلس فى ناحية ينظر إلينا . فوالله إنْ ذَاقَ منه مُزْعة[1] ، وإنه أحوجُ إليه منا ! فأصبحنا وما على ظَهْرِ الأرض من الفرس إلا عَظْمٌ وحافر ؟ فانشأ حاتم يقول :

مهلا نَوَارُ[2] أقِلّى اللومَ والعذَلا ... ولا تقُولى لشىء فَاتَ : ما فعلَا

ولا تَقُولى لمالٍ كنتُ مُهْلِكَه ... مهلًا وإن كنتُ أُعطى الإنْسَ والخبَلَا[3]

يرى البخيلُ سبيلَ المالِ واحدةً ... إنَّ الجوادَ يرى فى مالِه سُبُلَا

---

(١) المزعة : القطعة من اللحم ، وإن نافية ، بمعنى ما .

(٢) هى امرأة حاتم . (٣) الخبل : الجن .

٦٤ - بين حاتم وماويّة*

لما تزوَّج حاتم ماويَّةَ ، وكانت من أحسنِ النساء ؛ لبثت عنده زمناً ؛ ثم إنَّ ابن عم له — يقال له مالك — قال لماويّة :

ما تَصْنعين بحاتم ؟ فوالله لئن وجدَ شيئاً ليُتْلِفَنَّه ، ولئن لم يجدْ ليتكلَّفَنَّ ، ولئن مات ليتركَنَّ ولدَه عِيالًا على قومه ؛ طلِّقي حاتماً وأنا أتزوجُ بك ، فأنا خيرٌ لكِ منه وأكثرُ مالًا ، وأنا أمسك عليك وعلى ولدك . فقالت ماوية : صدقت ، إنه لكذلك ، فلم يزل بها حتى طلقت حاتماً .

وكانت النساء أو بعضُهنَّ يطلِّقْنَ الرجال في الجاهلية ، وكان طلاقُهن أنهن يحوِّلْنَ أبوابَ بيوتِهنَّ ، إن كان البابُ إلى المشرق جعلْنَه إلى المَغرب ؛ وإن كان البابُ قِبلَ اليمنِ جعلْنَه قِبلَ الشّام ؛ فإذا رأى ذلك الرجلُ علم أنها قد طلَّقَتْه .

فأتى حاتمٌ فوجدها قد حوَّلَتْ باب الخباء ، فقال لابنه : يا عديّ ، ما ترى أمّك ؟ ما عَدَا عليها ؟ قال : لا أدرى ! غير أنها غيَّرت باب الخباء — وكأنّه لم يَلْحَن[1] لِما قال ؛ فدعاه فهبط به بَطْنَ واد .

وجاء قومٌ فنزلوا على بابِ الخباء ، كما كانوا ينزلون فتَوافَى خمسون رجلا ، فضاقت بهم ماويّة ذَرْعاً ؛ فقالت لجاريتها : اذهبي إلى مالك ، فقولى له : إن أضيافاً لحاتم قد نزلوا بنا وهم خمسون رجلا ، فأَرْسِل إلينا بنابٍ نَقْرِهم ولبَنٍ نَغْبُقُهم[2] .

---

* ذيل الأمالي : ١٠٣ .

(١) لم يلحن : لم يفطن . (٢) الغبوق : الشرب بالعشى ، وغبقه : سقاه إياه فى هذا الوقت .

وقالت لجاريتها : انظرى إلى جَبينه وفَمِه ، فإن شافَهَكِ بالمعروف فاقبَلى منه ؛ وإن ضربَ بلَحْيَيْهِ (١) على زَوْرِه ؛ فارْجِعى ودَعِيه .

فلما أتت مالكاً وجدته متوسِّداً وَطْباً (٢) من لبَن ، فأيقَظَتْهُ وأبلغته الرسالة ؛ وقالت : إنما هى الليلة حتى يعلمَ الناس مكانك ؛ فأدخل يده فى رأسه ، وضربَ بلَحْيَيْهِ على زَوْرِه ، وقال لها : أقرِئى عليها السلام ، وقولى لها : هذا الذى أمرتُكِ أن تُطَلِّقِى حاتماً من أجله ، فما عندى من كبيرةٍ قد تَرَكَتِ العمل ، وما كنتُ لأنحرَ صفيَّةً(٣) غزيرة بشحم كُلاها ، وما عندى لبن يكفى أضيافَ حاتم !

فرجعتِ الجارية فأخبرتها بما رأتْ منه ، وأعلمتْها بمقالته ؛ فقالت لها : ويلكِ! ائتى حاتماً فقولى له : إن أضيافَك قد نزلوا الليلةَ بنا ، ولم يعلموا بمكانك ، فأرسل إلينا بنابٍ ننحرها ونَقْرِهم ، وبلبَنٍ نسقهم ، فإنما هى الليلة حتى يعرفوا مكانك .

فأتت الجاريةُ حاتماً فصرخَتْ به . فقال حاتم : لبيكِ قريباً دعوت! فقالت : إن ماويَّةَ تقرأ عليك السلام ؛ وتقول لك : إن أضيافَك قد نزلوا بنا الليلة ، فأرسِلْ إليهم بنابٍ ننحرها لهم ولبن نسقهم . فقال : نعم وأبى ! ثم قام إلى الإبل فأطلق ثنيَّتين (٤) من عِقالَيهما ، ثم صاح بهما حتى أتى الخباء ، فضرب عَرَاقيبهما (٥) ، فطفقت ماويةُ تصيحُ وتقول : هذا الذى طلَّقتك فيه ! تترك ولدك وليس لهم شىء !

---

(١) اللحى : منبت اللحية ، وهما لحيان . (٢) الوطب : سقاء اللبن ، وهو من جلد .
(٣) الصفية : الناقة الغزيرة . (٤) الثنية : الناقة الطاعنة فى السادسة . (٥) العرقوب من الدابة فى رجلها بمنزلة الركبة فى يدها .

٦٥ ـ مروءة ووفاء *

خرج النعمانُ (١) بنُ المنذر يوماً يتصيَّد على فرسِه اليَحْمُوم (٢) ، فأجراه على أثَرِ عَيْر (٣) ؛ فذهب به الفرسُ في الأرض ، ولم يَقْدِر عليه ، وانفردَ عن أصحابه ، وأخذَتْهُ السَّماء (٤) ؛ فطلب ملجأً يلجأُ إليه ، فدَفع إلى بناء ، فإذا فيه رجل من طيِّئ يقال له حَنْظَلة ، ومعه امرأةٌ له ؛ فقال لهما : هل مِنْ مأوى ؟ فقال حَنْظَلة : نعم ! وخرج إليه ، فأنزله ، ولم يكن للطائي غيرُ شاة ، وهو لا يعرفُ النعمان ؛ فقال لامرأته : أرى رجلا ذا هيئة ، وما أخلقَهُ أن [illegible] خطيراً ، فما الحيلةُ ؟ قالت : عندي شيء من طَحِين كنتُ ادّخرتُه ، فاذْبح الشاة لأتَّخذَ من الطحين خُبْزَ مَلَّة (٥) .

وأخرجتِ المرأةُ الدقيقَ ، فخبزَتْ منه ، وقام الطائيّ إلى شاتِه فاحْتَلبها ، ثم ذبحها ؛ فاتَّخذ من لحمِها مَرَقَةً مَضِيرة (٦) ، وأطْعَمَه من لحمِها ، وسقاه من لبنها ، واحتال حتى وجد له شراباً فسقَاه ، وجعل يُحدِّثُه بقيةَ ليلته .

فلما أصبح النعمانُ لبس ثيابَه ، وركب فرسَه ، ثم قال : يا أخا طيِّئ ؛ اطلبْ ثوابك ، أنا الملك النعمان ! قال : أفْعَلُ إن شاء الله .

---

* أمثال الميداني : ١ ـ ١٤٦ ، المستطرف : ١ ـ ١٩٩ ـ ، الأغاني : ١٩ ـ ٨٨ ، معجم البلدان : ٦ ـ ٢٨٥ ، المحاسن والأضداد : ٥٨ ، بلوغ الأرب : ١ ـ ١٢٧ ، المحاسن والمساوى : ١١٧ ، طبعة ليبزج .

(١) من ملوك الحيرة ، تولى الملك بعد عمرو بن هند ، ويكنى أبا قابوس ، وهو ممدوح النابغة الذبياني ، وحسان بن ثابت ، وحاتم الطائي ؛ ومات نحو سنة ٨ ق . هـ (٢) اليحموم : الأسود وهو اسم فرس كان للنعمان (٣) العير : الحمار الوحشي (٤) المطر (٥) الملة : الرماد الحار . وخبز الملة : ما يصنع فيها . (٦) المضيرة : أن يطبخ اللحم باللبن البحت الصريح حتى ينضج اللحم وتخثر المضيرة .

ثم لحق الخيلَ ، فمضى نحو الحِيرَة ، ومكث الطائىُّ بعد ذلك زماناً حتى أصابَتْه نَــكْبَة وجَهْدٌ ، وساءتْ حالُه ؛ فقالت له امرأته : لو أتيت الملكَ لأحْسَن إليك ؟ فأقبل حتى انتهى إلى الحِيرةِ ، فوافق يَوْمَ بُؤْسِ النعمان ، فإذا هو واقفٌ فى خَيْله فى السلاح .

فلما نظر إليه النعمانُ عرفه ، وساءه مكانُه ، فوقف الطائىُّ ــ المَنْزول به ــ بين يدى النعمان ، فقال له : أنت الطائىُّ المنزولُ به ؟ قال : نعم . قال : أَفَلا جئتَ فى غير هذا اليوم ! قال : أبيتَ اللعن ! وما كان عِلْمى بهذا اليوم ؟ قال : والله لو سَنَح لى فى هــذا اليوم قَابُوس (١) لم أجد بدًّا من قَتْله ، فاطلبْ حاجتَــك من الدنيا ، وسَلْ مابَدَا لك فإنكَ مقتول ! قال : أبيْتَ اللعن ! وما أصنعُ بالدنيا بعد نَفْسى ؟ قال النعمان : إنه لا سبيلَ إليها . قال : فإن كان لا بدَّ فأَجِّلْنى حتى أُلِمَّ بأَهلى ، فأُوصى إليهم ، وأُهيِّئ حالهم ، ثم انصرف إليــك . قال النعمان : فأقم لى كَفِيــلاً بمُوافاتك . فالتفتَ الطائى إلى شريك (٢) بن عمرو ، وهو واقفٌ بجنبِ النعمان ، فقال له :

يَاشَرِيكٌ يَابْنَ عَمْرٍو هَــلْ مِنَ الْمَوْتِ مَحَالَه (٣)
يا أخَا كلِّ مُصَــــاب يا أخا مَن لا أخا لَه
يا أخا النعمانِ فُكَّ الــيوم ضَيْفاً قــد أَتَى له

فأبى شريك أن يتــكفَّلَ به ؛ فوثب إليــه رجلٌ من كَلْب يقال له قُرادُ بنُ أجدع ، فقال للنعمان : أبيتَ اللعن ! هو علىَّ ! قال النعمان : أَفَعلتَ ؟ قال : نعم ! فضمَّنه إياه ، ثم أمر للطائى بخمسمائة ناقة ؛ فمضى الطائى إلى أهله ، وقد جعل الأجلَ

(١) قابوس : ابن النعمان (٢) كان شريك هذا رديف النعمان ، يجلس عن يمينه ويشرب بعده ويخلفه إذا غزا . (٣) حيلة .

حولا من يومه ذلك إلى مِثلِ ذلك اليوم مِنْ قابل ، فلما حال عليه الحول ، وبقى من الأجَلِ يوم ، قال النعمان لقُرَاد : ما أراك إلا هالكا غداً ، فقال قراد :

فإن يكُ صدرُ هذا اليوم وَلّى فإنّ غـدا لِناظِره قريبُ

فلما أصبح النعمان ركب فى خَيْله ورَجْلِه (١) مُتَسَلِّحاً كما كان يفعل حتى أتى الغَرِيَّين (٢) فوقف بينهما ؛ وأخرج معه قُراداً ، وأمر بقتْله ، فقال له وزراؤه : ليس لك أن تقتلَه حتى يستوفى يومَه ، فتركه ؛ وكان النعمانُ يشتهى أن يَقتل قُراداً ليُفلِت الطائىُّ من القَتْل ؛ فما كادت الشمسُ تَجِبُ (٣) وقرادُ قائم على النِّطْع (٤) ، والسَّيافُ إلى جنبه حتى أقبلت امرأته وهى تقول :

أيا عينُ بكى لى قُرادَ بنَ أجدعا رهيناً لقتلٍ لا رهيناً مُوَدَّعا

فبينما هم كذلك إذ رُفِع لهم شخص من بعيد ، وقد أمر النعمانُ بقتل قُراد ، فقيل له : ليس لك أن تقتلَه حتى يأتيَك الشخص فتعلم من هو ؟ فكفّ حتى انتهى إليه الرجل ، فإذا هو الطائىّ !

فلما نظر إليه النعمان شقّ عليه مجيئُه ، فقال له : ما حَمَلك على الرجوع بعد إفلاتك من القتل ؟ قال : الوفاء ، قال : وما دعاك إلى الوفاء ؟ قال : دينى . قال النعمان : وما دينُك ؟ قال : النصرانية . قال النعمان : فاعْرِضْها علىّ ، فعرضَها عليه ؛ فتنصَّر النعمان وأهلُ الحيرة أجمعون ، وترك القتلَ منذ ذلك اليوم ؛ وأبطلَ تلك

---

(١) الخيل . الفرسان ، والرجل اسم جمع للراجل ، وهو مالا ظهر له فى سفره يركبه .
(٢) الغريان : مثنى غرى ، بناءان طويلان ، يقال هما قبر مالك وعقيل نديمى جذيمة الأبرش وسميا بذلك ، لأن النعمان بن المنذر كان يغريهما بدم من يقتله يوم بؤسه (٣) تجب الشمس : تغيب
(٤) النطع : بساط من جلد .

السُّنة ، وأمر بهدم الغريِّين ، وعفا عن قُراد والطائى ؛ وقال : والله ما أدرى أيّهما أوفى وأكْرَم ؛ أهذا الذى نجا من القَتْل فعاد ، أم هذا الذى ضَمِنه ؟ والله لا أكونُ ألأمَ الثلاثة ؛ فأنشأ الطائى يقول :

ما كنتُ أُخْلِفُ ظنّه بعد الذى … أسْدى إلى من الفَعَال (١) الخالِي

ولقد دعتْنى للخِلَاف ضَلَالتى … فأبيتُ غير تمجُّدِى وفَعالى !

(١) الفعال — بالفتح : الفعل الكريم .

٦٦ـ مَكْرمَة*

حدّث عمرو بن العلاء فقال :

جلس النعمانُ بن المنذر وعليه حُلّةٌ مرصّعةٌ بالدرّ ، لم يُرَ مثلُها قبل ذلك اليوم . وأَذِنَ للعرب فى الدخول عليه ، وكان فيهم أوسُ بن حارثة (١)، فجعلت العرب تنظرُ إلى الحُلّةِ ، وكلٌّ منهم يقول لصاحبه : ما رأيتُ مثلَ هذه الحلّة قطّ ، ولا سمعت أن أحداً من الملوك قدَر على مثلها ـ وأوسُ بن حارثه مُطْرِق لا ينظر إليها ـ فقال له النعمان : ما أرى كلَّ مَنْ دخل علىّ إلا استَحْسَن هـذه الحلّة ، وتحدَّثَ مع صاحبه فى أمرها إلا أنت ؛ ما رأيتُك استحسنتها ولا نظرتَها .

قال أوس : أسعد الله الملك ! إنما تُسْتَحْسن الحلّةُ إذا كانت فى يد التاجر ، وأما إذا كانت على الملك ، وأشرق فيها وجهُه فنظَرِى مقصور عليه لا عليها ! فاسترجح عقلَه .

فلمـا عزموا على الانصراف قال لهم النعمانُ : اجتمعوا إلىّ فى غد فإنى مُلْبِسٌ هذه الحلّةَ لسيد العرب منكم ، فانصرف العربُ عنه ، وكلٌّ يزعم أنه لابس الحلة .

فلما أصبحوا تزينوا بأفخر الملابس وتقـلّدوا بأحسن السيوف ، وركبوا أجودَ الخيل ، وحضروا إلى النعمان ؛ وتأخر عنـــه أوسُ بن حارثة ؛ فقال له أصحابه : مالك لا تَغْدُو مع النـاس إلى مجلس الملك ، فلعلك تـكونُ صاحبَ الحُلة . فقال أوس : إن كنتُ سيد قومى فما أنا بسيِّد العرب عند نفسى ، وإن حضرتُ ولم آخذها انصرفتُ منقوصاً ، وإن كنتُ المطلوبَ لها فسيُعْرَف مكانى ، فأمسكوا عنه .

---

* المختار من نوادر الأخبار ـ مخطوط .

(١) أوس بن حارثة : من أجداد العرب فى الجاهلية ، بنوه بطن من بنى مزيقياء ، وهم إحدى قبيلتى الأوس والخزرج ، أصلهم من اليمن ، ونزلوا يثرب وجاء الإسلام وهم بها .

ونظر النعمانُ فى وُجُوهِ القوم ، فلم يَرَ أَوْس بن حارثة ؛ فاستدعى بعضَ خاصته، وقال : اذهب لتعرفَ خبرَ أوس ، فمضى رسولُ النعمان ، واستخبر بعض أصحابه ؛ فأخبره بمقالته ، فعاد إلى النعمان ، فأخبره بذلك ، فبعث النعمانُ إليه رسولاً ، وقال : احضُر آمناً مما خِفْتَ عليه ، فحضر أوس بثيابه التى حضر بها بالأمس ، وكانت العربُ قد استبشرت بتأخره خوفاً من أن يكون هو الآخذَ للحُلة .

فلما حضر وأخذ مجلسه ، قال له النعمان : إنى لم أرك غيّرتَ ثيابَك فى يومك ؛ فالبس هذه الحلة لتتجملَ بها ، ثم خلَعَها وألبسه إياها . فاشتدّ ذلك على العرب وحسدوه ؛ وقالوا : لا حِيلةَ لنا فيها ؛ إلا أَنْ نرغَبَ إلى الشعراء أن يهجوه بقبيح الفعل ؛ فإنه لا يخفض رفعته إلا الشعر . فجمعوا فيما بينهم خمسمائة ناقة ، وأتوا بها إلى رجلٍ يقال له جرْوَل [1] ، وقالوا له : خذ هذه ، واهْجُ لنا أوس بن حارثة .

وكان جرْوَل يومئذ أشعرَ العرب وأقوامهجاء ؛ فقال لهم : ياقوم ؛ كيف أهجو رجلا حَسِيباً لا يُنكَر بيته ، كريماً لاينقطع عطاؤه ، فَيْصلاً [2] لا يُطْعَن على رأيه، شجاعاً لا يُضَام نزيلُه ، محسناً لا أرى فى بيتى شيئاً إلا مِنْ فضله !

فسمع بذلك بشر بن أبى خازم — وكان شاعراً — فرغبَ فى البَذْل ؛ وأخذ الإبل وهجاه ، وذكر أمّه سُعْدى. فسمع أوس بذلك ؛ فوجّه فى طلبه ، فهرب وترك الإبل؛ فأتوا بها إلى أوس بن حارثة ، فأخذها وشدّ فى طلبه ؛ وجعل بشر بن أبى خازم يطوف فى أحياء العرب يلتمس عزيزاً يجيره على أوس ، وكل مَن قصده يقول : قد أجَرْتُك إلا من أوس بن حارثة ، فإنى لا أقدر أن أُجير عليه — وكان أوس قد بثَّ عليه العيون ؛ فرآه بعضُ من كان يرصُده ، فقبض عليه ، وأتى به إلى أوس ، فلما مَثَل بين يديه قال له : ويلك ! أتذكر أمى وليس فى عصرنا مثلها ؟ قال : قد كان

---

(١) هو الحطيئة . (٢) فيصل : حاكم .

ذلك أيها الأمير ؟ فقال : والله لأقتلنَّك قِتلةً تحيا بها سُعْدَى ـ يعنى أمه .

ثم دخل أوس إلى أمه سُعْدى ، وقال : قد أتيتُك بالشاعر الذى هجاك . وقد آليتُ لأقتلنه قِتْلةً تحيين بها ! قالت : يابنى ؛ أو خيرٌ من ذلك ! قال : وما هو ؟ قالت : إنه لم يجِدْ ناصراً منك ، ولا مُجيراً عليك ، وإنا قوم لا نرى فى اصطناع المعروف من بأس ، فبحَقِّى عليك إلا أطلقتَه ، ورددتَ عليه إبلَه ، وأعطيتَه من مالك مثل ذلك ، ومِنْ مالى مثلَه ، وأرجِعه إلى أهله سالمًا ؛ فإنهم أيِسوا (١) منه !

فخرج له أوسٌ ، وقال : ماتقول أنى فاعل بك ؟ قال : تَقْتُلنى لا محالة ! قال : أفتستحقُّ ذلك ؟ قال : نعم ؟ قال : إن سُعْدى التى هجوتَها قد أشارت بكذا وكذا ، وأمر بحلِّ كِتَافه (٢) ، وقال له : انصرف إلى أهلك سالما ، وخُذْ ما أمرتْ لك به !

فرفع بِشْر يده إلى السماء وقال : اللهم أنت الشاهد علىَّ ألّا أعود إلى شعر إلا أن يكون مَدْحاً فى أوسِ بن حارثة .

---

(١) يئسوا ، (٢) الكتاف : هو حبل يشد به .

٦٧ - أجاره من الموت! *

أتى الأعشى الأسودَ العَنْسِى [١] وقد امتدَحَه فاستَبْطأ جائزَته . فقال الأسود: ليس عندنا عَيْنٌ ، ولكن نُعطيك عَرَضاً ، فأعطاه بخمسمائة مثقال دُهناً ، وبخمسمائة حُلَلاً وعَنْبراً .

فلما مرّ ببلاد بنى عامر خافَهم على ما معَه ، فأتى عَلْقَمةَ [٢] بن عُلَاثَة فقال له : أجِرْنى ؛ فقال : قد أجَرْتُك . قال: من الجنّ والإنس ؟ قال: نعم ! قال : ومن الموت؟ قال : لا !

فأتى عامرَ بن الطُّفَيْل ، فقال : أجِرْنِي ؛ قال : قد أجرتُك . قال : من الجنّ والإنس ؟ قال : نعم ! قال: ومن الموت ؟ قال : نعم ! قال : وكيف تُجيرنى من الموت! قال : إن متَّ وأنتَ فى جِوَارى بعثتُ إلى أهلك الدِّيَةَ . فقال : الآن علمتُ أنك أجرتَنى من الموت . ثم مدح عامراً وهجا عَلقمةَ ؛ فقال علقمة : لو علمتُ الذى أراد كنت أعطيتُه إياه !

---

* الأغانى : ٩ — ١٢٠ .

(١) الأسود العنسى : هو عبهلة بن كعب بن غوث ، خرج بعد حجة الوداع فى عامة مذحج ، وادعى النبوة وكان كاهناً قتله فيروز وداذويه وقيس غيلة . والأعشى : هو ميمون بن قيس من شعراء الطبقة الأولى فى الجاهلية ، عاش عمراً طويلا ، وأدرك الإسلام ولم يسلم ، ومات فى اليمامة سنة ٧ هـ .

(٢) علقمة بن علاثة : وال من الصحابة ، كان فى الجاهلية من أشراف قومه وكان كريماً، توفى نحو سنة ٢٠ هـ .

٦٨ - يَزِيدُ بن عَبد المَدَان عند الحَارث بن جَفْنة *

قـدم يزيد[١] بن عبد المَدَان وعمْرُو بن معد يكر وَمكْشُوح المُرَادىّ عَلَى ابن جَفْنَة[٢] زُوَّاراً ، وعنده وجوهُ قيس : مُلَاعِب الأسنّة ، ويزيد بن عمرو ، ودُريد بن الصِّمة . فقال ابن جفنة ليزيد بن عبد المَدَان : ماذا كان يقول الدّيان[٣] إذا أصبح ؟ فقال : كان يقول : آمنتُ بالذى رفع هذه (يعنى السماء) ، ووضع هذه (يعنى الأرض) وشقّ هـذه (يعنى أصابعه) ، ثم يخر ساجداً ؛ فإذا رفع رأسه قال :

إن تغفـر اللّهُمّ تَغْفِرْ جمَّا وأىّ عبـدٍ لك ما ألمّا

فقال ابنُ جَفْنة : إن هذا لدُودِينٍ ، ثم مال على القيسيِّين وقال : ألا تحدثونى عن هذه الرياح : الجَنُوب ، والشمال ، والدَّبور ، والصَّبا ، والنَّكباء ؛ لم سمِّيت بهذه الأسماء ؛ فإنه قد أعيانى علمُها ؟ فقال القوم : هذه أسماء وجدنا العرب عليها لا نعلمُ غير هذا ! فضحك يزيد . ثم قال لابن حفنة : ياخيرَ الفتيان ، ما كنتُ أحسب أن هذا يسقطُ علمُه عن هؤلاء ، وهم أهل الوَبر ! إن العربَ تضرب أبياتها فى القبلة مطلع الشمس لتُدْفِئهم فى الشتاء ، وتزول عنهم فى الصيف ؛ فما هبّ من

---

* الأغانى : ١٠ ــ ١٣٩ ، مهذب الأغانى : ١ ــ ٥٧ .

(١) كان يزيد سيد مذحج شاعرا من أشراف اليمن وشجعانها ، وفد على بنى جفنة ــ أمراء بادية الشام ، وعاد إلى اليمن فأقام بنجران إلى أن كان يوم الكلاب الثانى فقتل فيه نحو سنة ٨ ق هـ.

(٢) كان بنو جفنة يقيمون بالشام ملوكا عليه وعلى ما يليه من بادية العرب ولكنهم كانوا عمالا لملوك الروم ، وظلوا حتى انقاد آخر ملوكهم جبلة بن الايهم إلى الإسلام فى عهد عمر بن الخطاب .

(٣) الديان : جد يزيد .

الرياح عن يمين البيت فهى الجنوب ، وما هبّ عن شماله فهى الشمال ، وما هبّ من أمامه فهى الصَّبا ، وما هبّ من خلفه فهى الدَّبُور ، وما استدار من الرياح بين هـذه الجهات فهى النَّكْبَاء ...

فقال ابنُ جفنة : إن هذا لَنِعْلِمٌ يابن عبد المَدَان !

وأقبل ابنُ جَفْنَة على القيسيين يسألهم عن النعمان بن المنذر ، فعابوه وصغروه ، فنظر ابنُ جفنة إلى يزيد وقال له : ما تقولُ يابنَ عبد المدان ؟ فقال : ياخير الفتيان ، ليس صغيراً من منعك العراق ، وشَرِكَك فى الشام ، وقيل له : أبيت اللعن ! وقيل لك : يا خير الفِتيان ! وألفى أباه مَلِكاً كما ألفيتَ أباكَ ملكا ؛ فلا يسرُّك مَنْ يغرُّك ، فإنَّ هؤلاء لو سألهم عنك النعمان لقالوا فيك مثلَ ما قالوا فيه ، وايمُ الله ! ما فيهم رجلٌ إلا ونعمةُ النعمان عنده عظيمة ...

فغضب عامرُ بن مالك وقال : يابن الدَّيَّان ، أما والله لنحتلبن بها دماً ! فضحك يزيد وقال : ما هم والله جرأةُ بنى الحارث ، ولا فتك مُراد ، ولا بأس زُبيد ، ولا مغارُ طيئ ، وما هم ونحن ـ ياخير الفتيان ـ بسواء ؛ ما قتلنا أسيراً قط ، ولا اشتهينا حرَّةً قط ، ولا بكينا قتيلاً نُبئ به ، وإن هؤلاء ليعجزون عن ثأرهم حتى يُقتل السَّمِىُّ بالسَّمِىِّ والجار بالجار ... ثم قال :

تَمَالَى على النعمان قومٌ إليهم ... مواردُه فى ملكه ومصادِره
على غير ذنب كان منه إليهم ... سوى أنه جادتْ عليهمْ مَوَاطره
فباعَدَهم من كل شرٍّ يخافه ... وقرَّبَهُمْ من كلِّ خير يبادره
فظنوا ، وأعراضُ المنون كثيرةٌ ، ... بأن الذى قالوا من الأمر ضائره
فلم ينقصُوه بالذى قيلَ شعرةً ... ولا فلَّلتْ أنيابُه وأظافره

وللحارثُ الجفنيُّ أعلمُ بالذى ... يبوء به النعمان إن خفَّ [1] طائره
فيا حارِ كمْ فيهم لنعمانَ نعمة ... من الفضلِ والمنِّ الذى أنا ذاكره
ذُنوباً عفا عنها ، ومالاً أفاده ، ... وَعظماً كسيراً قوَّمته جوَابرُه
ولو سالَ عنك العائبين ابنُ منذر ... لقالوا له القولَ الذى لا يُحَاذِرُه

فلما سمع ابنُ جفنة هذا القول عظمَ يزيدُ فى عينه ، وأجلسه معه على سريره ، وسقاه بيده ، وأعطاه عطيةً لم يُعطِها أحداً ممن وفد عليه قط ؛ ولما قرَّبَ يزيدُ ركائبه ليرتحلَ سمع صوتا إلى جانبه وإذا هو برجل يقول :

أما مِنْ شفيعٍ من الزائرينَ ... يُحِبُّ الثَنَا زَنْدُهُ ثاقبُ
يزيدُ ابنُ جفنةَ إكرامَه ... وقد يمسحُ الضَرَّةَ [2] الحالبُ
فينقذَنى من أظافيره ... وإلا فإنى غداً ذاهبُ
فقد قلتُ يوماً على كُرْبةٍ ... وفى الشربِ فى يثربٍ غالبُ :
ألا ليتَ غسان فى ملكها ... كلحمٍ وقد يخطئ الشاربُ
وما فى ابن جفنةَ من سُبَّةٍ ... وقد خَفَّ حملاً بها الغاربُ
كأنى قريبٌ من الأبعدين ... وفى الحلق منى شجى ناشبُ

فقال يزيد : على بالرجل ، فأتى به ، فقال : ما خطبك ! أنت تقول هذا الشعر ! قال : بل قاله رجل من جُذام جفاه ابنُ جفنة ، وكانت له عند النعمان منزلة ، فشرب ، فقال له عَلَى شرابه شيئا أنكره عليه ابنُ جفنة ، فحبسه ، وهو مُخرجه غداً فقاتله . فقال يزيد : أنا أُغيثُك، فقال له : ومن أنتَ حتى أعرفك ؟ فقال :

---

(١) خف : طار . (٢) الضرة : الضرع

أنا يزيدُ بن عبد المدان ؛ فقال: أنت لها وأبيك ! قال : أجـل ؟ فقد كفيتك أمرَه ، فلا يسمعنّك أحدٌ تنشِدُ هذا الشعر .

وغدا يزيد على ابن جفنة ليودعه، فقال له : حيّاك الله يابن الديان ، حاجَتَك ! قال : تلحق قُضاعـة بالشام ، وتؤثر من أتاك من وفود مذحج ، وتهَبُ الجذاميّ الذى لا شفيع له إلا كرمك . قال : قد فعلتُ ، أما أنى حبسته لأهبه لسيّد ناحيتك وكنتَ ذلك السيد ، ووهبه له ، فاحتمله يزيدُ معه !

٦٩ - إغاثة*

جاور [1] رجلان من هوازن فى بنى مرة بن عوف ، وكان قد أصابا دماً فى قومهما . ثم إن قيس بن عاصم المنقرى [2] أغار على بنى مرة ، فأصاب واحداً منهما فى عدة أسارى كانوا عندهم ، ففدى كل قوم أسيره من قيس بن عاصم ، وتركوا الهوازنى ، فاستغاث أخوه بوجوه بنى مرة : سنان بن أبى حارثة ، والحارث بن عوف ، والحارث بن ظالم ، وهاشم بن حرملة ، والحصين بن الحمام ، فلم يغيثوه .

فركب إلى موسم عكاظ ، فأتى منازل مذحج ليلاً ، ونادى :

دعوتُ سناناً وابنَ عوفٍ وحارثاً ... وعاليتُ دَعْوى بالحُصَيْنِ وهاشم
أعيذهمُ فى كلّ يوم وليـلةٍ ... بتركِ أسيرٍ عند قيس بن عاصم
حليفُهم الأدنى ، وجارُ بيوتِهمْ ... ومن كانَ عما سرّهم غيرَ نائم
فصَمُّوا ، وأحداثُ الزمان كثيرة ... وكم فى بنى العَلَّات [3] من متَصامِمِ !
فيا ليت شعرى مَنْ لإطلاق غِلْمةٍ ... ومن ذا الذى يُحْظَى به فى المواسم !

فسمع صوتاً من الوادى ينادى بهذه الأبيات :

ألا أيهـــذا الذى لم يُجَبْ ... عليـكَ بحىٍّ يجلّى الكُرَبْ

---

* مهذب الأغانى : ٥ ـ ٦٠

(١) جاوره مجاورة وجواراً : صار جاره (٢) منقر : بطن من تميم ، وقيس بن عاصم : كان سيد تميم ، ولما وفد على النبى صلى الله عليه وسلم بسط له رداءه وقال : هذا سيد الوبر ، ولما توفى قال فيه الشاعر :

وما كان قيس هلكه هلك واحد ... ولـكنه بنيان قوم تهـدما

(٣) بنو العلات : هم بنو رجل واحد من أمهات شتى .

عليك بذا الحىِّ من مَذْحجٍ فإنهمُ للرِّضــــا والغضَبْ
فنادِ يزيدَ بن عبد المَدان ، وقيساً ، وعَمْرو بن مَعْدِ يكربْ
يفكوا أخاكَ بأموالهمْ وأقلـل بمثلهم فى العرَبْ!
أولاكَ الرءوسُ فلا تَعـدُهم ومن يجعلِ الرأسَ مثلَ الذنب!

فاتّبع الصوتَ فلم يرَ أحداً ! فغدا على المكشوح قيس بن عبد يغوث المُرادىّ فأخبره خبره ، فقال له : والله إن قيس بن عاصم ما قارضتهُ معروفاً قطّ ، ولا هو لى بجارٍ ، ولكن اشترِ أخاكَ منه وعلىَّ الثمن ، ولا يمنعنك غلاؤه .

ثم أتى عمرو بن معد يكرب فقال له عمرو : هل بدأت بأحدٍ قبلى ؟ فقال : نعم ، بقيس بن عبد يغوث ، قال : عليكَ بمَنْ بدأتَ به ، فتركه وأتى يزيد بن عبد المدان فأخبره بقصته ، فقال له يزيد : مرحبا بك وأهلاً ، أَبْعَثُ إلى قيس بن عاصم ، فإن هو وَهب لى أخاك شكرتهُ وإلاّ أغرتُ عليه حتى يتّقينى بأخيك ، فإن نلتُها وإلا دفعتُ إليك كلَّ أسيرٍ من بنى تميم بنجران ، فاشتريتَ به أخاك!! فقال : هذا الرضا . فأرسل يزيد إلى قيس بن عاصم بهذه الأبيات :

ياقيسُ أَرْسِلْ أسيراً من بنى جُشَم (١) إنى بكُلّ الذى تأْتى به جازِى
لا تأمَنِ الدهرَ أنْ تشجَى بغُصّته فاخترْ لنفسك إحمادِى وإعزازى
فافكك أخا مِنقَرٍ عنه ، وقُلْ حسنا فيما سُئِلتَ وعقّبْه بإنجازى

وبعثَ بالأبيات رسولا إلى قيس بن عاصم ، فأنشده إياها ، ثم قال له : يا أبا علىّ : إن يزيد بن عبد المدان يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : « إن المعروف قُروض ، ومع اليوم غد ، فأطلق لى هذا الجُشمىّ ، فقد استعان بأشراف بنى مرّة ،

---

(١) جشم : بطن من هوازن .

وبعمرو بن معد يكرب ، وبمكشوح المُرَادى ، فلم يُصِب عندهم حاجته ، فاستجار بى ، ولو أرسلتَ إلىّ فى جميع أسارى مضر لقضيتُ حاجتك » .

فقال قيس بن عاصم لِمَنْ حَضَرَه من بنى تميم : هذا رسولُ يزيدَ بن عبد المدان سيد مَذْحِج وابن سيّدها ، ومن لا يزال له فيكم يد ، وهذه فرصة لكم فما تَرَون ؟ قالوا : نرى أن نغليه عليه ونحكم فيه شططًا ، فإنه لن يَخذُله أبداً ولو أتى ثمنُه على ماله . فقال قيس : بئسما رأيتم ! أما تخافون سِجالَ الحروب ، ودولَ الأيام ، ومجازاة القروض !

فلما أبَوْا عليه قال : بيعُونيه . فأغلَوْه عليه ، فتركه فى أيديهم — وكان أسيراً فى يد رجل من بنى سَعد [1] — وبعث إلى يزيد فأعلمه بما جرى ، وأن الأسير لو كان فى يده أو يد مِنْقَر لأخذه وبعث به ؛ ولكنه فى يد رجل من بنى سعد .

فأرسل يزيد إلى السَّعدىّ : أن سِرْ إلىّ بأسيرك ولك فيه حكمك ، فأتى السعدىُّ يزيدَ ، فقال له : احتكمْ ، فقال : مائة ناقة ورعاؤها ، فقال له يزيد : إنك لقصيرُ الهمة ، قريبُ الغنى ، جاهلٌ بأخطار بنى الحارث ! أما والله لقد غَبَنْتُكَ يا أخَا بنى سعد ! ولقد كنتُ أخاف أن يأتى ثمنه على جل أموالنا ؛ ولكنكم يابنى تميم قوم قصارُ الهمم . وأعطاه ما احتكم ؛ فجاوره الأسير وأخوه حتى ماتَا بنَجْران .

---

(١) سعد : بطن من تميم .

٧٠ - ارحمُوا عزيزًا ذل *

وجّه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى طَيِّئٍ فريقاً من جنده ، يَقْدُمُهم عليٌّ عليه السلام ، ففزع عديٌّ (١) بن حاتم الطائى – وكان من أشدِّ الناس عِدَاء لرسول الله – إلى الشام فصبّحَ عليٌّ القومَ ، واستاقَ خيلَهم ونَعَمهم ورجالهم ونساءهم إلى رسول الله .

فلما عرضَ عليه الأسرَى نهضتْ من بين القوم سَفّانة بنت حاتم ؛ فقالت : يامحمد ؛ هلَكَ الوالد ، وغاب الوافد ، فإن رأيتَ أن تُخلّىَ عنى ، ولا تُشمتَ بى أحياء العرب ! فإن أبى كان سيّدَ قومه ، يَفكُّ العانى (٢) ، ويقتُل الجانى ، ويحفظ الجارَ ، ويحمى الذِّمار ، ويُفَرِّجُ عن المكروب ، ويطعم الطعام ، ويفشى السلام ، ويحمل الكَلَّ (٣) ، ويعين على نوائب الدهر ، وما أتاه أحدٌ فى حاجةٍ فردّه خائباً ؛ أنا بنتُ حاتم الطائى !

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ياجاريةُ ؛ هذه صفاتُ المؤمنين حقّاً ، لو كان أبوكِ مُسلماً لترحّمْنا عليه خلُّوا عنها ؛ فإن أباها كان يحبُّ مكارمَ الأخلاق .

ثم قال : « ارحموا عزيزاً ذلّ ، وغنيا افتقر ، وعالماً ضاعَ بين جهال » . وامتنّ عليها بقومها فأطلقهم تكريماً لها !

فاستأذَنَتْهُ فى الدعاء له؛فأذِنَ لها،وقال لأصحابه : اسمعوا وعُوا . فقالت : أصابَ

---

* الأغانى : ١٦ – ٩٣ ، إنسان العيون : ٢ – ٢٨٥ ، غرر الخصائص : ١٢ .

(١) عدى بن حاتم : صحابى من الأجواد العقلاء كان رئيس قومه فى الجاهلية والإسلام ، وكان إسلامه سنة ٩ هـ ، وشهد فتح العراق ، والجمل ، وصفين ، والنهروان مع علىّ .

(٢) العانى : الأسير (٣) الكل : العائل واليتيم

الله ببرِّكَ مواقعَه ، ولا جعلَ لك إلى لئيمٍ حاجة ، ولا سلبَ نعمةً عن كريمٍ قومٍ إلا جعلَكَ سبباً فى ردّها عليه .

فلما أطلَقها رجعتْ إلى أخيها عدىّ وهو بدُومَة الجندل . فقالت له : يا أخى ؛ إيتِ هذا الرجل قبل أن تَعْلَقَكَ حبائلُه ، فإنى قد رأيت هَدْياً ورأياً سيغلبُ أهل الغلبة ؛ ورأيتُ خِصالًا تعجبنى : رأيتُه يحبُّ الفقيرَ ؛ ويفكُّ الأسيرَ ؛ ويرحَمُ الصغيرَ ، ويعرف قَدْر الكَبير ؛ وما رأيتُ أجودَ ولا أكرمَ منه ، فإن يكن نبيًّا فللسابق فضلُه ، وإن يكن مَلِكاً فلن تزالَ فى عزٍّ ملكه . فقدم عدىّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم ، وأ ت سفَّانَة !

٧١ - زعيم العجم وعمر بن الخطّاب

لما أُتى بالهُرْمزان أسيراً إلى عمرَ بنِ الخطاب رضى الله عنه ، قيل له : يا أميرَ المؤمنين ؛ هذا زعيمُ العجَم ، وصاحب رُستم [١] ؛ فقال له عمر رضى الله عنه :

أَعْرِضُ عليك الإسلامَ نُصْحاً لك فى عاجِلك وآجلك . فقال : إنما أعتقدُ ما أنا عليه ، ولا أَرغَبُ فى الإسلام رهبةً . فدعا عمرُ بالسيف ؛ فلما همّ بقتله ، قال : يا أميرَ المؤمنين ، شَرْبةٌ من ماء هى أفضلُ من قتلى على الظّمأ ؛ فأمر له بشربة من ماء ، فلما أخذَها الهُرْمُزَان قال : يا أمير المؤمنين ، أنا آمِنٌ حتى أَشْرَبها ؟ قال : نعم ؛ فرمى بها ، وقال . الوفاء - يا أمير المؤمنين - نورٌ أبلج ! قال : صدقتَ ! لك التوقُّف عنك ، والنظر فيك ، ارفعوا عنه السيف !

فقال : يا أمير المؤمنين ، الآن أشهدُ أن لا إلهَ إلا الله وأن محمداً عبدُه ورسوله ، وما جاء به حقٌّ من عنده . فقال عمر : أسلمتَ خيرَ إسلام ، فما أخّرَك ؟ قال : كرِهتُ أن يُظَنَّ بى أنى إنما أسلمتُ خوفاً من السيفِ ، فقال عُمَر : أَلَا إنّ لأهل فارسَ عقولا استحقّوا بها ما كانوا فيه من المُلْك ، ثم أمر ببرِّه وإكرامه !

---

* نهاية الأرب : ٦ - ٧٧ :

(١) رستم : كان من أعظم رجال فارس ، وقائد جيوش وقعة القادسية التى انتصر فيها المسلمون أيام عمر بن الخطاب ، وقتل رستم فى هذه الموقعة .

٧٢- أبوسُفْيَان عِنْدَ هِرَقْل*

قال أبو سُفْيان (١) بن حَرْب :

كُنّا قوماً تجاراً ، وكانت الحربُ بيننا و بين رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حَصَرتْنا حتى نَهِكتْ أموالنا . فلما كانت الهدنةُ — هُدْنة الُحدَيْبية — بيننا و بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خرجتُ فى نفرٍ من قريش إلى الشام ، وكان وجهُ مَتْجَرِنا منه غَزّة ، فقدِمْناها حين ظهرَ هِرَقْل على مَن كان بأرضه من الفرس ، فأخرجهم منها ، وانتزع منهم صَليبه الأعظمَ ، وكانوا قد استلبوه إيّاه .

فلما بلَغه ذلك منهم و بلغه أن صليبَه قد اسْتُنْقِذَ منهم ، وكانت حِمْصُ منزلَه ، خرج منها يَمْشى على قدميه شكراً لله حين رَدّ عليه ماردّ ، ليصلِّىَ فى بيت المقدس، تُبْسط له البُسُط وتُلْقَى عليها الرّياحين .

فلما انتهى إلى إيلياء فقضى فيها صلاتَه ، وكان معه بطارقتُه وأشْرافُ الروم ، أصبح ذاتَ غُدْوَة مهموماً يقلِّب طَرْفه إلى السماء . فقال له بطارقتُه : والله لكأنّك أصبحتَ الغداةَ مهموماً .

فقال : أجل ! رأيتُ البارحةَ أن مُلْك الخِتان ظاهر . فقالوا : أيّها الملك ، ما نعلم أمّةً تختتن إلا اليهود ، وهم فى سلطانك وتحت يدك ، فابعث إلى كل مَنْ

---

* الأغانى : ٦ — ٣٤٥ .

(١) هو صخر بن حرب ، من سادات قريش فى الجاهلية ، كان من رؤساء المشركين يوم الأحزاب ويوم أحد ، وأسلم يوم فتح مكة سنة ٨ هـ . وتوفى سنة ٣١ هـ .

لك عليه سلطان فى بلادك فَمُرْه فليضرب أعناقَ مَنْ تحت يدِك منهم من يهود ، واسْتَرِحْ من هذا الهمّ .

فوالله إنهم لفى ذلك من رأيهم يدبِّرونه إذا أتاه رسولُ صاحب بُصْرَى (١) برجل من العرب يقُوده — وكانت الملوك تتهادى الأخبارَ بينهم — فقال : أيّها الملك؛ إن هذا رجلٌ من العرب من أَهْل الشّاء والإبل يحدِّث عن أمر حَدث فاسْأله .

فلما انتهى به إلى هِرَقْل رسولُ صاحب بُصْرَى ؛ قال هرقلُ لمن جاء به : سَلْه عن هذا الحديث الذى كان ببلده ، فسأله ، فقال : خرج بين أظْهُرنا رجلٌ يزعُم أنه نبىٌّ ، وقد اتّبعه ناسٌ فصدّقوه وخالَفه آخرون ، وقد كانت بينهم مَلاحِمُ فى مواطنَ كثيرةٍ وتركتُهم على ذلك !

فلمّا أخبره الخبرَ قال : جرِّدوه؛ فإذا هو مختونٌ . فقال : هذا والله النبىّ الذى رأيتُ ، لا ما تقولون ؛ أعطوه ثيابه وينْطلق ، ثم دعا صاحبَ شُرْطته فقال له : اقْلب الشامَ ظهراً لبطن حتى تأتيَنى برجل من قوم هذا الرجل .

فإنّا لَبِغَزَّةَ إذ هجم علينا صاحبُ شُرطتِه فقال : أنتم من قوم الحجاز ؟ قلنا : نعم ، قال : انطلِقوا إلى الملِك ، فانطلَقوا بنا. فلما انتهينا إليه قال : أنتم من رَهْطِ هذا الرجل الذى بالحجاز ؟ قلنا : نعم . قال : فأيُّكم أَمَسُّ به رَحِماً ؟ قال أبو سفيان : قلت : أنا ، قال : ادنُ ، ثمّ أقْعدنى بين يديه وأقعد أصحابى خلفى ، وقال لهم : إنى سأسْأله ، فإن كذَب فردُّوا عليه .

قال : فوالله لقد علِمتُ أنْ لو كذبتُ ما ردُّوا علىّ ، ولكنى كنتُ امرأً سيداً أتبرّم من الكذب ، وعرفتُ أن أيسرَ ما فى ذلك إن أنا كَذَبْتُه أن يحفظوه علىّ ؛ ثم يحدِّثوا به عنى ، فلم أكذِبْه .

(١) بلد من أعمال دمشق .

وقال : أخبرني عن هذا الرجل الذي خرج بين أظهركم يَدَّعي ما يدَّعي . فجعلتُ أُزَهِّد له شأنَه وأُصغِّرُ له أمرَه ، وأقول له : أيّها الملك ، مايهمُّك من شأنه! إن أمرَه دون مابلَغك . فجعل لا يلتفتُ إلى ذلك مني . ثم قال : أنبئني فيما أسألك عنه من شأنه . قلت : سَلْ عما بَدَا لك .

قال : كيفَ نَسَبُهُ فيكم ؟ قلتُ : مَحْضٌ ، هو أوسطنا[1] نسباً . قال: أخْبرني، هل كان أحدٌ من أهل بيته يقول مايقول فهو يتشبّهُ به ؟ قلت : لا . قال : هل كان له فيكم مُلكٌ فسلبتموه إياه ، فجاء بهذا الحديث لتردوا عليه مُلكه ؟ قلت : لا . قال : أخبرني عن أتباعه منكم مَن هُمْ ؟ قلت : الضعفاء والمساكينُ والأحداثُ من الغلمان والنساء ، فأما ذَوُو الأسنان من الأشراف من قومه فلم يتبعه منهم أحد . قال : فأخبرني عَمنْ يتبعه أيحبُّه ويَلزَمُهُ ، أم يقَليه[2] ويفارِقه ؟ قلت : قلّما يتبعه أحد فيفارقه . قال : فأخبرني كيف الحربُ بينكم وبينه ؟ قلتُ : سِجال يُدَال علينا ونُدَالُ عليه[3] .

قال : فأخبرني هل يَغْدِر ؛ فلم أجد شيئاً أغتمزُ فيه غيرَها ؛ فقلت : لا، ونحن منه في مُدة[4] ولا نَأمنُ غدرَه . قال : فوالله ماالتفتَ إليها منّي .

ثم كرَّرَ الحديث فقال : سألتك عن نسبه فيكم ؛ فزعمتَ أنه محض من أوسطكم نسباً فكذلك يأخذُ اللهُ النبيَّ لا يأخذُه إلا من أوْسط قومه نسباً ، وسألتك : هل كان أحد من أهل بيته يقولُ مثل قوله فهو يتشبه به ؟ فزعمتَ أن لا . وسألتك: هل كان له مُلكٌ فيكم فسلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث يطلب مُلكه ؟ فزعمتَ أن لا . وسألتك عن أتباعه ، فزعمتَ أنهم الضعفاء والأحْدَاثُ والمساكين والنساء ، وكذلك

---

(١) أي خيرنا وأفضلنا نسباً (٢) يبغضه (٣) يدال علينا وندال عليه : أي نغلبه مرة ويغلبنا أخرى (٤) في مدة : يعني بها مدة صلح الحديبية .

أتْباعُ الأنبياء فى كلِّ زمان . وسألتك عمَّنْ يتبعه أيحبُّه ويَلزَمه أم يَقْلبه ويفارقه ؟ فزعمتَ أنه لا يتبعه أحدٌ فيفارقه ، فكذلك حلاوةُ الإيمان لا تدخلُ قلبَ رجل فتخرج منه .

وسألتك عن الحرب بينكم وبينه ، فزعمتَ أنها سِجَالٌ تُدَالون عليه ويُدَالُ عليكم ، وكذلك حربُ الأنبياء ، ولهم تكونُ العاقبةُ . وسألتُك : هل يَغدِر؟ فزعمتَ أن لا يغدر . فلئن كنتَ صَدَقتنى عنه فَلَيغلبَنَّ على ما تحتَ قَدَمَىَّ هاتين ، ولوَدِدْتُ أنى عنده فأغسلُ قدميه ! انطلقْ لشأنك .

فقمتُ من عنده وأنا أضربُ بإحدى يَدَىَّ على الأخرى وأقول : ياللعباد الله ! لقد أَمِرَ[١] أمْرُ ابن أبى كَبْشَةَ[٢] ! أصبحتْ ملوكُ بنى الأصفرَ[٣] يَهابونه فى مُلكهم وسلطانهم !

---

(١) أمر : عظم . (٢) أبو كبشة : رجل من خزاعة خالف قريشاً فى عبادة الأوثان ، وعبد الشعرى العبور ، فسمى المشركون النبى صلى الله عليه وسلم ابن أبى كبشة لخلافه إياهم إلى عبادة الله تعالى ، تشبيهاً له بأبى كبشة الذى خالفهم إلى عبادة الشعرى (٣) بنو الأصفر : لقب ملوك الروم

٧٣- إسلامُ أبِي ذَرّ *

قال أبو ذر(١) : كنت رجلاً من غِفَار ، فبلغنا أن رجلاً قد خرج بمكة يزعمُ أنه نبيّ ، فقلتُ لأخي : انطلِقْ إلى هـذا الرجل وكلّمه ، وائتني بخبره ؛ فانطلقَ فلقيَه ، ثم رجع ،فقلت : ماعندك ؟ فقال : والله لقد رأيتُ رجلاً يأمر بالخير ،وينهى عن الشرِّ ؛ فقلت له : لَمْ تشْفِني من الخبر !

فأخذتُ جِراباً وعَصا ، ثم أقبلتُ إلى مكة ؛ فجعلت لا أعرِفهُ ، وأكرهُ أن أسأل عنه ، وأشربُ من ماء زمزم ، وأكون فى المسجد ؛ فمرّ بى عليٌّ ، فقال : كأنَّ الرجلَ غريب ؟ قلت : نعم ! فانطلقَ إلى المنزل وانطلقتُ معه لا يسألنى عن شيء ولا أخبرهُ .

فلما أصبحتُ غدوتُ إلى المسجد لأسألَ عنه ،وليس أحدٌ يخبرنى عنه بشيء ؛ فمرَّ بى عليٌّ ، فقال : أما آنَ للرجل أن يعرفَ منزله بعد ؟ قلت : لا ، قال : انطلق معى ، ثم قال : ماأمْرُكَ ؟ وما أقدَمك هذه البلدة ؟ فقلت : إن كتمتَ علىَّ أخبرتُكَ ! قال : فإنى أفعل . قلت له : بلغَنا أنه خرج هاهنا رجلٌ يزعمُ أنه نبيّ ، فأرسلتُ أخى ليكلّمهُ ، فرجع ولم يشفنى من الخبر ، فأردتُ أن ألقاه . فقال : أما إنك قد رُشِدت ، هذا وجْهى إليه فاتبِعْنى ، ادْخُلْ ؛ حيث أدْخل ؛

---

* الزبيدى : ٢ ــ ٥٤ .

(١) هو من غفار ، وهى قبيلة من كنانة ، وأسلم أبو ذر بمكة ولم يشهد بدراً ولا أحداً ولا الخندق ، لأنه حين أسلم رجع إلى بلاد قومه ، حتى مضت هذه المشاهد ثم قدم المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومات بالربذة سنة ٣٢ هـ .

فإنى إنْ رأيتُ أحـداً أخافُه عليك قمتُ إلى الحـائط كأنى أُصلح نَعْلِى ، وامضِ أنت .

فمضى ومضيتُ معه حتى دخل ، ودخلت معه على النبى صلى الله عليه وسلم ، فقلت له : اعْرِض علىَّ الإسلام ، فعرضَه ، فأسلمتُ مكانى ، فقال لى : ياأبا ذرّ ، اكتُمْ هذا الأمر ، وارجعْ إلى بلدك ، فإذا بلغك ظُهُورُنا فأقْبل . فقلت : والذى بعثك بالحق لأصْرُخَنَّ به بين أظهرهم .

فجاء إلى المسجد ، وقريشٌ فيه ، فقال : يامعشرَ قريش؛ إنى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبدهُ ورسوله . فقالوا : قوموا إلى هذا الصابئ(١) ، فقاموا فضُرِبْتُ لأموت ، فأدركنى العباس ، فأكبَّ علىّ ، ثم أقبلَ عليهم ، فقال : ويلكم ! تقتلون رجلاً من غِفَار ومَتْجرُكم وممرُّكم على غِفار ! فأقلعوا عنى .

فلمّا أن أصبحتُ فى الغد رجعتُ فقلت مثلَ ماقلتُ بالأمس . فقالوا : قوموا إلى هـذا الصابئ ، فَصُنِع بى مثلُ ماصُنِع بالأمس ! وأدركنى العباس فأكبَّ علىّ ، وقال مِثْلَ مَقَالَتِه بالأمس !

---

(١) صبأ : خرج من دين إلى دين .

٧٤- جود عثمان بن عفّان *

أصاب الناسَ قحطٌ في خلافة أبي بكر ، فلما اشتدَّ بهم الأمرُ جاءوا إلى أبي بكر وقالوا ياخليفةَ رسول الله ، إن السماء لم تمطر ، والأرضَ لم تنبت ، وقد توقَّع الناسُ الهلاكَ ؛ فما نَصْنَع ؟ فقال لهم : انصرفوا واصْبِروا ، فإني أرجو الله ألا تُمْسُوا حتى يُفرِّج الله عنكم .

فلمّا كان في آخر النهار وردَ الخبرُ بأن عيراً لعثمان بن عفان جاءت من الشام . فلما جاءت خرج الناس يتلقَّوْنها ، فإذا هي ألفُ بعير مُوسَقة بُرّا وزَيْتاً وزبيبا ، فأناخت بباب عثمان(١) ، فلما جعلها في داره جاء التجّار ، فقال لهم : ماتريدون ؟ قالوا : إنك لتعلم مانريدُ ! بِعْنا من هذا الذي وصَلَ إليك ، فإنك تعلمُ ضرورةَ الناس إليه ! قال : حُبّا وكرامة . كم تُرْبحونني(٢) على شرائي ؟ قالوا : الدرهم درهمين . قال أُعْطيتُ زيادةً على هذا . قالوا : أربعة . قال : أعطيت زيادةً على هذا . قالوا : خمسة . قال : أعطيت أكثرَ من هذا . قالوا : ياأبا عمرو ، مابقي في المدينة تجارٌ غيرنا وما سبقنا إليك أحدٌ ، فمن ذا الذي أعطاك ؟ قال : إن اللهَ أعطاني بكل درهم عشرة . أعندكم زيادة ؟ قالوا : لا . قال : فإني أُشهدُ الله أني جعلتُ ماحملتْ هذه العيرُ صدقةً لله على المساكين وفقراء المسلمين .

---

* غرر الخصائص : ١٥٣ .

(١) عثمان بن عفان : ثالث خلفاء المسلمين ، وكان غنياً لم يبخل بماله في سبيل الإسلام والمسلمين . وانتهت خلافته بقتله سنة ٣٥ هـ (٢) أربحه على سلعته : أعطاه ربحاً .

٧٥ - لَبيد وَالوَليد بن عُقْبَة*

كان لَبيدُ[١] بنُ ربيعة جواداً شريفاً فى الجاهلية والإسلام ، وكان قد آلى فى الجاهلية أن يُطعم ماهبتِ الصَّبَا . ثم أدام ذلك فى إسلامه ، وكانت له جَفْنَتَان يغدُو بهما ويرُوح فى كل يوم على مسجد قومه فيطعمهم ، ونزل لَبيدٌ الكوفَةَ ، وأميرُها الوليدُ بن عُقْبة ، فبينا هو يخطبُ الناسَ إذ هبت الصَّبا ، فقال الوليد فى خطبته على المنبر : قد علمتُم حالَ أخيكم أبى عَقِيل ، وما جعل على نفسه : أن يُطعم ماهبَّت الصَّبَا ، وهذا يومٌ من أيامه . وقد هَبَّت ريحها ، فأعينوه ، وأنا أول من فَعَل .

ثم انصرف الوليد ، فبعث إليه بمائةٍ من الجزُر ، وبهذه الأبيات :

أرى الجزّارَ يَشْحَذ شَفرَتيْه إذا هبّت رياحُ أبى عَقيل
أشمُّ الأنفِ أَصْيَدُ[٢] عامرىٌّ طويلُ الباعِ كالسيفِ الصقيل
وَفَى ابنُ الجعْفَرى بمـا نوَاه على العلاّتِ[٣] والمالِ القليلِ
بنَحْرِ الكُوم[٤] إذسحَبَتْ إليه ذيول صَبًا تَجَاذَبُ بالأصيل

فلما وصلت الهديةُ إلى لَبيد شكره ، وقال : إنى تركتُ الشعر منذ قرأت القران ؛ ثم قال لابنته : أجيبيه ، فلعمرى لقد عشتُ دهراً وما أعيـا بجواب شاعر ، فقالت :

إذا هبّتْ رياح أبى عَقِيلٍ دعَوْنَا عند هبَّتِهـا الوليدَا

---

* الجمهرة : ٣٩ ، المستطرف : ٢ ـ ٥٠ ، الأغانى ١٤ ـ ٩٣ ، بلوغ الأرب : ٣ ـ ٩٢ .

(١) لبيد بن ربيعة العامرى : أحد أشراف الشعراء المجيدين والقواد الفرسان المعمرين وهو من أصحاب المعلقات لما ظهر الإسلام أسلم وحسن إسلامه ، ومات سنة ٤١ هـ (٢) الأصيد : رافع رأسه كبراً (٣) على العلات : على كل حال (٤) الكوم : القطعة من الإبل .

أشمَّ الأنف أصيدَ عَبْشَمِيّاً[1] أعان على مُرُوءَتِهِ لَبِيدا
بأمثال الهضاب[2] كأنَّ رَكْباً عليها من بنى حامٍ قُعوداً
أبا وَهْبٍ جزاكَ الله خيراً نحرْناها وأطعمْنا الوُفُودا
فَعُدْ ، إن الكريمَ له مَعادٌ وظنّى بابنِ أرْوَى أنْ يعودا

فقال لبيد : أَجَبْتِ وأحسنتِ ، لولا أنكِ سألتِ فى شعرك . قالت : إنه أميرٌ وليس بسُوقَةٍ ، ولا بأسَ بسؤاله ، ولو كان غيره ماسألناه ! قال : أَجَل ، إنه على ماذكرت ، وأنتِ يابنَيّةُ فى هذا أشعر !

(١) نسبة إلى عبد شمس (٢) الهضاب : جمع هضبة ، وهى ما ارتفع من الأرض ، والمعنى : أعان بجمال ضخام أمثال الهضام لضخامتها ، وقد شبهت أسنمتها بقوم سود قاعدين عليها ، وهم بنو حام أى السودان .

٧٦ - الحَطيئة والزِّبرقان بن بَدر*

قدِم الزِّبْرِقانُ على عمرَ في سنةٍ مُجْدِبة ، ليؤدىَ صدقاتِ قومه ، فلقيَه الحُطيئة بقَرْقَرَى(١) ، ومعه ابناه أَوْسٌ وسَوَدَةُ وبناته وامرأتهُ ، فقال له الزِّبرقان — وقد عرفه ولم يعرفه الحطيئة — أين تُريد ؟ قال : العِراقَ ، فقد حَطَمَتْنا هـذه السَّنةُ ، قال: وتصنعُ ماذا ؟ قال : ودِدْتُ أن أصادفَ بها رجلاً يكفيني مئونةَ عيالي ، وأُصْفِيه مَدْحِي أبداً .

فقال له الزِّبرقان : قد أصبته ، فهل لك فيه يُوسِعُك لبناً وتمراً ، ويجاورُك أحسنَ جوار وأكرمه ؟ فقال له الحطيئة : هذا وأبيكَ العيشُ ، وما كنتُ أرجو هذا كلَّه . قال : فقد أصبتَه . قال : عند مَنْ ؟ قال : عندي . قال : ومن أنتَ ؟ قال : الزِّبرقانُ بن بدر(٢) . قال : وأين محلُّك ؟ قال : اركبْ هذه الإبل ، واستقبلْ مَطْلَعَ الشمس ، وسلْ عن القمر حتى تأتيَ منزلي .

ثم كتب إلى أمّه — وكان اسمها أم شَذْرَة : أن أحسني إليه ، وأكثري له من التَّمر واللبن . وكان الحطيئةُ دميماً ، لا تأخذُه العينُ ، ومعه عيالٌ كذلك ؛ فلما رأتْ أم شذرة حالَه هان عليها وقصَّرَتْ به(٣) .

---

* الأغاني : ٢ — ١٨٠ ، نهاية الأرب : ٣ — ٢٩٧ ، ذيل زهر الآداب : ٢٢٧ ، ابن أبي الحديد : ٣ — ١٠٣ ، الكامل : ١ — ٣٤٨ ، ٣٥٤

(١) قرقرى : أرض باليمامة فيها قرى وزروع كثيرة ونخيل (٢) الزبرقان : البدر ، وسمي به الحصين بن بدر لحسنه ، وكان رسول الله قد استعمل الزبرقان على صدقات قومه وأقره أبو بكر وتوفي أيام معاوية سنة ٤٥ هـ (٣) قصرت به : لم تكرمه ولم تبلغ ما يرضيه .

ونظر بَغِيض[١] وبنو أنْفِ الناقة إلى ما تصنعُ به أمُّ شَذْرة ، فأرسلوا إليه : أنِ ائتنا ؛ فأبى عليهم وقال : إن من شأنِ النساء التقصيرَ والغفْلة ، ولستُ بالذى أحملُ على صاحبها ذَنْباً ؛ فلما ألحّ عليه بنو أنف الناقة قال لهم : لستُ بحاملٍ على الرجل ذنبَ غيره ، فإن تُرِكْتُ وجُفِيتُ تحولتُ إليكم ، فأطمعوه ووعدوه وعداً عظيما .

فلما لم يجبهم دَسُّوا إلى هُنَيدة زوجة الزبرقان : أن الزِّبرقان إنما يُريد أن يتزوج ابنته مُليكه — وكانت جميلةً كاملة — فظهرت من المرأة للحطيئة جَفْوَةٌ ، وهى فى ذلك تُدَارِيه . ثم أرادوا النُّجْعَة[٢] ، فقالت له أم شذرة : قد حضرت النجعة ، فاركب أنت وأهلك هـذا الظهر إلى مكان كذا وكذا ، ثم ارْدُدْه إلينا حتى نلحَقَك ، فإنه لا يَسَعُنَا جميعاً . فأرسل إليها : بل تقدّمى أنت فأنتِ أحقُّ بذلك ، ففعلتْ .

وتثاقلت عن ردّهِ إليه ، وتركته يومين أو ثلاثة ، وألحّ بنو أنف الناقةِ عليه ، وقالوا له : قد تُرِكتَ بمضيعة ، فلما ألحّوا عليه أجابهم ، فقال : أما الآنَ فنعم ! أنا صائر معكم ؛ وتحمـل معهم . فضربوا له قُبَّة ، وربطوا بكل طُنُب من أطنابها جُلَّةً[٣] هَجَرِية ، وأراحوا[٤] عليه إبلهم ، وأكثروا له من التمر واللبن ، وأعطَوْه لقاحاً[٥] وكُسوة .

فلما قدِم الزبرقان سألَ عنه ، فأُخبر بقصته ، فركب فرسه ، وأخذ رُمْحَه ،

---

(١) كان بغيض وبنو أنف الناقة ينازعون الزبرقان الشرف ، وكانوا أشرف من الزبرقان ؛ إلا أنه قد كان استعلاهم بنفسه (٢) النجعة : طلب الكلأ فى موضعه (٣) الجلة : وعاء يتخذ من الخوص يوضع فيه التمر يكنز فيه (٤) إراحة الإبل : ردها فى العشى (٥) اللقاح : جمع لقوح وهى الناقة الحلوب .

وسار حتى وقف على نادى القُرَيْعيِّين ، فقال : رُدُّوا علىّ جارى ! فقالوا : ما هو لك بجارٍ ، وقد اطَّرحتَه وضيَّعته ، فألَمّ (١) أن يكونَ بين الحيَّيْن حربٌ ؛ فحضرهُم أهلُ الحِجا من قومهم ، ولامُوا بَغيضاً وقالوا : ارْدُدْ على الرجل جارَه ، فقال : لستُ مُخْرِجَه وقد أويتُه ، وهو رجلٌ حرٌّ مالكٌ لأمْرِه ، فخيِّروه ، فإن اختارنى لم أُخْرِجه ، وإن اختاره لم أُكْرِهْهُ .

فخيّروا الحطيئةَ ، فاختارَ بَغيضاً ورهطَه ، فجاء الزِّبرقان ووقفَ عليه ، وقال له : يا أبا مُلَيكةَ ؛ أفارقتَ جوَارى عن سُخْطٍ وذم ؟ قال : لا ؛ فانصرفَ وتركه .

وجعل الحطيئة يمدح القُرَيْعيِّين من غير أن يَهْجُو الزِّبْرِقان ، وهم يحضُّونه على ذلك ويُحرِّضونه فيأبى ويقول : لاذنبَ للرجل عندى ، حتى أرسلَ الزبرقانُ إلى رجلٍ من النَّمِر بن قاسط فهجا بَغيضاً ؛ فقال :

أرى إبلى بجوْفِ الماء حلَّت ... وأعْوزَها به الماءُ الرَّوَاء (٢)

وقد وَرَدَتْ مياهَ بنى قُرَيْعٍ ... فما وصلوا القَرَابةَ مُذْ أساءوا

تُحَلَّأُ (٣) يومَ وِرْدِ الناسِ إبْلِى ... وتَصْدُرُ وهى مُحْنِقَةٌ (٤) ظِماء

ألَمْ أكُ جارَ شمَّاسِ بن لأْيٍ ... فأسْلَمَنِى وقد نزلَ البلاء

فقلت : تحوَّلِى يا أمَّ بكرٍ ... إلى حيثُ المكارمُ والعَلاء

وجدنا بيت بَهْدَلَةَ بنِ عَوْفٍ ... تعالى سَمْكُهُ وَدَحا الفِناء (٥)

وما أضْحَى لِشَمَّاسِ بن لأْيٍ ... قديمٌ فى الفَعَالِ (٦) ولا رَبَاء (٧)

سِوَى أنَّ الحطيئة قال قولا ... فهذا من مقالتِه جزاء

---

(١) ألم : قرب (٢) الرواء : الكثير المروى (٣) تحلأ : تمنع (٤) محنقة : ضامرة
(٥) دحا الفناء : عظم واتسع (٦) الفعال : اسم للفعل الحسن من الجود والكرم ونحوه.
(٧) الرباء : الطول والمنة والفضل .

فحينئذ قال الحطيئةُ يهجو الزِّبْرِقَان ، ويناضِلُ عن بَغِيض ـ قصيدتَهُ التى يقولُ فيها :

والله ما معشرٌ لامُوا امرأً جُنُباً (١) ... فى آل لَأْيِ بن شَمَّاسٍ بأَكْيَاسِ (٢)
ما كان ذنبُ بَغيضٍ ، لا أبا لكمُ ، ... فى بائسٍ جاء يَحْدُو آخرَ النَّاسِ
لقد مَرَيْتُكُمُ (٣) لو أنَّ دِرَّتَكُم (٤) ... يوماً يجىء بها مَسْحِى وإبْسَاسى (٥)
وقد مدحتكُم عمداً لِأُرْشِدَكُم ... كيما يكون لكم مَتْحِى (٦) وإمْراسى (٧)
لما بدا لِىَ منكم عَيْبُ أنفسِكم ... ولم يكن لجِرَاحى فيكمُ آسِى
أزْمَعْتُ يأساً مُبيناً من نَوَالِكُمُ ... ولن ترى طَارِداً للحُرِّ كاليأسِ
ما كان ذنبُ بغيضٍ أنْ رَأَى رجلاً ... ذا فاقةٍ حلَّ فى مُسْتَوْعِرٍ شَاسِى (٨)
جاراً لقومٍ أطالُوا هُونَ منزلِهِ ... وغادَرُوه مقيماً بين أَرْمَاسِ (٩)
مَلُّوا قِرَاه وهَرَّتْهُ (١٠) كلابُهُمُ ... وجرَّحُوه بأنيابٍ وأضراسِ
دعِ المكارمَ لا تَرْحَلْ لبُغْيَتِهَا ... واقعُدْ فإنَّكَ أنتَ الطَّاعِمُ (١١) الكاسِى
مَنْ يَفْعَل الخيرَ لا يَعْدَمْ جَوَازِيَهُ ... لا يذهبُ العرفُ بين الله والناسِ
ما كان ذنبِىَ أن فَلَّتْ معاوِلَكُم ... من آل لَأْيٍ صَفَاةٌ (١٢) أصلُها راسى

(١) الجنب : القريب (٢) جمع كيس : اللبيب الفطن ، والمراد بالمعشر الزبرقان ورهطه (٣) مرى الناقة يمريها : مسح ضرعها ، المراد مداراتهم ومدحهم ليدروا عليه بالعطاء (٤) الدرة : اللبن (٥) الإبساس : أن تدعو الناقة باسمها وتلاطفها لتدر (٦) المتح : أن يقف الرجل فوق البئر ليجذب الدلو (٧) الإمراس : وضع حبل البئر فى البكرة بعد أن انزلق منها (٨) المستوعر : المكان الوعر ، والشاسى : المكان الغليظ المرتفع (٩) الرمس : القبر ، وجمعه أرماس . والهون : الذلة : أى تركوه كالميت (١٠) هرته الكلاب نبحته . وهو كناية عن أنه كان غريباً بينهم

(١١) الطاعم : المطعوم . والكاسى : المكسو .

(١٢) الصفاة : الحجر الصلد الضخم .

قــد نَاضَلُوكَ فسلُّوا من كِنَائِنِهِمْ ... مجداً تليداً ونَبْلاً غير أنْكَاسِ (١)

فاستَعْدَى عليه الزِبرقانُ عمرَ بن الخطاب ، فرفَعه عمرُ إليه واستنشده فأنشده ، فقال عمر : ما أسمعُ هجاء ولكنها معاتبة . فقال الزبرقان : أو تبلغُ مروءتى إلّا أن آكل وألبَس ! فقال عمر : علىّ بحسّان ، فجئ به ، فسأله ، فقال : أتراه هجاه؟ قال : نعم وسلَحَ عليه ! فحبسه عمر ، فقال فى الحبس :

أَعُوذُ بجــــدّكَ إِنى امرؤٌ ... سَقَتْنى الأعادى إليك السِّجَالَا (٢)

فإنك خــيرٌ من الزِّبرِقان ... أشــدُّ نَكَالاً وَأَرْجَى نَوَالَا

تَحَنَّنْ علىَّ هــداكَ المليكُ ... فإن لكلٍّ مقــامٍ مَقَالَا

وَلَا تَأْخُــذَنِّى بقولِ الوُشَاةِ ... فإن لكلِّ زمانٍ رِجَالَا

فإنْ كان ما زَعَمُوا صادقاً ... فَسِيقتْ إليك نسائى رجالَا (٣)

حواسرَ لا يَشْتَكِين الوَجَا (٤) ... يُخَفِّضْنَ آلًا (٥) ويرفعن آلَا

فلم يلتفت عُمَرُ إليه ، حتى قال :

ماذا تقولُ لأفراخٍ بِذِى مَرَخٍ (٦) ... زُغْبِ الحواصِلِ لا ماء ولا شَجَرُ

ألقيتَ كاسِبَهُمْ فى قَعْرِ مُظْلِمَةٍ ... فاغفِر عليكَ سلامُ الله ياعمرُ

أنتَ الإمامُ الذى من بَعدِ صاحبِه ... ألقتْ إليك مقاليدَ النُّهَى البشرُ

لم يؤثِروكَ بها إذ قَدَّمُوكَ لهــا ... لكِنْ لأنفسهم كانتْ بك الأثر (٧)

---

(١) أنكاس : جمع نكس ، وهو أضعف السهام . ومعنى البيت : إن العرب كانوا إذا أسروا أسيراً خيروه بين التخلية ، وجز الناصية ، والأسر ، فإن اختار جز الناصية جزوها له ، وخلوا سبيله ، ثم جعلوا ذلك الشعر فى كنائنهم ، فإذا افتخروا أخرجوه وأروهم مفاخرهم .

(٢) السجال : جمع سجل ، وهو الدلو العظيمة مملوءة (٣) جمع رجلة ، أى راجلة .

(٤) الوجا : الحفا ، وقيل شدته (٥) الآل : عمد الخيمة (٦) ذو مرخ : واد بالحجاز .

(٧) الأثر : واحدها أثر ، ومعناها الاستئثار والمكرمة .

فامْنُنْ على صِبيةٍ بالرمل مسكَنُهم بين الأباطح تَغْشاهم بها القِرَرُ [١]
أهــــلى فِدَاؤكَ كم بيني و بينهمُ من عَرْض دَاوِيةٍ [٢] تَعْمَى بها الخُبَرُ

فبكى عُمر حين قال : « ماذا تقول لأفراخ بذى مَرَخٍ » . فقال عمرو بن العاص : ما أظلّت الخضراء ؛ ولا أقلت الغَبراء أعدلَ من رجلٍ يبكى على ترْكه الحطيئة ! فقال عمر : علىّ بالكرسى ، فأُتى به ؛ فجلس عليه ، ثم قال : أشيروا علىّ فى الشاعر فإنه يقول الهُجْرَ ؛ ويَنْسِبُ بالحرَم ، و يمدح الناس و يذمهم بغير مافيهم. مأأرانى إلا قاطعاً لسانه ؛ ثم قال : علىّ بالطَّسْت ، فأُتى بها [٣] . ثم قال : علىّ بالمِخْصَف [٤] ، علىّ بالسكين ، لا ؛ بل علىّ بالموسى فهو أَوْحى [٥] ! فضَجَّ الحطيئة وقال : إنى والله ياأميرَ المؤمنين قد هجوتُ أبى وأمى وامرأتى ونفسى ، فتبسم عمر ، ثم قال : ما الذى قلتَ ؟ قال : قلت لأبى وأمى :

ولقــــد رأيتُكِ فى النساء فسُؤتنى وأبَا بَنِيكِ فساءنى فى المجلس

وقلت لأبى خاصة :

فبئس الشيخُ أنتَ لَدَى تميم و بئسَ الشيخُ أنت لَدَى المعالى

وقلتُ لأمى خاصة :

تنحَّى واجلسى منى بعيـــــداً أراحَ اللهُ منكِ العالمينا !
أغِرْبالاً [٦] إذا استُودِعْت سراً وكانُوناً [٧] على المتحـــــدثينا ؟
حياتُكِ ماعلمتُ حيــــاةُ سوء ومَوْتُكِ قد يَسُرُّ الصالحينـــــا

---

(١) القرر : جمع قرة ، وهى البرد (٢) الداوية : الفلاة الواسعة (٣) الطست مؤنث ، وقد تذكر (٤) المخصف : مخرز الإسكاف (٥) أوحى : أسرع .
(٦) أصل الغربال : ما غربل به ، وهو يريد أنها لا تحفظ سراً (٧) الكانون : الثقيل الوخم من الناس ، وقيل : الكانون الذى يجلس حتى يتحصى الأخبار والأحاديث .

وقلت لامرأتي :

أطوّف ما أطوّفُ ثم آوِي　　إلى بيتٍ قَعيدَتُه لَكاع[1]

وقلت لنفسي :

أبَتْ شفتايَ اليومَ إلا تكلما　　بسوء ! فما أدري لمن أنا قائلُهْ

أرَى لِيَ وجهاً شوَّه اللهُ خَلْقَه　　فقُبِّحَ من وجهٍ وقُبِّحَ حامِلُهْ

فقالوا : لا يعودُ ياأمير المؤمنين ، وأشاروا إليه أن قلْ لا أعود ، فقال : لا أعود ياأميرَ المؤمنين . فقال له : النَّجَاء ! ثم قال له عمر : ياحُطيئة ، كأني بك عند فتى من قريش ، قد بسط لك نُمْرُقَةً[2] ، وكسَر لك أخرى وقال : غَنِّنا ياحطيئة ، فَطفِقْتَ تغنّيه بأعراض الناس[3] !

قال ابنُ أسْلم : فما انقضتِ الدنيا حتى رأيتُ الحطيئة عند عبيد الله بن عمر قد بسط له نُمْرقةً ، وكسر له أخرى وقال : غنِّنا ياحطيئة ، فجعل يغنيه ، فقلت له : ياحطيئةُ ، أتذكرُ قول عمر ؟ ففزع وقال : يرحمُ الله ذلك المرء ، أما إنه لو كان حياً ما فعلتُ !

---

(١) اللكاع : الأمة اللئيمة (٢) النمرقة : الوسادة (٣) يروى أن عمر رضي الله عنه لما أطلق الحطيئة أراد أن يؤكد عليه الحجة فاشترى منه أعراض المسلمين جميعاً بثلاثة آلاف درهم ، فقال الحطيئة في ذلك

وأخذت أطراف الكلام فلم تدع　　شتما يضر ولا مديحاً ينفع

ومنعتني عرض اللئيم فلم يخف　　ذمي وأصبح آمناً لا يفزع

٧٧ - قدوم الحطيئة على عتيبة بن النهاس*

بينا سعيد بن العاص يُعَشِّى الناس بالمدينة ، والناسُ يخرجون أولا أولا ؛ إذ نُظِرَ على بساطه إلى رجل قبيحِ المنظَر ، رثّ الهيئة ، جالسٍ مع أصحاب سمَرِه ؛ فذهب الشُّرَطُ يقيمونه ؛ فأبى أنْ يقومَ ، وحانَتْ من سعيد الْتِفَاتَةٌ ؛ فقال : دَعُوا الرجل ، فتركوه ، وخاضوا فى أحاديث العرب وأشعارها مليًّا ، فقال لهم الحطيئة[1] : والله ماأصبتم جيدَ الشعر ، ولا شاعر العرب ، فقال له سعيد : أتعرفُ من ذلك شيئاً ؟ قال ، نعم ، قال : فمن أشعرُ العرب ؟ قال الذى يقول :

لَا أَعُدُّ الْإِقْتَارَ عُــدْماً ولَكِنْ ... فَقْدُ مَن رزِئْتُه الإعدَامُ

وأنشدَ القصيدة حتى أتى عليها .

فقال له : مَنْ يقولها ؟ قال : أبو دُواد الإيادى ، قال : ثم مَنْ ؟

قال : الذى يقول :

أَفْلِحْ[2] بما شئتَ فقد يُدرَكُ بالـــجَهْلِ وقد يُخْـــدَّعُ[3] الأريبُ

ثم أنشدها حتى فرغ منها ؛ قال : ومَنْ يقولها ؟ قال : عَبيد بن الأبرص ، قال : ثم مَنْ ؟ قال : لحسْبُك بى عنــد رَغْبَةٍ أو رهبة إذا رفعتُ إحــدى رجلىّ على الأخرى ، ثم عوَيْتُ فى إثْر القوافى عُواء الفَصِيل الصَّادى ؛ قال : ومن أنتَ ؟

---

* الأغانى : ٢ ـ ١٦٨

(١) الحطيئة : هو أبو مليكة جرول بن أوس بن مالك العبسى ، أحد الهجائين والمداحين المجيدين ، عاش مدة فى الجاهلية وجاء الإسلام فأسلم ، ومات سنة ٥٩ هـ (٢) أفلح : من الفلاح وهو البقاء ، أى عش بما شئت من عقل وحمق ، فقد يرزق الأحمق ، ويحرم العاقل (٣) رجل مخدع : خدع مراراً .

قال : الحطيئة ، فرحّبَ به سَعيد ، ثم قال : أسأْتَ بِكتْمانِنا نفسَك منذ الليلة، ووصلَه وكساه .

ومضى لوجهه إلى عُتَيْبَةَ بن النّهاس العِجْلى فسأله ، فقال له : ما أنا على عمل فأعطيك منه ، ولا فى مالى فضلٌ عن قومى ، قال له : فلا عليك ! وانصرف .

فقال له بعضُ قومه : لقد عرّضْتَنا ونفسَك للشر ! قال : وكيف ؟ قالوا : هذا الحطيئه ، وهو هاجينا أخبثَ هجاء ، فقال : ردّوه ، فردوه إليه ، فقال له : لِمَ كَتَمْتَنَا نفسك ؟ كأنك تطالبُ العِلَلَ علينا ؟ اجلس فلك عندنا ما يسرُّك ، فجلس ، فقال له مَنْ أشعر الناس ؟ قال الذى يقول :

وَمَنْ يَجْعَلِ المعروف من دون عِرْضِهِ ... يَفِرْهُ[1] وَمَنْ لا يَتَّقِ الشتْمَ يُشْتَمِ

فقال عُتيبة : إن هذا من مقدّمات أفاعِيك ، ثم قال لوكيله : اذهب معه إلى السوق فلا يطلبُ شيئاً إلا اشتريتَه له . فجعل يعرض عليه الخزَّ ورقيق الثياب فلا يريدها ، ويُومِى إلى الكرابيس[2] والأكْسِيَة الغلاظ ، فيشتريها له ، حتى قضى أَرَبه[3] ، ثم مضى .

فلما جلس عُتيبة فى نادى قومه أقبلَ الحطيئة ، فلما رآهُ عُتيبة قال : هذا مقامُ العائذِ بك يا أبا مُليكة من خيرك وشرك ، قال : قد كنتُ قلتُ بيتين ، فاسْمَعْهُما؛ ثم أنشأ يقول :

سُئلتَ فلم تبخل ولم تُعْطِ طائلاً ... فسيّانِ لا ذمٌّ عليكَ ولا حمدُ

وأنت امرؤٌ لا الجودُ منك سجيةٌ ... فتعطى، وقد يُعْدِى على النائلِ الوُجْدُ[4]

ثم ركَضَ فرسه ، فذهب !

---

(١) يفره : يتمه ولا ينقصه ، والبيت لزهير بن أبى سلمى (٢) الكرابيس : ثياب القطن
(٣) الأرب : الحاجة .
(٣) يعدى : يعين ، والنائل : ما نلته من معروف إنسان . والوجد : اليسار والسعة .

٧٨ - فقير عند سعيد بن العاص*

قدِم سعيدُ[١] بن العاص الكوفةَ عاملاً عليها ؛ فكانت له موائدُ يغشاها الأشرافُ والقُرَّاء ؛ فكان فيمن يَغْشَى موائدَه رجلٌ من القُرَّاء فقير ؛ فقالت له امرأتهُ يوماً : وَيْحَك ! إنه يبلغُنا عن أميرنا هذا كرمٌ وجود ؛ فاذكُرْ له بعضَ مانحنُ فيه !

فتعشَّى عنده ذاتَ ليلة ، فلما انصرف الناسُ ثبت الرجل ، فقال له سعيد : إنى قد أرى جلوسَك ، وما جلستَ إلّا ولك حاجة ، فاذكرها ـ رحمك الله ! فتعقد الرجل وتلعثم . فقال سعيد لغلمانه : تنحَّوا ، ثم قال له ـ رحمك الله ـ لم يَبْقَ إلا أنا وأنت ، فاذكُرْ حاجتَك ، فتعقّد أيضاً وتعصّى ، فنفخ سعيدٌ المصباح فأطْفَأَهُ ، ثم قال له : رحمك الله ـ إنك لستَ ترى وَجْهِى ، فاذكرْ حاجتَك ! قال: أصلح الله الأمير ، أصابتْنا حاجة فأحببتُ ذِكْرَها لك . قال له : إذا أصبحتَ فالْقَ فلاناً وَكِيلِى !

فلما أصبح لَقِى الوكيلَ ، فقال له : إنّ الأمير قد أمرنى بشىء ؛ فهل جئتَ بمَنْ يحمل ؟ قال : لا والله ماعندى مَنْ يَحْمِل ! ورجع إلى امرأته ، وجعل يَعْذلها ويلومُها . وقال لها : إن وكيلَه قال : جئتَ بمن يَحْمِل ؟ وما هى إلا قَوْصَرَةٌ[٢] من تمر ، أو قفيزٌ من بُر ، ولو كانت دراهمَ أو دنانيرَ أعطانيها بيده ! قالت :

---

* عين الأدب والسياسة : ١٩٠

(١) سعيد بن العاص : أحمد أجواد العرب وكرمائهم ، كان يأتيه الرجل يسأله فلا يكون عنده ، فيقول : ما عندى ولكن اكتب على به ، فيكتب عليه كتاباً ثم يدفع له بعد ذلك ، توفى سنة ٥٩ هـ .

(٢) القوصرة : وعاء يوضع فيه التمر .

وَيحَكَ ! ما كان من شيء فقوتُنا به . فمكثَ أياماً ، ثم لقِيَه الوكيل ، فقال له :
وَيحَكَ ! أين تكون ؟ أخبرتُ الأميرَ أنه ليس عندك مَنْ يحمل؛ فأمرنى أن أوجّه
معك مَنْ يحمل .

فوجّه معه بثلاثة من السودان يحمل كلٌّ واحدٍ بَدْرةً على عاتقه ، حتى
أوْرَدَها منزلَه .

فأطلق وِكاء[1] بَدْرةٍ منها ، ووهب لهم منها دُرَيْهمات ، وقال : انصرفوا !
قالوا : إلى أين ؟ ما حمل له مملوكٌ قطُّ هديةً ؛ فرجع فى ملكه !

(١) الوكاء : الرباط .

٧٩ - قصر سعيد بن العاص *

لما حضرتْ سعيدَ بن العاص الوفاةُ وهو فى قصره قال له ابنهُ عمرو : لو نزلتَ إلى المدينة ! فقال : يابنى ؛ إن قومى لن يَضِنُّوا علىَّ بأن يحملونى على رقابهمْ ساعةً من نهار ! وإذا أنا مِتُّ فآذِنْهم (١) ، فإذا واريتنى فانطلِقْ إلى معاويةَ فانعنى له ، وانظر فى دَيْنى ، واعلم أنه سيعرِض عليك قضاءه فلا تفعل ، واعرض عليه قصرى هذا ؛ فإنى إنما اتخذتُه نزهة وليس بمال .

فلما مات آذَن الناسَ به ؛ فحملُوه من قصره حتى دُفِن بالبقيع (٢) ، ورَوَاحلُ عمرو بن سعيد مُناخةٌ ، فعزَّاه الناسُ على قبره وودّعوه ؛ وكان هو أول من نعَاه إلى معاوية ، فتوجَّع له وترحَّم عليه ؛ ثم قال : هل ترك دَيْناً ؟ قال : نعم ! ثلثمائة ألف ، قال : هى علىَّ ! قال : قد ظنَّ ذلك ، وأمرنى ألا أقبله منك ، وأنْ أعرضَ عليك بعضَ مالِه فتبتاعه ؛ فيكون قضاء دينه منه . قال : فاعرض علىَّ . قال : قصْرَه ، قال : قد أخذتهُ بدينِه . قال : هو لك على أن تَحْمِلَها إلى المدينة وتجعلها بالوافية (٣) قال : نعم ؛ فحملها له إلى المدينة ، وفرَّقها فى غُرَمائه ، وكان أكثرُها عِدَات (٤) .

فأتاه شاب من قريش بصكٍّ فيه عشرون ألف درهم بشهادة سعيد على نفسه ، وشهادة مولى له عليه ؛ فأرسلَ إلى المولى فأقرَأه الصك ؛ فلما قرأه بكى ، وقال :

---

* الأغانى : ١ ــ ٣٢

(١) آذنهم : أعلمهم (٢) البقيع : مقبرة أهل المدينة (٣) الدرهم الوافى : درهم وأربعة دوانق ، والدانق : سدس الدرهم (٤) عدات : عطايا وعدَ بها .

نعم ، هذا خطُّه ! وهذه شهادتى عليه ! فقال له عمرو : من أين يكونُ لهذا الفتى . عليه عشرون ألف درهم ، وإنما هو صُعْلوك من صعاليك قريش ؟ قال : أُخْبِرك عنه : مرَّ سعيد بعد عزْله ، فاعترضَ له هـذا الفتى ، ومشى معه ، حتى صار إلى منزِله ، فوقف له سعيد ، فقال : ألكَ حاجةٌ ؟ قال : لا ، إلا أنى رأيتك تمشى وحدك ؛ فأحببتُ أن أصل جناحَك . فقال لى : ائتنى بصحيفة ما ، فأتيتهُ بهـذه ، فكتب على نفسه هذا الدَّين ، وقال له : إنك لن تصادفَ عندنا شيئاً ؛ فخُذْ هذا فإذا أتانا شىء فأْتِنا !

فقال عمرو : لاجرَم ! والله لا يأخذها إلا بالوافية ، أعطِه إياها ، فدفع إليه عشرين ألف درهم !

٨ ـ مُعَاوِيَة وَسَعيدبن العَاص*

مرض سعيدُ بن العاص وهو بالشام ، فعادَهُ معاوية ، ومعه شُرَحبيل بن السمط ومسلم بن عقبة المرِّى ، ويزيد بن شجرة الزهرى؛ فلما نظر سعيدٌ معاوية وثبَ عن صدرِ مجلسه ، إعظاماً له . فقال له معاوية : أقسمتُ عليك أبا عثمان ألا تتحرَّك فقد ضَعُفْتَ بالعلة ، فسقط ، فتبادر معاوية نحوه حتى حنا عليه ؛ وأخذ بيده ، فأقعده على فراشه ، وقعد معه ، وجعل يسائله عن علَّته ومنامه وغذائه ، ويصفُ له ماينبغى أنْ يتوقاه ، وأطال القعود معه .

فلما خرج التفتَ إلى شُرَحبيل بن السمط ؛ ويزيد بن شجرة ، فقال : هل رأيتما خللا فى مال أبى عثمان ؟ فقالا : ما رأينا شيئا ننكره ؛ فقال لمسلم بن عقبة : ما تقول ؟ قال رأيتُ ! قال : وما ذاك ؟ قال : رأيتُ على حشمه (١) ومواليه ثياباً وَسخة ، ورأيتُ صحن داره غير مكنوس ، ورأيت التجار يخاصمون قهرْمانه (٢) ! قال: صدقتَ ! كلَّ ذلك قدرأيته .

فوجه إليه مع مسلم بثلاثمائة ألف ؛ ، فسبق رسوله يبشره بها ؛ ويخبره بما كان؛ فغضب؛ سعيد ، وقال للرسول : إنَّ صاحبك ظنَّ أنه أحسن فأساء ، وتأوَّل فأخطأ؛ فأما وسخُ ثياب الحشم فمنْ كثرةِ حركتهم اتسختْ ثيابُهم ، وأما كنسُ الدار

* العقد الفريد : ١ ــ ١٥٠

(١) الحشم : خدم الرجل .

(٢) القهْرمان : هو كالخازن والوكيل الحافظ لما تحت يده ، القائم بأمور الرجل .

فلست أخلاقنا أخلاقَ من جعل داره مرآته ، وزينته لبسته [1] ، ومعروفة عطره ، ثم لا يبالى بمن مات هزالاً من ذى لُحْمةٍ [2] أو حُرْمة . وأما منازعة التجار قهرمانى فمن كثرة حوائجه وبيعه وشرائه لم يجد بدا من أن يكون ظالماً أو مظلوماً . وأما المالُ الذى أمر به أمير المؤمنين فقد قبلناه ، وأمرنا لصاحبك منه بمائة ألف ، ولشرْ حبيل بمثلها ، وليزيد بمثلها ! وفى سعة الله وبسطِ يدِ أمير المؤمنين ما عليه مُعَوَّلُنا !

فركب مسلم بن عقبة إلى معاوية فأعلمه بذلك ، فقال : صدق ابن عمى فيما قال ، وأخطأتَ فيما انتهيت إليه ، فاجعل نصيبك من المال لرُوح بن زنباع عقوبةً لك ، فإنه من جنى جنايةً عوقب بمثلها ، كما أنه من فعل خيراً كوفىء عليه !

---

(١) اللبسة : حالة من حالات اللبس . (٢) اللحمة : القرابة .

٨١ - كَرَم مُعَاوِيَة *

قال معاويةُ يوماً لعَقِيل (١) بن أبي طالب : هل من حاجةٍ فأَقْضِيَهَا لك ؟ قال : نعم ، جاريةٌ عُرِضَتْ عليّ وأبَى أصحابُها أن يَبِيعوها إلا بأربعين ألفاً ! فأحبَّ معاويةُ أن يمازِحَه ، فقال : وما تصنعُ بجاريةٍ قيمتهـا أربعون ألفاً ، وأنتَ أعمى تجتزئُ بجارية قيمتُها خمسون درهما ؟

قال : أرجو أن تَلِدَ لى غلاما إذا أغْضَبْتَه يضربُ عنقَك بالسيف ! فضحك معاويةُ ، وقال : مازَحْنَاك يا أبا يزيد ! وأمر فابتِيعَتْ له الجـارية ؟ وولدت له مُسْلماً .

فلما أتت على مسلم ثمانى عشرة سنةٍ ، وقد مات عَقِيل أبوه ، قال لمعاوية : يا أمير المؤمنين ؛ إن لى أرضاً بمكان كذا من المدينة ، وإنى أُعطِيتُ بها مائة ألف ، وقد أَحْبَبْتُ أن أبيعَك إيّاها ؛ فادفع إلىّ ثمنَها ، فأمر معـاويةُ بقَبْضِ الأرضِ ، ودَفْعِ الثمنِ إليه .

فبلغ ذلك الحسينَ بنَ علىّ ؛ فكتب إلى معاوية : أما بعد ! فإنّك غَرَرْتَ غلاماً من بنى هاشم ، فابتَعْتَ منه أرضاً لا يملكها ، فاقبض من الغلام ما دفعتَه ، واردُدْ إلينا أرضنا .

فبعث معاويةُ إلى مسلم ؛ فأخبره بذلك ، وأقرأه كتابَ الحسين ، وقال :

---

* ابن أبى الحديد : ٣ — ٨٢ .

(١) هو أخو على بن أبى طالب ، أسر يوم بدر ، ففداه العباس بأربعة آلاف درهم . وأسلم عقيل ولحق بمعاوية وترك أخاه علياً ، ومات بعد ما عمى سنة ٦٠ .

ارْدُدْ علينا مالَنا ، وخُذْ أرضَك ؛ فإنك بِعْتَ مالا تَملِك ! فقال مسلم : دون ذلك أن أضربَ رأسَك بالسيف ! فاستلقى معاويةُ ضاحكاً يَضْرِب برجلَيه ، ثم قال : يا بُنىّ ؛ هذا والله كلامٌ قاله لى أبوك حين ابتعتُ له أمَّك !

ثم كتب إلى الحسين : إنى قد رددتُ عليكم الأرض ، وسوّغت مسلماً ما أخَذ .

فقال الحسين : أبيتُم يا آلَ أبى سُفْيان إلّا كَرَماً !

٨٢ - معَاوِيَة يَعفُو *

لما استعمل معاويةُ زياداً على العراق كتب إليه : أما بعد فانظر عبدَ الله[١] ابن هاشم بن عُتْبَةَ ، فشُدَّ يدَه إلى عنقه ، ثم ابعثْ به إليّ .

فحمله زيادٌ من البَصرَة مُقَيَّداً مَغْلولًا إلى دِمَشق ، فأُدْخِلَ على معاوية ، وعنده عَمْرو بن العاص ؛ فقال معاوية لعمرو : هل تعرفُ هذا ؟ قال : لا ! قال : هذا الذى يقولُ أبوه[٢] يوم صِفِّين :

إنى شَرَيْتُ[٣] النفس لَمّا اعْتَلّا   وأَكْثَرَ اللَّوْمَ وما أَقَلّا
أَعْوَرُ يَبْغِى أهلَهُ[٤] مَحَلّا   قد عالَجَ الحياةَ حتى مَلّا
لابُدَّ أن يَفُلّ[٥] أو يُفَلّا   يَتُلُّهم بذِى الكُعُوبِ[٦] تَلّا
* لا خيرَ عِنْدِى فى كريمٍ وَلّى *

فقال عمرو متمثلًا :

وقد يَنْبُتُ المَرْعَى على دِمَنِ[٧] الثَّرَى   وتَبْقَى حَزَازاتُ النفوسِ كما هِيَا

دونك ياأمير المؤمنين ! الضبَّ[٨] الضَّبَّ ! فاشْخُبْ أَوْدَاجَه على أَسْبَاجِه[٩] ،

---

* المسعودى : ٢ – ٥٧

(١) كانت فى نفس معاوية من يوم صفين إحن على هاشم بن عتبة وولده عبد الله بن هاشم .

(٢) جاء عمار بن ياسر إلى هاشم بن عتبة – وكان هاشم أعور – فقال : ياهاشم ؛ أعوراً وجبناً؟ اركب ، فركب ومضى معه وهو يرتجز : إنى شريت النفس ....

(٣) شريت النفس : بعتها فى سبيل الله ، لما اعتل : لما رمانى عمار بالجبن .

(٤) يبغى أهله : أى محل أهله ومصيرهم وهم الذين استشهدوا قبله . (٥) يفل : يهزم .

(٦) تله : صرعه . وذو الكعوب : الرمح (٧) الدمن : جمع دمنة وهى ما اسود من آثار الدار

(٨) الضب : يضرب بخداعه المثل ، فيقال : أخدع من ضب (٩) الأوداج : عروق فى العنق ، وشخبت أوداج القتيل دماً : جرى دمها ، والأسباج : جمع سبجة وهى من القميص بنيقته .

فلا تردَّه إلى العراق ؛ فإنه لا يصبر على النِّفاق ، وهم أهل غَدْرٍ وشقاق ، وإن له هوًى سيُودِيه ، ورأياً سيُطْغيه ، وبِطَانة ستُقَوِّيه ؛ وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها !

فقال عبد الله : يا عمرو ؛ إن أُقْتَل فرجلٌ أسْلَمَهُ قومُه وأدركه يومُه ؛ أفَلا كان هذا منك إذ تحيدُ عن القتال ، ونحن ندعوكَ إلى النِّزال ! فقال عمرو : أما والله لقد وقعتَ ، ولا أحسبك مُنْفَلِتاً من مَخَاليبِ أميرِ المؤمنين !

فقال عبدُ الله : أما والله يابنَ العاص ؛ إنك لبَطِرٌ فى الرَّخاء ، جَبَان عند اللِّقاء ، غَشُومٌ إذا وَلِيتَ ، هيّابٌ إذا لَقيتَ ؛ أفلا كان هذا منك إذ غمرتك أقوام لم يُعَنِّفُوا صغاراً ، ولم يُمَزِّقُوا كباراً ، لهم أيدٍ شِدَاد ، وألسنةٌ حِدَاد ...

فقال عمرو : أما والله لقد رأيتُ أباك يومئذ تخفق أحشاؤه ، وتَبُقُّ (١) أمعاؤه ! . . .

فقال عبد الله : يا عمرو ؛ إنا قد بَلَوْنَاك ومقالتك ؛ فوجدنا لسانَك كذُوباً غادراً ، خلوتَ بأقوامٍ لا يعرفونك ، وجُنْدٍ لا يسأمونك ؛ ولو رُمْتَ المنطقَ فى غير أهل الشام لجحَظَ (٢) إليه عقلُك ، ولتلجلجَ لسانُك ، ولاضطَرَبَ فَخِذَاكَ اضطراب القَعُود الذى أثقَلَهُ حِمْلُه !

فقال معاوية : إيهاً عنكما ؛ وأمر بإطلاق عَبْدِ الله ! فقال عمرو لمعاوية :

أمَرْتُكَ أمراً حازماً فعَصَيْتَنى ... وكان من التوفيق قتلُ ابنِ هاشمِ
أليسَ أبوه ، يا معاويةُ ، الذى ... أعانَ عليًّا يومَ حَزِّ الغَلَاصِمِ (٣)
فلم يَنْثَنِي حتى جَرَتْ من دمائنا ... بصِفِّينَ أمثالُ البحورِ الخضارِمِ (٤)

---

(١) تبق : تخرج ، بق النبت بقوقاً : طلع .

(٢) جحظت العين : إذا برزت مقلتها ، والمراد اضطراب عقلك وشرود ، ولم يسلس لك قياد التفكير (٣) الغلصمة : رأس الحلقوم ، والجمع غلاصم . (٤) الخضرم : البحر العظيم ، وبقيت الياء فى « ينثنى » للضرورة

وهذا ابنهُ ، والمرء يُشْبِهُ سِنْخَــه ... ويُوشِكُ أن يَقْرَعْ[1] به سِنَّ نَادِمِ

فقال عبدُ الله يجيبه :

مُعَاوِىَ إن المــــرء عَمْراً أبَتْ له ... ضغينةُ صَدْرٍ غِشُّها غَـــيرُ نَائِمِ
يرى لك قَتْلِى يا بنَ هندٍ ، وإنمــا ... يَرَى ما يرى عَمْرٌو ملوكُ الأعاجمِ
على أنهم لا يَقْتُـــلُونَ أسيرَهم ... إذا مَنَعَتْ منــــه عهودُ المُسَالِمِ
وقد كان مِنَّا يومَ صِفِّينَ نَعْرَةٌ[2] ... عليك جَنَاها هاشمٌ وابنُ هاشمِ
قضى ما انقضى منها وليس الذى مضى ... ولا ما جَرَى إلا كأضْغَاثِ حالمِ
فإنْ تَعْفُ عنى تَعْفُ عن ذى قرابةٍ ... وإنْ تَرَ قَتْلى تستحلَّ محارِمى[3]

فقال معاوية :

أرى العفوَ عن عُليا قريش وسيلةً ... إلى الله فى اليوم العصيب القُمَاطِرِ[4]
ولستُ أرى قتلَ العُدَاة ابن هاشمٍ ... بإدراكِ ثأرى فى لـــؤىٍّ وعامرِ
بل العفوَ عنه بعــــد مابانَ جُرْمُه ... وزلَّتْ به إحدى الجدودِ العواثِرِ
فكان أبوه يوم صِفّـــين جَمْرةً ... علينـــا فأرْدَتْه رماحُ نهابِرِ[5]

(١) قرع سنه : حرقه ندماً ، أى سحقه حتى سمع له صريف ، وسكن الفعل للضرورة والسنخ : الأصل من كل شىء . (٢) نعر القوم : هاجوا واجتمعوا فى الحرب .
(٣) وكان عبد الله بن هاشم من أقرباء معاوية .
(٤) يوم قماطر : شديد (٥) النهابر : المهالك .

٨٣ - الوَفاء! *

كان أبو بِلَال[1] مِرْداس بن حُدَيْر تعظِّمه الخوارج، وكان مجتهداً كثيرَ الصواب فى لفظه، فلقيه غَيْلان بن خَرَشَة الضَّبى؛ فقال: يا أبا بلال؛ إنى سمعتُ الأميرَ[2] البارحةَ يذكر البَلْجاء[3]، وأحسبها ستُؤخذ، فمضى إليها مرداس، فقال لها: إن الله قد وسَّعَ على المؤمنين فى التَّقيّة[4] فاستَتِرى، فإن هذا المسرِفَ على نفسه الجبارَ العنيد قد ذَكَرَكِ! قالت: إن يأخذنى فهو أشْقَى بى! فأما أنا فما أحبُّ أن يُعنَّتَ[5] إنسانٌ بسببى!

فوَجّه إليها عبيدُ الله بن زياد، فأُتى بها، فقطَع يديها ورجليها؛ ورمى بها فى السوق، فمرَّ مِرْدَاس، والناسُ مجتمعون، فقال: ما هذا؟ فقالوا: البَلْجاء! فعرّج عليها، فنظر، ثم عضّ على لحيته، وقال لنفسه: لَهذِهِ أطيبُ نفساً منك يا مرداس!

ثم إن عبيد الله تتبّع الخوارج فحبَسهم، وحبس مرداساً؛ فرأى صاحبُ السجن شدةَ اجتهاده، وحلاوَة مَنْطِقه، فقال له: إنى أرى لك مذهباً حسناً، وإنى لَأُحبُّ أن أُولِيَك معروفاً! أفرأيت إن تركتُكَ تنصرفُ ليلًا إلى بيتك

---

* رغبة الآمل: ٧ - ١٨٧، الكامل: ٢ - ١٥٤

(١) من عظماء الإباضية وأحد الخطباء الأبطال، سجنه عبيد الله فى الكوفة، ونجا من السجن وجمع من قاتل عبيد الله فنشب قتال فى يوم جمعة وتوادع الفريقان إلى ما بعد الصلاة فأحاط بهم جيش عبيد الله وهم فى صلاتهم فقتلوهم عن آخرهم، وحملوا رأس مرداس إلى ابن زياد سنة ٦١ هـ.

(٢) هو عبيدالله بن زياد أمير البصرة، ولاه معاوية عليها سنة ٥٥ هـ، وكان شديداً على الخوارج

(٣) البلجاء: هى امرأة من بنى حرام وكانت من مجتهدات الخوارج (٤) التقية: حفظ النفس بما يستطاع من المكروه (٥) عنته: ألزمه ما يصعب عليه أداؤه.

أَتَدَّلج[١] إليَّ ؟ قال : نعم ! فكان يفعلُ ذلك به ! ولجّ عبيدُ الله فى حبْس الخوارج وقتْلهم ، فكُلِّم فى بعض الخوارج ، فلجّ وأبى ، وقال : أَقْمَعُ النفاقَ قبل أن يَنْجُم[٢] ، لَكلامُ هؤلاء أسرعُ إلى القلوب من النار إلى اليَرَاع[٣] !

فلما كان ذات يوم قَتَل رجلٌ من الخوارج رجلا من الشُّرَط ، فقال ابنُ زياد : ما أدرى ما أصنعُ بهؤلاء ! كلما أمرْتُ رجلًا بقتْلِ رجل منهم فتكوا بقاتله ؛ لأقتلنَّ مَن فى حَبْسِى منهم .

فأخرج السجَّانُ مِرْداساً إلى منزله كما كان يفعل ، وأتى مِرْداساً الخبر ، فلما كان السَّحَر تهيَّأ للخروج ، فقال له أهله : اتَّقِ الله فى نفسك ، فإنك إن رجعتَ قُتِلت ! فقال : إنى ما كنتُ لِأَلْقى اللهَ غادراً ! فرجع إلى السجّان ، فقال له : أَمَا علمتَ ما عَزم عليه صاحبُك ؟ قال : علمتُ . فقال : أعلمتَ ورجعتَ ! قال : نعم ولم يكن جزاؤك مع إحسانك أن تعاقَبَ بسببى !

وأصبح عُبَيد الله يقتلُ الخوارج ، ثم دعا بمرداس ، فلما حضر وثب السجَّان ؛ فقبّل قَدَمه ؛ ثم قال : هَبْ لى هذا ، وقصّ عليه قصّتَه ، فوهَبَه له !

---

(١) ادلج : سار آخر الليل ، وأدلج : سار من أول الليل (٢) ينجم : يظهر (٣) اليرا جمع يراعة ، وهى القصبة .

٨٤ - أسخى من البحر إذا زخر*

حبس معاويةُ عن الحسين[١] بن عليٍّ صِلَاتِه ، حتى ضاقتْ عليه حالُه ، فقيلَ له : لو وَجَّهْتَ إلى ابنِ عمك عُبيدِ الله بنِ العباس ، فإنه قدِم بنحوٍ من ألف ألف درهم !

فقال الحسينُ : وأين تقعُ ألفُ ألفٍ من عُبيد الله ، فوالله لَهُوَ أجودُ من الريح إذا عَصَف ، وأسخى من البحر إذا زَخَر ؛ ثم وجَّه إليه مع رسولِه بكتاب ، ذكرَ فيه حَبْسَ معاويةَ صِلَاتِه عنه وضِيقَ حاله ؛ وأنه يحتاجُ إلى مائة ألف درهم .

فلما قرأ عبيدُ الله كتابه – وكان مِنْ أرقِّ الناس قلباً ؛ وألينهم عِطْفاً[٢] – انهملتْ عيناهُ ، ثم قال : ويلكَ يا معاوية مما اجْتَرَحَتْ يدَاك من الإثم حين أصبحتَ لَيِّنَ المِهاد ، رفيعَ العِماد ؛ والحسينُ يَشْكو ضيقَ الحال ، وكثرةَ العيال !

ثم قال لقَهْرَمانِه[٣] : احمل إلى الحُسَيْن نصفَ ما أَمْلِكُه من فضّة وذهب وثوب ودابةٍ ! وأَخْبِرْه أني شاطَرْتُه مالى ، فإن أقْنَعَه ذلك وإلا فارْجِع واْحمِل إليه الشَّطْرَ[٤] الآخر . فقال له القيِّم : فهذه المُؤَنُ التى عليك من أين تقومُ بها ؟ قال : إذا بَلَغْنَا ذلك دَلَلْتُك على أمرٍ تُقيم به حالَك .

فلما أتى الرسولُ برسالته إلى الحُسَين ، قال : إنا لله ! حَمَلْتُ والله على ابن عمى ، وما حسبْتُه يتّسعُ لنا بهذا كلِّه ، فأخذ الشَّطر من ماله ؛ وهو أولُ مَنْ فعل ذلك فى الإسلام .

---

* خزانة الأدب : ٣ – ٢٥٧ ، الطبعة الأميرية .

(١) هو الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، ولد بالمدينة ، ونشأ فى بيت النبوة ، وقتل بكربلاء سنة ٦١ هـ (٢) أصل العطف : الجانب (٣) القهرمان : كالخازن والوكيل الحافظ لما تحت يده ، والقائم بأمور الرجل بلغة الفرس (٤) الشطر : النصف .

٨٥ - يَجُودُ عَلَى مِقْدَارِ نَفْسِهِ*

خرج عُبيد الله [١] بن العباس مرةً من المدينة يريدُ معاويةَ فى الشام ، فأصابَتْه سماء ؛ فنظر إلى نُوَيْرَةٍ [٢] عن يمينه ، فقال لغلامه : مِلْ بنا إليها .

فلما أتَياها إذا شيخٌ ذو هيئةٍ رثَّة ، فقال له : أنِخْ ؛ انزل ، حُيِّيتَ ! ودخلَ إلى منزله ، فقال لامرأته : هيِّئى شاتَكِ أقضِى بها ذِمامَ [٣] هذا الرجل ، فقد توسَّمتُ فيه الخير ؛ فإن يكن من مُضَر فهو من بنى عبد المطلب ، وإن يكن من اليمن فهو من بنى آكِلِ المُرَار [٤] . فقالت له : قد عرفتَ حال صِبْيتى ، وأنَّ معيشتَهم منها ؛ وأخافُ الموتَ عليهم إن فقدوها ؛ فقال : موتُهم أحبُّ إلىَّ من اللُّؤم [٥] ، ثم قبض على الشاة ؛ فأخذ الشَّفْرَة ، وأنشد :

قَرِيبَتِى [٦] لا تُوقِظِى بُنَيَّه ... إن يُوقَظُوا ينتحبوا عَلَيَّه

ويَنْزَعوا الشَّفْرةَ من يدَيَّه ... أَبْغِض هذا أن يُرَى لديَّه

ثم ذبحها وكَشط جلدها ، وقطعها أرباعاً ، وقذفها فى القِدْر حتى إذا استوت ثَرَدَ [٧] فى جَفْنَة ؛ فعشّاهم ثم غدَّاهم .

وأراد عبيدُ الله الرحيلَ ، فقال لغلامه : ارْمِ للشيخ ما معك من نفقةٍ ، فقال : ذَبَح لك الشاة فكافِئه بثمن عشرة أمثالها ؛ وهو لا يعرفُك ! فقال : وَيحك !

* خزانة الأدب : ٣ - ٥٩٣ ، الطبعة الأميرية .

(١) عبيد الله بن العباس : كا [illegible] مهوراً بالجود ، معدوداً من الأجواد ، وهو أول من فطر جيرانه فى رمضان ، وأول من وضع موائده فى الطرق ، توفى سنة ٨٧ هـ (٢) تصغير نار (٣) الذمام : الحرمة (٤) آكل المرار : جد امرئ القيس . وبنو آكلِ المرار : هم ملوك اليمن (٥) اللؤم : البخل (٦) القريبة : ذات القرابة (٧) يقال : ثرد الخبز ، أى فته .

إن هذا لم يكن يملكُ من الدنيا غيرَ هذه الشاة ، فجادَ لنا بها ، وإن كان لا يعرفُنا فأنا أعرفُ نفسى ، ارم بها إليه ، فرماها إليه ، فكانتْ خمسمائة دينار !

ثم ارتحلَ عُبَيْد الله ، فأتى معاويةَ ، فقضى حاجتَه ، ثم أقبل راجعاً إلى المدينةِ، حتى إذا قربَ من ذلك الشيخ قال لغلامه : مِلْ بنا ننظره فى أىِّ حالة هو ، فانتهيا إليه ، فإذا برجل سَرِىّ عنده دُخانٌ عال ، ورمادٌ كثير ، وإبلٌ وغنم ؛ ففرح بذلك ، وقال له الشيخُ : انزل بالرُّحْب والسَّعة ! فقال له عبيد الله : أتعرفُنى ؟ فقال : لا ، والله ، فمن أنت ؟ فقال : أنا نَزِيلُك ليلة كذا وكذا ، فقام إليه فقبّل رأسَه ويدَيْه ورِجْليه ، وقال : قد قلتُ أبياتاً ؛ أتسمعُها منى ؟ فقال : هاتِ ، فأنشد :

توسَّمتُه[1] لما رأيتُ مَهَابةً ... عليه وقلتُ : المرء من آل هاشِمِ
وإلّا فمِنْ آل المُرار فإنهمْ ... ملوكٌ عظامٌ مِنْ كِرَامٍ أعاظِمِ
فقمْتُ إلى عَنْزٍ بقيّةِ أعنزٍ ... لأذبحَها فعلَ امرئ غيرِ نادِمِ
فعوّضنى عنها غِنَاى ولم تكُنْ ... تُساوِى[2] عَنْزى غيرَ خمْسِ دراهِمِ
فقلت لأهلى فى الخَلَاء[3] وصِبْيتى: ... أحقًّا أرى أم تلك أحلامُ نائِمِ !

فضحك عُبيد الله، وقال : أعطيتَنا أكثرَ مما أخذتَ منا ، ياغلام ، أعطِه مثلها ! وبلغتْ فَعْلَتُه معاوية فقال : لله دَرُّ عبيد الله ، من أى بَيْضَة خرج ! وفى أى عُشٍّ دَرَج !

---

(١) توسمته : تفرسته (٢) تساوى : يوضع الضمة على الياء للضرورة (٣) الخلاء : الفضاء .

٨٦ - مِن حِيَل الكُرَمَاء*

أهدى معاوية إلى عُبيد الله بن العبّاس حُلَلًا كثيرة ، ومِسْكًا وآنِيَةً من ذهبٍ وفِضّة ، ووجَّهها إليه مع حاجِبِه ؛ فلما وضَعَها بين يديه نظر إلى الحاجبِ - وهو يُطِيلُ النّظَرَ فيها - فقال : هل في نفسِك منها شيء ؟ قال : نعم ، والله إنّ في نفسي منها ما كان في نَفْس يعقوبَ من يوسف !

فضحك عُبيد الله وقال : فشأْنكَ بها ؛ فهي لك ! قال : جُعِلتُ فداك ! أنا أخاف أنْ يبلغَ ذلك معاويةَ ؛ فيغضبَ لذلك . قال : فاختمها بخاتَمك ، وادفعْها إلى الخازِن ، وهو يحملُها إليك ليلا. فقال الحاجب : واللهِ إنَّ هذه الحيلةَ في الكرماء أكثرُ من الكرم ؛ ولَوَدِدْتُ أني لا أموت حتى أراكَ مكانَه - يعني معاوية .

فظنَّ عبيدُ الله أنها مَكِيدةٌ منه ؛ فقال : دَعْ هذا الكلام ؛ إنّا من قومٍ نَفِي بما عَقَدْنا ، ولا ننقضُ ما أكّدْنا !

---

* ثمرات الأوراق للحموي : ١ - ١٢٩

٨٧ - يَدٌ عِنْدَ عُبَيدِ الله بن العبّاس*

أتى رجلٌ عبيدَ الله بن العباس (١) ـ وهو بفِناء دارِه فقال : يابنَ العباس ؛ إن لى عندك يداً وقد احتجتُ إليها ؛ فصعَّد فيه بَصره وصوَّبَه ، فلم يعرفْه . ثم قال له : ما يدُك عندنا ؟ قال : رأيتُك واقفاً بزمْزم وغلامُك يمْتَحُ (٢) لك من مائها ، والشمسُ قد صَهرَتْكَ ، فظلّلتُك بطرَف كسائى حتى شربتَ !

قال : إنى لأذكرُ ذلك ، وإنه يتردّدُ فى خاطرى وفِكْرى ! ثم قال لقيِّمه : ما عندك ؟ قال : اثنا دينار وعشرةُ آلاف درهم . قال : ادْفعها إليه ، وما أراها تَفِى بحقِّ يدِه عندنا !

قال له الرجل : والله لو لم يكن لإسماعيلَ ولدٌ غيرُك لكان فيه ما كفاه ، فكيف وقد وَلَدَ سيّدَ الأولين والآخرين محمداً صلى الله عليه وسلم ، ثم شفَع بك وبأبيك !

---

* خزانة الأدب : ٣ ـ ٢٥٦ ، الطبعة الأميرية .

(١) فى عبيد الله يقول شاعر المدينة :

وفى السنة الشهباء أطعمت حامضاً ... وحلواً ولحماً تامكا وممزعا

وأنت ربيع لليتامى وعصمة ... إذا المحل من جو السماء تطلعا

أبوك أبو الفضل الذى كان رحمة ... وغيثاً ونوراً للخلائق أجمعاً

التامك : تمك السنام : اكتنز . الممزع : مزع اللحم : فرقه . المحل : الجدب .

(٢) متح الماء : نزعه .

٨٨ - لو بدأت بي*

خرج الحسنُ والحسينُ وعبدُ الله بن جعفر حُجّاجاً ، ففاتتهم أثقالُهم [1] ؛ فجاعوا وعطشوا ؛ فمرّوا بعجوز فى خِباء لها ؛ فقال أحدُهم : هل مِنْ شَراب ؟ قالت : نعم . فأناخُوا إليها ، وليس لها إلا شُوَيهة [2] . فقالت : احلبوها فاشْرَبوا لبنها ، ففعلوا .

فقالوا : هل مِنْ طعام ؟ قالت : لا ؛ إلا هذه الشاة فليذْبَحْها أحدكم حتى أُهَيِّئ لكم ما تأكلون !

فقام إليها أحدُهم فذبحها وكَشَطها [3] ، ثم هيّأتْ لهم طعاماً فأكلوا ، وأقاموا حتى أبْرَدوا [4] .

فلما ارتحلوا قالوا : نحن نفرٌ من قريش نريد هذا الوجه ؛ فإذا رجعنا سالمين ، فألِمّى بنا فإنا صانعون إليك خيراً ! وارتحلوا .

وأقبلَ زوجُها ، فأخبرتْهُ بخبرِ القوم والشاةِ ، فغضب وقال : ويحك ! تذْبَحين شاتِى لقومٍ لا أعرفُهم ، ثم تقولين : نَفَرٌ من قريش !

ثم بعد مدّة ألجأتهما الحاجةُ إلى دخول المدينة فدخَلاها ، وجعلا يَلْتَقِطان البَعْر ويعيشان بثَمنه ؛ فمرّت العجوزُ ببعض سِكَكِ المدينة ، فإذا الحسنُ بن على واقفٌ بباب داره ، فعرفَ العجوزَ ، فبعثَ إليها غلامَه ، فدعا بها ، فقال لها :

---

* ثمرات الأوراق للحموي : ٢٤

(١) جمع ثقل : وهو المتاع (٢) شاة صغيرة (٣) يريد : سلخها (٤) أبردوا : دخلوا فى آخر النهار .

يا أمةَ [1] الله ، أتعرفينني ؟ قالت : لا ! قال : أنا ضيفُكِ بالأمس يوم كذا وكذا ! قالت : بأبي أنتَ وأمي !

ثم اشترى لها من شياه الصدقة ألفَ شاة ، وأمر لها بألف درهم ، وبعثَ بها مع غلامه إلى الحسين ، فأمر لها بمثل ذلك ، وبعث بها مع غلامه إلى عبدِ الله بن جعفر ، فقال لها : بكمْ وصلَكِ الحسَنُ والحسين ؟ قالت : بألفى درهم ، وألفى شاة . فقال لها . لو بدأْتِ بى لأتعبتُهما فى العطاء ! أعطوها عَطِيَّتَهُما .

فرجعت العجوزُ إلى زوجها بأربعةِ آلاف درهم ، وأربعة آلاف شاة !

(١) أصل الأمة المملوكة .

٨٩ - اختبار الأجواد*

تمارَى ثلاثةٌ فى أجوادِ الإسلام ، فقال رجل : أَسْخَى الناس فى عصرِنا هذا عبدُ الله بن جعفر بن أبى طالب . وقال آخر : أسْخَى الناس عَرَابة(١) الأَوْسى . وقال ثالث : بل قَيْس بن سعد(٢) بن عُبَادة . وأَكْثَرُوا الجِدال فى ذلك ، وعَلَا ضجيجُهم وهُم بِفِناء الكعبة .

فقال لهم رجل : قد أَكْثَرْتم الجدال فى ذلك ، فما عليكم أن يمضىَ كلٌّ واحد منكم إلى صاحِبِه يسألُه ، حتى ننظرَ ما يُعطيه ، ونحكم على العِيان ؟

فقامَ صاحبُ عبد الله إليه ، فصادفه قد وضعَ رجْلَه فى غَرْز(٣) ناقتِه يريد ضَيْعَةً له ، فقال : يابنَ عَمِّ رسولِ الله ! قال : قل ماتشاء . قال : أنا ابن سبيلٍ ومنقطع به ، فأخرجَ رِجْلَه من غَرْز الناقة ، وقال له : ضَعْ رجلك ، واسْتَوِ على الراحلة ؛ وخذْ مافى الحقيبة ، واحتفظ بالسيف ، فإنه من سيوف على بن أبى طالب رضى الله عنه !

فجاء بالناقة ، والحقيبةُ فيها مطارفُ(٤) خزٍّ ، وأربعةُ آلاف دينار ، وأعظمُها وأجلُّها السيفُ !

ومضى صاحب قيس بن سعد بن عُبَادة ، فصادفه نائمًا ، فقالت الجارية :

---

* غرر الخصائص : ١٥٥ ، ثمرات الأوراق للحموى : ١ ـ ١٠٢

(١) عرابة الأوسى : من سادات المدينة الأجواد المشهورين أدرك حياة النبى صلى الله عليه وسلم وأسلم صغيرا ، وتوفى بالمدينة سنة ٦٠ هـ (٢) كان من دهاة العرب وذوى الرأى الصائب ، وكان شريف قومه غير مدافع ، وعاش إلى أيام معاوية ، ومات سنة ٥٨ هـ .

(٣) الغرز : ركاب الرحل (٤) المطرف من الثياب : ما جعل فى طرفه علمان .

.. نائم ، فما حاجتُك إليه ؟ قال : ابن سبيل ومنقَطع به ، قالت : حاجتُك أهون من إيقاظه ! هذا كيسٌ فيه سبعمائة دينار ، والله يعلمُ أن مافى دار قيس غيره ، خُذه؛ وامْضِ إلى مَعَاطِنِ[1] الإبل ، إلى أموالٍ[2] لنا بعلامتنا فخذْ راحلةً من رواحله ، وما يصلحها وعبداً ، وامْضِ لشأنك !

ولما انتبه قيس من رَقْدَته أخبرَتْهُ بما صَنَعتْ فأعْتَقها .

ومضى صاحبُ عَرابة الأوسيّ إليه؛ فألفاه قد خرج من منزله يريدُ الصلاة وهو يمشى على عَبْدين ، وقد كُفّ بصَرُه ، فقال : ياعَرابة ، ابنُ سبيل ومنقطع به ، فخلّى العَبْدَين ،وصفّقَ بيُمْنَاه على يُسْراه ، وقال : أوّاه ! أوّاه ! ماتركت الحقوقُ لِعَرَابةَ مالاً ، ولكن خُذْهما ـ يعنى العبدين ـ قال : ما كنتُ بالذى أقُصُّ جناحيك . قال : إن لم تَأْخُذْهما فهما حُرّان ، فإن شئتَ تأخذ ، و إن شئتَ تَعْتِقْ ، وأقْبَلَ يلتمسُ الحائط ، راجعاً إلى منزله .

فأخذهما صاحبُه ، وجاء بهما إلى رِفاقه ؛ فقالوا : إن هؤلاء الثلاثة أجودُ عصرهم ، إلا أنّ عَرَابة[3] أكثرُهم جوداً لأنه أَعْطَى جهده .

---

(١) المعاطن : جمع معطن ، وهو مبرك الإبل (٢) أموال : تريد الإبل ، وأكثر ما يطلق المال عند العرب على الإبل ، لأنها كانت أكثر أموالهم (٣) وفى عرابة الأوسى يقول الشماخ المرى :

رأيت عرابة الأوسى يسمو إلى الخيرات منقطع القرين
إذا ماراية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

٩٠- إنَّ هَـذَا الأسْخَى مِـنِّي *

خرج عبدُ الله[١] بنُ جعفر إلى ضَيْعَةٍ له فنزل على نخيلِ قومٍ؛ فيها غلامٌ أسودُ يقومُ عليها، فأُتِيَ بثلاثة أقراص[٢]، فدخل كلبٌ فدنا منه، فرمى إليه بقُرْصٍ فأكله، ثم رمى إليه بالثانى والثالث فأكلهما، وعبدُ الله ينظر إليه، فقال: ياغلام، كَمْ قُوتك كلَّ يوم؟ قال: مارأيتَ! قال: فلِمَ آثَرْتَ الكلبَ؟ قال: لأنَّ أرضَنا ليست بأرضِ كلاب، وإخاله قد جاء من مسافةٍ بعيدة جائعاً، فكرِهتُ ردَّه!

قال: فما كنت صانعاً اليوم؟ قال: أطْوِى[٣] يومى هذا! فقال عبدُ الله ابن جعفر: والله إنَّ هـذا لأسْخَى منى فاشْتَرَى النخل والعبد، وأَعْتَقَه ووَهَبَ ذلك له!

---

* المستطرف: ٢ ـ ٣٦.

(١) انظر صفحة ٢٤. (٢) القرص كالرغيف، ويقال: ترد أيضاً. (٣) أطوى: لا آكل شيئاً

٩١ - إنّا ننزِل الضّيف ولا نرحّله*

خرج داودُ بن سَلْم إلى حربِ بن خالد ، فلما قَدِم عليه قام غِلمانُه إلى متَاعه ، فأدْخلوه وحطّوا عن راحلته ، فلمادخل أنشده :

ولمــا دُفِعتُ لأبْوابهم ولاقيتُ حرباً لقيتُ النَّجاحاَ
وَجدْناه يحمَدُه المُعتَفون(١) ويأْبَى على العُسْرِ إلّا سَماحاَ
ويُغشَوْن حتى ترَى كَلْبَهم يهَابُ الهَرِيرَ(٢) ويَنْسى النُّباحا

فأمرَ له بجوائزَ كثيرة ، ثم استأذنه فى الانصراف ، فأذن له ، وأعطاه ألف دينار .

فلما خرج من عنده ، وغلمانُه جلوس ، لم يَقُمْ إليه أحدٌ منهم ولم يُعِنْه ، فظنّ أنّ حرباً ساخطٌ عليه ، فرجع إليه وقال : أوَاجدٌ(٣) أنتَ علىّ ؟ قال : لا ، ولِمَ ذلك ؟ فأخبره خبرَ الغِلمان ، قال : ارجع إليهم فَسَلْهُم .

فرجع إليهم فسألهم ، فقالوا : إننا ننزلُ الضيفَ ولا نرحِّله !

فلما قدم المدينةَ سمع الغاضِرىُّ بحديثه ، فأتاه ، فقال : إنى أُحبُّ أن أسمع هذا الحديث منك ، فحدّثه ، فقال : والله إن فِعْلَ الغِلمان أحْسنُ من شِعْرك !

---

* الأمالى : ١ — ٢٤٢ ، ونرحله : نحمله على الرحيل .
(١) المعتفى : كل طالب فضل أو رزق (٢) الهرير : صوت الكلب دون النباح . (٣) أواجد : أغاضب .

٩٢ - الأخطل محبوس في كنيسة*

قال إسحاق بن عبد الله : قدمت الشامَ وأنا شابٌّ مع أبى ، فكنت أطوفُ فى كنائسها ومساجدهـا ، فدخلتُ كنيسة دمشق ، وإذا الأخطل (١) فيها محبوسٌ ، فجعلتُ أنظرُ إليه . فسأل عنى فأُخبِرَ بنسبي ؛ فقال : يافتى ؛ إنك لرجلٌ شريف ، وإنى أسألُك حاجةً . فقلت : حاجتُك مقضية . قال : إن القسّ حبسنى ها هنا فتكلِّمُه ليخليَ عنى .

فأتيتُ القسّ فانتسبت له ، فرحب وعظم ، ثم قلت : إنّ لى إليك حاجةً . قال: وما حاجتُك ؟ قلت : الأخطل تُخَلِّى عنه . قال : أعيذُكِ بالله من هذا ! مثلُك لا يتكلم فيه ؛ فاسقٌ يشتمُ أعراضَ الناس ويهجوهم ! فلم أزل أطلبُ إليه حتى مضى معى متكئاً على عصاه ، فوقف عليه ورفع عصاه ، وقال : ياعدو الله ! أتعودُ تشتم الناس وتهجوهم وتقذف المحصنات ! وهو يقول : لست بعائد ولا أفعل ، ويستخذى له .

فقلت له : يا أبا مالك ، الناسُ يهابُونك ، والخليفةُ يُكْرِمُك ، وقدرُكَ فى الناس قدْرُك ، وأنت تخضعُ لهذا وتستخذى له ! فجعل يقول لى : إنه الدّين ! إنه الدّين !

---

*الأغانى : ٨ ـ ٢٠٩ .

(١) هو أبو مالك غياث الأخطل بن غوث التغلبي النصرانى شاعر الأمويين ، نشأ فى قومه تغلب بأرض الجزيرة ينتصر لهم على مضر عامة ، وقيس خاصة ، ولما كان متصلا بالخلفاء وبحروب قومه مع قيس صار يجيد مدح الملوك ووصف المعارك وكذلك الخمر لمعاقرته إياها ، وكان أخطر الشعراء لدى الأمويين ، اتخذوه شاعرهم ،ومات سنة ٨٥ هـ .

٩٣ ـ عَمَارةُ الفَقيه وعَبدالملك بن مَروان*

قال عُمارة الفقيه :

كنتُ أجالسُ عبدَ الملك بن مروان (١) كثيراً فى ظل الـكعبة ، فبينا أنا معه إذ قال لى : يا عُمارة ، إن تَعِشْ قليلا فسترَى الأعناقَ إلىَّ مائلةً والآمالَ نحوى سامية ، وإذا كان ذلك فلا عليكَ أن تجعلنى لرجائك باباً ولأمَلِك ذريعة (٢) ، فوالله إن فعلتَ لأملأنَّ يديك غبطة ، ولأكسونَّك نعمة سابغة .

ثم إن عبدَ الملك سار إلى دمشق ، وصارت إليه الخلافة ، فخرجتُ إليه زائراً ، واستأذنتُ فأذِنَ لى ، ودخلتُ فسلمتُ عليه ، فلما انقضى سلامى ، قال : مرحباً بأخى ؛ ونادى أحد غِلمانه ، فقال : بوِّئْه (٣) داراً ، وأحسِن مهاده ، ونزِّهْه ، وآثِرْه على خاصتى .

ففعل ، وأقمتُ عنده عشرين ليلة أحضُر غداءه وعشاءه ؛ فلما أردتُ الانصرافَ والأوْبةَ إلى أهلى أمرَ لى بعشرين ألف دينار ومائتى ألف درهم ، ومائة ناقة برقيقها وكسوتهم ، وقال لى : أترانى ياعمارة ملأتُ يديك غبطة ؟

فقلت : ياسبحان الله ، يا أمير المؤمنين ؛ وإنك لذاكِر لذلك ؟ قال : نعم ! والله لا خيرَ فيمن ينسى ما وَعَد به ويذكر ماأوْعد (٤) . كم لهذا الأمر ياعمارة ؟

---

* غرر الخصائص : ١٥٨ .

(١) من أعاظم الخلفاء ودهاتهم ، نشأ فى المدينة واستعمله معاوية عليها ، وانتقلت إليه الخلافة سنة ٦٥ هـ ، وتوفى بدمشق سنة ٨٦ . (٢) سببا . (٣) بوئه : أنزله (٤) الوعد فى الخير والإيعاد فى الشر .

قلت : والله لكأنه بالأمس ، وله دهرٌ يا أمير المؤمنين ! قال : فو الله ما كان ذلك عن خبرٍ سمعناه ، ولا حديث كتَبْناه ، ولا أثرٍ روَيناه ؛ غير أنى عقلتُ فى الحداثة أشياء رجَوْتُ أن يرفعَ اللهُ بها درجتى ، وينشر بها ذِكرى .

قلت : وما هى يا أميرَ المؤمنين ؟ قال : كنت لا أُشَارِى ، ولا أمارِى (١) ، ولا أهتك ستراً ستَرَه اللهُ دُونى ، ولا أرتكبُ محرماً حظرَه اللهُ على ، ولا حسدتُ ، ولا بغيت ؛ وكنتُ من قومى واسطة القلادة ، وكنتُ أُكرمُ جليسى وإن كان ذمياً ، وأرفعُ قدرَ الأديب ، وأُكرِم ذا الثقة ، وأدارى السفيه ، وأرحمُ الضعيف ، فبذلك رفع الله قدرى ! ياعمارة ؛ خذ أهبةَ السفر ؛ وامض راشداً !

(١) المشاراة : الملاحاة ، أو لا يشارر من الشر فقلبت إحدى الراءين ياء ، المماراة : المخاصمة فى الشىء ليس فيه منفعة . أولا يمارى : أى لا يدفع ذا الحق عن حقه .

٩٤ ـ بين الحجّاج الثقفي ويَزيد بن المهلب *

أخذ الحجاجُ [١] يزيد بن المهلب ، وعذّبه وقصده ، واستأصل موجوده وسجنَه ، فتوصل يزيد بحسنِ تلطفه ، ودخل فيما جعله الله نجاة من تَلَفه ، وأرغب السجّان ، واستماله إليه ، وهرّب هو والسجانُ ؛ وقصد الشامَ إلى سليمان بنِ عبد الملك بن مروان ـ وكان الخليفةَ فى ذلك الوقت الوليدُ بن عبد الملك .

فلما وصل يزيدُ بنُ المهلب إلى سليمانَ بن عبد الملك أكرمه وأحسنَ إليه ، وأقامه عنده ؛ فكتب الحجاجُ إلى الوليد يُعْلمهُ أن يزيد هربَ من السجن ، وهو عند سليمان بن عبد الملك أخى أمير المؤمنين وولىٌّ عهد المسلمين ؛ وأميرُ المؤمنين أشملُ رأياً .

فكتب الوليدُ إلى أخيه سليمان بذلك ، فكتب سليمانُ إلى أخيه : يا أمير المؤمنين ؛ إنى إنما أجرتُ يزيدَ بن المهلب لأنه هو وأبوه وإخوته من صنائعنا قديماً وحديثاً ، ولم أُجرْ عَدُوا لأمير المؤمنين ؛ وقد كان الحجاج قصده وعذّبه ، وأغرمه [٢] أربعة آلاف ألف درهم ظلماً ، ثم طالبه بعدها بثلاثة آلاف ألف درهم ، وقد سار هذا الرجلُ إلىّ مستجيراً فأجرته ، وأنا أغرم عنه ثلاثة آلاف ألف الدرهم ؛ فإن رأى أمير المؤمنين ألا يخزينى فى ضيفى فعل ، فإنه أهل الفضل والكرم .

---

* العقد الفريد : الملك السعيد ٢ ـ ١٠٢ ، تاريخ الطبرى : ٨ ـ ٧٣ ، ثمرات الأوراق : ٢٠٨ ، وفيات الأعيان : ٢ ـ ٢٧٠

(١) الحجاج بن يوسف بن أبى عقيل الثقفى ولد سنة ٤١ هـ ونشأ بالطائف . واتصل بعبد الملك ابن مروان ولم يزل يرق إلى أن ولى العراق والمشرق ، وطار ذكره ، وعظم سلطانه . وهلك بواسط سنة ٩٥ هـ (٢) أغرمه : غرمه .

فـكتب إليه الوليدُ : « لا والله ، لا أؤمنـه حتى تبعثَ به إلىّ فى وِثاق [1] » .
فـكتب إليه سليمان : ولئن أنا بعثتُ به إليك لأجيئنّ معـه ؛ فأنشُدك الله ألا تفضحنى ولا تُخفِرنى . فـكتب إليه الوليد : والله لئن جئتَنى لا أؤمنه .

فقال يزيدُ : ابعثنى إليه ؛ فو الله ما أحِبُّ أن أُوقع بينك وبينه عداوة وحربًا ابعث إليه بى ، وأرسل معى ابنك ، واكتب إليه بألطفِ ماقدرتَ عليه .

فأحضر سليمانُ ولده أيوب فقيَّده ، ودعا بيزيد فقيَّده ، ثم شدّ قيدَ هذا إلى قيدِ هـذا بسلسلة ، وغلَّهما بغُلَّيْنِ [2] ، وحملهما إلى الوليد ، وكتب إليه : « أما بعد يا أمير المؤمنين ، فإنى قد وجَّهتُ إليك [illegible] أخيك أيوبَ بنَ سليمان ، ولقد همَمْتُ أن أكون ثالثهما ، فإن [illegible] ياأميرَ المؤمنين بقتلِ يزيد ، فبالله عليك ابدأ بأيوبَ من قبله ، ثم اجعـل يزيدَ ثانياً ، واجعلنى إذا شئتَ ثالثا ، والسلام » .

فلما دخلَ يزيدُ بنُ المهلب وأيوبُ بن سليمان عليه فى سلسلة واحدة أطْرَقَ استحياء ، وقال : لقد أسأْنا إلى سليمانَ إذ بلغنا به هذا المبلغ ...

فأراد يزيدُ أن يتكلم ويحتجَّ عن نفسه ، فقال له الوليد : ما نحتاجُ إلى كلام ؛ فقد قبلنا عُذْرك ، وعلمنا ظلمَ الحجاج ؛ ثم أحضر حَدَّادًا ، وأزال عنهما الحديد ، وأحسن إليهما ، ووصل أيوبَ ابن أخيه بثلاثين ألف درهم ، ووصلَ يزيدَ ابن المهلب بعشرين ألف درهم ؛ وردهما إلى سليمان ، وكتب كتاباً إلى الحجاج يقول له : لاسبيلَ لك على يزيدَ بنِ المهلب ، فإياك أن تعاوِدَنى فيه بعد اليوم .

فسار يزيدُ إلى سليمان بنِ عبد الملك بن مروان فى أعلى المراتب ، وأفضل المنازل .

---

(١) الوثاق : مايشد به (٢) الغل : جامعة توضع فى العنق أو فى اليد .

٩٥ ـ زُفَرُ بن الحارث يُجِيرُ خالد بن عتّاب *

استعمل الحجاجُ خالدَ بن عتّاب على الرَّى ، وكانت أمه أمَّ ولد ؛ فكتب إليه الحجاج يسبُّ أمّه ، ويقول : أنت الذى هربتَ عن أبيك حتى قُتل ــ وقد كان حلف ألّا يسبَّ أحدٌ أمّه إلا أجابه كائنا من كان .

فكتب إليه خالد : كتبتَ إلىّ تشتم أمى ، وتزعمُ أنى فررْتُ عن أبى حتى قُتل ؛ ولعمرى لقد فررتُ عنه ، ولكن بعد أن قُتل ، وحين لم أجد لى مقاتلاً . ولكن أخبرنى عنك يالئيم حين فررتَ أنت وأبوك يوم الحَرَّة [1] على جملٍ ثقال [2] ، أيُّكما كان أمامَ صاحبه .

فقرأ الحجاج الكتاب وقال : صدق !

أنا الذى فَرَرْتُ يوم الحرَّه ثم ثنيتُ كرّةً بفرَّه

والشيخُ لا يفِرُّ إلا مرّه

ثم طلبه ففرَّ إلى الشام ، ونسلم بيتَ المال ، ولم يأخذ منه شيئا .

وكتب الحجاج إلى عبد الملك بما كان منه . وقدم خالد الشام ، فسأل عن خاصةِ عبد الملك فقيل له : رَوْح بن زِنباع . فأتاه حين طلعت الشمس ، فقال : إنى جئتُك مستجيراً . فقال : إنى أجرتك إلا أن تكون خالداً . قال : فإنى

---

* الأغانى : ١٦ ــ ٤٠ .

(١) كانت وقعة الحرة أيام يزيد . وهى موضع بظاهر المدينة، وقعت فى ذى الحجة من سنة ٦٢هـ.

(٢) الثقال : البطىء من الإبل .

خالدٌ . فتغيَّر ، وقال : أنشدُكَ الله إلا خرجتَ عنى ، فإنى لا آمَنُ عبدَ الملك ! فقال : أنْظِرنى[1] حتى تغربَ الشمس . فجعل رَوح يُراعيها حتى خرج خالد !

فأتى زُفر بن الحارث الكلابى ، فقال : إنى جئتك مستجيراً . قال : قد أجرتك . قال : أنا خالد بن عتّاب . قال : وإن كنتَ خالداً .

فلما أصبح دعا ابنين له ؛ فتهادَى بينهما ـ وقد أسنّ ـ فدخل على عبد الملك وقد أُذِن للناس ؛ فلما رآه دعا له بكرسى ، فجُعِل عند فراشه . فجلس ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ؛ إنى قد أجرتُ عليك رجلا فأجره . قال : قد أجرتُه إلا أن يكون خالداً . قال : فهو خالد . قال : لا ولا كرامة !

فقال زفر لابْنَيْهِ : أنهضانى . فلما ولى قال : ياعبد الملك ؛ أما والله لو كنتَ تعلم أن يدِى تُطيق حَمْل القناة لأجرتَ من أجرتُ ! فضحك ، وقال : قد أجرْناه .

وأرسل إلى خالد بألفى درهم .

(١) أمهلنى .

٩٦ - احْتَكِمُوا وَأَكْثِرُوا*

استعمل الوليدُ (١) بنُ عبد الملك عثمانَ بن حيّانَ المرّىَّ على المدينة ، وأمرهُ بالغلظة على أهل الظِّنَّة (٢) ، فلما استُخْلِفَ سليمان بن عبد الملك أخذه بألفى ألف درهم ، فاجتمعت القَيْسِيّةُ فى ذلك،فتحمّلوا شَطْرَها (٣) ،وضاقوا ذَرْعاً بالشَّطر الثانى، ووافقَ ذلك استعمال سليمانَ يزيدَ بن المهلب على العراق ، فقال عمرُ بنُ هُبَيْرة : عليكم بيزيدَ بن المهلب ، فما لها أحدٌ غيره .

فتحمَّل إلى يزيد عمرُ بن هبيرة ، والقعقاع بن حبيب ، والهذيل بن زفر بن الحارث ، وسار معهم عثمان ؛ فاستأذنَ لهم يَحْيى حاجِبُه ؛ فخرج يزيدُ إلى الرُّواق (٤) فقرَّب ورحَّب ، ثم دعا بالغَداء ، فأُتُوا بطعام ما أنكروا منه أكثرُ مما عرفوا .

فلما تَغَدَّوْا تكلم عثمانُ بن حيان — وكان لَسِناً مُفَوَّهاً — فقال : زادَكَ الله فى توفيقك أيها الأمير ؛ إن الوليدَ وجّهنى إلى المدينة عاملا عليها ، وأمرنى بالغِلْظَة على أهل الظِّنَّة ، وإنّ سليمان أغرمنى (٥) غُرْماً — والله — ما يَسَعهُ مالى ، ولا تحمِلُه طاقَتِى ؛ فأتَيْناكَ لتحملَ من هذا المال ما خفَّ عليك ، وما بقى — والله — ثقيلٌ علىّ .

ثم تكلمَ كلٌّ منهم بما حَضَره ؛ فقال يزيد بن المهلب : مرحباً بكم وأهلاً ، إنّ خيرَ المال ما قُضِى فيه الحقوق ، وحُمِلَتْ به المغَارِم ؛ وإنما لى من المال

* العقد الفريد : ١ — ١٥٤ .

(١) الوليد بن عبد الملك : من ملوك الدولة الأموية ولى الخلافة سنة ٨٦ هـ ، وكانت وفاته بدير مران سنة ٩٦ هـ (٢) التهمة (٣) الشطر : النصف (٤) الرواق : سقف فى مقدم البيت أو الفسطاط (٥) أغرمنى : غرمنى .

ما فَضَلَ عن إخوانى ، وايمُ الله لو علمتُ أن أحداً أَمْلَأُ بحاجتكم منى لمديتكم إليه ! فاحْتَكِمُوا وأَكْثِرُوا !

فقال عثمان بن حيّان : النصف ـ أصلح اللهُ الأمير . قال : نعم وكرامة ! اغدُوا على مالكم فخُذُوه ؛ فشكروا له ، وقاموا فخرجوا .

فلما صاروا على باب السرادق ، قال عمر بن هُبيرة : قَبَّحَ الله رأيكم ، والله ما يُبالى يزيد ؛ أنصفَها تحمَّل أم كلَّها ؛ فمَنْ لكم بالنصف الباقى ؟

قال القوم : هذا والله الرَّأْىُ ! وسمِع يزيدُ مُناجاتهم ؛ فقال لحاجبه : انظر يا يحيى ، إن كان بقى على القوم شىء فلْيَرْجِعُوا !

فرجعوا إليه ، وقالوا : أَقِلْنَا ! قال : قد فعلتُ ! قالوا : فإن رأيتَ أن تَحْمِلَها كلّها ؛ فأنتَ أهلُها ، وإن أبيتَ فما لها أحدٌ غيرك ! قال : قد فَعَلْتُ .

وغَدَا يزيدُ بن المهلب إلى سليمان ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ؛ أتانى عثمان بن حيّان وأصحابه . قال : أَمسَكْتَ فى المال ؟ قال : نعم . قال سليمان : والله لآخُذَنَّهُ منهم ! قال يزيد : إنى قد حملته ! قال : فأَدِّه ! قال يزيد : والله ما حملتُه إلا لأؤدِّيه.

ثم قال : يا أميرَ المؤمنين ؛ إن هـذه الحَمالة (١) وإنْ عَظُمَ خطبُها ، فَحَمْدُها والله أعظمُ منها ، ثم غدا يزيدُ بالمال على الُخزّان فدفعه إليهم .

فدخلوا على سليمان فأخبروه بقَبْضِ المال ؛ فقال : وَفَتْ يمينُ سليمان ؛ احملوا إلى أبى خالد مالَه .

---

(١) الحمالة : الغرم يحمل عن القوم .

٩٧ - أنتَ أخو النّدى وحَليفُه*

قال بعضُ مَشْيَخَةِ قريش :

أَذِنَ الوليدُ بنُ عبد الملك يوماً للناس ، فدخلوا عليه ، وأَذِنَ للشعراء ؛ فكان أولَ من جَثَا بين يديه عُوَيْفُ (١) القَوافى الفَزَارى فاستأْذَنَهُ فى الإنشاد ، فقال : ما بقَّيْتَ لى بعد ما قلتَ لأخى بنى زُهْرَة ؟ قال : وما قلتُ له مع ما قلتُ لأمير المؤمنين ؟ قال : ألستَ الذى تقول :

يا طلحُ أنتَ أخو الندى وحليفُه ... إنَّ النّدى من بعد طلحةَ ماتا
إن الفَعَال (٢) إليك أطْلَقَ رَحْلَهُ ... فبحيثُ بِتَّ من المنازل باتا

ألستَ الذى تقول :

إذا ما جاء يومُك يابنَ عوفٍ ... فلا مَطَرَتْ على الأرضِ السَّماءُ
تساقَى الناسُ بعدَك يابنَ عوفٍ ... ذَريعَ (٣) الموتِ ليس له شِفاءُ

ألم تقمْ علينا الساعةُ يومَ قامتْ عليه ؟ لا واللهِ لا أسمعُ منك شيئاً ، ولا أنفعُك بنافعة أبداً . أخرِجوه عنى !

فلما أُخرج قال له القرشيون والشاميون : وما الذى أعطاك طلحةُ (٤) حين استخرج هذا منك ؟ قال : أمَا واللهِ لقد أعطانى غيرُه أكثرَ من عطيته ، ولكن

* الأغانى : ١٧ — ١٠٨ .

(١) هو عويف بن معاوية من قيس عيلان ، كان شاعراً مقلا من شعراء الدولة الأموية وبيته كان أحد البيوتات المقدمة الفاخرة فى العرب (٢) الفعال : الفعل الحسن ، أو الكرم (٣) موت ذريع : سريع .

(٤) هو طلحة بن عبد الله بن عوف من بنى زهرة أحد الأجواد المقدمين ، كانت عادته إذا أصاب مالا أن يفتح بابه ليغشاه أصحابه والناس فيطعم ويجيز حتى ينفد ما عنده فيغلق الباب فلا يقصده أحد ، توفى سنة ٩٧ هـ

لا والله ما أعطانى أحدٌ قطُّ أحْلى فى قلبى ، ولا أبقى شكراً ، ولا أجدرَ ألّا أنساها من عطيته ! قالوا : وما أعطاك ؟ قال :

قَدِمتُ المدينة ومعى بُضَيِّعةٌ (١) لى ، لا تبلغ عشرة دنانير ، أريد أن أبتاعَ قَعُوداً من قِعْدَان الصَّدَقة . فإذا برجل فى صحْنِ السُّوق على طِنْفِسة قد طُرحتْ له، وإذا الناسُ حوله ، وإذا بين يديه إبلٌ ؛ فظننتُ أنه عاملُ السوقِ ، فسلمت عليه فأثبتنى (٢) وجهلتُه ؛ فقلتُ : رَحمكَ اللهُ ! هل أنتَ مُعينى على قَعُودٍ من هذه القِعْدَان تَبْتاعه لى ؟ فقال : نعم ! أو معكَ ثَمَنُهُ ؟ فقلت : نعم !

فأهوى بيده إلىَّ فأعطيته بُضَيِّعتى ؛ فرفع طِنفِسَتَهُ وألقاها تحتها ، ومكث طويلا ، ثم قمتُ إليه فقلت : رحمكَ الله ! انظرْ فى حاجتى. فقال : ما منعنى منك إلا النسيان ، أمعك حَبْل ؟ قلت : نعم . قال : أفرجوا ، فأفرجوا عنه حتى استقبل الإبل التى بين يديه ، فقال : اقرن هذه وهذه وهذه ، فما برحتُ حتى أمر لى بثلاثين بَكْرَة ، أدْنى بكرة منها خيرٌ من بضاعتى ! ثم رفع طِنْفسَته فقال: وشأنك ببضاعتك فاستَعِنْ بها على من ترجعُ عليه .

فقلتُ : رحمك الله ! أتدرى ما تقول ؟ فما بَقِىَ أحَدٌ عنده إلا نهرَنى وشتمنى ! ثم بعث معى نفراً فأطرَدُوها (٣) حتى أطْلَعُوها من رأس الثنيةِ ، فوالله لا أنساه مادمتُ حيا أبداً .

(١) البضاعة : القطعة من المال الذى يتجر فيه ، والبضيعة تصغيرها
(٢) أثبتنى : عرفنى حق المعرفة .
(٣) أطردت الإبل : أى أمرت بطردها ، وطرد الإبل : ضمها من نواحيها .

٩٨ ـ مَا كذبَ مُذ شُدَّ عَلَيهِ إزارُه *

خرج عمرُ (١) بن عبد العزيز مع سليمانَ يريدُ الصَّائفة ، فالتقى غلمانُه وغلمانُ سليمان على الماء فاقتتلوا ، فضربَ غلمانُ عمر غلمانَ سليمان ؛ فشكَوْا ذلك إلى سليمان ، فأرسل إلى عمر فقال له : ضربَ غلمانُك غلماني . قال : ما علمتُ . فقال له سليمانُ : كذبتَ ! قال : ما كذبتُ مذ شددتُ عليّ إزاري ، وعلمت أن الكذبَ يضرُّ أهله ؛ و إن في الأرض عن مجلسك هذا لَسَعة .

فتجهَّزَ يريدُ مصر ،فبلغ ذلك سليمان ، فشقّ عليه؛ فدخلتْ فيما بينهما عمَّةٌ لهما، فقال لها سليمان : قولي له : يدخل عليّ ولا يعاتبُني ، فدخل عليه عمر ، فاعتذر إليه سليمان ، وقال له : يا أبا حفص ؛ ما اغْتَمَمْتُ بأمر ، ولا أكربني همّ إلا خطرتَ فيه على بالي ، فأقام !

* سيرة عمر بن عبد العزيز : ٢٣

(١) عمر بن عبد العزيز : الخليفة الصالح، ولد بالمدينة، ونشأ بها وولى إمارتها للوليد، وولى الخلافة سنة ٩٩ هـ ، وأخباره في عدله وحسن سياسته كثيرة ، توفي سنة ١٠١ هـ .

٩٩ - أعطيك مالي إن شئت*

لما وَلِيَ عمرُ بن عبد العزيز أتت عمَّةٌ له إلى فاطمة امرأته ؛ فقالت: إنى أريدُ كلامَ أميرِ المؤمنين . قالت لها : اجلسى حتى يفرُغ ؛ فجلست ، فإذا بغُلام قد أتى فأخذ سِراجاً . فقالت لها فاطمة: إن كنتِ تريدينه فالآن ، فإنه إذا كان فى حَوائج العامة كتب على الشمع ، وإذا صار فى حاجةِ نفسه دعا بسراجه .

فقامَت فدَخلت عليــه فإذا بين يديه أقراصٌ وشىءٌ من ملح وزيت وهو يتعشى ، فقالت : يا أمير المؤمنين ؛ أتيتُ لحاجةٍ لى ، ثم رأيتُ أن أبدأ بك قبل حاجتى ! قال : وما ذاك ياعمة ؟ قالت : لو اتخذتَ لك طعاماً ألين من هذا ؟ قال: ليس عندى يا عمة ، ولو كان عندى لفعلتُ ! قالت : يا أميرَ المؤمنين ، كان عمُّك عبدُ الملك يُجرى علىَّ كذا وكذا ، ثم كان أخوك الوليد فزادنى ؛ ثم كان أخوك سليمان فزادنى ، ثم وَليت أنت فقطعتَه عنى .

قال : ياعمة ؛ إن عمِّى عبدَ الملك ، وأخى الوليد ، وأخى سليمان كانوا يعطونكِ من مالِ المسلمين ، وليس ذلك المالُ لى فأعطيكه ؛ ولكنى أعطيكِ مالى إن شئت ! قالت : وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال : عطائى مائتا دينار ؛ فهل لك فيه ؟ قالت : وما يبلغ منى عَطاؤك ؟ قال : فلستُ أملكُ غيرَه ياعمة ؛ فانصرفتْ عنه !

* سيرة عمر بن عبد العزيز : ٦٤ .

١٠٠ - الشمعة والسراج*

وقد على عمرَ بنِ عبد العزيز بَرِيدٌ(١) من بعضِ الآفاق ، فانتهى إلى بابِ عمر ليلاً ؛ فقرع البابَ ، فخرج إليه البوّاب ، فقال : أَعْلِمْ أميرَ المؤمنين أنَّ بالباب رسولاً من فلان عامِله ؛ فدخل فأعلم عُمَرَ ـ وقد كان أراد أن ينام ـ فقعد ، وقال : ائذَنْ له !

فدخل الرسولُ فدعا عمرُ بشَمْعَة غليظةٍ فأجّجَتْ ناراً ، وأجلس الرسول ، وجلس عمر ، فسأله عن حال أهل البلد ومَنْ بها من المسلمين وأهلِ العهد ، وكيف سيرةُ العامل ؟ وكيف الأسعارُ ؟ وكيف أبناء المهاجرين والأنصار ، وأبناء السبيل والفقراء ؟ وهل أعطَى كلَّ ذى حقّ حقَّه ؟ وهل له شاكٍ ؟ وهل ظَلَمَ أحداً ؟

فأنبأه بجميع ماعَلِم من أمرِ تلك المملكة ، يسأله فيُحْفِي(٢) السؤال ، حتى إذا فَرَغَ عمرُ من مَسْألته قال له : ياأميرَ المؤمنين ، كيف حالكُ فى نفسك وبَدَنك ؟ وكيف عِيالك وجميع أهل بيتك ومن تُعْنى بشأنه ؟ فنفخ عمر الشمعة فأطفَأها بنَفْخته ، وقال : ياغلام ، علىَّ بسراجٍ ، فأتى بفَتِيلة لا تكاد تضىءُ ، فقال : سَلْ عما أحببتَ ، فسأله عن حاله ، فأخبره عن حال ولده وأهل بيته .

فعجب البريدُ للشمعة وإطفائِه إياها ، وقال : ياأمير المؤمنين ، رأيتُك فعلتَ أمراً مارأيتُك فعلتَ مثله ! قال : وما هو ؟ قال : إطفاؤك الشمعة عند مسألتى إيَّاك

---

* سيرة عمر بن عبد العزيز : ١٦١

(١) رسول . (٢) أحفى سؤاله : ردده .

عن حالك وشأنك . فقال : ياعبدالله ، إن الشمعةَ التى رأيتَنى أطفأتُها من مال الله ومال المسلمين ، وكنت أسألك عن حوائجهم وأمرهم ، فكانت تلك الشَّمْعةُ تَقِدُ بين يدىَّ فيما يُصلحهم ، وهى لهم . فلما صرتَ لشأنى وأمرِ عيالى ونفسى أطفأتُ نار المسلمين !

١٠١ ـ حَديث عمر بن عَبد العَزيز مَع ابنه عَبد المَلك حين احتُضر *

كان عبدُ الملك بن عمر بن عبد العزيز مِنْ أَحَبِّ الناسِ إلى أبيه ، فمرض فاشتد مرضُه ، فأُخبر أبوه بذلك ، فأتاه فوقف عليه ، وقال : يا بُنى ! كيف تجدك ؟ قال : أجِدُنى صالحاً ـ وكتمه ما به كراهةَ أن يَغُمَّه ـ قال : يابنى ، اصدُقْنى عن نفسك ، فإن أحبَّ الأمور إلىَّ فيك لموضعُ القضاء . قال : أجِدُنى ياأبتِ أموت ! فولّى عمر إلى قِبْلَته ، فبينما هو فى صلاته إذ مات عبد الملك ، فأتاه مُزاحم ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ تُوُفِّى عبدُ الملك ، فخرَّ مغشيًّا عليه .

فلما دُفِن عبدالملك قال مزاحم ـ وكان قد عهد إليه إذا رأى منه أمرين مختلفين أن يخبرَه بذلك : ياأمير المؤمنين ، رأيتُ منك عجباً ، أتيتَ عبدَ الملك فسألتَه عن حاله فكتمك ما به فقلتَ له : يابنى ، اصدقنى عن نفسك ، فإن أحبَّ الأمور إلىَّ فيك لموضع القضاء ؛ فأخبرك أنه يموت . فلمّا مات خررتَ مَغشيًّا عليك . قال : قد كان ذلك يامُزاحم ! فقد علمتُ أنَّ مَلَكَ الموت قد دخل إلى منزلى ؛ فأخذَ بَضْعَةً منى ، فراعنى ذلك فأصابنى ماقد رأيتَ !

* سيرة عمر بن عبد العزيز : ١٦١ .

١٠٢ ـ عِفَّة جرير(١) وفجور الفرزدق*

قَدِم الفرزدق(٢) على عمرَ بن عبد العزيز ، وهو على المدينة وَالِيها من قِبَل الوليد بن عبد الملك ، فأنزله عمر منزلاً قريباً منهوأكرمَه ، وأحسَنَ ضيافته، ثم إنه بلغه عنه أنه صاحبُ فُجُور ، فبعث إليه عمر بألطَافٍ مع جاريةٍ له ، وقال : اغسِلِي رأسه وألطِفيه جُهْدَكِ(٣) ـ وأراد اختبارَه بذلك ليعلم حاله .

فأتته الجارية ،وفعلتْ ما أمرها به مولاها ، ثم قالت له : أما تريدُ أن تَغسِلَ رأسك ؟ قال : بلى ، فقرَّبَتْ إليه الغِسْلَ(٤) ، ثم ذهبت لتغسل رأسَه ، فأقبَل عليها ، وذلك بعينِ عمر ، وهو يتطلَّع عليْهِ من خَوْخَةٍ(٥) له .

ولما خرجت الجاريةُ إلى عمرَ بعث إليه : أن اخرُج عن المدينة ، ولئن أخذتُك فيها ـ مادام لى سلطان ـ لأعاقبنَّك ، ونفاه عن المدينة .

فلما خرج وصار على راحلته قال: قاتل الله ابنَ المَرَاغة(٦) كأنه كان ينظرُ إلىَّ حيث يقول :

وكنتَ إذا نزلتَ بدارِ قومٍ رحلتَ بخزْيَةٍ(٧) وتركْتَ عارا

---

* نقائض جرير والفرزدق : ١ ـ ٣٩٧ ، طبع ليدن .

(١) جرير بن عطية الخطفى : أحد فحول الشعراء الإسلاميين ، ولد باليمامة ، ونشأ بالبادية وفيها قال الشعر ونبغ فيه ، ولما عظم أمره اتصل بالحجاج ومدحه ، ثم اتصل بعبد الملك بن مروان ، وعد من مداح بنى أمية . مات سنة ١١٠ هـ . (٢) الفرزدق هو أبو فراس همام بن غالب ، نشأ بالبصرة وأخذه أبوه برواية الشعر ونظمه فرواه ونبغ فيه ، وتعرف بولاة البصرة ومدحهم وهجاهم ، ثم رحل إلى خلفاء بنى أمية بالشام ومدحهم ونال جوائزهم . مات سنة ١١٠ هـ .

(٣) الجهد : الطاقة (٤) الغسل : ما يغسل به الرأس (٥) الخوخة : كوة فى الجدار تؤدى الضوء (٦) ابن المراغة : هو جرير . (٧) الخزية : البلية

ثم قدم جريرٌ على عُمَرَ فأنزله فى منزل الفرزدق ، و بعث إليه بتلك الجارية بعينها ، وأمرها أن تفعلَ بجرير ما فعلتْ بالفرزدق ؛ فألطَفَتْهُ ، وفعلتْ به مثل مافعلتْ بالفرزدق ، وقالت له : قُمْ أيُّهَا الشيخ ، فاغْسِلْ رأسك ، فقام ، وقال لها : تَنَحَّىْ عنى ، قالت له الجارية : سبحان الله ! إنما بعثنى سيدى لأَخْدُمك ، فقال : لا حاجةَ لى فى خِدْمَتِك ، ثم أخرجها من الُحجْرَةِ ، وأغلق الباب عليه وأتزَرَ ، فغسل رأسه ، وعمر ينظرُ إليه من حين بعث بالجارية إلى أن خرجَتْ من عنده .

فلما راح [1] أهلُ المدينةِ من منازلهم إلى عمر حدّثهم بفِعْلِ الفرزدق وجرير ، وما كان من أمْرِها ، ثم قال : عجبتُ لقومٍ يفضّلون الفرزدقَ على جرير مع عفّة جرير وفُجور الفرزدق ، وقلةِ وَرَعِه وخَوْفِه الله عزّ وجلّ !

---

(١) رجع .

١٠٣ ـ خالد القسري وزياد بن عبيد الله *

قال زياد بن عبيد الله : أتيتُ الشام،فبينما أنا يوماً على باب هشام بن عبدالملك إذ خرج عليّ رجلٌ من عنده ، فقال لى : ممن أنتَ يا فتى ؟ قلتُ : يمانٍ ! قال : فمَنْ أنتَ ؟ قلت : زياد بن عُبيد الله بن عَبْد المَدَان ، قال : فتبسّم وقال : قم إلى ناحية العسكر ، فقل لأصحابى : ترحّلوا ؛ فإن أمير المؤمنين قد رضىَ عنى ، وأمرنى بالمسير .

قلتُ : مَنْ أنتَ يرحمُك الله ؟ قال : خالد [1] بن عبد الله القسريّ ، ثم قال : ومُرْهم يا فتى أن يعطوك مِنْدِيلَ ثيابى و بِرْذَوْنى الأصفر . قال : فلما جُزْتُ قليلاً ناداني ، فقال : يا فتى ؛ وإن سمعتَ بى قد وليتُ العراقَ يوماً، فالحقْ بى .

قال : فذهبتُ إليهم ، فقلتُ لهم : إن الأميرَ قد أرسلنى إليكم بأنّ أميرَ المؤمنين قد رضى عنه ، وأمره بالمسير ؛ فجعل هذا يحتَضِنُنى ، وهذا يقبِّلُ رأسى ؛ فلما رأيتُ ذلك منهم قلتُ : وقد أمرنى أن تعطونى مِنْدِيلَ ثيابه و بِرذَوْنَه الأصفر قالوا : إى والله وكرامة ؛ فأعطونى منديل ثيابه و برذونه الأصفر ؛ فما أمسى بالعسكر أحدٌ أجود ثياباً ولا مركباً منى .

فلم ألبث إلا يسيراً حتى قيل : قد ولى خالدٌ العراقَ ؛ فركبنى من ذلك همّ ؛ فقال لى عَرِيف [2] لنا : مالى أراك مهموماً ؟ قلت : قد وُلّى خالد كذا وكذا ، وقد

---

* الطبرى : ٨ ـ ١٨١ .

(١) كان خالد القسرى أمير العراق من قبل هشام بن عبد الملك الأموى وولى قبل ذلك مكة ، وكان معدوداً من خطباء العرب المشهورين بالفصاحة والبلاغة ، جواداً كثير العطاء ، وتوفى سنة ١٢٠ هـ مقتولا ودفن بالحيرة .

(٢) العريف : رئيس القوم .

أصبتُ هاهنا رُزَيقاً عِشْتُ به ، وأخشى أن أذهبَ فيتغيّر عليّ ، فيفوتنى هذا وذاك ، فلستُ أدرى كيف أصنع ؟ فقال لى : هل لك فى خَصْلَة ؟ قلتُ : وما هى ؟ قال : توكلُنى بأَرْزاقك وتخرجُ ؛ فإن أصبتَ ماتحبّ فلى أرزاقُك ؛ وإلا رجعتَ فدفعتُها إليك . فقلت : نعم ، وخرجت .

فلما قدِمتُ الكوفة لبستُ من صالح ثيابى ؛ وأُذِنَ للناس فتركتُهم حتى أخذوا مجالسهم ، ثم دخلتُ ، فقمتُ بالباب ، فسلّمتُ ودعوتُ وأثنيتُ ، فرفع رأسه فقال : أحسنت ! بالرُّحب والسّعة ، فما رجعتُ إلى منزلى حتى أصَبْتُ ستمائة دينار بين نَقْد وعَرَض .

ثم كنتُ أختَلِف إليه ؛ فقال لى يوماً : هل تكتبُ يا زياد ؟ فقلتُ : أقرأ ولا أكتبُ ، أصلحَ اللهُ الأميرَ ! فضربَ بيده على جَبِينه ، وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون! سقطمنك تسعةُ أعشارما كنتُ أريدهمنك، وبقى لكواحدةٌ فيهاغِنَى الدهر.

قلت : أيّها الأمير ، هل فى تلك الواحدةِ ثمنُ غلام ؟ قال : وماذا حينئذ ؟ قلتُ : تشترى غلاماً كاتباً تبعث به إلىّ فيعلمنى . قال : هيهات ! كبرتَ عن ذلك ! قلت : كلا ؛ فاشترَى غلاماً كاتباً حاسباً بستين ديناراً ، فبعث به إلىّ فأكببتُ على الكتاب ، وجعلت لا آتيه إلّا ليلًا ، فما مضت إلا خمس عشرة ليلة حتى كتبتُ ما شئتُ وقرأتُ ما شئت !

قال : فإنى عنده ليلة إذ قال : ما أدرى هل أنجحتَ من ذلك شيئاً ؟ قلت : نعم ، أكتبُ ماشئتَ وأقرأ ما شئت! قال : إنى أراك ظفرتَ منه بشىء يسير فأعجبك . قلت : كلا .

فقال : اقرأ هــذا الطُّومَار [1] ، فقرأتُ ما بين طرفيه فإذا هو من عامله على الرىّ ، فقال : اخرج فقد وليتك عمله !

---

(١) الطومار : الصحيفة .

١٠٤ ـ الفَقرخَصمٌ لجُوج *

رَكب خالد(١) فى يومٍ شديدِ البردِ كثيرِ الغَيْم ، فتعرّض له رجلٌ فى الطريق؛ فقال له : ناشدتُكَ الله إلا ضربتَ عنقى ! فقال له : أكُفرٌ بعد إيمان ؟ قال : لا ؛ قال : أفتَرْغَبُ عن طاعة الرحمن ؟ قال : لا ؛ قال : أفقتلتَ نفساً ؟ قال : لا . قال : فما سببُ ذلك ؟ قال : لى خصمٌ لَجُوج قد عَلقَ بى ، ولزِمَنى وقهرَنى . قال : مَن هو ؟ قال : الفقر ! قال : فكم يكفيكَ لِدَفْعِه ؟ قال : أربعة آلاف درهم ، قال : إنى مُمِدُّكَ بأربعة آلاف درهم .

ثم قال خالد : يا غلام ، ادْفَعْ له أربعة آلاف درهم ، والتفَتَ وقال : هل رَبِحَ أحدٌ من التجار كربْحِى اليوم ؟ قالوا : وكيف ذلك ؟ قال : عزمتُ على أن أعطىَ هـذا الرجلَ ثلاثين ألف درهم ، فلما طلب أربعة آلاف درهم وَفّر علىّ ستة وعشرين ألف درهم .

فلما سمع الرجلُ ذلك منه قال : حاشاك وأعيذك بالله أن تربحَ على مُؤَمِّلِكَ . فقال : يا غلام ؛ أعْطِهِ ثلاثين ألفاً ، ثم قال للرجل : اقْبِض المال ؛ واذهبْ آمناً إلى خَصْمِك ، ومتى رجع يُعَارِضُك فاستَنْجِدْ بنا عليه !

---

* المختار من نوادر الأخبار ــ مخطوط .

(١) هو خالد بن عبد الله القسرى .

١٠٥ - يشتكي الفقر *

أتى رجلٌ إلى عليّ بن سليمان ، فقال له : بالذى أسبغَ عليك هذه النعم ـ من غير شفيع كانَ لك إليه تفضُّلاً منه عليك ـ إلّا أنصفْتَنِي من خَصْمى ، وأخذتَ الحقَّ منه ، فإنه ظَلُومٌ غَشُوم ، لا يستَحْيِي من كبير ، ولا يلتفتُ إلى صغير ! فقال له : أعْلِمنى مَنْ هو ؟ فإن ينصفْك ، وإلا أخذتُ الذى فيه عيناه ! مَنْ هو ؟

فقال : الفقر ، فأطْرَق إلى الأرض مَلِيًّا ، يَنْكُتُ (١) الأرض بإصبعه ، ثم رفع رأسه ، فأمر له بعشرة آلافِ دينار ، فأخذها ومضى ، فلما سار خارجاً قال : رُدُّوه .

فلما مثَل بين يديه قال : ياذا الرجل ، سألتُك بالله ـ متى أتاك خصمُك متعسِّفاً ـ إلا أتيتَ إلينا متظَلِّماً .

---

* عين الأدب والسياسة : ١٨٦ .

(١) النكت : أن تضرب الأرض بقضيب فيؤثر فيها .

١٠٦ ـ حدِّثني عن أغرب ما مرَّ بك*

لما أفضَتِ الخلافةُ إلى بنى العبَّاس اختفى جميعُ رجالِ بنى أُميَّة ـ وكان منهم إبراهيمُ بن سُلَيمان ـ فشفعَ له عند السَّفَّاح (١) بعضُ خواصّه . فأعْطاه الأمان ، ثم أحلَّه مجلسَه ، وأكرم مَثْواه .

وقال له السَّفاح ذات يوم : يا إبراهيم ، حدِّثنى عن أغرَب ما مرَّ بك أيامَ اختفائك .

فقال : كنت مختفياً فى الحِيرة بمنزل مُشْرِفٍ على الصحراء ، فبينما كنْتُ يوماً على ظَهْرِ ذلك البيت أبصرتُ أعلاماً سَوْدَاء قد خرجتْ من الكوفة تُريدُ الحِيرة ، فأوجَسْتُ منها خِيفةً إذ حسبتُها تقصدنى .

فخرجتُ مُسْرِعاً من الدار متنكِّراً ، حتى أتيتُ الكوفةَ ، وأنا لا أعرفُ مَنْ أختَفِى عنده ، فبقيت متحيّراً فى أمرى ، فنظرتُ وإذا أنا بباب كبير فدَخَلْتُه ، فرأيت فى الرَّحَبة (٢) رجلًا وَسِيما (٣) لطيفَ الهيئةِ ، نظيفَ البزّة (٤) ، فقال لى : مَن أنت ؟ وما حاجتُك ؟ قلت : رجلٌ خائفٌ على دَمِه ، جاء يَسْتَجِيرُ بك .

فأدخلنى منزله ، وَوَارانى فى حُجرة تلى حجرةَ حُرَمِه (٥) . فأقمتُ عنده ، ولى كلُّ ما أحبُّ من طعام وشرابٍ ولِباس ، وهو لا يسألنى عن شىء من حالى ، إلا أنه كان يركبُ فى كلّ يوم من الفجر ، ولا يرجع إلّا قُبَيل الظهر .

---

* بحر الآداب : ٣ ـ ٥٢ .

(١) اسمه عبد الله بن محمد ، أول خلفاء الدولة العباسية ، بويع له بالخلافة جهراً فى الكوفة سنة ١٣٢ هـ ، وتوفى بالأنبار سنة ١٣٦ هـ . (٢) الرحبة : الساحة . (٣) وسيما : حسن الوجه . (٤) البزة : الثياب . (٥) حرمه : نسائه .

فقلتُ له يوماً : أراكَ تُدمِن [1] الركوبَ ، فَفيمَ ذلك ؟ قال لى : إن إبراهيمَ ابنَ سليمان بن عبد الملك قَتل أبى ، وقد بَلغنى أنه مختفٍ فى الحِيرة ، فأنا أطلبهُ لعلى أجدُه وأُدْرِكَ منه ثأرى . فلما سمعتُ ذلك – يا أمير المؤمنين – عَظُم خوفى ، وضاقتِ الدنيا فى عينىّ ، وقلت : إنى سُقْتُ نفسى إلى حَتْفِى .

ثم سألتُ الرجلَ عن اسمه واسمِ أبيه ، فأخبرنى عن ذلك ؛ فعلمت أنَّ كلامَه حقٌ ؛ فقلت له : ياهذا ؛ إنه قد وجَب علىّ حقك ، وجزاءً لمعروفك لى أُرِيدُ أن أدلَّك على ضَالَّتِك .

فقال : وأينَ هو ؟ قلت : أنا بُغْيَتك إبراهيم بن سُليمان ، فَخُذْ بِثأرِك . فتبسم ، وقال : هل أَضْجَرك [2] الاختفاء والبعدُ عن دارك وأهلك فأحْبَبتَ الموت؟ قلت : لا والله ! ولكنى أقول لك الحق ، وإنى قتلتُ أباكَ فى يوم كذا من أجْل كذا وكذا .

فلما سمع الرجلُ كلامى هذا ، وعلم صِدْقِى تغيَّر لونُه واحمرّتْ عيناه ؛ ثم فكّر طويلًا ، والتفت إلىّ ، وقال . أمّا أنتَ فسوف تَلْقى أبى عند حاكمٍ عادل فيأخذُ بثأره منك ، وأمّا أنا فلا أخفُر ذمتى [3] ، ولكنى أرغَب أنْ تبعد عنى فإنى لستُ آمنُ عليك من نفسى . ثم إنه قدَّم لى ألفَ دينار ، فأبيتُ أخْذَها ، وانصرفتُ عنه .

فهذه الحادثة أغربُ مامرّ بى ، وهذا الرجلُ هو أكرمُ مَن رأيته ، وسمعتُ عنه بعدَكَ يا أمير المؤمنين .

---

(١) تدمن : تديم (٢) أضجرك : أتعبك (٣) لا أخفر ذمتى : لا أنقض عهدى معك ولا أغدر بك بعد أن أمنتك .

١٠٧ - المنصُور وأهــله *

قال أحمد بن إسماعيل :

كان أبى ومشايخُ أهلى يَجلسون مع أبى جعفر المنصور (١) ، وكان أحـداثُنا يجلسون دُونَ ذلكَ ، وكان يتفقّدُ من أُمورنا ما كان يتفقّده من أُمور ولده ، حتى يَسْتقرىَ (٢) أحدَنا ، ويسألَه ما بلَغ من القرآن ، وكُنـا نَصِلُ الغَـدَاة (٣) والعَشِىّ (٤) فنجلسُ فى مجلسه ، حتى يخرجَ إلينا .

وإنّا صِرْنا فى مجلسه ذاتَ يومٍ كعَادتنا ، فجلسنا ننتظرُ خروجهُ ، وأفاض أبى وعمومتى فى اسْتِبطَائه واستِئثاره عليهم ، فأطْنبُوا فى ذلك ، وكان الموكَّلُ بالبـاب - سليم الأسود - يرفع الستر إذا جاء ، فخانت من سليم غَفـلة ، وجاء أبو جعفر وهو يتسمَّعُ عليهم ، ففهم ماهمْ فيه ، ووثَب سليم ليرفعَ السِّـتر ، فأمْسك بيده ومنعه من رَفْعه حتى استوعب سَمْعه جميعَ ما كانوا فيه .

فلمـا انقضى كلامهم أمر برَفْعِ الستر ودخل ، فقاموا له كنَحْوِ ما كانوا يفعلون ، فقال : ما هذا ؟ إنما ينبغى أن تفعلوا هـذا بحضْرَةِ العامة ، لتَشدُّوا بذلك سُلْطانـكم ، فأما مجالسُ الخَلْوَة فنحنُ فيها إخوة .

ثم أمرهم بالجلوس ، وأقْبلَ عليهم ، وقال : ياعمومتى ، ويا إخوتى ، قد سمعتُ ما كنتُم فيه ، وقولَـكم : استأثر علينا ، ولَعَمْرِى لقد كان ذلك ، وما استئثارى عليـكم إلا لـكُم ، وإشفاقاً من ذهاب سلطانـكم ، وزوال أموالـكم ، وإنما أبكى

---

* غرر الخصائص : ١٦٧

(١) انضر صفحة ١١٠ (٢) استقرى : تتبع (٣) الغداة : ما بين صلاة الفجر إلى طلوع الشمس (٤) العشى من صلاة المغرب إلى العتمة .

لكم رِقَّةً عليكم ، فكأنى بالرجل منكم ومن أبنائكم ، أو من أبناء أبنائكم بين يَدَى الرجلِ من وَلَدِى أو وَلَد ولدى ، ينتسبُ له فلا يعرفهُ ، بل لعله يبلغ عليّ بن عبد الله بن العباس ، فذهبوا ليتكلّموا ، فقال : أقسمتُ عليكم لمَا سكتّم ، أفيضوا بنا فى غير هذا الحديث .

قال أحمد: وضرب الدهرُ ضَرَبانَه[(١)] ، وماتَ المنصور، وَوَلِىَ المهدىّ ومات ، وَوَلى الهادى ثم مات ، ووَلِىَ الرشيد ، وخرج إلى الرقّة ، ونالَتْنَا جَفْوَة ، ولزمنى دَيْن فخرجتُ إليه ، فكان أول ما لقيتُ موكباً عَظيماً ، فقلت : ماهذا ؟ فقيل لى : هذا وَلِيَّا العهد : الأمين والمأمون .

فترجَّلْتُ وسلَّمْتُ عليهما ، فقالا : مَن أنتَ ؟ قلت : أحمد بن إسماعيل بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، و بكيتُ ، فانتهى الخبرُ من ساعته إلى الرشيد ، فلم أصلْ إلى منزلى حتى لَقِيَنى رسوله يدعونى .

فلمّا دخلتُ عليه ، قال لِى : مِمَّ بكيتَ ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، كان من القصَّة كَيْتَ وكيت ، وسُقْتُ إليه خبرَ المنصور ، فبكيتُ إذ كنتُ المبتلَى بذلك دون من حَضَره ، فقال لى : هما ابْنَا أخيك ، وهى عَوْرَةٌ فاسْتُرها ، ولن تُسْأل عن نَسَبِك بعد اليوم ، ما أقدمَك ؟ قلت : دينٌ لزمنى . قال : وكم هو ؟ قلت : عشرون ألفَ دينار . فقال : يا غلامُ ، احملها إليه الساعةَ ، واجعل معها خمسة آلاف دينار لحفظه الحديثَ عن المنصور . هل من حاجةٍ لك غير ذلك ؟ قلت : أودِّع أميرَ المؤمنين ، وانصرفت .

---

(١) ضرب الدهر ضربانه ومن ضربانه : مر ، وذهب بعضه .

١٠٨ - هـذا بُغْيَة أمير المؤمنين*

أهدر أميرُ المؤمنين المنصورُ دَمَ رجلٍ ، كان يَسْعى بفسادِ دَوْلته مع الخوارج، من أهل الكوفة . وجَعَل لمن دلّ عليه ، أو جاء به مائةَ ألف درهم . ثم إنَّ الرجلَ ظهرَ في بغداد ، فبينما هو يمشي مُخْتفياً في بعض نواحيها ، إذ بَصُر به رجلٌ من أهلِ الكوفة ، فعرفه ؛ فأخذ بمجامع ثيابه، وقال : هذ بُغْيَةُ أمير المؤمنين .

فبينما الرجلُ على هذه الحال إذ سَمع وقْعَ حوافر الخيل ، فالتفَت فإذا معْن ابن زائدة[1] ، فاستغاث به ؛ وقال : أَجِرْني أجارَكَ الله ! فالتفَت مَعْنٌ إلى الرجل المتعلِّق به ، وقال : ماشأنُكَ وهذا ؟ فقال : إنه بُغْيَةُ أمير المؤمنين الذي أهْدَرَ دَمه وجعل لمن دلّ عليه مائةَ ألف درهم . فقال : دَعْهُ . وقال لغلامه : انزل عن دابّتك ، واحمل الرجلَ عليها .

فصاح الرجلُ المتعلِّقُ به وصرخ واستجار بالناس ، وقال : أَيُحَالُ بيني وبين بُغية أمير المؤمنين ؟ فقال له مَعْن : اذهب فقل لأميرِ المؤمنين ، وأخبره أنه عندي .

فانطلق الرجلُ إلى المنصور وأخبره ، فأمر المنصو بإحضار مَعْن في الساعة ؛ فلما وصل أمرُ المنصور إلى مَعْن دعا جميعَ أهل بيته ومواليَه وأولادَه وأقاربَه وحاشيته ، وجميعَ مَن يلوذُ به ؛ وقال لهم : أقسم عليكم ألاّ يصلَ إلى هذا الرجل مكروه أبداً ؛ وفيكم عين تَطْرِف .

* ذيل ثمرات الأوراق للحموى : ١٦٧ ، غرر الخصائص : ١٧

(١) كان معن بن زائدة جواداً شجاعاً ، جزيل العطاء ، كثير المعروف ممدحا مقصوداً ، وكان في أيام بني أمية متنقلا في الولايات ومنقطعا إلى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى ، فلما كانت أيام المنصور اتصل به بعد أحداث ، وصار من خواصه ، وتوفي سنة ١٥٨ هـ .

ثم إنه سار إلى المنصور؛ فدخل وسلَّم عليه، فلم يردّ عليه المنصورُ السلام، ثم قال له: يامَعْن ! أتتجرّأ عليَّ؟ قال: نعم، يا أمير المؤمنين! فقال المنصور: ونعم أيضاً! وقد اشتدّ غضبه. فقال مَعْن: ياأميرَ المؤمنين؛ كم من مرة تقدّم في دولتكم بلائى، وحُسْنُ غَنائى[1]؟ وكم من مرة خاطرتُ بدمى؟ أفما رأيتمونى أهلا لأنْ يُوهَب لى رجلٌ واحد استجارَ بى بين الناس، يوهمه أنى عبدٌ من عبيد أمير المؤمنين، وكذلك أنا! فمُرْ بما شئت، وهأنذا بين يديك!

فأطرق المنصورُ ساعة، ثم رفع رأسه، وقد سكَنَ مابه من الغضب، وقال له: قد أجَرْناه لك يامَعْن. فقال له مَعْن: إنْ رأى أميرُ المؤمنين أن يجمعَ بين الأجْرَين فأمر له بصلة أحْيَاه وأغْناه.

فقال المنصورُ: قد أمَرْنا له بخمسين ألف درهم. فقال معن: ياأميرَ المؤمنين؛ إن صلاتِ الخلفاء على قَدْرِ جِنَايات الرعية، وإن ذنبَ الرجل عظيم، فأجْزِلْ له صِلَته. قال: قد أمرنا له بمائة ألف درهم. فقال له معن: عَجِّلْها يا أميرَ المؤمنين، فإنّ خيرَ البرّ عاجلُه، فأمر بتعجيلها؛ فحملها وانصرف؛ وأتى منزله؛ وقال: للرجل: يارجلُ؛ خُذْ صِلَتكَ والحقْ بأهلك؛ وإياك ومخالفَة الخلفاء فى أمورهم بعد هذه.

(١) الغناء: النفع.

١٠٩ ـ مَعن بن زائِدَة والأسود *

قال معنُ بن زائدة : لما هربتُ(١) من المنصور خرجتُ من باب حرب ، بعد أن أقمتُ فى الشمس أياماً ، وخففتُ لحيتى وعارضىّ ، ولبستُ جُبَّةَ صوفٍ غليظة ، وركبتُ جملا ، وخرجتُ عليه لأمضىَ إلى البادية ، فتبعنى أسود متقلّدٌ سيفاً ، حتى إذا غِبتُ عن الحرس ، قبض على خطَام(٢) الجمل فأناخه ، وقبض علىّ ، فقلت : ماشأنك ؟ فقال : أنتَ بُغيةُ أمير المؤمنين ! فقلتُ له : ومَنْ أنا حتى يطلبَنى أميرُ المؤمنين ؟ فقال : معنُ بن زائدة . فقلت : ياهذا ، اتقِ الله ! وأين أنا من مَعْن ؟ فقال : دَعْ هذا عنكَ ، فأنا والله أعرفُ بك . فقلت له : فإن كانت القصَّةُ كما تقول ، فهذا جوهرٌ حملتُه معى بأضعافِ مابذله المنصور لمن جاءه بى ، فخذه ولا تَسْفِك دمى .

فقال : هاتِه ، فأخرجتُه إليه ، فنظر إليه ساعةً ؛ وقال : صدقتَ فى قيمته ، ولستُ قابلَه حتى أسألك عن شىء ، فإن صدقتنى أطلقتُكَ ؛ فقلت : قلْ ، فقال : إن الناس وصَفُوك بالجود ، فأخبرنى : هل وهبتَ قطّ مالكَ كلّه ؟ قلتُ : لا ، قال: فنصفَه ؟ قلت : لا ،قال : فثلثَه ؟ قلت : لا ؛ حتى بلغ العشر ، فاستحييْتُ ،وقلتُ:

---

* نهاية الأرب : ٣ ـ ١١ ، عصر المأمون ٢ ـ ١٩٧ .

(١) كان سبب غضب المنصور أن معنا كان منقطعاً إلى يزيد بن عمر بن هبيرة فى عهد بنى أمية ، فلما كان عهد المنصور وجرى القتال بين المنصور ويزيد انضم معن إلى يزيد وأبلى بلاء حسناً حتى قتل يزيد ، فهرب معن وطلبه المنصور ثم عفا عنه بعد ذلك .

(٢) خطام الجمل : كل حبل يعلق فى حلق البعير ثم يعقد على أنفه .

أظنّ أنى قد فعلتُ هـذا ! فقال : ماذاك بعظيم ! أنا والله رَاجل[1] ورِزقِى من أبى جعفر عشرون درهماً ،وهذا الجوهرُ قيمته ألفُ دينار ،وقد وهبته لك ،ووهبتُك لنفسك ، ولجودِك المأثور بين الناس ! ولتعلمَ أنّ فى الدنيا مَن هو أجودُ منك ، فلا تعجبك نفسك ، ولتُحقِّر بعد هذا كلّ شىء تفعلُه ، ولا تتوقف عن مكرُمة ، ثم رمى بالعدل إلىّ ، وخلى خطامَ الجمل وانصرف .

فقلت : ياهـذا ! قد فضَحتَنى ، ولسَفكُ دَمى أهونُ علىّ مما فعلتَ ، فخذْ مادفعتُه إليك ، فإنى عنه فى غنى ؛ فضحك ، ثم قال : أردتَ أن تكذبنى فى مقامى هذا ! فوالله لا آخذُه ، ولا آخذ لمعروف ثمناً أبداً ، ومضى .

فوالله لقد طلبته بعد أن أَمِنتُ ; وبذلتُ لمن يجىء به ماشاء ، فما عرفتُ له خبراً ، وكأن الأرض ابتلعته .

(١) الراجل : ضد الفارس .

١١٠ - عقيد المجد والجود *

كان لمَعْن زائدة شاعرٌ يغشى مجلسه فى كل يوم ، فانقطع عنه أياماً ، فلما دخل عليه قال : ما أبطأك ؟ قال : وُلد لى مولود ! قال : فما سميته ؟ قال :

سميتُ معناً بمعن ، ثم قلت له : هـذا سميُّ عقيد المجدِ والجود (١)

قال : ياغلام ؛ أعطه ألفَ دينار ، وقل بيتاً آخر ؛ فقال :

سما بجودك جودُ الناس كلِّهم فصار جودك مِحْرابَ الأجَاوِيد (٢)

قال : ياغلام ؛ أعطه ألفَ دينار ، وقل بيتاً آخر ، فقال :

أنت الجوادُ ومنك الجودُ أوله فإن فقدتَ فما جودٌ بموجودِ

قال : ياغلام ، أعطه ألف دينار ، وقل بيتاً آخر ، فقال :

من نورِ وجهك تضحِى الأرض مُشرقةً ومن بنانك يجرى الماء فى العودِ

قال : ياغلام ، أعطه ألف دينار ، وقل بيتاً آخر ، فقال الغلام : لا تقل شيئاً بعد ذلك ، والله لم يبق فى بيت المال إلا ما أخذتَ ، ثم انصرف .

---

* المختار من نوادر الأخبار — مخطوط .

(١) هو سمى فلان : إذا وافق اسمه اسم فلان ، وعقيد المجد : معاقده ، أى ملازمه .

(٢) [illegible] جواد .

١١١ - مثلُك يُصطَنع *

طلب المنصورُ معنَ بن زائدة زمناً ، وما زال مستتراً حتى كان يوم الهاشمية (١) فلما وثب القومُ على المنصور ، وكادوا يقتلونه ، وثب معنٌ وهو مُتَلَثِّمٌ ، فانتضى سيفه وقاتل ، فأبلى بلاء حسناً ، وذبَّ (٢) القومَ عنه حتّى نجا .

ثم جاء والمنصور راكبٌ بغلةً ، ولجامُها بيد الربيع ، فقال له : تنحَّ فإني أحقُّ باللجام منك في هذا الوقت وأعظمُ فيه غناء ، فقال له المنصور : صدَق ، فادفعه إليه ! فأخذه ، ولم يزلُ حتى انكشفتْ تلك الحال .

فقال له المنصور : مَنْ أنت ؟ لله أبوك ! قال : أنا طَلِبتك يا أمير المؤمنين ؛ معن بن زائدة ! قال قد أمّنك الله على نفسك ومالك ، ومثلك يصطنع . ثم أخذه معه ، وخلع عليه وحباه وزيّنه ، ثم دعا به يوماً فقال له : إني قد أملتُك لأمرٍ فكيف تكونُ فيه ؟ قال : كما يحبُّ أميرُ المؤمنين . قال : وليتُك اليمن فابسُطِ السيفَ فيهم حتى ينقَضَ حِلف ربيعة واليمن ، وابلغ من ذلك ما يحبُّ أمير المؤمنين .

* المهذب : ٩ ـ ٨٨ .

(١) الهاشمية : مدينة بناها السفاح بالقرب من الكوفة سنة ١٣٤ هـ . وفيها حبس المنصور عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب ومن كان معه من أهل بيته .

(٢) ذب عنه : منع ودفع .

١١٢ - نعمة عدوّك قِلادةٌ في عُنقي*

أرسل المنصورُ إلى شيخٍ من أهل الشام - وكان من بِطَانة[1] هشام بن عبد الملك بن مروان - فسأله عن تدبير هشام فى حروبه مع الخوارج ، فوصف الشيخُ له ما دبّر ، فقال : فعل - رحمه الله - كذا ، وصنع - رحمه الله - كذا ! فقال المنصور : قُمْ عليك لعنةُ الله ! تطأُ بساطى وتترحّم على عدوّى ! فقام الرجلُ ، وقال - وهو مولٍّ : إن نعمةَ عدوّك لقِلادةٌ فى عُنقى لا ينزعها إلا غَاسل .

فقال له المنصور : ارجع ياشيخ ، فرجَع ، فقال : أشهدُ أنك حرٌّ شريف ، ارجع إلى حديثك . فعاد الشيخُ إلى حديثه ، حتى إذا فرغ دعا له بمال ، فأخذه ، وقال : والله يا أميرَ المؤمنين ، مالى إليه حاجة ، ولقد مات عنى من كنتُ فى ذكره ، فما أحوجنى إلى الوقوفِ على بابِ أحدٍ بعده ، ولولا جلالةُ أمير المؤمنين وإيثارى طاعته ما لبستُ نعمةَ أحدٍ بعده .

فقال المنصور : إذا شئتَ ، لله أنت ! فلو لم تكن لقومك لكنتَ أبقيتَ لهم مَجداً مُخلّداً وعِزًّا باقياً .

---

* المحاسن والمساوى : ١١٩ ، (طبع ليزج) .

(١) بطانة الرجل : خاصته .

١١٣ ـ جود عبد الواحد بن سليمان

قال عبد الله بن إبراهيم الجمحى : قلت لابنِ [1] هَرْمة : أتمدحُ عبدَ الواحد ابن سليمان بشعرٍ مامَدَحْتَ به غيرَه فتقول فيه هذا البيت :

وجــدناَ غالباً كانتْ جَناحاً وكان أبُوكَ قادِمةَ [2] الجناح

ثم تقول فيها :

أعبْدَ الواحــدِ الميمونَ إنى أغَصُّ حِذَارَ سُخْطِك بالقَرَاح [3]

فبأىّ شىء استوجبَ ذلك منك ؟ فقال : إنى أخبرك بالقصة لتعْذرنى :

أصابتنى أزْمَةٌ بالمدينة ، فاستنهضتنى بنتُ عمى للخروج ؛ فقلت لها : ويحك ! إنه ليس عندى مايقِلُّنى . فقالت : أنا أُنهضك بما أمكننى ، وكانتْ عندى نابٌ [4] لى ، فنهضتُ عليها نهجّدُ [5] النوام ، ونؤذى السمار ، وليس من منزل أنزله إلا قال الناس : ابن هرمة ! حتى دَفعتُ إلى دِمشق .

فأويتُ إلى مسجد عبد الواحد فى جوف الليل ، فجلستُ فيه أنتظرُه إلى أن بزغ الفجر ، فإذا الباب ينفلق عن رجلٍ كأنه البدر ، فدنا فأذّن ، ثم صلى ركعتين ؛ وتأملته فإذا هو عبد الواحد ، فقمتُ فدنوتُ منه وسلمتُ عليه ؛ فقال لى : أبو إسحق ! أهلاً ومَرْحباً ؛ فقلتُ : لبيك ، بأبى أنتَ وأمى ! وحيّاكَ اللهُ بالسلام

* الأغانى : ٦ ـ ١٠٧ .

(١) اسمه إبراهيم بن على : شاعر قال عنه الأصمعى : إنه أحد من ختم به الشعر وكان مدمناً للشراب مغرماً به ، وهو من سكان المدينة ، توفى سنة ١٠٥ هـ (٢) القوادم : أربع أو عشر ريشات فى مقدم الجناح ، الواحدة قادمة (٣) القراح : الماء لا يخالطه شىء (٤) الناب : الناقة المسنة (٥) نهجد النوام : نوقظهم ، وهو من الأضداد .

وقرّبك من رِضْوانه ؟ فقال : أما آن لك أن تزورَنا ؟ فقد طال العهـدُ ، واشتدّ الشوق ، فما وراءك ؟ قلت : لا تسلْني ـ بأبي أنت وأمي ـ فإن الدّهر قد أخنى عليّ؛ فما وجدتُ مُستغاثاً غيرك ؛ فقال : لا ترعْ [1] ؛ فقد وَرَدْتَ على ماتحبُّ إنْ شاء الله .

فوالله إني لأخاطبُه ، فإذا بثلاثة فتية قد خرجوا كأنهم الأشْطَان [2] ، فسلموا عليه ، فاستدْنى الأكبرَ منهم فهمسَ إليـه بشيء دوني ودون أخويه ، فمضى إلى البيت ثم رجع ، فجلس إليه فـكلمه بشيء دوني ثم ولى ، فلم يلبَث أن رجع ومعه عَبْدٌ ضابط [3] ، يحمل عبئاً من الثياب حتى ضرَب به بين يدي [4] ، ثم همس إليه ثانيةً فعاد ، وإذا به قد رجع ومعه مثلُ ذلك ، فضرب به بين يدي .

فقال لي عبد الواحد : ادْنُ ياأبا إسحاق ؛ فإني أعلم أنك لم تصرْ إلينا حتى تفاقم صَدعُك ؛ فخذ هـذا وارجع إلى عِيالك ، فوالله ماسلَلنا لك هـذا إلا من أشْداق عِيالنا ، ودفع إليّ ألف دينار ، وقال لي : قمْ فارحل فأغِثْ مَنْ وراءك .

فقمت إلى الباب ، فلما نظرتُ إلى ناقتي ضِقتُ ؛ فقال لي : تعال ، ماأرى هذه مُبَلِّغتك . ياغلامُ ؛ قدّم له جملاً . فوالله لقد كنتُ بالجمل أشدّ سروراً مني بـكلّ مانلتُه ؛ فهل تلومني أن أغص حِذارَ سُخطِ هـذا بالقَراح ! والله ماأنشدته ليلتئذ بيتاً واحداً .

(١) لا ترع : لا تخف ولا تفزع (٢) الأشطان : جمع شطن ، وهو الحبل الطويل .
(٣) ضابط : قوي شديد . (٤) رمى به .

١١٤ـ أبو حنيفة يرعى الجوار *

كان لأبي حَنيفة [١] جارٌ بالكوفة يُغَنِّي في غُرْفته ، ويسمعُ أبو حنيفة غِناءه فيعجبه ، وكان كثيراً ما يغنّى :

أضاعُونى وأىَّ فَتًى أَضاعُوا ... لِيَوْمِ كريهةٍ وسِدَادِ [٢] ثَغْرِ

فلقيه العَسَسُ [٣] ليلةً فأخذوه وحُبِس .

فَفَقَدَ أبو حنيفة صوتَه تلك الليلة ، فسأل عنه من غدٍ فأُخْبِرَ ؛ فدعا بِسَوَادِه وطَويلته [٤] فلبسهما ، وركب إلى عيسى بن موسى ، فقال له : إن لى جاراً أخذه عَسَسُك البارحة فحُبس ، وما علمتُ منه إلا خيراً . فقال عيسى : سلّموا إلى أبى حنيفة كلَّ من أخذه العَسَسُ البارحة ؛ فأُطلقوا جميعا ؛ فلما خرج الفتى دعا به أبو حنيفة وقال له سِرًّا : ألستَ كنت تغنّى يافتى كل ليلة :

* أضاعونى وأىَّ فتى أضاعوا *

فهل أَضَعْنَاكَ ؟ قال : لا والله ، ولكن أحسنتَ وتكرّمتَ ، أحسن الله جزاءك . قال : فعُدْ إلى ما كنت تغنّيه ، فإنى كنت آنسُ به ، ولم أر به بأساً ، قال : أفعل !

(*) الأغانى : ١ـ٤١٤ .

(١) هو النعمان بن ثابت من موالى تيم الله بن ثعلبة ، دعاه ابن هبيرة للقضاء فأبى ومات ببغداد سنة ١٥٠ هـ (٢) سداد الثغر : سده بالخيل والرجال (٣) العسس : جمع عاس وهو الذى يطوف بالليل يحرس الناس ويكشف أهل الريبة (٤) الطويلة : القلنسوة العالية المدعمة بعيدان؛ وكان السواد شعارا لبنى العباس .

١١٥ - يُرْبِى الله الصّدقات*

قال سوّار : انصرفتُ يوماً من دارِ المهدى[1] ، فلما دخلتُ منزلى دعوتُ بالطعام فلم تقبلْهُ نفسى ، فأمرتُ به فرُفِع ، ودخلتُ وقتَ القائلة فلم يأخذْنى نوم، فنهضتُ وأمرتُ ببغلة لى فأُسْرِجَتْ وأُحضِرَت ، فركبتُها .

فلما خرجت استقبلَنى وكيلٌ لى ، ومعه مال، فقلت : ماهذا ! فقال: ألفا درهم جَبَيْتُها من مُسْتَغَلِّكَ الجديد . قلت : أمسكها معك واتبعنى .

فخلّيت رأس البغلة حتى عبرت الجسر ، ثم سرتُ حتى انتهيت إلى الصحراء، ثم رجعتُ إلى باب الأنبار ، فانتهيتُ إلى باب دار لطيف، عليه شجَرَةٌ ،وعلى الباب خادم ، فوقفت وقد عطشت ؛ فقلت للخادم : عندك ماء تَسْقِينِيه ؟ قال : نعم !وقام، فأخرج قُلَّة نظيفة طيبةَ الرائحة ، عليها مِنديل ، فناولَنى فشربتُ ، وحضر وقتُ العصر فدخلتُ مسجداً ، فصلّيت فيه .

فلما قضيتُ صلاتى إذا أنا بأعمى يتلمّس الطريق ، فقلت : ماتريد ياهذا ؟ قال: إياكَ أريد ! قلت : وما حاجتُك ، فجاء حتى قعد إلىّ وقال : شممتُ منك رائحةَ طيبة، فظننتُ أنك من أهل النعيم ، فأردتُ أن أُلقِىَ إليك شيئاً . فقلت : قل . قال : ترى بابَ هذا القصر ؟ قلت : نعم ، قال : هذا قصرٌ كان لأبى فباعَه ، وخرج إلى خُراسان وخرجتُ معه ، فزالت عنه النِّعم التى كنَّا فيها ، وعميتُ ، فقدمت هذه

---

* العقد الفريد للملك السعيد : ١٢٣ .

(١) هو محمد بن عبد الله ، ولى بعد وفاة أبيه سنة ١٥٨ هـ ، وكان محمود السيرة محببا إلى الرعية جواداً - توفى سنة ١٦٩ هـ .

المدينة ؛ فأتيتُ صاحبَ هذه الدار لأسأله شيئاً يَصِلُنى به وأتوصل به إلى سوّار ؛ فإنه كان صديقاً لأبى . قلت : ومن أبوك ؟ قال : فلان ابن فلان .

قال : فإذا هو كان أصدق الناس لى ، فقلت له : ياهذا ؛ فإن الله تعالى قد أتاك بسوّار ؛ ومنعه النوم ، والطعام والقَرار حتى جاء به فأقعده بين يديك . ثم دعوت الوكيل ، فأخـذت الدراهم منه ، فدفعتُها إليه ؛ وقلت له : إذا كان غَدٌ فصرْ إلى منزلى ؛ ثم مضيتُ فقلت : ما أُحَدِّثُ أميرَ المؤمنين المهدى بشىء أظرفَ من هذا .

فأتيتُه فاستأذنتُ عليه فأذِن لى ، فلما دخلتُ عليه حدّثتُه ، فأعجبَه ، ثم أمر لى بألفى دينار ، وقال : ادْفعها إلى الأعمى . فنهضتُ ، فقال : اجلس ، أعليك دَين ؟ قلت : نعم ! قال : كم دَينُك ؟ قلت : خمسون ألف درهم ! فأمسك ، وجعل يحادثنى ساعة ، وقال : امضِ إلى منزلك . وإذا بخادم معه خمسون ألفًا ، وقال : يقول لك أمير المؤمنين : اقضِ بها دينَك ؛ فقبضتُ ذلك منه .

فلما كان من الغد أبطأ علىّ الأعمى ، وأتانى رسولُ المهدى يدعونى ، فجئتُه ، فقال : فكّرْتُ البارِحَة فى أمرك ، فقلت : يقضى دينه ، ثم يحتاجُ إلى القَرْض أيضاً ، فأمرت لك بخمسين ألف درهم أخرى . فقبضتُها ، ثم انصرفت !

فجاءنى الأعمى ، فدفعتُ إليه الألفين ، وقلت له : قد رزقَ الله تعالى بكرمه ـ بإسداء المعروف إليك ـ بأضعاف ذلك ، ثم أعطيتُه شيئاً آخر من مالى ، وجهّزْتُه وانصرف .

١١٦ ـ العِرْقُ دَسّاس*

قال عثمان بن سليمان :

خرجتُ فى نَفَرٍ من هُذيل من أهل البصرة ، نريد باديةً فى أمرٍ طَرَقَهُمْ ، وكان مسيرُنا ثلاثاً ، فنزلنا فى الليلة الأولى على حىٍّ من بنى مازن ، فقصدنا بيتاً رَحْباً فإذا ببابه رجلٌ وامرأةٌ ، وهما صاحبا البيت ، فسلمنا فردّت المرأةُ السلام ، وحيّت ، وأظهرت بِشْراً و بشاشة ، وأعْرض الرجل وأظهر تَبَرُّماً وتضجُّراً .

فقالت لنا المرأة : انزلوا بالرُّحب والسَّعة ، فقال الرجل : ما عندنا موضعٌ لنزولكم ، فقالت المرأةُ : سبحان الله ! تقولُ هذا لِضيفَانٍ(١) قد حلُّوا بنا ، ووجب حقُّهم علينا ؟ ! انزلوا بارك الله فيكم ؛ فظهر منا انقباضٌ ونفور لما سمعنا من بَعْلِها ، فقالت : لا يُحْشِمَنَّكم(٢) ما سمعتُم منه ! فإن له فيما أبداه من ذلك عذراً !

وأمرت أتْباعها فأحْدقوا بنا وأنزلونا ، وانطلق بَعْلُها كالِحاً(٣) وجهه كالمغضب ؛ فكثر منه تعجُّبنا ، إذ لا نعرفُ ذلك من أخلاق العرب !

و بِتْنَا ليلتنا خير مبيت ، ما تركت المرأةُ كرامةً إلا أكرمَتْنا بها .

وأصبحنا فأخذنا الطريق حتى أمسينا فى حىٍّ آخر ، فقصدنا بيتاً ضخماً ، فإذا ببابه رجلٌ وامرأة ؛ وهما صاحبا البيت ، فسلَّمنا فردّ الرجلُ السلام ، وحيّا وأظهر بشاشةً و بِشْراً . وأعرضت المرأة ، وأظهرت تَبَرُّماً بنا وكراهةً لمكاننا .

فقال لنا الرجل : انزلوا بالرُّحْب والسَّعة . فقالت المرأة : وكيف تُنْزِلهم

(*) المنتقى من أخبار الأصمعى : ٢٨

(١) جمع ضيف . (٢) أحشمه : أخجله وأغضبه . (٣) كالح : عابس .

وما عندنا ما يُصْلِحهم ؟ فقال الرجل : سبحان الله ! تقولين هذا لضيفان قد حلّوا بنا ؛ ووجب حقُّهم علينا ! انزلوا بارك الله فيكم ، فإنّ عندنا الذى يُصْلِحكم !

فظهر منا انقباضٌ شديدٌ لما سمعنا من زوجته ، فقال : لا يُحْشِمَنَّكم ماسمعتُم من هذه المرأة ؛ فإن لها فيما أبدَتْه من ذلك عذراً ! وأمر أتباعه فأحدقوا بنا وأنزلونا، ودخلت المرأةُ البيتَ مُغْضَبَة، فأطَلْنا المُنَاجاة فيما بيننا ، نعجبُ من الأول وزوجته ، ومن هـذا وزوجته ونقول : مافى جميع العرب كذلك البيت ، ولا كذا البيت ! ولو لم نَفِد فى وجهنا هـذا إلا ماشاهدنا من هـذا الأمر لـكان ذلك فائدةً تُؤثَر وتُذكَر . وصاحبُ البيت يتأمّلنا ويُصْغِى إلينا .

ثم أقبـلَ علينـا ، فقال : من أين خرجتم ؟ قلنا : من البصرة . قال : ومتى فارقتمُوها ؟ قلنا : غداةَ أمس . قال : فيمَنْ بتُّم البارحة ؟ فقلنا : ببنى فلان . فقال : وفى منزل مَن ؟ فقلنا : فى منزل رجل يقال له فلان . قال : فإنى رأيتكم تتحدّثون بينكم حديثاً تـكثِرُون منه التعجب ، فما ذاك .

فقلنا : إذَنْ والله نخبرك : إنه كان من الأمر كذا وكان كذا ، فقـال : قد ظننتُ ذاك ، أفلا أخْبركُم بمـا هو أعجبُ مما تتعجبّون منه ؟ قلنا : بلى ! قال : اعلموا ـ حيَّاكم الله ـ أن تلك المرأةَ التى بتُّم بِبَيتِها أختى لأبى وأمى ، وأن ذلك الرجلَ أخو زوجتى هذه لأبيها وأمها ، والذى رأيتم من جماعتنا خُلُقٌ جُبِلنا عليه ، لا تـكلّفَ فيه !

فقلنا : الحمد لله الذى جَبَلَك على أخلاق الـكُرَماء من الرجال !

١١٧ - إنَّ بَعْدَ العُسرِ يُسرا *

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلى :

لما دخلَ الرشيدُ (١) البَصرة حاجًّا كنتُ معه ، فقال لى جعفر (٢) بن يحيى يوماً : ياأبا محمد ، وُصِفتْ لى جارية مَغنِّية حسناء تُباع ، وذكروا أن مولاها يمتنع عن عَرْضها إلا فى داره ، وقد عزمتُ أنْ أركبَ متخفيًا فأراها ، أفتساعدنى؟ فقلت : السمع والطاعة .

فلما كان فى نصف النهار حضر النخّاس (٣) فأُعلم بحضوره ، فخرج جعفر بعمامة وطيْلَسان ونَعْل عربية ، وأمرنى فلبستُ مثلَه ، وركبنا حمارين قد أُسرجا لنا بسروج التجّار ، وركب النخّاس معنا ، وتخللنا الطريق ، حتى أتينا داراً ذات باب يدلُّ على نعمة قديمة .

فقرع النخاسُ الباب ، وإذا شابٌّ حسَنُ الوجه عليه آثار ضُرٍّ بادٍ ، وعليه قميص ، ففتح وقال : انزلوا ياسادة . فدخلنا ، وإذا بدهْليز (٤) ، ودار قَوراء (٥) خَرِبة ، فأخرج لنا الرجلُ قطعةً من حصير كبير خَلَق ، ففرشها لنا ، فجلسنا عليها ، وقال له النخاس : أحْضِرْ لنا الجارية ؛ فقد حضر المشترى .

(*) الفرج بعد الشدة : ٢ـ١٧٣ .

(١) انظر صفحة ١١٠ (٢) كان جعفر من علو القدر ، ونفاذ الأمر وبعد الهمة وعظم المحل وجلالة المنزلة عند هارون الرشيد بحال انفرد بها ، وكان سمح الأخلاق طلق الوجه ظاهر البشر ، جواداً سخياً معطاء ، فصيحاً لسنا بليغا ، قتله الرشيد فى خبر مشهور سنة ١٨٧ هـ (٣) النخاس: بياع الرقيق والدواب . (٤) الدهليز : مابين الباب والدار (٥) القوراء : الواسعة .

فدخل البيتَ ، وإذا بجارية قد خرجت فى القميص الغليظ الذى كان على الفتى بعينه ؛ وهى فيه مع خشونته كأنها فى الحلىّ والحلل لحسن وجهها ؛ وفى يدها عود ، فأمرها جعفر بالغناء لجسّته ، وضربت ضرباً حسناً ، واندفعت تغنى غناء جميلا . ثم غلبها البكاء حتى منعها الغناء ؛ وسمعنا من البيت نحيب الفتى ؛ وقامت الجارية تتعثَّرُ فى قميصها حتى دخلت البيت ، فارتفعت لهما ضجة بالبكاء والشهيق ؛ ثم خَفَتا حتى ظننا أنهما قد ماتا ؛ وهممنا بالانصراف ، فإذا بالفتى قد خرج ، وعليه ذلك القميص بعينه ؛ فقال : أيها القوم ، اعذرونى فيما أفعله وأقوله . فقال له جعفر : قلْ ؛ فقالَ : أشهد الله وأشهدكم أن هذه الجارية حُرة لوجه الله تعالى ، وأسألكم أن تزوجونى بها !

فتحير جعفر أسفاً على الجارية ، ثم خاطبها ، فقال : أترغبين أن أزوجك من مولاك ؟ قالت : نعم .فزوّجها به .

وأقبل جعفر على الفتى فقال : يا هذا ، ما حملك على ما فعلت ؟ فقال : أنا فلان ابن فلان ، وكان أبى من وجوه هذا البلد ومياسيره ، وهذا يعرفُ ذلك ـ وأشار إلى النخّاس ـ وأنه أسلمنى إلى المَكتَب(١) . وكانت لأمى صبية وسنها قريب من سنّى ـ وهى جاريتى هذه ـ وكانت معى فى المكتب تتعلم ما أعلم ، وتنصرف معى ، فكبرت ؛ ثم علمت الغناء ؛ فكنت أتعلمه منها .

ثم خطبني وجوهُ أهلِ البصرة لبناتهم ؛ فخيرنى أبى ، فأظهرتُ له الزُّهد فى التزويج ، ونشأتُ متوفراً على الأدب ، متقلباً فى نعمة أبى ، غير متعرضٍ لما يتعرضُ له الأحداث ، ورغبةُ أهل البلد تزدادُ فىّ ، وعندهم أن عِفتى لصلاح . وما كانت

---

(١) المكتب : موضع التعليم .

إلاّ لأُنسى بالجارية ؛ وأن رَغبتى لا تتعدّاها . وبلغت الجاريةُ فى الغناء ما قد سمعتموه ، فعزمت أمى على بيْعها ، وهى لا تعلمُ ما فى نفسى منها ، فأحسستُ بالموت ، واضطررت إلى أن صَدَقتُ أمى بما نفسى ، فحدَّثتْ أبى ؛ فأجمع رأيُهما على أن وهبا الجارية لى ، وجهزَاها كما يجهز أهـلُ البيوتاتِ [1] بناتِهن ، وجُليتْ على وحُمـل لى العرْس الحسن . فنعمت معها دهراً ، ثم مات أبى فلم أحسن أن أرُبَّ [2] نعمته ، فأسأت تدبيرَها ، وأسرعتُ فى الأكل والشرب وغيرهما من المتاع ، إلى أن تلفت النعمة ، وأفضَتْ الحال إلى ما ترَوْن ، فأنا على هذا منذ سنين !

فلما كان هذا الوقت بلغنى دخول الخليفة ووزيره وأكثرِ أهلِ مملكته بالبصرة ، فقلت لها : يا أختى ، إن شبابك يَبلى ، وعمرَك فى الدنيا ينقضى ، ووالله ما فى نفسى رغبة فى بيعك ؛ فإنى أعلم أنى تالفٌ متى فارقتك ، ولكنى أوثرُ تلفى مع وصولك إلى نعمةٍ ورفاهية ، فدعينى أعرِضك ، فلعلهُ يشتريك بعض هؤلاء المياسير [3] ، فتكونى معه فى رَغدٍ من العيش ، فإن متُّ بعدَك فتلك أُمْنيتى ؛ ويكون كلٌّ واحدٍ منا تخلص من الشَّقاء ، وإن حكم الله عزّ وجلّ علىّ بالبقاء صبرتُ لفضل الله ، واضطربْت فى مَعَاشى بثمنك .

فبكت من ذلك وقلقتْ ثم قالت : افعل ، فخرجت إلى هـذا النخاس وأطلعته على أمرى ، وقد كان يَسْمَع غناءها فى أيام نعمتى ، وعرف حالها وحالى ، وأنذ أنى لا أعرضها أبداً إلا عندى ، فإنها والله ما تسلقتْ عتبةَ هذه الدار قط ،

---

(١) البيوتات : جمع بيوت ، وهو جمع بيت . (٢) أزيدها وأصلحها (٣) مياسير : جمع موسر وهو الغنى .

وأردت بذلك أن يراها المشترى وحده ، ولا تمتهنَ بسوق ولا دخولٍ إلى بيوت الناس ؛ وإنه لم يكن لها ماتلبَسُه إلا قميصى هذا ، وهو مشترك بيننا ، ألبَسُه إذا خرجتُ لابتياع القوت وتتّشح هى بإزارها ، فإذا جئتُ إلى البيت ألبستُها إياه واتّشَحْتُ أنا بالإزار .

فلما جئتما خرجتْ فغنّت ، فلحقنى من البكاء والقَلَق أمرٌ عظيم ، ودخلتْ إلىّ وقالت لى : يا هذا ، ما أعْجب أمرك ! أنت مَلِلْتنى وآثرتَ فِراقى ، وتبكى هذا البكاء علىّ ! فقلت : يا هذه ، والله لفِراقُ نفسى أسهلُ علىّ من فراقك ، وإنما أردتُ أن تتخلصى من هذا الشقاء . فقالت : والله يامولاى ، لو تملّكتُ منك ما تَملّكته منى مابعتك أبداً ، وأموتُ جوعاً ، فيكونُ الموت هو الذى يفرّق بيننا .

فقلت : لا عليك ! أتريدين أن تعلمى صِدْق قولى ؟ قالت : نعم ، قلت : هل لك أن أخرج الساعةَ إلى المشترى ، فأعتِقَكْ بين يديه وأتزوّجك ، ثم أصيرَ معكِ على ما نحنُ عليه إلى أن يأتىَ الله بفَرَجٍ أو موت وراحة ؟ فقالت : إن كنتَ صادقاً فافعل هذا ، فما أريدُ غيرك . فخرجتُ إليكم ، وكان منى ماعلمتُم ، فاعذرونى .

قال إسحاق : فقال جعفر : أنت معذور ونهض ، فنهضتُ معه والنخاس ، فلما قُدّمَت الحمير لنركبَ دنوتُ منه فقلت : يا سبحان الله ! مثلك فى جودك ترى هذه الفاقة ، ولا تنتهزُ الفرصةَ فيها ! والله لقد تقطّع قلبى على الفتى . فقال : ويحك ! وقلبى والله ! ولكنّ غيظى من فوتِ الجارية منعنى من التكرّم عليه . فقلت : فأين الرغبة فى الثواب ! فقال : صدقت والله !

ثم التفت إلى النخاس فقال له : كم كان الخادم سلَّم إليك عند ركوبنا لثمنها ؟ قال : ثلاثة آلاف دينار ، قال : فأين هى ؟ قال : مع غلامى ، فقال لى وللنخاس : خُذَاها وادْفعاها إلى الفتى ، وقولا له : يكْتسى ويركب ويجيئنى لأحْسنَ إليه وأستخدمه .

فرجعتْ إلى الفتى وأنا أبكى ، فقلتُ له : قد عجّل الله عزّ وجل لك بالفرج : إن الذى خرج من عندك هو الأمير جعفر بن يحيى البرمكى ، وقد أمر لك بهذا . وهو يقول لك : كذا وكذا ... فصُعق حتى قلتُ : قد تلف ! ثم أفاق فأقبل يدعو ويشكرنى ، فركبتُ فلحقت بجعفر ، فأخبرته ، فحمد الله عزّ وجل على ما وفقه له . وعاد إلى داره وأنا معه .

فلما كان العشاء جئنا إلى الرشيد ، فأخذ يسألُ جعفراً عن حاله فى يومه ، وهو يخبره بالأمور السلطانية ، ثم قصّ عليه حديث الفتى والجارية ، فقال له الرشيد : فما عملتَ ؟ فأخبره ، فاستصاب(١) رأيه وقال : وقِّع له برزقٍ سلطانى فى رسم أرباب النعم ، فى كل شهر كذا وكذا ، واعمل بعد ذلك ما شئت .

فلما كان من الغد جاءنى الفتى راكباً بثيابٍ حسنة ، وهيئة جميلة ، فإذا هو أحلى الناس كلاماً ، وأتمهم أدباً ؛ فحملته منى إلى جعفر ، وأوصلته إلى مجلسه ، فأمر بتسهيل وصوله إليه وخلطه بحاشيته ، ووقّع له عن الخليفة بما كان رسمه له ، وعن نفسه بشىء آخر .

وشاع حديثُه بالبصْرة وفى أهل العسكر ، فلم يبق فيهما متظرف إلا أهدى إليه شيئاً جليلا ، فما خرجنا من البصرة إلا وهو ربُّ نعمةٍ صالحة !

---

(١) استصابه : استصوبه .

١١٨ - لا أسأل سواكَ ولو سففْتُ التراب *

ركب محمدَ بن إبراهيم الإمام دَيْنٌ ، فركب إلى الفضلِ (١) بن يحيى ، ومعه حُقَّة (٢) فيها جوهر ؛ فقال له : قصّرتْ بنا غلّاتنا ، وأغفَل أمرَنا خليفتُنا ، وتزايدت مئونتنا ، ولزِمنا دَينٌ احتجنا لأدائه إلى ألف درهم ؛ فكرِهْتُ بَذْلَ وجهي للتجار وإذالة (٣) عِرْضي بينهم ، ولك مَنْ يعطيك منهم ، ومعي رهن ثِقة بذلك ، فإن رأيتَ أنْ تأمر بعضَهم بقبضه ، وحَمْلِ المال إلينا !

فدعا الفضلُ بالحُقَّةِ ، فرأى مافيها ، وختَمها بخاتم محمد بن إبراهيم ، ثم قال له : نُجحُ الحاجة أنْ تقيمَ عندنا اليوم . فقال له : إن في المُقام عليَّ مشقة ؛ فقال : مايشقُّ عليك من ذلك ؟ إنْ رأيْتَ أن تلبسَ شيئاً من ثيابنا دعوتُ به ، وإلا أمرتَ بإحضار ثياب مِنْ منزلك . فأقام ، ونهض الفضل ، ودعا بوكيله ، وأمره أن يحملَ المال ويسلمه إلى خادم محمد بن إبراهيم ، ويسلمه الحُقَّةَ بما فيها من الجوهر بخاتمه ، ويأخذ خطّه بذلك . ففعل الوكيل ؛ وأقام محمد عنده إلى المغرب ، وليس عنده شيء من الخبَر .

ثم انصرف إلى منزله فرأى المال ، وأحضر له الخادمُ الحُقّة ؛ فغدا على الفضل ليشكرَه ؛ فوجده قد سبقه بالركوب إلى دار الرشيد ؛ فوقف منتظراً ، فقيل له : قد خرج من الباب الآخر قاصداً منزله . فانصرف عنه .

* الوزراء والكتاب : ١٩٦ .

(١) هو الفضل بن يحيى بن خالد بن برمك ، وكان من أكثر البرامكة كرماً وجودا ، وله في ذلك الأخبار السائرة ، ولاه الرشيد الوزارة قبل أخيه جعفر ، ثم نقلها منه إلى جعفر وقلده بعمل في خراسان . ومات بعد نكبة البرامكة في السجن سنة ١٩٢ (٢) الحقة : وعاء من خشب .
(٣) ذال الشيء : هان .

ولما وصل إلى منزله وجد أنّ الفضلَ قد وجّه إليه ألف ألف درهم أُخر ، فغدا عليه وشكره وأطال ؛ فأعلمه أنه بات ليلته وقد طالت عليه غَمًّا بما شكاه ، إلى أنْ لقي الرشيد،فأعلمه حاله ؛ فأمره بالتقدير له ، ولم يزل يُمَاكِسُه[1] إلى أن تقرر الأمرُ له على ألف ألف درهم ، وأنه ذكر أنه لم يصلك بمثلها قط ، ولا زادك على عشرين ألف درهم ؛ فشكرته وسألته أن يكتب بها صَكًّا[2] بخطه ، ويجعلني الرسول .

فقال له محمد : صدق أمير المؤمنين ، إنه لم يصلني قطّ بأكثر من عشرين ألف ، وهذا إنما تهيأ بك ، ولك ، وعلى يديك ، وما أقدر على شيء أَقْضِي به حقك ، ولا على شُكْرٍ أجازى به معروفَك ، غير أنه « عليّ وعليّ » ؛ وحلف أيمانًا موكدَة ـ إن وقفتُ عَلَى باب أحدٍ سواك ، ولا سألتُه حاجةً أبداً ، ولو سفِفْتُ التراب !

فكان لا يركبُ إلى غير الفضل إلى أن حدث من أمر البرامكةِ ماحَدَث ، فكان لا يركبُ إلى غير دار الخليفة ، ويعودُ إلى منزله ، فعُوتب بعد تقضّي أيامهم في تَرْك إتيان الفضل بن الربيع ، فقال : والله لو عمرتُ ألف عام ، ثم مَصِصتُ الثِّماد[3] ، ماوقفتُ بباب أحدٍ بعد الفضل بن يحيى ، ولا سألته حاجة حتى ألقى الله عز وجل !

ولم يزل على ذلك حتى مات .

(١) تماكسا في البيع : تشاحا (٢) الصك : الكتاب (٣) الثماد : الماء القليل .

١١٩ - تِيهٌ وَكَرَم *

قيل للفضل بن يحيى البرمكى : ما أحْسنَ كرمَك لولا تيهٌ فيك ! فقال : تعلمتُ الكرمَ والتِّيهَ من عُمَارة (١) بن حمزة ! فقيل له : وكيف ذلك ؟ فقال : كان أبى عاملا على بعض كُوَر (٢) بلاد فارس ، فانكسرتْ عليه جُمْلةٌ مستكثرة ، فحُمِل إلى بغداد ، وطولبَ بالمال ؛ فدفعَ جميعَ مايملكه ، وبقيت عليه ثلاثةُ آلاف ألف درهم لا يعرفُ لها وجهاً ، والطلبُ عليه حثيث ، فبقىَ حائراً فى أمره .

وكانت بينه وبين عُمَارة بن حمزة منافرةٌ ومواحشة ؛ لكنه علم أنه ما يقدر على مساعدته إلا هو ، فقال لى يوماً وأنا صبىّ : امض إلى عُمارة وسَلِّم عليه عنى ، وعرِّفه الضرورةَ التى قد صِرْنا إليها ، واطلب منه هذا المبلغَ على سبيل القَرْض ، إلى أن يسّهل الله تعالى باليُسْر . فقلت له : أنت تعلم ما بينكما ، فكيف أمضى إلى عدوِّك بهذه الرسالة وأنا أعلم أنه لو قدَر على إتلافك لأتلفك ؟ فقال : لابدّ أن تمضىَ إليه ، لعلّ الله يسخِّره ويوقع فى قلبه الرحمة !

قال الفضل : فلم تمكنى مُعاوَدته ، وخرجتُ وأنا أقدّم رجلا وأؤخر أخرى ، حتى أتيتُ دارَه ، واستأذنتُ فى الدخول عليه ؛ فأذنَ لى ، فلما دخلتُ وجدته فى صَدْر إيوانه (٣) ، متكئاً على مَفَارش وثيرة ، وقد غلّف شعر رأسه ولحيته بالمسك ، وَوَجْهه إلى الحائط — وكان من شدة تيهه لا يقعُدُ إلا كذلك — فوقفت أسفل

(*) وفيات الأعيان : ٢ — ٤١٠ .

(١) انظر صفحة ١٤٤ (٢) الكورة : المدينة ، جمعها

(٣) الإيوان : الصفة .

الإيوان ، وسلّمت عليه ، فلم يردّ السلام ، فسلمتُ عليه عن أبى ، وقصصتُ عليه القصة ، فسكت ساعة ثم قال : حتى نَنْظُر !

فخرجتُ من عنده نادماً على نقل خُطایَ إليه ، ومُوقناً بالحرمان ، عاتباً على أبى أنْ كلفنى إذلالَ نفسى بمالا فائدةَ فيه ، وعزمتُ على ألّا أعودَ إليه غيظاً منه .

فغبتُ عنه ساعة ، ثم جئتُه وقد سكن ما عندى . فلما وصلتُ إلى الباب وجدتُ بغالًا محمَّلةً ؛ فقلتُ : ما هذه ؟ فقيل : إن عُمارةَ قد سَيَّر المال ؛ فدخلتُ على أبى ، ولم أخبره بشىء مما جرى لى معه كى لا أكدّر إحسانَه عليه .

فمكثنا قليلا ، وعاد أبى إلى الولاية ، وحصلتْ له أموالٌ كثيرة ؛ فدفع إلىّ ذلك المبلغَ وقال : احمله إليه . فجئت به ؛ ودخلتُ عليه فوجدتُه على الهيئة الأولى ؛ فسلمتُ عليه فلم يردّ ، فسلمت عليه عن أبى وشكرتُ إحسانَه ، وعرفته بوصول المال ؛ فقال لى بحَرَد (١) : ويحك ! أقَسْطاراً (٢) كنتُ لأبيك ؟ اخرج عنى ، لا بارك الله فيك ؛ وهولكَ ! فخرجتُ وردَدْت المال إلى أبى ، وعَجبنا من حاله !!

(١) الحرد : الغضب . (٢) القسطار : الصيرق .

١٢٠ - لكل جديد لذة *

قال مُخارق :

غدوتُ يوماً على إبراهيم بن ميمون الموصلى ، وكان يومَ دَجْنٍ [1] طيِّب ، فأصبتُ بين يديه قُدُوراً تُغَرْغِر [2] ، وأباريق تزْهَر [3] وهُو كالمهموم ، فسألتُه عن حاله ؛ فقال : لى ضَيْعة ، وإلى جانبها ضَيْعة يبلغُ ثمنُها مائتى ألف درهم ، وإن دخلَتْها يدُ غيرى أفسَدت علىَّ ضيعتِي ؛ وما أقول إنَّ ثمنها ليس يمكننى ، ولكن لستُ أسمحُ بإخراج كلِّ مافى يدى .

قال : فأمسكتُ عنه واستَتممتُ يومى عنده ، وغدوتُ على يحيى بن خالد فلقيتُه ، فسألنى عن خَبرى فى أمس ، فخبرته الخبر فأضْحكه .

فانصرفتُ إلى إبراهيم لأعرِّفه الخبر ، فوجدتُ المال قد سبق إليه ، فقلت له : اشترِ الآن الضَّيْعَة ؛ فقال : لكل جديد لذَّة ، وهذا مالٌ جديد ، ولست أحبُّ إخراجَه ! !

قال : فحدثتُ جعفراً بالخبر كله فأضحكه ، وبعث بالمال إليه . فصرتُ إليه ، فقلت له : اشْترِ الضَّيعةَ الآن ، فقال : العَجَلةُ من عمل الشيطان ، دعْنى أستَمْتِع بهذا المال مدَّة .

وصرتُ إلى الفضل بن يحيى ، فحدَّثتُه ، فابتاع الضَّيعة ، ووزَن ثمنها ، ووجَّه إليه بمثل الثمن ، ووجه إليه بالصَّك !!

(*) الوزراء والكتاب : ٢١٤ .

(١) الدجن : إلباس الغيم الأرض ، وإمطار السماء ، والمطر الكثير (٢) الغرغرة : صوت القدر إذا غلت . (٣) زهر السراج والقمر والوجه : تلألأ .

١٢١ ـ جُودُ البرامِكة *

قال مُخارِق :

أَذِن لنا أميرُ المؤمنين الرشيدُ أنْ نُقيم فى منازلنا ثلاثةَ أيَّام ، وأعلمنا أنه مُشتغِل فيها ؛ فمضى الجلساء أجمعون إلى منازلهم ، وأصبحتِ السماء مُتغيِّمة تطِشُ [١] طشًّا خَفيفاً ، فقلت : والله لأذهَبنَّ إلى أستاذى إبراهيم [٢] فأعرف خبَره ثم أعود .

فأمرتُ مَنْ عندى أن يسوُّوا مَجلساً لنا إلى وقت رجوعى ؛ فجئت إلى إبراهيم الموصلى ، فإذا البابُ مفتوح ، والدِّهْليز قد كُنِس ، والبوّاب قاعد ؛ فقلت : ما خبرُ أستاذى ؟ فقال : ادخلْ ، فدخلتُ فإذا هو جالس فى رِواق له ، و بين يديه قُدُور تُغَرْغِر [٣] ، وأباريق تَزْهَر ، والسِّتارة منصوبةٌ والجوارى خَلْفها .

فدخلتُ أترنَّمُ ببعض الأصوات ، وقلتُ له : ما بالُ السِّتارة لستُ أسمَعُ من ورائها صوتاً ؟ فقال : اقعُد ، وَيْحَك ! إنى أصبحتُ على الذى ظَننتَ ، فأتانى خبرُ ضَيْعة تجاورُنى ، قد والله طلبتُها زماناً وتمنَّيتُها فلم أمْلِكها ؛ وقد أُعطِىَ بها صاحبُها مائة ألف درهم . فقلتُ : وما يمنعك منها ؟ فوالله لقد أعطاك اللهُ أضعافَ هذا المال وأكثر ! قال : صدقت ، ولكن لستُ أطِيبُ نفساً أن أُخْرِجُ هذا المال ؛ فقلت : فمن يُعطيك الساعة مائةَ ألف درهم ؟ والله ما أطمعُ فى ذلك من الرشيد ، فكيف بمن دونه ! فقال ، اجلس ، خذ هذا الصوت ، ونَقَر بقضيب معه على الدواة وألقى علىَّ :

(*) الأغانى : ٥ ـ ١٧٨ .

(١) الطش : المطر الضعيف ، وهو فوق الرذاذ . (٢) إبراهيم بن إسحاق الموصلى .

(٣) تغرغر : تصوت للغلى .

نام الخليّون مِنْ همٍّ ومن سَقَمٍ وبتُّ مِنْ كَثْرةِ الأحزان لم أنَمِ
يا طالبَ الجود والمعروفِ مجتهـداً اعْمِدْ ليحيي حليفِ الجود والكرَم

قال مخـارق : فأخذتُه فأحكمتُه ؛ ثم قال لى : امْضِ الساعةَ إلى باب الوزير يحيي بنِ خالد ، فإنك تجدُ الناس عليه ، وتجدُ البابَ قد فُتِـح ، ولم يجلس بعدُ ، فاستأذِنْ عليه قبلَ أن يصلَ إليه أحد ، فإنه سينـكِرُ عليـك مجيئَك ويقول : من أين أقبلتَ فى هـذا الوقت ؟ فحـدِّثْه بقَصْدِك إياى ، وما ألقيْتُ إليـك من خَبَرِ الضَيعةِ ، وأعْلِمْه أنى صنعتُ هـذا الصَّوْت وأعجبنى ، ولم أرَ أحداً يستحقه إلا فلانةَ جاريتَه ، وأنى ألقيتُه عليك حتى أحكَمْتَه لتطرحَه عليها ؛ فسيدعو بها ، ويأمر بالسِّتارة أن تُنصَب ، ويُوضع لها كرسيّ ، ويقول لك : اطرَحه عليها بحضرتى ؛ فافعل ، وأْتِني بالخبر بعد ذلك .

ففعَل كلَّ شيء قاله لى إبراهيم ؛ وأحْضر الجارية فألقيتُه عليها،ثم قال لى : تقيمُ عنـدنا يا أبا المهنَّأ أو تنصرف ؟ فقلت : أنصرف أطال الله بقاءك ، فقـد علمتُ ما أُذِنَ لنا فيه ! قال : ياغُلام ؛ احمل مع أبي المهنَّأ عشرة آلاف درهم ، واحمل إلى أبي إسحاق مائة ألف درهم ثمن هذه الضيعـة ؛ فحُمِلَتِ العشرة الآلاف إلىّ ، وأتيتُ منزلى ، فقلت : أُسَرّ يومى هذا ، وأسُرُّ مَنْ عنـدى ؛ ومضى الرسولُ إليه بالمال .

فدخلتُ منزلى ، ونثرتُ على مَنْ عندى من الجوارى دراهم من تلك البَدْرة، وتوسَّدْتُها وأكلتُ وشربت وطربت وسُرِرْتَ يومى كله .

فلما أصبحتُ قلتُ : والله لآتينَّ أستاذى ولأَعْرِفَنَّ خبره ، فأتيتُه فوجدتُ البـابَ كهيئته بالأمس ، ودخلتُ فوجدتُه على مثلِ ما كان عليه ، فترنمتُ وطربت فلم يتلقَّ ذلك بما يجب ! فقلت له : ماالخبرُ ؟ ألم يأتك المال ؟ قال : بلى ؟

فما كان خبرُكَ أنت بالأمس ؟ فأخبرتُه بما وُهِبَ لى ، وقلت : ما يُنتظر من خلف الستارة ؟ فقال : ارفع السَّجْف (١) ، فرفعتــه فإذا عشر بِدَر ، فقلت : وأى شىء بقى عليك فى أمْرِ الضَّيعة ؟قال :ويحك ! ماهو واللهِ إلا أن دخلتْ منزلى حتى شَحِحتُ عليها ، فصارتْ مثل ماحويتُ قديماً؛ فقلت :سبحان الله العظيم! فتصنعُ ماذا؟ قال: قم حتى أُلقِيَ عليك صوتاً صنعتُه ، يفوق ذلك الصوت . فقمتُ وجلستُ بين يديه، فألقى علىَّ :

وَيفرحُ بالمولودِ مِنْ آلِ بَرْمَـــكٍ بُغَاةُ النَّدى والسيفُ والرمحُ ذو النَّصلِ
وتنبسطُ الآمالُ فيــــه لفضـــله ولا سيما إن كان من وَلَدِ الفَضْـــلِ

قال مخارق : فلمَّا ألقى علىَّ الصوت سمعت مالم أسمع مثلَه قط ، وصَغُر عندى الأول فأحْـكَمتهُ ؛ ثم قال : انهض الساعةَ إلى الفضلِ بن يحيى ، فإنك تجـدُه لم يَأْذنْ لأحد بعـدُ ؛ فاستأذِنْ عليه ، وَحدِّثه بحديثنـا أمس ، وما كان من أبيه إلينا وإليك، وأعْلِمه أنى قد صنعتُ هـذا الصوتَ وكان عنـدى أرفع من الصوت الذى صنعتُه بالأمس ، وأنى ألقيتُه عليــك حتى أحكمتَه ، ووجهتُ بك قاصدا لتُلقيَه على فلانة جاريته .

فصِرْتُ إلى باب الفضل ، فوجدتُ الأمر على ماذكر ، فاستأذنتُ فوصلتُ ، وسألنى : ما الخبرُ ؛ فأخبرتُه بخبرى فى اليوم الماضى ، وما وصل إلىّ وإليه من المال ؛ فقال: أَخْزَى الله إبراهيمَ فما أبخلَه على نفسه ! ثم دعا خادماً ، فقال : اضرب السِّتارة فضربها ، فقال لى : أَلْقِه . فلما غنّيْتُه لم أتمه حتى أقبــل يَجُرُّ مِطْرَفَه (٢) ، ثم قعد على وِسادة دون الستارة ؛ وقال : أحْسَن والله أُستاذُك ، وأحسنتَ أنت يامُخَارق .

---

(١) السجف . الستر .
(٢) المطرف : الثوب فيه علمان .

فلم أخرج حتى أخذتْه الجارية وأحكمَتْه ؛ فسُرّ بذلك سروراً شديداً ؛ وقال : أقِمْ عندى اليوم ، فقلتُ : ياسيدى ، إنما بقى لنا يومٌ واحد ، ولولا أنى أحِبُّ سرورَك لم أخرج من منزلى . فقال : ياغلامُ ، احمل مع أبى المهنّا عشرين ألف درهم ، واحمل إلى إبراهيم مائتى ألف درهم .

فانصرفتُ إلى منزلى بالمـال ، ففتحتُ بَدْرَة ، فنثرت منها على الجوارى وشربتُ وسُرِرت أنا ومَنْ عندى يومنا .

فلما أصبحتُ بكّرتُ إلى إبراهيم أتعرّف خبَرَه وأعرِّفه خَبَرى ، فوجدتُه على الحال التى كان عليها أوّلًا وآخِراً ، فدخلتُ أترَنّمُ وأُصَفِّقُ ، فقال لى : ادْنُ ؛ فقلتُ : ما بقىَ ؟ فقال : اجلس وارفع سَجْف هـذا الباب ، فإذا عشرون بَدْرَة مع تلك العشْر ؛ فقلت : ما تنتظر الآن ؟ فقال : ويحك ! ما هو والله إلا أن حصلتْ حتى جرَت مجرى ماتقدّم . فقلت : والله ما أظن أحداً نال فى هذه الرتبة ما نلتَه ! فلِمَ تبخلُ على نفسك بشىء تمنيتَه دهراً ، وقد ملّكك الله أضعافَه ؟ !

ثم قال : اجلس فخذ هـذا الصوت ، وألقى علىّ صوتاً أنسانى والله صوتَىَّ الأوّلَيْن :

أفى كلّ يومٍ أنتَ صَبٌّ وليـلةٍ ... إلى أمّ بـكرٍ لا تفيقُ فَتُقْصِرُ

أُحِبُّ على الهِجْران أكْنافَ بيتها ... فيالَكَ مِن بيتٍ يُحَبُّ ويُهْجَرُ

إلى جعفَر سارتْ بنا كلُّ جَسْرَةٍ ... طواها سُراها نحوَهُ والتهجّرُ (١)

إلى واسـعٍ للمُجْتَدينَ فِناؤه ... تروح عطـاياه عليهم وتَبْكُر

قال مخارق : ثم قال لى إبراهيم : هل سمعتَ مثلَ هـذا ؟ فقلت : ما سمعت

(١) الجسرة : الناقة العظيمة . السرى : السير بالليل ، والتهجر : السير فى الهاجرة ، أى فى نصف النهار عند اشتداد الحر .

قطُّ مثله ، فلم يزل يردّدُه عليَّ حتى أخذتُه ؛ ثم قال لى : امضِ إلى جعفر ، فافعلْ به كما فعلتَ بأخيه وأبيه .

قال : فمضيتُ ففعلتُ مثلَ ذلك ، وخبّرتُه ما كان منهما ؛ وعرضتُ عليه الصوتَ ، فسُرَّ به ؛ ودعا خادماً ، فأمره بضَرْب الستارة وأحضر الجارية ؛ وقعد على كرسى ، ثم قال : هاتِ يا مخارق . فاندفعتُ فألقيت الصوت عليها حتى أخَذَتْه ؛ فقال : أحسنتَ والله يا مخارق ، وأحْسَنَ أستاذُك ، فهل لك فى المقام عندنا اليوم ؟ فقلتُ : ياسيدى ، هذا آخرُ أيامنا ، وإنما جئتُ لموقع الصوت منى حتى ألقيتُه على الجارية ، فقال ياغلام : احمل معه ثلاثين ألف درهم وإلى الموصلى ثلاثمائة ألف درهم .

فصرتُ إلى منزلى بالمال ، فأقمتُ ومن معى مسرورين نشرب بقيةَ يومنا ونَطرَبُ ، ثم بكرتُ إلى إبراهيمَ فتلقانى قائماً ، وقال لى : أحسنتَ يا مخارق ، فقلت : ما الخبر ؟ فقال : اجلس فجلستُ ، فقال لمنْ خلف الستارة : خذوا فيما أنتم فيه ؛ ثم رفعَ السَّجْف فإذا المال ، فقلتُ : ما خبرُ الضيعة ؟ فأدخل يده تحت مِسْوَرة (١) ، وهو متّكىء عليها ، فقال : هذا صَكُّ الضَّيْعَة ! سُئِل عن صاحبها فوُجِد ببغداد ، فاشتراها منه يحيى بن خالد ، وكتب إلىَّ : قد علمت أنك لا تسخو نفْساً بشراء الضَّيْعة من مالٍ يحصل لك ؛ ولو حيزَتْ لكَ الدنيا كلها ، وقد ابتعتُها لك من مالى ، ووجهتُ لك بصكِّها ؛ وهذا المال كما ترى .

ثم بكى ، وقال لى : يامخارق ؛ إذا عاشرتَ فعاشِرْ مثلَ هؤلاء ، وإذا غنَّيت فغنِّ لمثل هؤلاء ، هذه ستمائة ألف وضيعة بمائة ألف ، وستون ألف درهم لك حصلنا ذلك أجمع ، وأنا جالسٌ فى مجلسى لم أبرح منه ، فمتى يدرَكُ مثل هؤلاء !

(١) المسورة : الوسادة من الجلد .

١٢٢ ـ حُسن العَفْو *

قال محدِّث :

مدَح شاعرٌ أبا حاتم كاتبَ الديوان فلم يَصِلْه بشيء ؛ فأنشأ شعراً يقول فيه :

لتُنْصِفَنِّى يا أبا حاتِمٍ أو لأصيرَنَّ إلى حاكم

فاحتفظها صاحبُ الخبر ، ورفعها إلى الرشيد (١) ؛ فقال : صدَق ! لولا أنى نائمٌ ما كانت أمورى تَجْرِى على هـذه السبيل ! وأمر بإخراج الجرائد من الدار إليه ، فأول ماوَجَدَ على منصور بن زيادة عشرة آلاف ألف درهم !

فحدَّثَ صالح صاحبُ المصلّى ، قال : دعانى الرشيد ، وهو على كرسىّ ، فقال : اذهب الساعةَ فخذ منصور بن زياد بالخروج من عشرة آلاف ألف درهم ، فإنْ لم يُؤَدِّها إلى المغرب فاضرب عنقَه ، وجِئْنى برأسه ؛ وأنا نفىٌّ (٢) من المهـدى لئن أنت دافعتَ عنه لأضربنّ عنقك ! قلت : ياسيدى ، فإن أعطانى بعضها ، ووقّتَ لى فى بعضها وقتاً ؟ قال : لا !

فخرجتُ فأعلمتُه بالخبر ، فأُسْقِط فى يده ؛ وقال : ما أراد إلا قَتْلى ، لأنه يعلم أنّ مقدارَ مالى لا يبلغُ مابه طالبنى ؛ ولـكن تأذنُ لى أن أدخُلَ بيتى فأُودِّع أهلى ! فأذنت له فدخل ودخلتُ معـه ، و بقيتُ واقفاً ، فبعثَ إلى أمهات أولاده و بناته ونسائه أن اخرُجنَ إلىّ كما كنتُنّ تخرجْن عند موتى ، فإنّ هـذا آخرُ أيامى ؛ ولا سِتْرَ لـكُنّ بعدى !

---

* المحاسن والمساوى : ٤٥٣ ، طبع ليبزج .

(١) انظر صفحة ١١٠ (٢) فلان نفى : دعى ، قد نفى .

فَخَرجْنَ إليه مشقَّقات الجيوب ، مخمَّشات الوجوه ، بصُراخ شديد ؛ فبكى إليهنّ ، وبكَيْنَ إليه ، وبكيتُ معهنّ ، ثم ودّعهُنّ وخرج ، وهُنّ في أثره وَاضعاتِ التراب على رءوسهن .

ثم قال : ياأبا مُقَاتل ؛ لو أذِنتَ لى فى المصير إلى أبى علىّ يحيى بن خالد البرمكى ، فكنتُ أوصيه بولدى وأهلى ! فقلت : امضِ !

وصِرْنا إليه ، وقد نزل فى ساعته ، وهو على كرسىّ يغسِلُ يديه ، فلما توسَّطنا الدارَ جعل منصور يبكى ويمشى إليه حتى دنا منه ، وهو يسأله عن الحال ، فيمنعُه البكاء من إخبَاره ؛ فقصصتُ عليه قصته ، فقال : ارجع إلى أمير المؤمنين ، وسَلْه أن يَهَبَه لى ! قلت : ماإلى ذلك سبيل ، ولا يرانى إلا والمالُ معى أو رأس المنصور ، كما أمرنى !

فقال لخادم له : ائت فلانة فَسَلْها : كم !! عندها من المال ؟ فانصرف ورجع فذكر أنّ عندها خمسةَ آلاف ألف درهم ! فقال لى : احملها . وأبلغ أمير المؤمنين رسالتى فى باقيها . فأعلمتُه أن لاسبيلَ إلى حَمْلِ بعضها دون بعض ، فأطرق ، ثم رفع رأسه ، ثم قال ياغلام : ائت دنانير فقل لهـا : تبعث إلىّ بالجوهر الذى وهبه لها أمير المؤمنين ، فبعثته إليه بحُقّة [1] ، فقال : هذا جوهرٌ ابتَعناه لأمـير المؤمنين بمائتى ألف دينار ، وهو عارفٌ به ، وقد جعلتُه له بمائة ألف دينار ، فاحمله إليه والرسالة ، فأبيتُ !

فوجه إلى الفَضْل ابنه : إنَّك كنتَ أعلمتَنى أنك على ابتياع ضَيْعَة نفيسة ، وقد أصبتُها ، ولا يوجدُ مثلُها فى كلِّ وقتٍ ، وابتياعُها فرصةٌ ، فاحملْ إلى مالها ، فعاد الرسولُ ومعه ألف ألف درهم !

(١) وعاء من الخشب أو العاج أو غير ذلك مما يصلح أن ينحت منه .

ووجه إلى جعفر ابنه أنْ يوجِّه إليه بألف ألف درهم ، فأنفذ إليه صَكا إلى الجِهْبِذِ[1] بها .

فقبضْتُ المال ، ووافيتُ الرشيد قبل المغرب ، وهو على حالته ينتظرُ رجوعى إليه ، فأخبرتُه الخبر ؛ فلما انتهيت إلى خبر الحقِّة ، قال : صدقَ ! وقد ظننت أنه لا يُنْجِيه غيرهم ، احمل هذا المال أجمعَ إلى أبى على ، واردُدْه عليه ، وأَعْلِمْه أنى قد قبلتُ ذلك عن منصور ، ورددتُه عليه ! ففعلت ذلك .

ولقينى بعد ذلك يحيى منصرفاً من الدار ، ومنصورٌ معه يُسَايِرُه و يضاحكه ، والناسُ خَلْفَه ،فقلت : والله لأنْصحنّ هذا الشيخَ الكريم ، فدخلت معه ، ودخل المنصور ودعا بغدائه ؛ فلما نهض المنصور قلت : ياأبا على ؛ إنى والله مارجعْتُ إلا لنُصْحِك ! وقد رأيت مكان هذا الرجل منك ؛ وكنا حين حملت المال أنهضتُه معى ، فوالله ماقطعَ نصفَ الصحن من الدار حتى تمثَّل بهذا البيت :

فما بُقْيا علىّ تركْتمانى ولكن خفْتما صَرَدَ[2] النِّبَال

فعارض أكرَم فعلك بألأم خصلةٍ فيه ؛ فدعانى الامْتِعاضُ من ذلك إلى إخبارك ، فإنى من تَعْلَمُ فى مَوَدّتكَ وطاعتك !

فأكبّ على الأرض ساعة ، ثم رفع رأسه ، فقال : اعذره ؛ فقد كان عقله عَزَب[3] عنه فى ذلك الوقت !

قال : فكان عذرُه له أحسنَ من إحيائه إياه .

---

(١) الجهبذ : النقاد الخبير . (٢) صرد الرمح صرداً : نفذ حده ، أى خفتما أن تصيب نبالى .
(٣) عزب : بعد .

١٢٣ - وَاعِظ الرشيد

قال الفضل بن الربيع[1] .

حج هارون الرشيد أميرُ المؤمنين ، فأتانى فخرجتُ مسرعاً ، فقلت : ياأميرَ المؤمنين ؛ لو أرسلتَ إلىَّ لأتيتُك ! فقال : ويحك ! قد حَكَّ فى نفسى شىء ، فانظر لى رجلاً ! فقلت : هاهنا سفيان بن عُيَيْنة[2] ، فقال : امضِ بنا إليه ،فأتيناه فقرعتُ الباب ، فقال : مَنْ ذا ؟ فقلت : أَجِب أمير المؤمنين ! فخرج مسرعاً ، فقال : ياأمير المؤمنين ، لو أرسلتَ إلى لأتيتُك ! فقال له : خذْ لما جِئْناك له رَحمك الله . فحادثه ساعة ، ثم قال له عليك دَيْن ؟ فقال : نعم ! فقال : ياعباسىُّ ، اقْضِ دينَه .

فلما خرجنا قال لى : ماأغْنَى صاحبُك عنى شيئاً . انظر لى رجلاً أسأله !قلت : هاهنا عبدالرزّاق[3] بن همام ! قال : امضِ بنا إليه ، فأتيناه فقرعتُ الباب فقال : مَنْ هذا ؟ قلت : أَجبْ أميرَ المؤمنين ! فخرج مُسْرِعا ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ؛ لو أرسلتَ إلىّ لأتيتُك ! فقال : خُذْ لما جئناك له ؛ فحادثه ساعة ، ثم قال له : عليك دَين ؟ قال : نعم ! قال : ياعباسىُّ ، اقْضِ دينه .

فلما خرجنا قال : ماأغْنى صاحبُك عنى شيئاً ، انظر لى رجلاً أسأله ! قلت: هاهنا الفضَيْل بن عياضٍ[4] ؛ قال : امضِ بنا إليه ، فأتيناه ؛ فإذا هو قائم يصلّى ،

(*) المختارات للمطالعة العربية طبع أوربا .

(١) انظر صفحة ٥٤ . (٢) سفيان بن عيينة : حافظ ثقة ، واسع العلم كبير القدر ، قال الشافعى عنه : لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز ، توفى سنة ١٩٨ هـ .

(٣) عبد الرزاق بن همام : من حفاظ الحديث الثقات ، توفى سنة ٢١١ هـ .

(٤) الفضيل بن عياض : من أكابر العباد الصلحاء ، كان ثقة فى الحديث ، وتوفى سنة ١٨٧هـ.

ويتلو آيةً من القرآن يردِّدُها ، قال : اقرع الباب فقرعتُ الباب، فقال : مَنْ هذا؟ قلتُ : أجب أمير المؤمنين ! فقال : مالى ولأمير المؤمنين ! فقلت : سبحانَ الله ! أما عليك طاعتُه ؟ فنزل وفتح الباب، ثم ارتقى إلى الغرفة ، فأطفأ السراج، ثم التجأ إلى زواية من زوايا البيت ، فدخلنا ، فجعلنا نَجُول عليه بأيدينا ، فسبقتْ كفُّ هارون قبلى إليه .

فقال : يالها من كفٍّ ! ما ألْيَنها ! إن نجتْ غداً من عذاب الله عز وجل ! فقلت فى نفسى : ليكلمنَّه الليلةَ بكلامٍ من قلبٍ نقيٍّ ، فقال له : خُذْ لما جئناك له – رحمك الله ! فقال له : إن عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعبٍ القُرَظى ورجاء بن حَيْوَة ، فقال لهم : إنى قد ابتليتُ بهذا البلاء، فأشيروا علىَّ – فعَدَّ الخلافة بلاء . وعددتَها أنت وأصحابك نعمةً .

فقال له سالم بن عبد الله : إن أردتَ النجاة من عذاب الله فصُمِ الدنيا . وليكن إفطارُك منها الموت . وقال محمد بن كعب : إن أردتَ النجاةَ من عذاب الله فليكن كبير المؤمنين عندك أباً ، وأوسطُهم عندك أخاً ، وأصغرُهم عندك ولداً ؛ فوقِّر أباك ، وأكْرِم أخاك ، وتحنَّنْ على ولدك .

وقال له رجاء بن حَيْوَة : إن أردتَ النجاة غداً من عذاب الله عز وجل فأحب للمسلمين ماتحبُّ لنفسك ، واكْرَه لهم ماتكره لنفسك ، ثم مُتْ إذا شئتَ . وإنى أقول لك : إنى أخافُ عليك أشدَّ الخوف يوم تزِل الأقدام ، فهل معك – رحمك الله – مثلُ هؤلاء ، أو من يشيرُ عليك بمثل هذا ؟ فبكى هارون بكاءً شديداً ، حتى غُشِىَ عليه . فقلت له : ارفُقْ بأمير المؤمنين – رحمك الله !

فقال : ياأمير المؤمنين ؛ بلغنى أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز شكَى إليه ،

فكتب إليه عمر : يا أخى ؛ اذكِّرك طولَ سهرِ أهلِ النار فى النار مع خلود الأبَد ، وإياكَ أن يُنصَرَف بك من عند الله فيكون آخر العهدِ بك ، وانقطاع الرجاء منك .

قال : فلما قرأ الكتاب طَوَى البلاد حتى قدم على عمر بن عبد العزيز ؛ فقال له : ما أقدمك ؟ قال : خلعتَ قلبى بكتابك ؛ لا أعودُ إلى ولاية حتى ألقى الله عز وجل . فبكى هارون بكاء شديداً ، ثم قال له : زِدْنى — رحمك الله !

فقال له : يا أمير المؤمنين ؛ إن العباس عمَّ النبى جاء إليه ، فقال له : يا رسول الله ؛ أمِّرنى على إمارةٍ . فقال له النبى : إن الإمارة حسرةٌ وندامة يوم القيامة ؛ فإن استطعتَ ألا تكون أميراً فافعل . فبكى هارون بكاء شديداً ، ثم قال : زدنى — رحمك الله !

فقال : يا حسنَ الوجه ، أنت الذى يسألُك الله عز وجل عن هذا الخَلْقِ يوم القيامة ؛ فإن أردت أن تقِىَ هذا الوجهَ من النار ، فإياكَ أن تُصْبِحَ وتُمْسِىَ وفى قلبك غِشٌّ على أحدٍ من رعيَّتِك ، فإن النبىَّ قال : من أصبح لهم غاشًا لم يَرِح[1] رائحةَ الجنَّة . فبكى هارون ، وقال له : عليكَ دَين ؟ قال : دَيْنٌ لربى لم يحاسبنى عليه ؟ فالويلُ لى إن سألنى ؛ والويلُ لى إن لم أُلْهَمْ حُجَّتى ، قال : إنما أعنى من دَين العباد ! قال : إنّ ربى عز وجلّ لم يأمرْنى بهذا ، إنما أمرنى أن أُصَدِّق وعده وأطيع أمرَه ، فقال : وما خلقتُ الجِنَّ والإنس إلا ليعبدون ، ما أُريدُ منهم من رِزْقٍ وما أُريد أن يُطعمون ، إن الله هو الرَّزَّاقُ ذو القوَّةِ المتين .

فقال له : هذه ألفُ دينار ، خُذْها فأنفقْها على عيالك ، وتقوَّ بها على عبادةِ

(١) يرح رائحة الجنة : أى لم يشم ريحها .

ربكَ ! فقال : سبحان الله أنا أدلك على طريق النَّجاة ، وأنت تكافئني بمثل هذا ؟ سلّمك الله ووفّقك ! ثم صمَتَ فلم يكلمنا .

فخرجنا من عنده ، فلما صِرْنا على الباب ، قال هارون : ياعباسيُّ ؛ إذا دللْتني على رجل فدُلَّني على مثل هذا ! هذا سيدُ المسلمين .

فدخلتْ عليه امرأةٌ من نسائه ، فقالت : يا هذا ؛ قد ترى ما نحنُ فيه من ضيقِ الحال ، فلو قبلتَ هذا المال فتفرَّجْنا به ، فقال لها : مَثَلِي ومثلكم كمثل قوم كان لهم بعيرٌ يأكلون من كسبه ، فلما كَبِرَ نحروه فأكلوا لحمه .

فلما سمع هارون هذا الكلام قال : ندْخل فعسى أن يقبَل المال ، فلما علم الفضَيْل خرج فجلس فى السطح على باب الغرفة ، فجاء هارون فجلس إلى جنبه ، فجعل يُكلِّمه فلا يجيبه .

قال الفضل : فبينما نحن كذلك إذ خرجت جاريةٌ سوداء ؛ فقالت : يا هذا ، قد آذيْتَ الشيخَ منذ الليلة ؛ فانصرِفْ رحمك الله ! فانصرفنا !

١٢٤ـ أموي عند الرشيد*

رُفع إلى هارون الرشيد أن رجلاً بدمشق من بقايا بنى أمية عظيمُ المال ، كبير الجاه ، مطاع فى البلد ، له جماعة وأولاد ومماليك يركبون الخيل ، ويحملون السلاح ، ويغزون الروم ، وأنه سمحٌ جواد ، وأنه لا يُؤمَن منه ، فعظُم ذلك على الرشيد .

فقال لخادمه منارة : اخرج الساعة وابْدَأْ بالرجل فقيِّده وجِئْنى به ، واجعله فى مَحمل تقعد أنت فى شِقّه وهو فى الآخر ، وتَفَقَّدْ دارَه ، واحفظ ما يقوله الرجل حرفا بحرف .

قال منارة : فأتيتُ بيتَ الرجل ، ودخلتُ بغير إذنه ، فلما رأى القومُ ذلك سألوا بعضَ مَنْ معى عنى ، فلما صرتُ فى صَحْنِ الدار نزلتُ ، ودخلتُ مجلساً رأيت فيه قوماً جلوساً ، فظننتُ أن الرجلَ فيهم ، فقاموا ورحَّبوا بى ، فقلت : أفيكم فلان ؟ قالوا : نحن أولادُه وهو فى الحمّام ، فقلت : استعجلوه ، فمضى بعضُهم يستعجله ، وأنا أتَفَقَّد الدارَ والأحوالَ والحاشية ؛ فوجدتُها ماجَتْ موجاً كبيراً . فلم أزل كذلك حتى خرج الرجلُ بعد أن طال مكثُه ، واسترِبتُ به ، واشتدَّ خوفى وقلقى من أن يتوارى ، إلى أن رأيتُ شخصاً بزيِّ الحمام يمشى فى صَحْن الدار ، وحواليه جماعة كُهول وأحداثٌ وصبيان ، وهم أولاده وغلمانه ، فعلمتُ أنَّه الرجل .

فجاء وسلم وسألنى عن أمير المؤمنين ، واستقامة أمر حضرته ، فأخبرته بما وجب

---

* ذيل ثمرات الأوراق : ١٨١ .

وما قضى كلامه حتى جاءوا بأطباق فاكهة ، فقال : تقدَّم يامنارة وكلْ معنا . فقلت : مالى إلى ذلك من سبيل ، فلم يعاودنى وأكل هو ومَنْ معه ، ثم جاءوا بمائدة حسنة ، فقال : يامنارة ؛ ساعِدْنا على الأكل ، فامتنعتُ عنه ، فما عاودنى .

فلما فرغ من أكله قام إلى الصلاة فصلّى وأكثرَ من الدعاء والابتهال ، ثم قال لى : ما أقدَمَك يامنارة ؟ فأخرجتُ كتابَ أمير المؤمنين فدفعتُه إليه ففضّه وقرأه ، ثم أمر أولاده بالانصراف ، وقال : هذا كتاب أمير المؤمنين ، ولست أُقيم بعد نظرى فيه ساعة واحدة ، هاتِ قيودَك يامنارة ، فدعوتُ بها وقيَّدْتُه وحملته .

وسرتُ بالرجل ، وليس معه أحدٌ ، حتى صِرْنا بظاهر دمشق ، فابتدأ يحدّثنى بانبساط حتى انتهينا إلى بستان حسن فى الغُوطة ، فقال لى : أترى هذا ؟ قلتُ : نعم ، قال : إنه لى ، وفيه من غرائب الأشجار كيتَ وكيتَ ، ثم انتهى إلى آخر ، فقال مثلَ ذلك ، ثم انتهى إلى مزارعَ حسان وقُرى ، فقال مثل ذلك .

فاشتدّ غيظى منه وقلتُ : ألستَ تعلم أن أمير المؤمنين أهمّه أمرُك حتى أرسلَ إليك مَن انتزَعَك من بين أهلك ومالِك وولدِك ، وأخرجَك فريداً مقيَّدا لاتدرى إلى ما يصيرُ إليه أمرُك ؛ ولا كيف يكون ! وأنتَ فارغُ القلب من هذا حتى تصفَ ضياعَك وبساتينك بعد أن جئتُك ؟

فقال لى مجيباً : إنّا لله وإنا إليه راجعون ! أخطأتْ فِراستى فيك . لقد ظننتُ أنّكَ رجلٌ كامل العقل ، وأنك ما حللتَ من الخلفاء هذا المحلَّ إلا لما عرفوك بذلك ، فإذا بكلامك يشبه كلام العوام ، والله المستعان !

أمّا قولُك فى أمير المؤمنين وإزعاجه وإخراجه إلى بابه على صورتى هذه ،

«إنى على ثقةٍ من الله عز وجل الذى بيده ناصيةُ أمير المؤمنين، ولا يملكُ أميرُ المؤمنين لنفسه نفعاً ولا ضرًّا إلا بإذن الله عزَّ وجل؛ ولا ذنب لى عند أمير المؤمنين أخافُه. وبعد، إذا عرف أميرُ المؤمنين أمرى، وعرف سلامتى، وصلاح ناحيتى سرَّحنى مكرَّما؛ فإن الحُسَّادَ والأعداء رَمَوْنى عنده بما ليس فىَّ، وتقوَّلوا علىَّ الأقاويلَ، فلا يستحل دمى؛ وسيردّنى مكرَّماً، ويقيمنى ببلاده معظَّماً مبجّلا: وإن كان قد سبقَ فى علم الله عزَّ وجل أنه يبدرُ إلىَّ منه بادرةُ سوء، وقد حضر أجلى، وكان سَفْكُ دمى على يده، فإنى أحسنُ الظَّنَّ بالله الذى خلَق ورزق، وأحيا وأماتَ، وإن الصبر والرضا والتسليم إلى من يَمْلكُ الدنيا والآخرة! وقد كنتُ أحسبُ أنك تعرفُ هـذا فإذْ عرفتُ مبلغَ فَهْمِكَ فإنى لا أكلمُك بكلمة واحدة حتى يفرِّق بيننا أمير المؤمنين إن شاء الله تعالى!

قال مَنَارة: ثم أعرض عنى فما سمعتُ منه لفظةً غير التسبيح أو طلب ماء أو حاجة حتى شارَفْنا الـكوفة.

ودخلتُ على الرشيد وقبّلتُ الأرض بين يديه، ووقفتُ، فقال: هات ما عندك يامنارة، فسقْتُ الحديث من أوله إلى آخره، فلما جئتُ على آخره قال: صَدَق والله! ماهذا الرجل إلا محسودُ النعمة مكذُوبٌ عليه، ولعمرى لقد أزْعَجْناه وآذيناه وروَّعنا أهلَه، فبادِرْ بنَزْعِ قيوده وائتنى به؛ ففعلت وأدخلته على الرشيد.

فما هو إلا إن رآه حتى رأيتُ ماءِ الحياء يَجُول فى وَجْهِ الرشيد، فدنا الأموى وسلم بالخلافة ووقف؛ فردَّ عليه الرشيد ردًّا جميلا، وأمره بالجلوس فجلس، فأقبل عليه الرشيدُ وسأله عن حاله، ثم قال له: بلغنا عنك فضلُ هيئة وأمورٌ أحببنا معها أن نراك، ونسمعَ كلامك ونُحْسِنَ إليك؛ فاذكر حاجتك؛ فأجاب الأموى

جواباً جميلا ، وشكر ودعا . ثم قال : يا أمير المؤمنين ؛ أن تردّنى إلى بلدى وأهلى وولدى ، قال : نفعل ذلك ، ولكن سلْ ما تحتاج إليه فى مصالح جاهك ومعاشك ، فإنّ مثلك لا يخلو أن يحتاج شيئاً من هذا ، فقال : يا أمير المؤمنين؛ عمّالك مُنْصفون، وقد استغنيتُ بعدْلهم عن مسألتى ، فأمورى مستقيمة ، وكذلك أهلُ بلدى بالعدْل الشامل فى ظلّ أمير المؤمنين .

فقال الرشيد : انصرف محفوظاً إلى بلدك ، واكتبْ إلينا بأمرٍ إن عرض لك؛ فودّعه الأمويّ وانْصرف .

قال منارة : فلمّا ولّى خارجاً قال الرشيدُ : يامنارة ؛ احمله من وقتك وسر به راجعاً كما جئتَ به ، حتى إذا وصلتَ إلى مجلسه الذى أخذتَه منه فدَعْه وانصرف !

١٢٥- يُوَاسِي بَعضُهم بَعضًا *

قال الواقدى (١) :

كان لى صديقان: أحدهما هاشمىّ ، وكُنَّا كنفْسٍ واحدة ؛ فنالتنى ضِيقَةٌ شديدة وحضر العيدُ ، فقالت امرأتى : أمَّا نحن فى أنفسنا فنصبرُ على البؤس والشدّة ، وأما صِبْيانُنا هؤلاء فقد قطَّعوا قلبى رحمةً لهم ؛ لأنهم يرون صبيانَ الجيران وقد تزيَّنوا فى عيدهم ، وأصلحوا ثيابَهم ، وهم على هذه الحال من الثياب الرثّة ! فلو احتَلْتَ بشىء تصرفُه فى كُسْوتهم !

فكتبتُ إلى صديقى الهاشمىّ أسأله التَّوسِعَة علىَّ ، فوجَّه إلىَّ كيساً مختوماً ، ذكر أنّ فيه ألفَ درهم ، فما استقرَّ قَرَارى حتى كتب إلىَّ الصديقُ الآخر يشكو مثلَ ماشكوتُ إلى صاحبى ، فوجَّهتُ إليه الكيسَ بحاله ، وخرجتُ إلى المسجد ، فأقمتُ فيه ليلى مُستحيياً من امرأتى .

فلما دخلتُ عليها استحسنَتْ ما كان منى ، ولم تعنِّفْنى عليه .

فبينما أنا كذلك إذ وافى صديقى الهاشمىُّ ومعه الكيسُ كهيئته ، فقال لى : اصْدُقْنى عمّا فعلتَه فيما وجهتُ إليك ؟ فعرَّفْتُه الخبر على وجهه ، فقال : إنك وجّهتَ إلىَّ وما أملك على الأرض إلا مابعثتُ به إليك ، وكتبتُ إلى صديقنا أسأله المواساة فوجَّه إلىّ بكيسى ! فتواسينا الألف أثلاثاً !

ثم نُمِىَ الخبر إلى المأمون فدعانى ، فشرحتُ له الخبر ، فأمر لنا بسبعة آلاف دينار ؛ لكلّ واحد ألفا دينار ، وللمرأة ألف دينار !

---

* المسعودى : ٢ ـ ٣٣٦ .

(١) الواقدى : هو محمد بن عمر بن واقد من أقدم المؤرخين فى الإسلام ومن أشهرهم ، ولد بالمدينة وانتقل إلى العراق فولاه المأمون القضاء بالرصافة ، ثم ولى قضاء بغداد ، ومن كتبه « المغازى النبوية » توفى سنة ٢٠٧ هـ .

١٢٦ـ وَفِيٌّ للبَرامكة *

قال عمرو بن مَسْعَدة :

رُفِعت قصّةٌ إلى المأمون منسوبةٌ إلى محمد بن عبد الله يَمُتُّ فيهـا بِحُرمة ، ويزعمُ أنّه من أهلِ النعمة والقَدْر ، وأنه مَوْلى ليَحيى بن خالد، وأنه كان ذا ضَيْعَةٍ واسعةٍ ، ونعمةٍ جليلة ، وأنّ ضياعَه قبِضَتْ فيما قُبِضَ للبرامكة ، وزالت نعمُه بحلول النِّقْمَةِ عليهم .

فدفعها المـأمون إلى ابن خالد (١)، وأمره أن يَضُمَّ الرجلَ إلى نفسه ، وأن يُجرى عليه ، ويُحسن إليه . ففعل به ذلك ، وصلحت حاله ، وصار نديماً لا بن أبي خالد لا يفارقه .

فتأخَّر عنه ذات يومٍ لمولودٍ وُلِدَ له ، فبعث إليـه فاحْتَجب عنه ، فغضب عليه ابنُ أبي خالد ، وأمر بحبْسه وتقْييده ، وإلباسه جُبَةَ صوف ، فمكث كذلك أياماً . فسأله المأمون عنه ، فقصّ عليـه قصّته ، وعظّم جرْمه ، وشكا ما يراه عليـه من التِّيهِ والصَّلَف (٢) والافتخار بالبرامكة ؛ والسُّمُوِّ بآبائهم .

فأمره بإحضاره ؛ فأُحْضِر في صُوفِهِ ؛ فأقبل عليـه المأمون بالتوبيخ مُصَغِّراً

---

* المحاسن والمساوى : ٢٢٢ ، طبعة ليزج .

(١) هو أحمـد بن أبي خالد ، استوزره المـأمون بعد وفاة الفضل بن سهل وقال له : إني كنت عزمت ألا أستوزر أحدا بعد ذي الرياستين ، وقد رأيت أن أستوزرك . فقال : ياأمير المؤمنين ، اجعل بيني وبين الغاية منزلة يتأملها صديقي فيرجوها لي ، ولا يقول عدوى قد بلغ الغاية وليس إلا الانحطاط . فاستحسن المأمون كلامه واستوزره . وظل أثيراً عنده حتى مات سنة ٢١١ هـ وصلى عليه المأمون .

(٢) الصلف : تمدح المرء بما ليس فيه .

لِقَدره ، مُسفِّهاً لرأيه ، وعظَّم فى عينه إحسانَ ابن أبى خالد إليـه ، مع طَعْنٍ على البرامكة ، ووضعٍ منهم ، فأطْنَب فى ذلك .

فقال محمد : يا أميرَ المؤمنين ، لقد صغَّرْتَ من البرامكة غير مصغَّر ؛ وذمَمْتَ منهم غير مذموم ، ولقد كانوا شِفَاء أسْقام دَهْرِهم ، وغِياثَ أجادِب[1] عصرهم ، وكانوا مَفْزَعاً للملهوفين ، وملجأً للمظلومين ، وإنْ أذِنَ لى أميرُ المؤمنين حدَّثته ببعض أخبارهم ليَسْتَدِلَّ بذلك على صِدْق قولى فيهم ؛ ويقفَ على جميل أخلاقهم ، ومحمودِ مذاهبهم فى عصرهم ، والأفعال الشريفة والأيادى النفيسـة !

قال : هات ، قال : ليس بإنصافٍ ، محـدِّث مقيَّد فى جبـة صوف ! فأمر فأخذَ قيدُه . فقال : يا أمير المؤمنين ؛ ألَمُ الجبّة يحولُ بينى وبين الحـديث ؛ فأمر فخُلع عليه ، ثم قال : هاتِ حديثَك !

قال : نعم يا أمير المؤمنين ، كان ولائى وانقطاعى إلى الفضل ، فقال لى الفضل يوماً بمحضر من أبيه وأخيه جعفر : ويحك يا محمد ! إنى أحبُّ أن تدعوَنى دعوة كما يَدْعُو الصديقُ صديقَه ، والخليلُ خليلَه !

فقلت : جُعِلْتُ فداك ! شـأنى أصغرُ من ذلك ؛ ومالِى يعجزُ عنه ، وباعى يَقْصرُ عن ذلك ، ودارى تَضِيق عنه ، ومُنَّتى[2] لا تقومُ له ! قال : دَعْ عنك ذلك ، فلابدَّ منه . فأعَدْتُ عليه الاسْتِعْفاء ، فرأيته جادًّا فى ذلك مقيما عليه ، وسأله أبوه وأخوه الإعفاء ، وأعلماه قصورَ يدى عن بلوغ ما يَجب له ويُشْبِهُ مثله ، فقال لهما : لستُ بقانع منه دون أن يدعوَنى وإيّاكما لا رابعَ معنا !

فأقبلَ عَلَيَّ يحيى ، وقال : قد أبى أن يُعفيَك ، وإن لم يكن غيرُنا فأقْعِدْنا على أثاثِ

---

(١) الأجادب : الأراضى التى لا نبات بها . (٢) المنة : القوة .

بيتك فلا حِشْمَة[1] منا. وأطْعِمْنا من طعام أهلك فنحن به راضون؛ وعليه شاكرون.

فقلتُ: جُعِلتُ فِدَاك! إن كنتَ قدعرضتَ عَلَيَّ ذلك، وأبيتَ إلا هَتْكِي وفضيحتي فأرجو أن تُؤَجِّلَني حتى أتأهَّب. فقال: استأجِلْ[2] لنفسك. فقلت: سنة، فقال: ويحك، أمَعَنا أمانٌ من الموت إلى سنة!

فقال يحيى: أفرطتَ في الأجل؛ ولكنِّي أحكُمُ بينكما بما أرجو ألّا يَرُدَّهُ أبو العباس، واقبله أنت أيضاً. فقلت: احكم وفَّقك اللهُ للصواب، وتفضَّلْ عليّ بالفسْح في المدة. فقال: فقد حكمتُ بشهرين.

فخرجتُ من عندهم، وبدأتُ بِرَمِّ[3] داري، وإصلاح آلتي، وشراء ما أتجمَّلُ به من فرش وأثاث وغير ذلك، وهو في ذلك لا يزالُ يذكِّرُني؛ ويعدَّ الأيامَ عليّ، حتى إذا كانت الجمعةَ التي تَجِبُ فيها الدعوة قال لي: يامحمد؛ قدقرُبَ الوقتُ، ولا أحسب أنه قد بقي عليك إلا الطعام؟ فقلت: أجل ياسيدي!

فأمرت باتّخاذ الطعام على غاية ما انبسطَتْ به يدي ومقدرتي؛ وجاءني رسولُه عشيةَ اليوم الذي صبيحته الدعوة؛ فقال لي: إلى أين بلغتَ؟ وهل تأذنُ بالركوب؟ قلت: نعم، بكِّرْ. فبكَّر هو ويحيى وجعفر، ومعهم أولادُهم وفتيانهم.

فلما دخلوا أقبلَ عليّ الفضلُ، وقال: يامحمدُ؛ إن أول ما أبْدَأُ به النظرُ إلى نعمتك كلِّها صغيرِها وكبيرِها، فقمْ بنا إلى الدار حتى أدُور فيها، وأقف عليها!

فقمتُ معه، وطاف في المجلس، ثم خرج إلى الخزائن، وصار إلى الإصطبلات، ونظر إلى صغير نعمتي وكبيرها، ثم عَدَل إلى المطبخ، فأمر بكَشْفِ القدور كلِّها،

---

(١) الحشمة: الاستحياء. (٢) استأجله: طلب منه أن يضرب له في ذلك أجلا.
(٣) رمها: إصلاحها.

وأبصر قِدْراً منها ، فأقبل على أبيه ، وقال : هذه قِدْرك التى تُعْجِبك ، ولستُ أبرح دون أن تأكلَ منها ؛ فدعا برغيف فغمسه فى القِدْر ، وناول أباه ؛ ثم فعل ذلك بأخيه ، ودعا بخلال ، وخرج إلى الدار ، ووقف فى صحنها مُسرِّحاً طرْفه فى فنائها و بنائها وسقوفها وأروِقتها . ثم أقبل علىّ وقال : مَنْ جيرانُك ؟ قلت : جُعِلتُ فداك ! عن يمينى فلان ابن فلان ، وعن شمالى فلان ابن فلان ، وفى ظهر دارى رجلٌ كبير ، لا يفتر فى بنائه ولا يُقَصِّر . فقال لى : أو تعرفه ؟ قلت : لا ، قال : ما كان ينبغى لك فى قَدْرِك ومحلّكَ من هذه الدولة أن يجترئ أحدٌ أن يشترى شيئاً فى جوارك إلا بأمرك ، وأن ترضى لنفسك إلا بجارٍ تعرفه !

فقلتُ : لم يمنعْنى من ذلك إلا ما كنتُ فيه من الشغل بهذه الدعوة المباركة . فقال لى : فأيْنَ الحائط الذى يتّصلُ بداره ؟ فأوْمَأتُ إليه ، فقال : علىّ ببنّاء فأُتِىَ به ، فقال : افتحْ هاهنا باباً ! فأقبلَ عليه أبوه ، وقال : نشدتك الله يابنى ألاّ تهجمَ على قومٍ لا تعرفهم ! وأقبل عليه أخوه بمثلِ ذلك ، فأبى إلا أن يفتح الباب .

فلما رأيتُه قد ردّ أباه وأخاه أمسكتُ عن مسألته ، ففتح البابَ ودخل ، وأدخلَنِى معه ؛ فدخلتُ داراً حار بصرى فيها من حُسنِها ، وانتهينا إلى رواق فيه مائةُ مملوك فى زىٍّ واحد ، عليهم الأقبيةُ[1] من الديباج ؛ و إذا شيخ قد خرج فقبّل يده ، فقال له : مُرَّ بنا ننظر فى مرافق هذه الدار ؛ فما دخلنا مجلساً إلا رأيناه قد فُرِش بما لا يُحيط به الوصف .

ثم قال للشيخ : مُرَّ بنا إلى مكانِ الدواب ، فدخلنا إصطبلا فيه أربعمائةٍ من البغال وغيرها ، فوجدتُ ذلك الإصطبل أحسنَ بناء من دارى .

(١) جمع قباء .

ثم خرج نحو دور النساء ، والشيخُ بين يديه ، فلما انتهى إلى الباب وقف الشيخ ، ودخل الفضل ، وأنا معه ، حتى دخلتُ بعضَ تلك الدور ، فإذا فيهامائةُ وصيفة[1] ، قد أقبلْنَ فى حُلِيِّهن وحُللهنّ ، فوقفْن بين يديه ، فقال : يامحمد ، هـذه الدار أجلُّ أم دارك ! فقلت : ياسيدى ، وما أنا ؟ وما دارى ؟ هذه تصلحُ للأمير لا غَيْره ! فقال يامحمد ، هذه الدار بما فيها من الدوابّ والرقيق والفُرش والأوانى لك ، ولك عندى زيادة .

فقلت فى نفسى : يَهَبُ لك مِلْكَ غيره ! فعَلِمَ مافى نفسى ، فقال : يامحمدُ ؛ إنى لمَّا سألتُك هـذه الدعوة تقدّمتُ إلى القَهْرمان بشراء هذا البرَاح[2] ، وأن يعجّل الفراغ منه ومن بنائه ، وحوّلت إلى الدار ماترَى ، فبارك الله لك فيها .

وانصرف بى إلى أبيه وأخيه ، وحدّثهما بما جرى ، فرأيت أخاه جعفراً قد مَعِض[3] من ذلك ، وتغيّر وجهه تغيُّراً عَرَفتُه ، ثم أقبل على أبيه يشكو الفضْل ، ويقول : يتَفَرَّدُ بمثل هذه المكرمة من دونى ، فلو شاركنى فيها لـكانت يداً أشكرها منه !

فقال : ياأخى ؛ بَقِى لك منها قُطبُها[4] ! قال : وما هو ؟ قال : إنّ مولاناهذا لا يتهيَّأُ له ضَبْطُ هذه الدار بما فيها إلا بِدَخْلٍ جليل ، فأعْطِه ذلك !

فقال : فرّجْتَ عنّى ياأخ ! فرّج الله عنك ! فدعا من وقته بصِكاك[5] لخمس قُرَيَّات ، واحتمل عنى خرَاجها . فخرجوا عنى ، وأنا أيسر أهل زمانى .

فهل تلومنى ياأميرَ المؤمنين عَلَى ذِكْرِهم ، والإشادة بفضلهم ؟

فقال المأمون : ذهب القومُ والله بالمكارم ! ثم أمر لمحمد بمائة ألف درهم ، وتقدّم إلى ابن أبى خالد بردِّ مَرْتبته ، وتَصْييره فى جملة خواصّه !

---

(١) الوصيفة : الخادم . (٢) البراح : المتسع من الأرض لا زرع بها ولا شجر .
(٣) معض من الأمر ـ كفرح : غضب . (٤) قطب الشيء : ملاكه ومداره . (٥) جمع صك .

١٢٧ - أفضل الأصحاب

كان محمد بن حُمَيْد (١) الطُّوسى على غَدائه يوماً مع جُلسائه ، وإذا بصَيْحة عظيمة على باب داره ، فرفع رأسه ، وقال لبعض غلمانه : ما هذه الضَّجة ؟ مَنْ كان على الباب فَلْيدْخل !

فخرج الغلام ، ثم عاد إليه ، وقال : إن فلاناً أُخِذ وقد أُوثِق بالحديد ، والغلمانُ ينتظرون أمرَك فيه ؛ فرفع يده عن الطعام ؛ فقال رجل من جُلَسائه . الحمدلله الذى أمْكَنكَ من عدوّك ، فسبيله أن تَسقِيَ الأرضَ من دَمه ؛ وأشار كلٌّ من جلسائه عليه بقتْله عَلَى صِفةٍ اختارها ، وهو ساكت !

ثم قال : ياغلام ؛ فُكَّ عنه وَثَاقه ، ويدخل إلينا مكرَّماً .

فأُدخِل عليه رجلٌ لا دمَ فيه ؛ فلما رآه هشَّ إليه ، ورفع مجلسه ، وأمر بتجديد الطعام . وَبسَطه بالكلام ، ولقَّمه (٢) حتى انتهى الطعام ، ثم أمر له بكُسْوةٍ حسنةٍ وصِلة ، وأمر بردِّه إلى أهله مُكرَّماً ، ولم يعاتبْه على جُرْمٍ ولا جناية .

ثم التفت إلى جلسائه ، وقال لهم : إنَّ أَفضل الأصحاب من حضَّ الصاحبَ على المكارم ، ونهاه عن ارتكاب المآثم ؛ وحسّنَ لصاحبه أن يجازىَ الإحسان بضعفِه ، والإساءةَ بصفحه ؛ إنا إذا جازَينا من أساء إلينا بمثل ما أساء فأين موقعُ الشكرِ على النعمةِ فيما أُتيحَ من الظفر ! إنه ينبغى لمنْ حضر مجالسَ الملوك أن

* نهاية الأرب : ٦ ـ ٦٣ ، غرر الخصائص : ٢٣٩ .

(١) محمد بن حميد الطوسى : وال من قواد جيش المأمون العباسى ، استعمله على الموصل ، وكان شجاعا ممدوحاً جواداً وقتل سنة ٢١٢ هـ . (٢) لقمه ، يريد أطعمه .

يُمْسِكَ إلا عنْ قولٍ سَدِيد وأَمْرٍ رشيد ؛ فإن ذلك أدومُ للنعمة ، وأجمع للأُلفةِ .
إن الله تعالى يقول : « يا أَيُّها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولًا سَديداً . يُصلح لكم أعمالكم ، ويغفر لكم ذنوبَكم ، ومن يُطِعِ اللهَ ورسولَه فقد فازَ فَوْزاً عظيماً »(١) .

١٢٨ـ ما ولدت العربُ أكرمَ منك

قال الأصمعي*(٢) :

قصدتُ في بعض الأيام رجلًا كنتُ أَغْشَاهُ لكَرمه ؛ فوجدتُ على بابه بوّاباً ؛ فمنعني من الدخول إليه ؛ ثم قال : والله يا أصمعيّ ما أَوْقفني على بابه لأمنع مثلك إلا لرقّة حاله ، وقصور يده ؛ فكتبتُ رُقْعَةً فيها :

إذا كان الكريمُ له حِجابٌ ... فما فضلُ الكريمِ على اللئيم (٣) !

ثم قلتُ له : أَوْصِلْ رُقْعَتى إليه ؛ ففعل وعاد بالرُّقعة ، وقد وقّعَ على ظهرها :

إذا كان الكَريمُ قليلَ مالٍ ... تحجّبَ بالحجابِ على الغريمِ

ومع الرّقعةِ صُرّةٌ فيها خمسمائة دينار .

فقلت : والله لأُتحفَنّ(٤) المأمونَ بهذا الخبر ؛ فلما رآني قال : من أينَ يا أصمعيّ ؟
قلتُ : من عند رجلٍ من أكرم الأحياء حاشا أمير المؤمنين .

قال : ومَنْ هو ؟ فدفعتُ إليه الورقةَ والصُّرةَ ، وأعدْتُ عليه الخبر . فلما رأى

(١) سورة الأحزاب ـ آية : ٧٠ ، ٧١ .
* ثمرات الأوراق للحموي : ١ ـ ٢٣٢ .
(٢) هو أبو سعيد عبد الملك بن قريب ، نشأ بالبصرة ، وأخذ العربية والحديث والقراءة عن أئمتها ، وقد اشتهر بالثقة في الرواية والتضلع من اللغة ونقد الشعر ، توفي سنة ٢١٦ هـ .
(٣) اللئيم هنا : البخيل . (٤) التحفة : الطرفة .

الصُّرَّةَ قال :هذا من بيتِ مالى، ولا بدّلى من الرجل! فقلتُ: والله ياأمير المؤمنين إنى أَسْتَحْيِي أن تُرَوِّعه (١) برُسُلك ، فقال لبعض خاصتــه : امْض مع الأصمعىّ ؛ فإذا أراك الرجلَ ، فقل له : أَجِبْ أميرَ المؤمنين من غير إزعاج !

فلمّا حضر الرجلُ بين يدى المأمون قال له : أَنت الذى وقَفْتَ لنا بالأمس ؛ وَشــكَوْتَ رِقةَ الحال ، وأن الزمان قد أناخ عليك بِكَلْــكَلِهِ (٢) فدفَعْنَا إليكَ هذه الصُّرة لتُصْلِــحَ بها حالَك ، فقصدك الأصمعى ببيتٍ واحدٍ ؛ فدفَعتَها إليه !

فقال : نعم يا أميرَ المؤمنين ؟ والله ما كذبتُ فيما شــكوتُ لأمير المؤمنين من رقَّةِ الحال ؛ لــكنى استَحْيَيْتُ من الله تعالى أن أُعيدَ قاصِدى إلّا كما أعادَنى أميرُ المؤمنين .

فقال له المأمون : لله أنتَ ! فما ولدت العربُ أكرمَ منك .

---

(١) روعه : أفزعه (٢) الــكلــكل : الصدر ، والمعنى : أنك فى ضيق وشدة .

١٢٩ - الأصمعي يطلب القِرَى *

قال الأصمعيّ :

سرتُ في تَطْوافٍ في العرب بجبلَي طيّئ ؛ فدفعتُ إلى قومٍ منهم يَحْتلِبون اللبن ، ثم يَصيحون : الضيفَ الضيفَ ! فإن جاء مَنْ يضيفُهم ، وإلّا أراقوه ، فلا يَذُوقون منه شيئا دون الضيف إلا أن يَجْهَدَهم الجوع .

ثم دَفَعتُ إلى رجل من ولد حاتم بن عبد الله ، فسألتُه القِرى ، فقال : القِرى والله كثير ، ولكن لا سبيلَ إليه ، فقلت : ما أحسب عندك شيئاً ؛ فأمَرَ بالجفَان فأُخْرِجتْ مُكَرَّمة بالثريد ، عليها وَذَرُ (١) اللَّحم ، وإذا هو جادٌّ في المَنْعِ ؛ فقلت : واللهِ ما أشبهتَ أباك حيث يقول :

وأبرزُ قِدْرِي بالفناء ، قليلُها يُرَى غيرَ مضنُونٍ به وكثيرُها

فقال : إلاّ أشْبهْهُ في هذا ؛ فقد أشبهتهُ في قوله :

أماويُّ إما مانع فمُبيِّن وإمّا عطاء لا يُنَهْنِهُهُ (٢) الزَّجْرُ

فأنا والله مانعٌ مبيّن . فرحلتُ عنه .

ودفعت إلى امرأةٍ من ولدِ ابن هَرْمة فسألتُها القِرَى ، فقالت : إني والله مُرْمِلةٌ مُسْنِتَةٌ (٣) ، ما عندي شيء ، فقلت : أما عندك جَزُور ؟ فقالت : والله ولا شاة ، ولا دُجاجة ، ولا بَيْضَة ! فقلت : أمَا ابنُ هَرْمة أبوكِ ؟ فقالت : بلى

* ذيل الأمالي : ١٠٩

(١) الوذرة من اللحم : القطعة الصغيرة لا عظم فيها . (٢) ينهنهه : يكفه .
(٣) أسنتت : أصابتها السنة ، وهي الجدب .

والله ! إنى لمنْ صميمهم . قلت : قَاتَلَ اللهُ أباكَ ما كان أ كذبه حيث يقول :

لا أُمتعُ العُوذَ [(١)] بالفصَال ولا أَبْتاعُ إلا قريبــةَ الأَجَـلِ
إنى إذا ما البخــيلُ آمَنَها باتَتْ ضَمُوزاً منّى على وَجَلِ [(٢)]

زَوْلِيَتهُ ، فنادت : ارْبَعْ أيها الراكب ؛ فعلُه والله ذلك أقله عندنا ؛ فقلت : إلاّ تكونى أو سَعْتِنا قِرًى ، فقد أوْسَعْتِنا جواباً !

١٣٠ـ لقد أمكنك الله من الوفاء *

قال صاحبُ شرطة المأمون :

دخلتُ يوماً مجلسَ أميرِ المؤمنين ببغداد ؛ وبين يديه رجلٌ مُكبَّلٌ بالحديد: فلمّا رآنى ؛ قال لى : ياعبّاس ! قلت : لبيّك يا أمير المؤمنين !

قال : خُذْ هذا إليك ، واحتفظ به ، وبكِّر به إلىّ فى غد !

فدعوتُ جماعةً فحملوه ولم يقدرْ أن يتحرّك ! فقلت فى نفسى : مع هـذه الوصيةِ التى أوصانى بها أميرُ المؤمنين من الاحتفاظ به يجبُ أن يكون معى فى بيتى ، فأمرتُهم فتركوه فى مجلسٍ لى فى دارى .

ثم أخذتُ أسأله عن قضيته وعن حالِه ، ومن أين ؟

فقال : أنا من دِمَشق ؛ فقلت : جزى الله دمشقَ وأهلَها خيراً ! فمن أنْتَ

---

(١) العوذ : الحديثات النتاج . (٢) ضمز البعير : أمسك جرته فى فيه ولم يجتر .

* المستطرف : ١ ــ ٢٤٠ ؛ العقد الفريد للملك السعيد : ٨١

من أهلها ؟ قال : وعمّن تسألُ ؟ قلت : أتعرفُ فلاناً ؟ قال : ومن أين تعرفُ ذلك الرجل ! قلتُ : وقعت لى معه قضيَّة . فقال : ما كنتُ بالذى أعرِّفُك خبرَه حتى تعرِّفنى قضيَّتك معه !

فقال : كنتُ مع بعضِ الولاة بدمشق ؛ فبغى أهلُها ، وخرجوا علينا حتى إنّ الوالى تدلّى فى زنبيل [1] من قصر الحجاج ، وهرب هو وأصحابه ، وهربتُ فى جملة القوم .

فبينما أنا هاربٌ فى بعض الدُّرُوب إذا بجماعة يعدُون خلفى ؛ فما زلتُ أعدُو أمامهم ، حتى فُتُّهُم ؛ فمررتُ بهذا الرجل الذى ذكرته لك ، وهو جالسٌ على باب داره ؛ فقلت : أَغِثنى أغاثَك الله ! قال : لا بأسَ عليك ! ادخل الدار ؛ فدخلت ، فقالت زوجتُه : ادخلْ تلك المقصورة [2] ؛ فدخلتُها ، ووقف الرجلُ على باب الدار فما شعرتُ إلا وقد دخل ، والرجالُ معــه يقولون : هو واللهِ عندك !

فقال : دونــكم الدار ، فتِّشوها ؛ ففتَّشوها حتى لم يبقَ سوى تلك المقصورة ، وامرأتُه فيها ؛ فقالوا : هو هنا ! فصاحتْ بهم المرأة ونهرَتهم ؛ فانصرفوا .

وخرج الرجلُ وجلس على باب دارِه ساعةً ، وأنا قائم أرجُف ، ما تحمِلنى رِجْلاى من شدّة الخوف ؛ فقالت المرأة : اجلس لا بأْس عليك ! فجلستُ فلم أَلبث حتى دخل الرجــلُ فقال : لاتخفْ ، قد صرف اللهُ عنك شرَّهم ، وصِرْتَ إلى الأمْنِ والدَّعَة .

فقلت له : جزاكَ اللهُ خيراً ! ثم مازال يعاشِرُنى أحسن معاشرة وأجملَهــا ، وأفرَد لى مكاناً فى داره ، ولم يفتُر عن تفقُّد أحوالى .

---

(١) الزنبيل : القفة . (٢) المقصورة : الدار الواسعة المحصنة أو هى أصغر من الدار ، ولا يدخلها إلا صاحبها .

فأقمتُ عنده أربعة أشهر فى أرغَدِ عيش وأهنئه إلى أن سكَنت الفتنةُ و..أت وزال أثَرُها ؛ فقلت : أتأذنُ لى فى الخروج حتى أتفقّدَ حال غلمانى ؛ فلعلى أقفُ منهم على خبر ! فأخذ علىّ المواثيق بالرجوع إليه .

فخرجتُ فطلبتُ غِلمانى ؛ فلم أرَ لهم أثراً ؛ فرجعتُ إليه وأعلمته الخبر . وهو مع هذا كلّه لا يعرفُنى ولا يسألُنى ، ولا يعرف اسمى ، ولا يخاطبُنى إلا بالكُنْيَة .

ثم قال : عَلَامَ تَعزِم ؟ فقلتُ : عزمتُ على التوجّه إلى بغداد ؛ فقال : القافلة بعدَ ثلاثة أيام ؛ وهأنذا قد أعلمتُك !

فقلت له : إنك تفضّلت علىّ هذه المدّة ، ولك علىّ عهدٌ ألا أنسى لك هذا الفضل ولأُكافئنَّك ما استطعت .

ثم دعا غلاماً له أسود ، وقال له : أَسْرِجِ الفرس ، ثم جهّز آلةَ السفر ؛ فقلت فى نفسى : ما أظنّ إلا أنه يريدُ أن يخرجَ إلى ضَيْعةٍ أو ناحيةٍ من النواحى ؛ فأقاموا يومهم ذلك فى كدّ وتعب .

ولما حان يومُ خروج القافلة جاءنى السَّحَرَ [1] ، وقال لى : قم ، فإن القافلةَ تخرجُ الساعة ، وأكرهُ أن تنفرِدَ عنها ، فقلتُ فى نفسى : كيف أصنعُ ، وليس معى ما أتزوّد به ، ولا ما أكترِى به مركوباً [2] ! ثم قمتُ ، فإذا هو وامرأتهُ يحملان أفخرَ الملابس ، وخفّين جديدين ، وآلة السفر . ثم جاءنى بسيف ومِنْطَقة فشدّهما فى وسطى ، ثم قدّم بَغْلًا فحمل عليه صندوقين وفوقهما فَرْش ، وقدّم إلىّ فرساً ، وقال : اركب ، وهذا الغلام الأسود يخدمك ، ويَسُوسُ مركوبك .

وأقبلَ هو وامرأته يعتذران إلىّ من التقصير فى أمرى ، وركب معى يشيّعنى ، وانصرفتُ إلى بغداد وأنا أتوقّعُ خبرَه ، لأفِيَ بعهدى له فى مجازاته ومكافأته ،

(١) السحر : قبيل الصبح . (٢) المركوب : ما يركب .

واشتغلتُ مع أمير المؤمنين ، فلم أتفرَّغ أن أرْسِلَ إليه من يكشفُ خبره ، فلهذا أسألُ عنه !

فلما سمع الرجُلُ الحديثَ قال : لقد أمْكَنَك اللهُ من الوفاء له ، ومكافأتِه على فعله ومجازاتِه على صنيعِه بلا كُلْفة عليك ، ولا مئونةٍ تلزمُك .

فقلتُ : وكيف ذلك ؟ قال : أنا ذلك الرجل ، وإنما الضرُّ الذى أنا فيه غيّرَ عليك حالى ، وما كنتَ تعرفُه منّى .

فما تمالكْتُ أن قمتُ وقبّلْتُ رأسه ، ثم قلتُ له : فما الذى أصارَك [1] إلى ما أرى ؟ فقال : هاجَتْ بدمشق فِتنةٌ مثلُ الفتنةِ التى كانت فى أيامك ؛ فنُسِبَتْ إلىَّ وبعث أميرُ المؤمنين بجيوش ، فأصْلَحُوا البلد ، وأُخِذْتُ أنا وضُرِبْتُ إلى أن أشرفتُ على الموت ! وقُيِّدْتُ وبُعِثَ بى إلى أميرِ المؤمنين ، وأمرى عنده عظيمٌ ، وخَطبى لديه جسيم ، وهو قاتلى لا مَحَالة !

وقد أُخْرِجْتُ من عند أهلى بلا وصيَّةٍ ، وقد تبِعنَى من غِلْمانى من ينصرفُ إلى أهلى بخَبَرى ، وهو نازلٌ عند فلان ، فإن رأيتَ أن تجعلَ من مكافأتك لى أن ترسلَ من يُحْضِرُه حتى أوصيَه بما أريد ! فإن أنتَ فعلتَ ذلك فقد جاوزتَ حدَّ المكافأة ، وقمتَ لى بوفاء عهدك ! قلتُ : يصنعُ الله خيراً .

ثم أحضَرَ العباس حدّاداً فى الليل ففكّ قيوده ، وأزال ما كان فيه من الأنكال [2] ، وأدخله حمّام داره ، وألبسه من الثياب ما احتاج إليه ، ثم سيَّر مَن أحضَرَ إليه غلامَه .

فلما رآه جعلَ يبكى ويوصيه ؛ فاستدعى العباسُ نائبَه ، وقال : عَلَيَّ بالأفراس والهدايا ، ثم أمره أن يشيّعه إلى حَدِّ الأنبار !

(١) أصارك : صيرك . (٢) الأنكال : جمع نكل . قيد الحديد .

فقال له: إن ذَنْبي عندأمير المؤمنين عظيمٌ ، وخَطْبي جسيم، وإن أنتَ احتججت بأنى هربتُ بعثَ فى طلبى كلَّ من على بابه ، فأُردَّ وأُقتل .

فقال العبّاس : انجُ بنفسك ودَعْنى أدبِّر أمرى ! فقال : والله لا أبرحُ بغداد حتى أعلمَ ما يكون من خبرك ! فإن احتجْتَ إلى حضورى حضرت .

فقال العباس : إن كان الأمرُ على ما تقول ، فلتكن فى موضع كذا ، فإن أنا سَلِمتُ فى غداة غدٍ أعلَمْتُكَ ، وإن أنا قُتِلتُ فقد وَقَيْتُكَ بنفسى كما وقيتَنى !

ثم تفرّغ العباس لنفسه ، وتحنّط وجهّز له كفناً .

قال العبّاس : فلم أفرغ من صلاة الصبح إلا ورسلُ المأمون فى طلبى ، وهم يقولون : هاتِ الرجل معك وقُمْ !

فتوجّهتُ إلى دار أمير المؤمنين ؛ فإذا هو جالسٌ ينتظر . فقال : أين الرجل ؟ فسكتُّ ! فقال : ويحك ! أين الرجل ؟ فقلت : ياأمير المؤمنين ؛ اسمعْ منى . فقال : لله علىّ عهدٌ لئن ذكرتَ أنه هرب لأضرِبَنَّ عنُقَك ! فقلت : لا والله ياأمير المؤمنين ماهَرَبَ ، ولكن اسمَعْ حديثى وحديثَه ، ثم شأنك وما تريد أن تفعَله فى أمرى ! قال : قل .

فقلت : ياأمير المؤمنين ؛ كان من حديثى معه كيت وكيتَ ، وقَصَصْتُ عليه القصة جميعَها ، وعرّفتُه أنى أريدُ أن أفىَ له ، وأكافئه على فعله معى ، وقلت : أنا وسيدى ومولاىَ أمير المؤمنين بين أمرين : إما أن يصفحَ عنى ؛ فأكون قد وفيتُ وكافأتُ وإما أن يقتلنى فأقيَه نفسى ، وقد تحنّطت ، وها هو ذا كفنى يا أمير المؤمنين !

فلما سمع المأمون الحديث قال : ويلك ، لا جزاك الله عن نفسك خيراً ؛ إنه فعل

بك مافعل من غير معرفة ، وتـكافئه بعد المعرفة بهذا ؟ هلا عرّفتنى خبرَه ، فكنا نكافئُه عنك ، ولا نقصّر فى وفائك له !

فقلت : ياأمير المؤمنين ، إنه هاهنا وقد حلف ألا يبرحَ حتى يعرفَ سلامتى ، فإن احتجت إلى حضوره حضر .

فقال المأمون : وهذه مِنّةٌ أعظمُ من الأولى ، اذهبْ إليه الآن ، فطيّب نفسه وسكّن رَوْعه ، وائتنى به حتى أتولّى مكافأته .

فأتيتُ إليه وقلت له : ليزُل خوفُك ، إن أمير المؤمنين قال كذا وكذا !

فقال : الحمد لله الذى لا يُحمدُ على السراء والضراء سواه ؛ ثم قام وركب ، فلما مَثَلَ بين يدى أمير المؤمنين أقبل عليه ، وأدناه من مجلسه وحدّثه ، حتى حضر الغداء فأكل معه ، وخلع عليه ، وعرض عليه أعمال دمشق ، فاستعفى ، فأمر له بصلةٍ وكتب إلى عامله بدمشق بالوصية به .

١٣١ـ ابراهيم بن المهدي والمأمون

قال الواقدى :

كان إبراهيم[1] بن المهدى قد ادّعى الخلافة لنفسه بالرّىّ ، وأقام مالكا لها سنةً وأحدعشر شهراً واثنى عشر يوماً ،وله أخبارٌ كثيرة أحسنُهاعندى ماحكاه لى، قال : لما دخل المأمون الرّى فى طلبى ، وجعل لمَنْ أتاه بى مائة ألف درهم ، خِفْتُ على نفسى وتحيَّرت فى أمرى ، فخرجتُ من دارى وقت الظهر ، وكان يوماً صائفاً ، وما أدرى أين أتَوَجَّه ، فوقفتُ فى شارع غيرِ نافِذ ، وقلت : « إنّا لله و إنّا إليه راجعون » ! إنّ عدتُ على أثرى يُرتاب فى أمرى .

ثم رأيتُ فى صدر الشارع عبداً أسود قائماً على باب دار ، فتقدمتُ إليه وقلت : هل عندك موضع أُقيم فيه ساعة من نهار ؟ فقال : نعم ، وفتح الباب ، فدخلتُ إلى بيت نظيف فيه بسط ووسائد جلود إلا أنها نظيفة ، ثم أغلق الباب علىّ ومضى ؛ فتوهمتُه قد سمع الجعالة[2] فىّ ، وأنه خرج ليدلّ علىّ ، فبقيت على مثل النار .

و بينما أنا كذلك إذ أقبلَ ومعه حمّال عليه كل مايُحتَاجُ إليه من خبز ولحم ، و قِدْر جديدة، وجرّة نظيفة ، وكيزان جُدُد . فحطّ عن الحمّال ، ثم التفت إلىّ وقال:

---

* مجانى الأدب : ٤ ــ ٢٣٦ .

(١) إبراهيم بن المهدى بن المنصور العباسى ، أخو هارون الرشيد ، كان وافر الفضل غزير الأدب ، سخى الكف ولم ير فى أولاد الخلفاء قبله أفصح منه لساناً ، ولا أحسن منه شعراً ، مع يد طولى فى الغناء ، والضرب بالملاهى وحسن المنادمة ، بويع بالخلافة سنة ٢٠١ هـ وتوفى بسر من رأى سنة ٢٢٤ هـ . (٢) الجعالة : الأجر يعطى على عمل خاص .

جَعلنى الله فِداك ! أنا رجل حجّام ، وأنا أعلم أنك تَتَقَذَّرُنى[1] ، لما أتولاّه من معيشتى ، فشأنك بما لم تقع عليه يد .

وكان بى حاجةٌ إلى الطعام؛ فطبختُ لنفسى قِدْراً ما أذكرُ أنى أكلتُ مثلَها. ولما قضيتُ أَرَبى[2] من الطعام قال : هل لك فى الشراب فإنه يُسلّى الهمّ ؟ فقلت : ما أكرَهُ ذلك — رغبةً منى فى مُؤانسته — فأتى بقطْرميز[3] جديد لم تمسه يد ، وجاءنى بشراب وقال : روِّق لنفسك . فروّقتُ شراباً فى غاية الجودة ، وأحضر لى قَدَحاً جديداً وفاكهة وأبقالاً مختلفة فى طُسوت فخار جُدد .

ثم قال بعد ذلك : أتأذنُ لى — جعلتُ فداءك — أن أقعدَ ناحيةً وآتى بشرابى فأشرَبه سروراً بك ؟ فقلت له : افعل . ثم شربتُ وشرب ، ثم دخل إلى خزانة له فأخرج عوداً مصفّحاً ، ثم قال لى : ياسيدى ! ليس من قَدْرى أن أسألك الغناء ، ولكن قد وجبتْ على مروءتك حُرمتى ، فإن رأيتَ أن تُشرّف عبداً لك فلك علوُّ الرأى ! فقلت : منْ أين لك أنىَ أُحسن الغناء ؟ فقال : ياسبحان الله ! مولانا أشهر من ذلك ، أنت إبراهيم بن المهدى خليفتُنا بالأمس ، الذى جعل المأمونُ لمَنْ دَلَّ عليه مائةَ ألف درهم .

فلما قال ذلك عظُمَ فى عينى وثبتتْ مروءتُه عندى ، فتناولتُ العود وأصلحتهُ وغنّيت — وقد مرّ بخاطرى فراقُ أهْلى وولدى :

وعسى الذى أهدى ليوسفَ أهله   وأعزّه فى السِّجْن وهو أسيرُ
أن يستجيبَ لنا فيجمع شملَنَا   والله ربّ العالمينَ قديرُ

فاستولَى عليه الطَّرب المفْرِط ، وطاب عيشه كثيراً ، ومن شدة سروره وطربه

---

(١) تستقذرنى . (٢) حاجتى . (٣) القطرميز : قلة كبيرة من الزجاج .

قال ياسيدى ؛ أتأذنُ لى أن أغنّى ما سَنح بخاطرى ، وإن كنتُ من غير أهل هذه الصناعة ؟ فقلت : هذا زيادةٌ فى أدَبك ومروءتك ، فأخذ العُودَ وغنى :

شكونا إلى أحبابنا طولَ ليلنا فقالوا لنا : ما أقصرَ الليل عندنا !
وذاك لأن النومَ يغشى عيونهم سريعاً ولا يغشى لنا النومُ أعيُنا
إذا مادنا الليلُ المضر بذى الهوى جَزِعْنا وهم يستبشرون إذا دَنَا
فلو أنهم كانوا يُلاقون مثل مَا نُلاقى لكانوا فى المضاجِع مثلنا

فوالله لقد أحسست بالبيت قد سار بى ، وذهب عنى ما كان من الهلَع ، وسألته أن يُغنى مرةً ثانيةً فغنى :

تُعيِّرُنا أنَّا قليلٌ عديدُنا فقلت لها : إنَّ الكرامَ قليلُ
وما ضرَّنا أنَّا قليلٌ وجارُنا عزيزٌ وجارُ الأكثرِينَ ذَليلُ
وإنا لقومٌ لا نرى القتل سُبَّةً إذا ما رأته عامرٌ وسَلُولُ
يقرِّبُ حُبُّ الموتِ آجالَنَا لَنَا وتكرهُه آجالُهم فتطُولُ

فداخلنى من الطرب مالا مزيدَ عليه ، ثم عاجانى النومُ فلم استيقظ إلا بعد المغرب .

فعاودنى فِكرى فى نفاسة هذا الحجَّام وحسن أدبه وظَرْفه ؛ فقمت وغسلت وجهى وأيقظته ، وأخذت خريطةً(١) كانت صُحبتى ، فيها دنانير لها قيمة ، فرميت بها إليه ، وقلت له :أستودعك الله ، فإننى ماض من عندك ، وأسألك أن تنفق ما فى هذه الخريطة فى بعض مُهمَّاتك ، ولك عندى المزيدُ إن أمنتُ من خوفى .

فأعادها علىَّ منكراً ، وقال : ياسيِّدى ! إن الصَّعاليك منّا لا قَدرَ لهم عندكم ، أآخذ على ما وَهَبَنِيهِ الزّمان من قُربك وحلولك عندى ثمناً ؟ والله لئِن راجعتنى

(١) الخريطة : وعاء من جلد وغيره .

فى ذلك لأقتلنّ نفسى ، فأعدت الخريطة إلى كُمِّى وقد أثقلنى حملُها .

ولما هممتُ بالخروج قال لى : ياسيّدى ؛ إن هذا المكان أخفى لك من غيره ، وليس فى مَئُونتك علىّ ثقل ، فأقم عندى إلى أن يُفرِّج الله عنك . فرجعت وسألته أن ينفق من تلك الخريطة فلم يفعل . فأقمت عنده أياماً على تلك الحالة فى ألذّ عيش، ثم تذمّمت (١) من الإقامة عنده ، واحتشمت من التثقيل عليه ، فتركته — وقد مضى يُجدّد لنا حالًا — وقمتُ فتزيّيتُ بزىّ (٢) النساء وخرجتُ ، فلمّا صرتُ فى الطريق داخلنى من الخوف أمرٌ شديد،وجئت لأعبر الجِسْرَ ، فإذا أنا بموضعٍ مرشوشٍ بماء ، فأبصرَنى جندى ممن كان يخدُمنى ، فعرفنى وقال : حاجةُ المأمون !

ثم تعلّق بى ؛ فدفعتُه هو وفرسه ، فرميتُهما فى ذلك الزّلق،فصار عِبْرَة ، وتبادر الناس إليه ،فاجتهدتُ فى المشى حتى قطعتُ الجسرَ ، ودخلتُ شارعاً فوجدتُ باب دار ، وامرأةٌ واقفة فى دِهْليز ، فقلت : يا سيدةَ النساء ؛ احْقِنِي دمى ، فإنى رجل خائف . فقالت : على الرّحب والسّعة ، وأطْلَعَتْنِي إلى غرفةٍ مفروشة ، وقدّمتْ لى طعاماً ، وقالت : ليَهدأْ روعُك ، فما عَلِمَ بك مخلوق . و إذا الباب يُدَقُّ دقًّا عنيفاً ، فخرجتْ وفتحت الباب ، و إذا بصاحبي الذى دفعتُه على الجِسر ، وهو مشدوخُ الرأس، ودمُهُ على ثيابه وليس معه فرس!فقالت : ياهذا ! مادهاك ؟ فقال : ظفرتُ بالمُغَنِّي (٣) وانفَلَتَ عَنِّي . ثم أخبرها بما وقع له منى فأخرجت خِرقاً ، وعَصَّبَتْه بها ، وفرشتْ له فنام عليلاً ، ثم طلعتْ إلى وقالت : أظنك صاحبَ القصة ، فقلت : نعم !

فقالت : لا بأس عليك ! ثم جدّدت لى الكرامة ، وأقمت عندها ثلاثاً ، ثم قالت لى : إنّنى خائفةٌ عليك من هذا الرجل ، وأخشى أن ينمَّ بك ، فانجُ بنفسك.

---

(١) تذمم : خشى اللوم والذم . (٢) الزى : الهيئة . (٣) يقصد بالمغنى إبراهيم بن المهدى لشهرته بالغناء ، وكان يعير بذلك .

فسألتُها المهلة إلى الليل ففعلَتْ ، فلمّا دخلَ الليل لبستُ زِيّ النساء، وخرجتُ من عندها ، فأتيتُ إلى بيت مولاةٍ كانتْ لنا ، فلمّا رأتنى بكتْ وتوجّعتْ وحمدت الله على سلامتى ، وخرجَتْ كأنها تريد السوق للاهتمام بالضيافة ، فظننت خيراً ، فما شعرتُ إلا بأحد رجال المأمون فى خيلِه ورَجله ، والمولاة معه حتى سلّمتنى إليه ، فرأيتُ الموتَ عِياناً ، وحُملتُ بالزّى الذى أنا فيه إلى المأمون .

فجلس مجلساً عامًّا ، وأدخلنى إليه ، فلمّا مثلتُ بين يديه سلّمت عليه بالخلافة ، فقال : لا سلّم الله عليك ، ولا حيّاك ولا رَعاك ! فقلت له : على رِسْلِكَ يا أمير المؤمنين ! إن ولىّ الثأر مُحكّم فى القصاص ، والعفوُ أقرب للتقوى ، وقد جعلك الله فوق كلّ عفو ، كما جعل ذنبى فوق كل ذنب ؛ فإن تأخذْ فبحقك ، وإن تعفُ فبفضلك ، ثم أنشدت :

ذنبى إليك عظيمٌ   وأنت أعظم منه
فخذ بحقك أولا   فاصفح بحلمك عنهُ
إن لم أكن فى فعالى   من الكرام فكُنْهُ

فرفع إلىّ رأسه فبدرتُه وقلت :

أتيتُ ذنباً عظيماً   وأنت للعفو أهلُ
فإن عَفوتَ فمَنٌّ   وإن جزيت فعدلُ

فرقّ المأمون واسترْوَحتُ روائح الرحمة من شمائله ، ثم أقبل على ابنه العبّاس ، وأخيه أبى إسحاق، وجميع مَنْ حضر من خاصته ؛ فقال : ماترون فى أمره ؟ فكلٌّ أشار بقتلى ، إلا أنّهم اختلفوا فى القِتْلة كيف تكون ؟ ثم قال المأمون لأحمد بن أبى خالدٍ : ماتقول ياأحمد ؟ فقال : ياأميرَ المؤمنين ؛ إن تقتله وجدنا مثلك مَنْ قتل مثله ،

وإن عفوتَ عنه لم نجد مثلكَ من عفا عن مثله. فنكّس المأمون رأسه وجعل يَنكُت في الأرض ، وأنشد متمثلاً :

قومِي همُ قتلوا أميمَ أخِي ... فإذا رميتُ يُصيبنى سَهْمِي

فكشفت المِقْنعة عن رأسي ، وكَبَّرتُ تكبيرة عظيمة ، وقلت : عفا ــ والله ــ عنى أميرُ المؤمنين ! فقال المأمون : لا بأس عليك ياعم ! فقلت : ذنبي ياأمير المؤمنين أعظم من أن أتفَوّه معه بعذر ، وعفوُك أعظم من أن أنطِقَ معه بشكر ، ولكنني أقول :

إن الذى خلق المكارمَ حازَها ... فى صُلْبِ آدم للإمام السابع

مُلئتْ قلوب الناس منك مهابةً ... وتظلّ تكلؤهم بقلبٍ خاشِع

ما إنْ عصيتُك والغُواةُ تمدُّنى ... أسبابُها إلا بِنيَّةِ طائع

فعفوتَ عمّن لم يكن عن مثله ... عفوٌ ولم يشفَع إليك بشافع

ورحمتَ أطفالاً كأفراخ القطَا ... وحنينَ والدةٍ بلُبٍّ جازعِ

فقال المأمون : لا تَثْرِيبَ عليك اليوم ، قد عفوتُ عنك ، وردَدْتُ عليك مالك وضياعك . فقلت :

رددتَ مالى ولم تبخل علىّ به ... وقبل ردّك مالى قد حقنتَ دمِي

فلو بذلتُ دمى ــ أبغى رضاك به ــ ... والمالَ ، حتى أسلّ النعل من قدمِي

ما كان ذاك سوى عاريّة رجعتْ ... إليك ، لو لم تعرْها كنتَ لم تُلَمِ

فإن جحدتُك ماأوليتَ من كرمٍ ... إنى إلَى اللؤم أولى منك بالكرَمِ

فقال المأمون : إن من الكلامِ لدُرًّا ، وهذا منه ، وخلَع علىّ وقال : ياعم ؛ إن أبا إسحاق والعباسَ أشارا بقتلك ؛ فقلتُ : إنهما نصحاك يا أمير المؤمنين ! ولكن

أتيتَ بما أنت أهلُه ، ودفعت ماخِفتُ بما رجوتُ . فقال المأمون: أَمَتَّ حِقْدِى بحياة عُذْرِك ، وقد عفوتُ عنك ولم أجرعك مَرارة امتنان الشَّافعين . ثم سجد طويلا ، ورفع رأسه وقال : ياعمّ ؛ أتدْرى لم سجدت ؟ قلت : شكْراً لله الذى أظفرك بعدوِّ دولتك . فقال : ما أردتُ هذا ، ولكن شكرا لله الذى ألهمنى العفو عنك، فحدِّثنى الآن حديثك . فشرحت له ما كان من أمرى ، فأمر بإحضار امرأة الجندى، وأدخلها إلى القصر ، وقال : هذه امرأة عاقلة تصلح للمهمّات ، وأحضر الحجّام فقال له : لقد ظهر من مروءتك مايوجب المبالغة فى إكرامِك . ثم خلع عليه ، وأجرى له ألفَ دينار فى كل عام ، ولم يزل فى تلك النّعمة إلى أن مات .

١٣٢ - مِن جُود أبِى دُلَف *

لما مرض أبو دُلَف (١) بالعلة التى مات بها أقام شهراً ملازماً الرِسادة ، فأفاق يوماً ، فقال لخادمه بِشر : كم لى على هذه الحال ؟ قال : شهر . فلما سمع ذلك من بِشر بكى كثيراً ، وقال : أيمرُّ علىّ من عمرى هـذه المدة لا أبَرُّ فيهـا أحداً من الناس ! يا بِشر ؛ اخرج إلى الباب فإن قلبى يشهدُ أن بالباب قوماً لهم إلينا حوائج ؛ فلا تمنع أحداً من الدخول إلينا .

فخرج بشر ، فإذا عشرة من أولاد أبى طالب ، فأمرهم بالدخول ، فدخلوا ؛ فابتدر رجلٌ منهم ، وقال : أصلحـك الله ! نحن قوم من بنى أبى طالب من أهل بيت رسول الله ، وقد أحاطت بنا المصائب ، وأجحمت بنا النوائب ، فإن رأيتَ أن تجبر كَسْرنا ، وتغنى فَقْرنا ، فعجِّل !

فقال لخادمه : خُذْ بيدى ، فأجلسنى على ذاك الفراش ، ففعـل ، ثم قال : ليأخذْ كل واحدٍ منـكم ورقةً ، وليـكتب فيها بخطه : إنه قبض منى مائةَ ألف درهم . فتحيّروا عند قوله ، فلمـا كتبوا الرقاع وضعوها بين يديه ، فقال لخادمه : ائتنى بالمال ، فأحضره ، فأعطى كلَّ واحد منهم مائة ألف درهم .

فلما تسلموا المال قال رجل منهم : بالآباء نفديك ، و بالأمهات نقيـك ! والله مالنا مال ولا عقار ، وخطُوطنا عندك ماذا تصنعُ بها ! فبـكى ، وقال لهم : أتظنون أنها وثائقُ عليـكم ؟ لا والله ، لا والله ! ثم قال لخادمه : يا بِشْر ، إذا أنامتُّ فاجعل الرقاع فى أكفانى أَلْقَى بها محمـداً صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ؛ ثم قال له : أعط كلا منهم ألف درهم لنفقة طريقه . انصرفوا باركَ الله فيكم !

---

* المختار من نوادر الأخبار ـ مخطوط .

(١) هو القاسم بن عيسى ، أحد قواد المأمون ، ثم المعتصم من بعده ، كان كريماً سريا جواداً ممدحاً مقدماً ذا وقائع مشهورة وصنائع مأثورة ، كما كانت له صنعة فى الغناء ، توفى سنة ٢٢٥ .

١٣٣ ـ عبد الله بن طاهر(١) والحصني*

قال محمدُ(٢) بن الفضل الخراساني :

لما قال عبدُ الله بن طاهر قصيدتَه التي يفخرُ فيها بمآثر أبيه وأهله ويفخرُ بقتلهم المخلوع(٣) ، عارضهُ محمد بن يزيد الأمويّ الحِصْني ، فأفرط في السبّ ، وتجاوزَ الحدّ في قُبْح الرد .

فلما ولي عبد الله مصر وَرُدَّ إليه تدبيرُ أمر الشام عَلِم الحصْني(٤) أنه لا يُفلِت منه إن هرب ، ولا ينجو منْ يده حيث حلّ ، فثبت في موضعه ، وترك أمواله ودوابَّه ، وكلّ ما كان يملكه في موضعه ، وفتح باب حِصْنه وجلس عليه ، ونحن نتوقّعُ من عبد الله بن طاهر أن يوقع به .

فلما شارفْنا بلده ، وكنا على أن نصبّحه ، دعاني عبيد الله في الليل ، فقال لي : بتْ عندي الليلةَ ، وليكن فرسُك معدًّا عندك . ففعلت .

فلما كان السَّحَر أمر غلمانَه وأصحابَه ألّا يرحلوا حتى تطلعَ الشمس ؛ وركب وركبتُ معه أنا وخمسة من خواصِّ غلمانه

فسار حتى صبّح الحصْنيَّ ؛ فرأى بابَه مفتوحاً ، ورآه جالساً ، فقصده . وسلّمَ عليه ونزل عنده ؛ وقال له : ما أجْلَسك هاهنا وحملك على أن فتحتَ بابك ، ولم تتحصَّن من هذا الجيش المقبل ، ولم تتنحّ عن عبد الله بن طاهر مع ما في نفسه عليك

* الأغاني : ١١ ـ ١٢ .

(١) عبد الله بن طاهر : من أشهر الولاة في العصر العباسي ، ولاه المأمون خراسان ، وكان سيداً نبيلا عالي الهمة شهماً ، وتوفي سنة ٢٣٠ هـ . (٢) محمد بن الفضل الخراساني كان من وجوه قواد طاهر وابنه عبد الله وكان أديباً عاقلا فاضلا . (٣) المخلوع : الأمين .

(٤) كان من ولد مسلمة بن عبد الملك .

وما بلغه عنك؟ فقال : إنَّ ما قلتَ لم يذهب عنى ولكنى تأملتُ أمرى ، وعلمتُ أنى أخطأتُ خطيئةً حملنى عليها نزقُ الشباب وغِرَّةُ الحداثة ، وأنى إن هربتُ منه لم أفُتْه ؛ فباعدتُ البنات والحرَم ، واستسلمتُ بنفسى وكلِّ ما أملك ؛ وإنى أثق بأن الرجلَ إذا قتلنى ، وأخذ مالى شفى غيظه ، ولم يتجاوز ذلك إلى الحرم ، ولا يوجب جُرْمى أكثر مما بذلته .

قال : فوالله ما اتَّقاه عبد الله إلا بدموعه تجرى على لحيته . ثم قال له : أتعرِفُنى ؟ قال : لا والله ! قال : أنا عبدُ الله بن طاهر ، وقد أمَّن الله تعالى رَوْعَتَك وحَقَن دمك ؛ وصان حرمك ، وحرس نعمْتَك ، وعفا عن ذنبك ، وما تعجلتُ إليك وحدى إلا لتأمَن هجوم الجيش ، ولئلا يُخالِط عفوى عنك رَوْعَةٌ[1] تلحقك ، فبكى الحصنىُّ وقام فقبّل رأسه وضمه عبد الله وأدناه ؛ ثم قال له : أما الآن فلا بد من عتاب : يا أخى — جعلنى الله فداك — قلتُ شعراً فى قومى أفخر بهم لم أطعن فيه على حسبِك ، ولا ادعيتُ فضلًا عليك ، وفخَرتُ بقتل رجل — وإن كان من قومك — فهم القوم الذين ثأرك عندهم ، فكان يَسَعُك السكوت !

فقال : أيها الأمير ، قد عفوتَ فاجعل العفو الذى لا يخالطه تَثْرِيب[2] ، ولا يكدِّرُ صفوَه تأنيب . قال : قد فعلت ، فقم بنا ندخل إلى منزلك حتى نوجبَ عليك حقًّا بالضيافة . فقام مسروراً .

فأدخلنا . فأتى بطعام كان قد أعدَّه ، فأكلنا وجلسنا نشربُ فى مستشرف له .

وأقبل الجيش ؛ فأمرنى عبد الله أن أتلقَّاهم فأُرحلهم ولا ينزل أحدٌ منهم إلا فى المنزل ، وهو على ثلاثة فراسخ ، ثم دعا بدواة فكتب له بتسويغه خراجَه ثلاث سنين ، وقال له : إن نشطت لنا فالحقْ بنا ، وإلّا فأقِم بمكانك . قال : فأنا أتجهز وألحقُ بالأمير . ففعل فلحق بنا بمصر ؛ ولم يزل مع عبد الله لا يفارقه حتى رحل إلى العراق فودَّعه ، وأقام ببلده !

---

(١) الروعة : الفزعة .　　(٢) التثريب : الاستقصاء فى اللوم .

١٣٤ ـ حُسْن المكافأة *

حكى الحسنُ (١) بن سهل ، قال :

كنتُ يوماً عند يحيى بن خالد البرمكى ، وقد خَلا فى مجلسه لإحكام أمرٍ من أمور الرشيد ، فبينما نحن جلوسٌ إذ دخل عليه جماعةٌ من أصحاب الحوائج، فقضاها لهم ؛ ثم توجّهوا لشأنهم ، فكان آخرَهم قياماً أحمدُ بن أبى خالد ، فنظر يحيى إليه ، والتفتَ إلى الفضل ابنه ؛ وقال : يابنى ؛ إن لأبيك مع أبى هذا الفتى حديثاً ، فإذا فرغتُ من شغلى هذا فذكّرْنى أحدّثك به .

فلما فرغ من شغله وطَعِم (٢) قال له ابنُه الفضل : أعزّك الله يا أبى ؛ أمرْتنى أن أذكّرك حديث أبى خالد ، قال : نعم ، يابنى :

لما قدِم أبوك من العراق أيام المهدى كان فقيراً لا يملكُ شيئاً ، فاشتدّ بى الأمر ، إلى أنْ قال لى مَن فى منزلى : إنا كتمنا حالنا ؛ وزاد ضررُنا ، ولنا اليوم ثلاثةُ أيام ما عندنا شىء نقتاتُ به ! فبكيتُ يا بنىّ لذلك بكاء شديداً ، وبقيت وَلْهانَ حيران مُطرِقاً مفكّرا .

ثم تذكّرت مِنديلا كان عندى ، فقلتُ لهم : ما حالُ المنديل ! فقالوا : هو باقٍ عندنا . فقلتُ : ادْفعُوه لى ، فأخذتُه ودفعتُه إلى بعض أصحابى ، وقلتُ له : بِعْه بما تيَسَّر ، فباعَه بسبعَةَ عشر درهماً ، فدفعتُها إلى أهلى ، وقلتُ : أنفِقُوها إلى أن يرزق اللهُ غيرَها !

---

* المستطرف : ١ ـ ٢٣٩ .

(١) الحسن بن سهل : هو وزير المأمون بعد أخيه الفضل ، كان عالى الهمة ، كثير العطاء للشعراء وغيرهم ، توفى سنة ٢٣٦ هـ . (٢) طعم : أكل .

ثم بكّرتُ من الغدِ إلى باب أبى خالد، وهو يومئذ وزيرُ المهدى ، فإذا الناسُ وقوفٌ على داره ينتظرون خروجَه ؛ فخرج عليهم راكبًا، فلما رآنى سلّم علىّ ، وقال: كيف حالك ؟ فقلت : ياأبا خالد ! ماحالُ رجلٍ يبيعُ من منزله بالأمس منديلًا بسبعةَ عشرَ درهما ! فنظر إلىّ نظراً شديداً ؛ وما أجابنى .

فرجعتُ إلى أهلى كسيرَ القلبِ ، وأخبرتُهم بما اتّفق لى مع أبى خالد ، فقالوا : بئس والله ما فعَلت ! توجهت إلى رجلٍ كان يرتجيك لأمرٍ جليل ؛ فكشفتَ له سِرَّك وأطلَعْتَه على مكنون أمرك ، فأزرَيْت (١) عنده بنفسك ، وصغَّرت عنده منزلَتك ، بعد أن كنتَ عنده جليلًا ، فما يَراك بعد اليوم إلا بهذه العين ! فقلت: قد قضى الأمرُ بمالا يمكن استدْرَاكُه .

فلما كان من الغد بكّرتُ إلى باب الخليفة. فلما بلغتُ البابَ استقبلنى رجلٌ ، فقال لى : قد ذُكرتَ الساعةَ بباب أمير المؤمنين ؛ فلم ألتفتْ لقوله ، فاستقبلنى آخر ، فقال لى كمقالةِ الأول ، ثم استقبلنى حاجبُ أبى خالد، فقال لى: أين تكون؟ قد أمرنى أبو خالد بإجلاسك إلى أن يخرج من عند أمير المؤمنين .

فجلستُ حتى خرج . فلما رآنى دعانى ، وأمر لى بدابَّة ، فركبتُ ، وسرتُ معه إلى منزله ، فلما نزل قال : علىّ بفلان وفلان الحنّاطَيْن(٢) . فأُحْضرا ، فقال لهما: ألم تشتريا منى غلّاتِ السواد (٣) بثمانيةَ عشرَ ألف ألف درهم ؟ قالا : بلى ، قال : ألم أشترط عليكما شركةَ رجلٍ معكما ؟ قالا : بلى . قال : هذا هو الرجل الذى اشترطتُ شَرِكَتَه لكما ، ثم قال لى : قمْ معهما .

فلما خرجْنا ، قالا لى : ادْخل معنا بعضَ المساجد حتى نكلِّمَك فى أمرٍ يكونُ لك فيه الربح الهنىء ؛ فدخلنا مسجداً ، فقالا لى : إنك تحتاجُ فى هذا الأمر إلى

(١) أزرى به : حقره وهون من شأنه . (٢) الحناط : بائع الحنطة ، وهى البر .
(٣) السواد : ما حوالى الكوفة من القرى .

وكلاء وأُمَنَاء وأعوان ومُؤن ، لا تقدر منها على شيء ، فهل لك أن تبيعَنا شركتَك بمال نعجِّله لك ، فتنتفعَ به ، ويسقطَ عنك التعب والنَّصَب ؟ فقلت لهما : وكم تبذلان لى ؟ فقالا : مائةَ ألف درهم . فقلت : لا أفعل .

فما زالا يزيدانى ، وأنا لا أرضى إلى أن قالا لى : ثلثمائة ألف درهم ، ولا زيادة عندنا على هذا . فقلت : حتى أشاورَ أبا خالد . قالا : ذلك لك !

فرجعتُ إليه وأخبرتُه ، فدعا بهما ، وقال لهما : هل وافقتُما على ما ذَكَر ؟ قالا : نعم . قال : اذهبا ، فانقُدَاه المال الساعةَ ، ثم قال لى : اصلحْ أمرَك ، وتهيَّأ ، فقد قلدتُك العمل .

فأصلحتُ شأنى ، وقلّدنى ماوعدنى به ؛ فما زلت زيادةٍ ، حتى صار أمرى إلى ماصار .

ثم قال لولده الفضل : يابنى ؛ فما تقولُ فى ابنٍ من فعلَ بأبيك هذا الفعل ؟ وما جزاؤه ؟ قال : حقٌّ لعمرى وجَبَ عليك له . فقال : والله ياولدى ماأجد له مكافأةً ؛ غير أنى أعزلُ نفسى وأولّيه .

١٣٥ـ رَجَوْتكَ دُونَ النَّاسِ*

قال أبو العَيْنَاء[1] :

حصلت لى ضِيقَةٌ[2] شديدة ، فكتمتُها عن أصدقائى ، فدخلت يوماً على يحيى[3] بن أكثم ؛ فقال : إن أمير المؤمنين المأمونَ جلس للمظالم ؛ فهل لك فى الحضور ؟ قلت : نعم ! فمضيتُ معه إلى دار أمير المؤمنين ؛ فلما دخلنا عليه أَجْلَسَه وأجلسنى ، ثم قال : ياأبا العيناء ؛ ما الذى جاء بك فى هذه الساعة ؟ فأنشدته :

لقد رجوتُك دونَ الناس كلِّهم ... والرجاء حقوقٌ كلُّها تَجِبُ

إن لم تَكُنْ لِىَ أسبابٌ أعيشُ بها ... فنى المُلاَ لك أخلاقٌ هى السَّبَبُ

فقال : ياسلامة ؛ انظر أىّ شىء فى بيت مالنا دُون مالِ المسلمين ؟ فقال : بقية من مال ! قال : فادْفعْ إليه مائةَ ألف درهم ، وابعثْ له بمثلها فى كلِّ شهر !

فلما كان بعد أحد عشر شهراً مات المأمون ؛ فبكى عليه أبو العيناء حتى تقرَّحت أجفانُه ؛ فدخل عليه بعضُ أولاده ، فقال : ياأبتاه ! بعد ذهاب العين ماذا ينفعُ البكاء ؟ فأنشأ أبو العيناء يقول :

شيئان لو بكت الدماء عليهما ... عيناى حتى يُؤْذنا بذهابِ

لم يبلغا المعشارَ[4] من حقّيهما ... فقدُ الشبابِ وفُرْقَةُ الأحباب

---

* ثمرات الأوراق للحموى : ٢ ـ ٢٤٥ .

(١) هو محمد بن القاسم ، أديب فصيح من ظرفاء العالم ومن أسرع الناس جواباً نشأ وتوفى بالبصرة سنة ٢٨٣ هـ . (٢) الضيقة : الفقر وسوء الحال (٣) يحيى بن أكثم : قاض رفيع القدر ، عالى الشهرة ، من نبلاء الفقهاء ، يتصل نسبه بأكثم بن صيفى حكيم العرب ، ولاه المأمون قضاء البصرة . ثم ولاه قضاء بغداد ، ثم أضاف إليه تدبير مملكته ؛ فكان وزراء الدولة لا يقدمون ولا يؤخرون فى شىء إلا بعد عرضه عليه ، ثم عزله المعتصم فلزم بيته وردّه المتوكل إلى عمله . توفى بالربذة سنة ٢٤٢ هـ . (٤) معشار الشىء : عشره .

١٣٦ - المأمون يعفو عن الحسين بن الضحاك*

قال محمد بن أبي الأزهر :

كنتُ بين يدى المأمون واقفاً ، فأَدْخَلَ عليه ابنُ البوّاب الحاجبُ رقعةً فيها أبيات ، وقال : إن رأى أميرُ المؤمنين أن يأذَنَ لى فى إنْشادِها ! فَظَنَّهَا له فقال : هاتِ ، فأنشده :

أجرْنى فإنى قد ظَمِئتُ إلى الوَعْدِ ‏ ‏ متى تُنْجِز الوَعْدَ المؤكَّدَ بالعَهْدِ
أُعِيذُكَ من خُلْفِ الملوكِ وقد بَدَا ‏ ‏ تَقَطُّعُ أنفَاسى عليكَ من الوَجْدِ
أَيبْخلُ فَرْدُ الحُسنِ عنى بنائلٍ ‏ ‏ قليلٍ ، وقد أفْرَدْتُه بهوى فَردِ

إلى أن بلغ إلى قوله :

رأى اللهُ عبدَ اللهِ خيرَ عبادِه ‏ ‏ فملّكه ، واللهُ أعلمُ بالعبدِ
ألَا إنما المأمونُ للناس عِصْمَةٌ ‏ ‏ مميِّزَةٌ بين الضَّلالةِ والرُّشْدِ

فقال المأمون : أحسنتَ ياعبد الله . فقال : ياأمير المؤمنين ؛ بل أحْسَنَ قائلُها ! قال : ومَنْ هو ! قال : عبدك الحسين بن الضحاك[1] ! فغَضِب ، ثم قال : لا حيَّا الله من ذكرتَ ولا بيّاه ولا قرّبه ، ولا أنعَمَ به عينا ! أليس هو القائل :

أعينيّ جُودَا وابْكيا لى محمداً ‏ ‏ ولا تَذْخَرا دَمعاً عليه وأسْعِدا
فلاَ تمّتِ الأشياء بعد محمد ‏ ‏ ولا زال شملُ الملكِ فيه مُبَدَّدا

---

* الأغانى : ٧ — ١٦٥ ، الفرج بعد الشدة : ١ — ٦٢ .

(١) هو مولى باهلة ، ولد بالبصرة ونشأ فيها ونادم الخلفاء من بنى العباس وكان خليعاً فاسداً ، لكنه كان حسن التصرف فى النظم ، ولشعره قبول ورونق . مات سنة ٢٥٠ هـ .

ولا فرح المأمونُ بالمُلْكِ بعــدَه   ولا زال فى الدنيــا طريداً مُشرّدا

هذا بذاك ، ولا شىء له عندنا ! فقال له ابنُ البوّاب . فأين فضلُ أميرالمؤمنين وسَعَةُ حلمه ، وعادته فى العفو !

فأمره بإحضاره ، فلما حضر سلّم فردّ عليه ردًّا جافياً ؛ ثم أقبل عليه ، فقال : أخبرنى عنك ؛ هل عرفتَ يومَ قُتِل أخى محمد ـ رحمه الله ـ هاشميةٌ قُتِلَتْ أو هُتِــكت ! قال : لا ، قال : فما معنى قولك :

وسِرْبُ ظباء من ذُؤَابةِ هاشمٍ   هتَفْنَ بدعوى خـــير حىّ وميّتِ
أرُدُّ يداً منّى إذا ماذكرتُه   على كبدٍ حرّى وقلب مُفتّتِ
فلاَ باتَ ليلُ الشّامتين بغبطةٍ   ولا بَلَغتْ آمالُهُمْ ماتمنّتِ

فقال : ياأمير المؤمنين ، لوعَةٌ غلبتنى ، وروعةٌ فاجأتنى ، ونعمةٌ فقدتُهابعد أن غمرَتْنى ، وإحسانٌ شكرتُه فأنطقنى ، وسيّدٌ فقدتُه فأقلقنى ، فإن عاقبتَ فبحقِّك ، وإن عفوتَ فبفضلك .

فدمعت عينا المأمون : وقال: قد عفوتُ عنك ، وأمرتُ بردّ أرزاقك، وإعطائك مافات منها ، وجعلتُ عقوبةَ ذنبك امتناعى من استخدامك !

١٣٧ـ وَفَاء كَافُور *

قال أبو الفتح المنطيقيّ : كنّا جلوساً عند كافور الإخشيديّ[1] وهو يومئذ صاحبُ مصرَ والشام ، وله من البَسْطة ونفاذِ الأمر وعلوِّ الهمة والقَدْرِ وشهرة الذِّكر ما يتجاوزُ الوصْفَ والحصر ، فحضرتُ المائدةَ والطعامَ ، فلما أكلْنا نام وانصرفنا .

فلما انْتَبَه من نومه طلب جماعةً منّا ، وقال : امضوا إلى عَقَبَةِ النجّارين ، واسألوا عن شيخ منجّمٍ أعور كان يقعدُ هناك ، فإن كان حيًّا فأحْضِروه ، وإن كان قد تُوُفِّيَ فاسْألوا عن أولاده واكشفوا أمره .

فضيْنَا هناك ، وسألنا عنه ، فوجدناه قد مات وترك بنتين : إحداهما متزوّجة والأخرى عاتِق[2] ، فعُدْنا إلى كافور وأخْبَرْناه بذلك . فسيّر في الحال واشترى لكلٍّ واحدةٍ منهما داراً ، وأعطى كلَّ واحدة منهما ثياباً وكُسْوةً وذهباً كثيراً ، وزوّج العاتِق وأجْرَى على كلٍّ واحدة منهما رزقاً ؛ وأشهر أنهما من المتعلّقين به ؛ لرعايةِ أمورهما .

فلما فعل ذلك وبالغ فيه ضحك ، وقال : أتعلمون سبب هذا ؟ قلنا : لا نعلم ! فقال : اعلموا أني مررتُ يوماً بوالدِهما المنجّم ، وأنا في مِلْك ابن عباس الكاتب بحالةٍ رثّة ، فوقفتُ عليه فنظر إليَّ واستجلسني ، وقال : أنت تصيرُ إلى رجلٍ جليلٍ

---

* العقد الفريد للملك السعيد : ٨٥ .

(١) كافور الإخشيدي ، كان عبداً اشتراه الإخشيد ملك مصر سنة ٣١٢ هـ فنسب إليه وأعتقه. وما زالت همته تصعد به حتى ملك مصر سنة ٣٥٥ ، وتوفي بالقاهرة سنة ٣٥٧ هـ .

(٢) العاتق : الجارية التي لم تتزوج .

القدْرِ ، وتبلغُ معــه مبلغاً كبيراً ، وتنالُ خيراً كثيراً ، وطلب منّي شيئاً فأعطيتهُ درهمين كانا معى ، ولم يكن معى غيرُهما ، فرمى بهما ، وقال : أبشّرك بهذه البشارة وتعطيني دِرهمين ! ثم قال : وأزيدُك ، أنت والله تملكُ هذا البلد وأكثرَ منه ، فاذكُرْني إذا ماصرتَ إلى ماوعـدتُك به ولا تنْسني . فبذلتُ له ذلك ، وقلت : نعم ! فقال : عاهدْني أنك تَفِي لى ، ولا يشغلك الملكُ عن افتقادى ؛ فعاهدتُه ؛ ولم يأخذ الدرهمين .

ثم إنى شُغِلت عنه بمـا تجددَّ لى من الأمورِ والأحوال ، وصرتُ إلى هذه المسألة ، ونسيتُ ذلك ؛ فلمّا أكلنا اليومَ ونمتُ رأيتُه فى المنام قد دخل علىَّ وقال: أينَ الوفاء بعهدك وتمـام وَعْـدِك ؟ لا تَغدِرْ فيُغْدَرَ بك ! فاستيقظتُ وفعلتُ مارأيتم .

ثم اشتهر إحســانُه إلى بِنْتَيِ المنجّم لوفائه لوالدهما ، فتضـاعفَ الدعاء له والثناء عليه !

١٣٨ - دَرْسٌ يُلقَى عَلى حَاسِدٍ*

قال المنصور بن أبي عامر يوماً لأبي يوسف الرَّماديّ : كيف ترى حالكَ معي ؟ فقال : فَوْقَ قَدْرِي ودونَ قَدْرِكَ . فأطرقَ المنصورُ كالغَضْبان ، فانسلَّ الرَّمادي ، وخرج وقد ندم على ما بَدَرَ منه ، وجعل يقول : أخطأتُ ، لا والله ما يفْلح مع الملوك مَن يعاملُهم بالحقّ ! ما كان ضرني لو قلتُ له : إني بلغت السماء، وتمنطقت بالجوزاء ! وأنشد :

متَى يأتِ هذا الموتُ لا يُلْفِ حاجةً ... لنَفْسيَ إلّا قد قَضَيْتُ قَضَاءها

ولما خرج كان فى المجلس من يحسُده على مكانه من المنصور ، فوجد فُرْصَةً فقال : وصل الله لمولانا الظَّفر والسَّعدَ ! إن هذا الصنفَ صِنْفُ زُور وهذَيان ، لا يشكرون نعمة ، ولا يرعَوْن إلًّا[1] ولا ذِمّة ؛ كلابُ مَنْ غَلَب ، وأصحاب من أخْصب ، وأعداء مَن أجدب ؛ وحسبُكَ منهم أنَّ الله جلَّ جلالهُ يقول فيهم : ﴿ والشُّعَرَاء يَتَّبِعهم الغاوون . أَلَمْ تَرَ أنهم فى كلِّ وادٍ يهيمون . وأنهم يقولون مالا يفعلون ﴾ . والابتعادُ منهم أولى من الاقتراب ؛ وقد قيل فيهم : ما ظنُّك بقوم الصدق يُسْتَحْسن إلا منهم !

فرفع المنصور رأسَه ـ وكان مُحَابِيَ أهلِ الأدب والشعر ـ وقد اسودّ وجههُ ، وظهر فيه الغضبُ المُفرط ؛ ثم قال : ما بالُ أقوام يُشيرون فى شيء لم يُسْتَشَاروا فيه ؛ ويسيئون الأدبَ بالحكم فيما لا يدرون ، أَيُرْضِي أم يُسْخِط ! وأنت ـ أيّها

---

* نفح الطيب : ٢ ـ ٢٢٦ .

(١) الإل : العهد .

المنبعث للشرّ دون أن يُبْعَث ـ قد علمنا غرضَك فى أهل الأدب والشعرِ عامة ، وَحسدَك لهم ، لأنّ الناس كما قال القائل :

من رأى الناسُ له فضـ ـلًا عليهمْ حَسدُوهُ

وعرفْنا غرضَك فى هذا الرجل خاصَّة ، ولسنا ـ إن شاء الله ـ نبلغ أحداً غرضه فى أحد ؛ وإنّك ضربتَ فى حديد بارد ، وأخطأت وجه الصواب ؛ فزدتَ بذلك احتقاراً وصَغاراً ، وإنى ما أطرقتُ من كلام الرمادىّ إنكاراً عليه ؛ بل رأيتُ كلاماً يجلُّ عن الأقدار الجليلة ، وتعجّبْتُ من تهدِّيه له بسرعة ؛ والله لو حكَّمتُه فى بيوت الأموال لرأيتُ أنها لا ترجَح ما تكلّم به قدرَ ذرَّة ، وإياكم أن يعودَ أحدٌ منكم إلى الكلام فى شخصٍ قبل أن يُؤخَذَ معه فيه ؛ ولا تحكّموا علينا فى أوليائنا ولو أبصرتُم منا التغيّر عليهم ؛ فإنا لا نتغيرُ عليهم ؛ بغضاً لهم ؛ وانحرافاً عنهم ، بل تأديباً وإنكاراً ؛ فإنا من نريد إبعاده لم نُظْهرْ له التغيّر ، بل ننبذُه مرة واحدة ؛ والتغيّر إنما يكون لمن يُراد استبقاؤه .

ولو كنتُ مائلَ السمع لكلّ أحد منكم فى صاحبه لتفرّقتُم أيدى سبأ ، وجُونبتُ أنا مُجانبَةَ الأجرب ، وإنى قد أطلعتكم على ما فى ضميرى ، فلا تَعدِلوا عن مَرْضاتى .

ثم أمر أن يُردَّ الرمادىّ ، وقال له : أَعِدْ علىّ كلامك ، فارتاع . فقال: الأمرُ على خلاف ما قدَّرت ، الثوابُ أولى بكلامك من العقاب ، فكن لتأنيسه [١] ، وأعاد ما تكلم به ، فقال المنصور : بلغنا أن النعمان بن المنذر حشا فمَ النابغة بالدُّر لكلامٍ استملحه منه ، وقد أمرْنا لك بمالا يَقصُرُ عن ذلك وبما هو أنوَهُ وأحسن عائدة .

(١) التأنيس : خلاف الإيحاش .

وكتب له بمال وخِلَع وموضع يعيش منه ؛ ثم ردّ رأسه إلى المتكلّم فى شأن الرماديّ — وقد كاد يغوصُ فى الأرض لشدةِ ما حلّ به ممـا رأى وسمع — وقال : والعجبُ من قوم يقولون : الابتعادُ من الشعراء أولَى من الاقتراب ! نعم ، ذلك لمن ليس له مفاخرُ يريد تخليدَها ، ولا أيادٍ يرغبُ فى نشرها ؟ فأين الذين قيل فيهم :

على مُكثريهم رِزْقُ من يعتريهمُ   وعند المقلّينَ السماحةُ والبذْلُ [1]

وأين الذى قيل فيه :

إنما الدنيا أبو دُلَفٍ   بين مَبْدَاهُ[2] ومُحْتَضَرِهْ

فإذا ولّى أبو دُلَفٍ   ولّتِ الدنيا على أثَرِهْ[3]

أما كانَ فى الجاهليّة والإسلام أكرمُ ممن قيل فيه هذا القول ؟ بلى ! ولكنّ صُحْبةَ الشعراء والإحسانَ إليهم أحْيَتْ غابر ذكرهم ، وخصّتهمْ بمفاخر عصرهم ، وغيرُهم لم تُخلد المدائحُ مآثرَهمْ ، فدثَرَ ذكرُهم ، ودَرَس فخرُهم !

---

(١) البيت لزهير بن أبى سلمى فى مدح آل هرم بن سنان . (٢) المبدى : كل متنجع .
(٣) البيتان لعلى بن جبلة فى مدح أبى دلف .

١٣٩ - عفّة الشَريفُ الرضىّ *

حكى أبو حامد بن محمد الإسفراينىّ الفقيهُ الشافعى ، قال :

كنتُ يوماً عند فخر الملك أبى غالب محمد بن خلف وزير بهاء الدولة وابنه سلطان الدولة ، فدخل عليه الرضىّ أبو الحسن (١) فأعظَمه وأجلّه ، ورفعَ من منزِلته ، وخلّى ما كان بيده من القِصَص والرّقاع ، وأقبلَ عليه يحادثُهُ إلى أن انصرف .

ثم دخلَ بعد ذلك المرتضى أبو القاسم ، فلم يُعظِّمه ذلك التعظيم ، ولا أكرمه ذلك الإكرام ، وتشاغل عنه برقاع يقرؤها وتوقيعات يُوَقّع بها ،فجلس قليلا ، وسأله أمراً فقضاه ، ثم انصرف .

قال أبو حامد : فتقدّمت إليه وقلتُ له : أصلح الله الوزير ! هذا المرتضى هو الفقيه المتكلّم صاحبُ الفنون ، وهو الأمثل (٢) الأفضل منهما ، وإنما أبو الحسن شاعرٌ . فقال لى : إذا انصرفَ الناسُ ، وخَلَا المجلس أجبتُك عن هذه المسألة . قال: وكنتُ مجمعاً على الانصراف ، فجاءنى أمر لم يكن فى الُحسْبَان ، فدعت الضرورةُ لملازمة المجلس إلى أن تقوّض الناسُ واحداً فواحداً .

فلمّا لم يبقَ إلا غلمانُه وحُجّابه دعا بالطعام ، فلما أكلْنا وغسل يده وانصرفَ عنه أكثرُ غلمانه ، ولم يبق عنده غيرى ، قال لخادم له :

---

* ابن أبى الحديد : ١ ــ ١٣ .

(١) هو أبو الحسن محمد بن الطاهر ، كان أبوه نقيب الطالبيين ، وصارت إليه النقابة وأبوه حى، أجمع النقاد على أنه أشعر قريش ، وكان عالماً بعلوم القرآن واللغة والنحو ، وله فيها المؤلفات الذائعة . توفى سنة ٤٠٦ هـ (٢) فلان أمثل بنى فلان : أى أدناهم للخير .

هات الكتابين اللذين دفعتُها إليك منذُ أيام ، وأمرتكَ أن تجعلَهما فى السَّفَط[1] الفلانىّ . فأحضرها فقال : هذا كتابُ الرضىّ ، اتَّصل بى أنه قد وُلِدَ له ولد ، فأنفذتُ إليه ألفَ دينار ، وقلت : هذه للقَابلة — فقد جرت العادة أن يَحْمِلَ الأصدقاء إلى أخلّائهم ، وذوى مودّتهم مثل هذا فى مثل هذه الحال — فردّها ، وكتب إلىّ هذا الكتاب ، فاقرأه .

قال : فقرأته ، وهو اعتذار عن الردّ ، وفى جملته : إننا — أهلَ بيت — لا يطَّلع على أحوالنا قابلةٌ غريبة ، وإنما عجائزنا يتولَّين هذا الأمر من نسائنا ، ولسنَ ممن يأخُذْن أجرة ، ولا يقبلْن صِلَة .

قال : فهذا ، هذا . وأما المرتضى فإننا كنا قد وزَّعنا وقَسَّطنا[2] على الأملاك تقسيطاً نَصْرِفه فى حفر فُوَّهة النهر المعروف بنهر عيسى ، فأصاب مِلْكاً للشريف المرتضى عشرون درهماً ، وقد كتب إلى منذ أيّام فى هذا المعنى هذا الكتاب فاقرأه ؛ فقرأتُه ، وهو أكثر من مائةِ سطر يتضمن من الخضوع والخشوع والاستمالةِ والطلبِ والسؤال فى إسقاط هذه الدراهم عن أملاكه المشار إليها ما يطول شرحه .

قال فَخْر الملك : فأيّهما ترى أولى بالتعظيم والتبجيل ؟ هذا العالم المتكلم الفقيهُ الأوحد ، ونفسُه هذه النفس ، أم ذلك الذى لم يُشْهر إلا بالشعر خاصة ؛ ونفسهُ تلك النفس ؟ قلت : وفّق الله الوزير ، فما زال موفقاً ، وما وضع الأمر إلا موضعه ، ولا أحلّه إلا فى محلّه.

---

(١) السفط : الجوالق ، أو كالقفة . (٢) قسط الشيء : فرقه .

١٤٠ - أمين*

قال أحد التجار :

قصدتُ الحجَّ فى بعض الأعوام ، وكانت تجارتى عظيمةً ، وأموالى كثيرة ، وكان فى وسطى هِميان [١] ، فيه دنانير وجواهر قيّمة ، وكان الهِميان من ديباج أسود .

فلمّا كنت ببعض الطريق نزلت لأقضىَ بعض شأنى ، فانحلَّ الهِميان من وسطى ، وسقط ولم أعلم بذلك إلا بعد أن سرتُ عن الموضع فراسخ ، ولكنّ ذلك لم يكن يؤثّر فى قلبى لما كنت أحتويه من غنًى ، واستخلفتُ ذلك المال عند الله إذ كنت فى طريقى إليه تعالى .

ولما قضيتُ حِجّتى [٢] وعُدْتُ ، تتابعتِ المحنُ علىّ حتى لم أملك شيئاً ! فهربت على وجهى من بلدى . ولما كان بعد سنين من فقرى أفضيتُ إلى مكان وزوجى معى ، وما أملك فى تلك الليلة إلّا دانقاً [٣] ونصفاً ، وكانت الليلة مطيرة ، فأويت فى بعض القرى إلى خان خراب ، فجاء زوجى المخاض فتحيّرتُ ، ثم ولدتْ فقالت : ياهذا ؛ الساعة تخرج روحى ، فاتخذ لى شيئاً أتقوّى به ، فخرجتُ أخبط فى الظلمة والمطر حتى جئت إلى بدّال [٤] فوقفت عليه ، فكلّمنى بعد جهد ، فشرحتُ له حالى ، فرحمنى وأعطانى بتلك القطع حلبةً وزيتاً وأغلاهما ،

---

* الفرج بعد الشدة : ٢ ـ ١٤ .

(١) الهميان : المنطقة . (٢) الحجة (بالكسر) المرة الواحدة ، وهى من الشواذ .

(٣) الدانق : سدس الدرهم . (٤) البدّال : بياع الأطعمة .

وأعارنى إناء جعلتُ ذلك فيه ، وجئت أريدُ الموضع ، فلمّا مشيتُ بعيداً وقربتُ من الخان زلقتْ رجلى ، وانكسر الإناء وذهب جميع مافيه ؛ فوردَ على قلبى أمرٌ عظيم ماورد علىّ مثُله قط ! فأقبلتُ أبكى وأصيح ؛ وإذا برجل قد أخرج رأسه من شبّاك فى داره ، وقال : ويلك ! مالك تبكى ! ماتدَعُنا أن ننام !

فشرحتُ له القصة ، فقال : ياهذا ؛ البكاء كله بسبب دانقٍ ونصف !

قالَ : فداخلنى من الغمّ أعظم من الغمّ الأول ، فقلتُ : ياهذا ؛ والله ماعندى شىء لما ذهب منّى ، ولكن بكائى رحمةً لزوجى ولنفسى ؛ فإنّ امرأتى تموتُ الآن جوعاً ، ووالله لقد حججتُ فى سنة كذا وكذا وأنا أملك من المال شيئاً كثيراً ، فذهب منّى هِمْيان فيه دنانير وجواهر تساوى ثلاثة آلاف دينار ، فما فكّرتُ فيه ، وأنت ترانى الساعة أبكى بسبب دانق ونصف ، فاسأل اللهَ السلامة ؛ ولا تُعايرْنى فتُبتلى بمثل بَلْوَاىَ .

فقال لى : بالله يارجل ، ماكانتْ صفةُ هِمْيانك ، فأقبلت أبكى ، وقلت : ماينفعُنى ماخاطبتَنى به أوَ ماتراه من جَهْدى [1] وقيامى فى المطر حتى تستهزئ بى أيضاً ! وما ينفعنى وينفعك من صفة هِمْيانى الذى ضاع منذ كذا وكذا !

ومشيتُ ؛ فإذا الرجل قد خرج وهو يَصيح بى : خذ ياهذا ، فظننته يتصدّق علىّ ، فجئت وقلت له : أىّ شىء تريد ؟ فقال لى : صف هِمْيانك وقبَض علىّ ، فلم أجد للخلاص سبيلاً غير وصفه له ، فوصفته فقال لى : ادخُلْ ، فدخلتُ ، فقال : أين امرأتك ؟ قلتُ : فى الخان ، فأنفذ غلمانه فجاءوا بها ، وأدخلتْ إلى حُرَمه [2] ، فأصلحوا شأنها وأطعموها كلّ ماتحتاج إليه وجاءونى بجُبّة وقميص

---

(١) الجهد : المشقة .

(٢) حرم الرجل : أهله .

وعمامة وسَرَاويل ، وأدخلتُ الحمام سحَراً ، وطرح ذلك عليّ ، وأصبحتُ فى عيشة راضية . وقال : أقم عندى أياماً ، فأقمتُ عشرة أيام ، كان يعطينى فى كل يوم عشرة دنانير ، وأنا متحيِّر فى عِظَم برِّه بعد شدّة جفائه !

فلمّا كان بعد ذلك قال لى : فى أى شىء تتصرّف ؟ قلت : كنت تاجراً ، قال : فلى غلّات وأنا أعطيك رأس مال تتّجر فيه وتَشْركنى . فقلت : أفعل ، فأخرج لى مائتى دينار فقال : خذها واتّجر فيها هاهنا ، فقلت : هذا معاش قد أغْنانى به الله يجب أن ألزمه ، فلزمتُه .

فلمّا كان بعد شهور ربحتُ فجئتُه وأخذت حقّى وأعطيتُه حقّه ، فقال : اجلس ؛ فجلستُ ، فأخرج لى هميانى بعينه وقال : أتعرفُ هذا ؟ فحين رأيتُه شَهَقْتُ وأُغْمِى علىّ ، فما أفقتُ إلا بعد ساعة ! ثم قلت له : ياهذا ؛ أمَلَك أنت أم نبىٌّ ! فقال : أنا أحفظه منذ كذا وكذا سنة ، فلمّا سمعتك تلك الليلة تقول ماقلته ، وطالبتك بالعلامة فأعطيتَها أردتُ أن أعطيكَ للوقت هميانك ، فخفتُ أن يُغْشَى عليك ، فأعطيتك تلك الدنانير التى أوهمتك أنها هِبَة ، وإنما أعطيتُكها من هميانك ؛ فخذ هِميانك واجعلنى فى حلّ ! فشكرته ودعوتُ له .

وأخذت الهِمْيان ورجعت إلى بلدى ، فبعتُ الجوهر وضممت ثمنه إلى مامعى واتّجرتُ ، فما مضت إلا سنيّات حتى صرت صاحب عشرة آلاف دينار وصلحت حالى !

الباب الخامس

في القصص التي تمدّ غرائزهم وخصالهم، فتكشف ما طبعوا عليه من وفرة العقل، وحدّة الذكاء، وصدق الفراسة وقوة النفس، وما أهلتهم له طبيعة بلادهم، وأسلوب حياتهم من شريف السجايا، وممدوح الخصال.

١٤١ - غَنِمَ مَنْ نجا مِنَ الموت*

كان عامر [١] بن الظَّرِب العَدْوَانىّ يدفعُ بالناس فى الحجّ ؛ فرآه ملكٌ من ملوك غسان ، فقال : لا أتركُ هذا العدْوانىّ أو أُذِلَّه !

فلما رجعَ الملكُ إلى منزله أرسل إليه : أحِبّ أن تزورَنى فأحبُوك وأكرمك واتَّخذَك خِلاًّ ؛ فأتاه قومُه ؛ فقالوا له : تَفِدُ ويفِدُ معك قومُك إليه ، فيصيبون فى جنبك ، ويُوجَّهون [٢] بجاهك !

فخرج وأخرج معه نفراً من قومه ؛ فلما قدم بلادَ الملكِ أكْرَمه وأكرمَ قومه ، ثم انكشفَ له عن رَأْىِ الملكِ ؛ فجمع أصحابَه ، وقال : الرأىُ نائمٌ ، والهوى يقظَان ، ومن أجل ذلك يَغْلِبُ الهوى الرأىَ ! عجِلتُ حين عجِلتم ، ولن أعودَ بعدها !

فقال قومُه : لقد أكرمنا الملك كما ترى ! وبعد هذا ما هو خيرٌ منه !

قال : لا تعجلوا ؛ فإن لكل عامٍ طعاماً ، وربَّ أكلة تمنعُ أكلات [٣] ؛ فمكثوا أياماً .

---

* الأمثال : ـ ٢٧١ .

(١) حكيم خطيب رئيس ، من الجاهليين ، كان العرب لا تعدل بفهمه فهماً ، ولا بحكمه حكماً ، وهو أول من قرعت له العصا ، وكان يقال له ذو الحلم . (٢) أوجهه : جعله وجيهاً .

(٣) سارت مثلا .

ثم أرسل إليه الملكُ ، فتحدّث عنده ، ثم قال له : قد رأيتُ أن أجعلك الناظر في أموري ، فقال له : إن لي كنزَ علم لست أعلم إلا به ؛ تركته في الحيّ مدفوناً ، وإن قومي أضِنَّاء بي ، فاكتبْ لي بجبايةِ الطريق ، فيرى قومي طمعاً تطيبُ به أنفسهم فأستخرج كنزي ، وأرجع إليك وافراً .

فكتبَ له بما سأل ، وجاء إلى أصحابه ، فقال : ارتحلوا ؛ حتى إذا أدبروا قالوا : لم يُرَ كاليوم وافدٌ أقلّ ولا أبعد من نوالٍ منك ! فقال : مهلا ! فليس على الرزق فَوْت ، وغَنِم مَنْ نجا منَ الموت !

فلمّا قدم عَلَى قومه أقام فلم يَعُدْ !

١٤٢ـ وَافَقَ شَنٌّ طَبَقَه *

كان شَنٌّ رجلًا من دُهاةِ العرب وعقلائهم . وقال يوماً : والله لأطوفَنَّ حتى أجِد امرأةً مثلي أتزوّجُها . فبينما هو في بَعْضِ مسيره إذ وافقه رجلٌ في الطريق فسأله شنّ : أين تريدُ ؟ فقال : موضعَ كذا ـ يريد القريةَ التي يقصدها شنٌّ ـ فوافقه ، حتى إذا أخذا في مسيرهما قال له شنّ : أتحملُني أم أحملُك ؟ فقال له الرجل: يا جاهل ، أنا راكب وأنت راكب ، فكيف أحملك أو تحملني ؟ ! فسكت عنه شنّ .

وسارا حتى إذا قرُبا من القرية إذا بزرع قد استَحْصد[1] ؛ فقال شنٌّ : أترى هذا الزرع أُكِل أم لا ؟ فقال له الرجل : يا جاهل ؛ ترى نَبْتاً مُستحصَداً فتقول : أُكل أم لا ؟ فسكت عنه شنٌّ .

حتى إذا دخلا القرية لقيتهما جِنازة[2] ، فقال شنّ : أترى صاحب هذا النعش حيًّا أم ميتاً ؟ فقال له الرجل : ما رأيتُ أجهلَ منك ! ترى جِنازة تسأل عنها ، أميِّت صاحبُها أم حيّ ؟

فسكت شنٌّ وأراد مفارقتَه ؛ فأبى الرجل أن يتركَه حتى يصيرَ به إلى منزله ؛ فمضى معه : وكان للرجل بنتٌ يقال لها طَبَقة ؛ فلما دخل عليها أبوها سألته عن ضَيْفِه ، فأخبرها . بمرافقته إياه ، وشكا إليها جهلَه ، وحدَّثها بحديثه .

فقالت : يا أبت ، ما هذا بجاهل ! أما قولُه : أتحملني أم أحملُك ، فأراد أتحدثني

---

* مجمع الأمثال : ٢ ـ ٢١١ .

(١) استحصد : آن أن يحصد . (٢) الجنازة : الميت على السرير .

أم أحدِّثُك حتى نقطعَ طريقنا ! وأما قوله : أترى هذا الزرعَ أُكِل أم لا ؟ فأراد : هل باعه أهلُه فأكلوا ثمنه أم لا ؟ وأما قوله فى الجنازة ، فأراد: هل ترك عَقِبا يَحْيَا بهم ذِكْرُه أم لا !

فخرج الرجلُ فجلس إلى شَنّ ؛ فحادثه ساعة ، ثم قال : أتحبُّ أن أفَسِّرَ لك ماسألتنى عنه ؟ قال : نعم . ففسَّره . فقال شنّ : ماهذا من كلامك ، فأخبِرْنى مَنْ صاحبه ؟ قال : ابنةٌ لى .

فخطبها إليه ، فزوَّجه إياها ، وحملها إلى أهله . فلما رأوْها قالوا : وافق شنٌّ طَبَقَة[1] .

(١) فذهبت مثلا لكل اثنين متوافقين . هذا ، وقيل فى أصل المثل : إنهما حيان اتفقا على أمر فقيل لهما ذلك ؛ لأن كل واحد منهما قيل ذلك له لما وافق شكله ونظيره . وقيل : شن حى من عبد القيس ، وطبق : حى من إياد ، وكانت شن لا يقام لها، فواقعها طبق فانتصفت منها . وقيل : شن قبيلة كانت تكثر الغارات ، فواقعهم طبق من الناس فأبادوهم .

١٤٣ـ لن يَبْرَحَ العَبْدانِ حتى يُقتلا *

صحب رجلٌ كثيرُ المال عَبْدَيْن فى سفر ، فلما توسَّطا الطريق همّا بقَتْلِه ، فلما صحّ ذلك عنده قال : أقسم عليكما — إذا كان لا بدّ لكما من قتلى — أن تمضيا إلى دارى ، وتنشدا ابنتىّ هذا البيت ! قالا : وما هو ؟ قال :

من مبلغٌ بنتىّ أن أباهما ... لله درُّكما ودَرُّ أبيكما(١)

فقال أحدهما للآخر : ما نَرَى فيه بأساً !

فلما قَتَلَاه جاءا إلى داره ، وقالا لابنته الكبرى : إنّ أباكِ قد لحقه ما يلحقُ الناس ، وآلى علينا أن نخبرَكما بهذا البيت . فقالت الكبرى : ما أرى فيه شيئاً تخبرانى به ، ولكن اصبرا حتى أستدعىَ أختى الصغرى .

فاستدعتها فأنشدَتها البيتَ ، فخرجت حاسرة(٢) ، وقالت : هذان قتلا أبى يامعشر العرب ، ما أنتم فصحاء ! قالوا : وما الدليل عليه ؟ قالت: المصراع الأول يحتاج إلى ثان ، والثانى يحتاج إلى ما يُكمِّلُه ، ولا يليق أحدُهما بالآخر . قالوا : فما ينبغى أن يكون ؟ قالت : ينبغى أن يكون :

مَنْ مخبرٌ بنتىّ أنّ أباهما ... أمسى قتيلًا بالفلاةِ مُجَنْدَلا (٣)
لِلّهِ درُّكما ودَرُّ أبيكما ... لن يبرحَ العبدان حتى يُقتَلا

فاستخبروهما فوجدوا الأمرَ على ماذكرتْ .

---

* بلوغ الأرب : ١ ـ ٣٢ .

(١) لله دره : أى عمله ، ولا در دره : لا زكا عمله (٢) حاسرة : أى كاشفة . يقال: حسرت المرأة ذراعها وخمارها أى كشفته (٣) مجندلا : مصروعاً على الجدالة ، وهى الأرض . وليس فى كتب اللغة جندل ، وإنما بها جدل .

١٤٤ - النَّذِير*

كان رجلٌ من بنى العَنْبَرِ أسيراً فى بكر بن وائل ، وعرف أنهم عزموا على غَزْوِ قومه ، فسألهم رسولًا إلى قومه ، فقالوا : لا ارسلْ إلا بحضرتنا لئلا تُنْذِرهم ؛ وجِىءْ بعبد أسود ، فقال له : أتعقل ؟ قال : نعم ، إنى لعاقل ! ماأراك عاقلا .

ثمّ ملأ كفّيه من الرمْل فقال : كم هـذا ؟ قال : لا أدرى ، وإنه لـكثير ، قال : أيّما كثير ؟ النجومُ أم النيران ؟ قال : كلٌّ كثير .

فقال : أبلغْ قومى التحيَّةَ ، وَقل لهم : ليكرموا فلانا — يعنى أسيراً كان فى أيديهم من بَكْر — فإنّ قومه لى مكرمون ، وقل لهم : إن العَرْفَج(١) قد أدْبَى(٢) ، وشكَّتِ النساء ، وأمرهم أن يُعروا ناقتى الحمراء ؛ فقد أطالوا ركوبها ، وَأن يركبوا جملى الأصهب(٣) ، بآية ما أكلت معهم حَيساً(٤) ؛ واسألوا عن خبرى أخى الحارث.

فلما أدّى العبدُ الرسالةَ إليهم قالوا : قد جُنّ الأعور ! والله ما نعرفُ له ناقةً حمراء ، ولا جملا أصهب ! ثمّ سرّحوا العبد ، وَدَعوا الحارث فقصُّوا عليه القصّة . فقال : قد أنذركم ! أما قولُه : قد أدْبى العرْفج ، فيريد أن الرجال قد استلأموا وَلبسوا السلاح . وقوله : وشكّت النساء ؛ أى اتخذن الشّكاء للسفر(٥) ، وقوله : الناقة الحمراء ، أى ارتحلوا عن الدّهناء وَركبوا الصّمّان . وهو الجمل الأصهب . وقوله : بآية ما أكلت معكم حَيساً ، يريد أخلاطاً من الناس قد غزوْكم ؛ لأن الحيس يجمع التمر والسمن والأقِطَ ؛ فامتثلوا ما قال ، وعَرفوا لحنَ كلامه

---

* نهاية الأرب : ٣ — ١٥٤ ، بلوغ الأرب ١ : ٣١ ، الأمالى : ١ — ٨

(١) العرفج : نبت (٢) أدبى العرفج : خرج منه مثل الدبى ، والدبى : أصغر الجراد والنمل .

(٣) الأصهب : بعير لبس بشديد البياض (٤) الحيس : تمر يخلط بسمن وأقط فيعجن شديداً

(٥) الشكوة : وعاء من أدم يبرد فيه الماء ويحبس فيه ، جمعه شكوات وشكاء ، شكت النساء : اتخذن الشكاء .

١٤٥ـ حديث عن امرئ القيس*

قال عبدُ الملك بن عمير :

قَدِم علينا عُمَرَ بن هُبَيْرَة الكوفَةَ ، فأرسل إلى عشرة أنا أحدهم من وُجُوه الكوفة فسمَرُوا عنده ، ثم قال : ليحدِّثْنى كلُّ رجل منكم أحْدُوثةً ، وابْدَأْ أنت أبا عمرو(١) . فقلت : أصلح الله الأمير ! أحديثَ الحقِّ أم حديثَ الباطل ؟ قال : بل حديثَ الحقِّ .

قلت : إن امرأَ(٢) القيس آلَى بأَلِيَّة (٣) ألا يتزوج امرأةً حتى يسألها عن ثمانية وأربعة وثنتين ، فجعل يخطبُ النساء فإذا سألهنّ عن هذا قلن : أربعةَ عشرَ .

فبينا هو يسيرُ فى جَوْف الليل إذا هو برجل يحمل ابنةً له صغيرة ، كأنّها البدرُ ليلة تمامه ، فأعجبَتْه ؛ فقال لها : ياجارية ؛ ماثمانيةٌ وأربعةٌ واثنتان ؟ فقالت : أمّا ثمانية فأطْباء(٤) الكلبة ، وأما أربعة فأخلاف(٥) الناقة ، وأما اثنتان فثدْيا المرأة .

فخطبها إلى أبيها ، فزوّجه إياها ، وشرطت عليه أنْ تسأله ليلةَ بنائها عن ثلاث خصال، فجعل لها ذلك ،وأن يسوقَ إليها مائة من الإبل وعشْرَة أعبُد وعشرَ وصائف وثلاثة أفراس ، ففعل ذلك .

---

* الأغانى : ٩ ـ ١٠١ ، نهاية الأرب : ٣ ـ ١٥٥ ، بلوغ الأرب : ١ : ٢٧ .

(١) كنية عبد الملك بن عمير (٢) امرؤ القيس : هو الملك الضليل أبو الحارث حندج بن حجر الكندى ، شاعر اليمانية ، ورأس شعراء الجاهلية ، وقائدهم إلى التفنن فى أبواب الشعر وضروبه، وقد نشأ بأرض نجد ، وسلك مسلك المترفين من أبناء الملوك يلهو ويلعب ويعاقر الخمر ويغازل الحسان، وأنفق وقته فى التشبيب بالنساء والخروج فى ذلك إلى حد الصراحة فى الفحش ، فمقته أبوه ، ثم طرده وتوفى سنة ٨٠ ق هـ . (٣) آلى : أقسم (٤) الأطباء : حلمات الضرع لذى خف وظلف وحافر وسبع (٥) الأخلاف : حلمات ضرع الناقة .

ثم إنه بعث عبداً له إلى المرأة ، وأهدى إليها نِحْياً [١] من سَمن ، ونِحياً من عسل ، وحُلّةً من عَصْب [٢] ، فنزل العبدُ ببعض المياه فنشر الحلَّة ولبسها ، فتعلّقت بعُشَرة [٣] ، فانشقّتْ ؛ وفتح النّحيين، فطعِمَ أهلُ الماء منهما فنقصا .

ثمّ قدِم على حَيّ المرأة وهم خُلُوف [٤] ، فسألها عن أبيها وأمها وأخيها ودفع إليها هديّتها . فقالت له : أَعْلِمْ مولاكَ أن أبي ذهب يقرّبُ بعيداً ويُبعِّد قريباً ، وأن أمّي ذهبت تشقُّ النفس نفسَيْن ، وأنّ أخي يراعى الشمس ، وأن سماءكم انشقّت ، وأن وعاءيكم نَضَبَا [٥] .

فقدِم الغلام على مولاه فأخبره . فقال : أمّا قولها : إن أبي ذهب يقرّبُ بعيداً ويُبَعِّدُ قريباً ، فإنّ أباها ذهب يحالف قوماً على قومه . وأما قولُها : ذهبت أمي تشقُّ النفس نفسين ، فإن أمها ذهبت تَقْبَل [٦] امرة نُفَساء . وأما قولها : إن أخي يُراعى الشمس ، فإن أخاها فى سَرْح [٧] له يرعاه فهو ينتظر وُجُوبَ [٨] الشمس ليَرُوحَ [٩] به . وأما قولُها : إن سماءكم انشقَّت ، فإن البُرْد الذى بعثتُ به انشقّ . وأما قولها ؛ إن وعاءيكم نَضَبا ، فإن النِّحيين اللذين بعثتُ بهما نَقَصا ، فاصدُقنى! فقال : يامولاى ، إنِّى نزلتُ بماء من مياه العرب ، فسألونى عن نسبى ؛ فأخبرتُهم أنِّى ابنُ عمك ، ونشرتُ الحلّةَ فانشقّتْ ؛ وفتحت النِّحْيَيْن، فأطعمتُ منهما أهل الماء . فقال : أَوْلَى لك [١٠] !

ثم ساق مائةً من الإبل وخرج نحوها ومعه الغلام ؛ فنزلا منزلا ، فخرج الغلام يسقى الإبل فعجَزَ ؛ فأعانه امرؤُ القيس ؛ فرمى به الغلام فى البئر ؛ وخرج حتى أتى

(١) النحى : السقاء ، أو ما كان للسمن خاصة (٢) العصب : نوع من البرود (٣) العشرة : واحدة العشر وهو من كبار الشجر ، وله صمغ حلو (٤) خلوف : غيب (٥) المراد نقصا .
(٦) يقال : تبلت القابلة المرأة إذا تلقت ولدها عند ولادته (٧) السرح : الإبل السائمة
(٨) وجوب الشمس : غروبها (٩) ليرجع .
(١٠) أولى لك : كلمة يقصد بها التوعد والتهديد ، أى الشر أقرب اليك .

أهلَ المرأةِ بالإبل ، وأخبَرهم أنَّه زوجها ، فقيل لها : قد جاء زوجُك . فقالت : والله ما أدرى أزوجى هو أم لا ! ولـكن انحروا له جَزُورا (١) وأطعموه من كَرِشِها وذنَبها ، ففعلوا ، فأكل ما أطعموه ، فقالت : اسقوه لبناً حازراً (٢) ، فسقوه فشرب. فقالت : افرِشوا له عند الفرْثِ (٣) والدّم ، ففرشوا له فنام .

فلمّا أصبحت أرسلت إليه : إنى أريد أن أسألك ، فقال : سلى عمّا شئتِ ، فسألته فلم يُعْجِبها جوابه ؛ فقالت : عليكم العبد فشدّوا أيديكم به ففعلوا .

قال : ومرّ قوم فاستخرجوا امرأ القيس من البئر ؛ فرجع إلى حيّه ، فاستاق مائةً من الإبل وأقبل إلى امرأته ، فقيل لها : قد جاء زوجك ! فقالت : والله ما أدرى أهو زوجى أم لا ! ولـكن انحروا له جَزوراً فأطعموه من كَرِشها وذنبها ، ففعلوا ؛ فلما أتوه بذلك قال : وأين الـكبد والسَّنام والمُلْحاء (٤) ! وأبى أن يأكل . فقالت اسقُوه لبناً حازراً ، فأبى أن يشربه وقال : فأين الصريف (٥) والرَّثيئة (٦) ؟ فقالت : افرِشوا له عند الفرْثِ والدم ، فأبى أن ينام وقال : افرشوا لى فوق التلْعة (٧) الحمراء واضربوا عليها خباءً .

ثم أرسلت إليه : هلمّ شريطتى عليك فى المسائل الثلاث ، فأرسل إليها أن سلِي عما شئت . فسألته ؛ فأعجبها جوابه ؛ فقالت : هـذا زوجى لعمرى ! فعليكم به ، واقتلوا العبد ؛ فقتلوه ، ودخل امرؤ القيس بالجارية .

فقال ابن هُبَيْرة : حسبكم ! فلا خيرَ فى الحديث فى سائر الليلة بعد حديثك يا أبا عمرو ! ولن تأتينا بأعجبَ منه ؛ فقمنا وانصرفنا ، وأمر لى بجائزة !

---

(١) الجزور : البعير يقع على الذكر والأنثى (٢) وهو الحامض (٣) السرجين .
(٤) لحم فى الصلب من الـكاهل إلى العجز فى البعير (٥) الصريف : الحليب الحار ساعة يحلب
(٦) الرثيئة : اللبن الحليب يصب عليه اللبن الحامض فيروب من ساعته (٧) التلعه : أرض مرتفعة غليظة يتردد فيها السيل ، ثم يندفع إلى تلعة أسفل منها .

١٤٦ ـ صَحِيفَـةُ المتَـلَمِّس *

وفد المُتَلَمِّسُ (١) هو وابن أخته طَرَفَة بن العبد (٢) على عمرو بن هِنْد (٣)، فنزلا منه فى خاصَّته، وكانا يركبان معه للصيد، فيركضانِ طولَ النهار، فيتعبان، وكان يشربُ فيقفان على بابه النهار كلّه لا يصلان إليه؛ فضجر طرفة فقال فيه:

فليتَ لنا مكانَ الملكِ عَمْرو ... رَغُوثاً (٤) حَوْلَ قبّتنـا تخور

وكان طَرفة عدوًّا لابن عمه عبد عمرو ـ وكان كريماً على عمرو بن هند ـ فهجاه طَرَفة فقال:

ولا خيرَ فيه غيرَ أنَّ له غنًى ... وأن له كَشْحاً إذا قام أهْضما (٥)

تظَــلُّ نساء الحىِّ يعكُفن حولَه ... يقُلْنَ عَسِيبٌ من سرَارة مَلْهَما (٦)

فهمَّ عمرو بقتل طرَفة، وخاف من هجاء المتلمس له؛ لأنهما كانا خليلين، فقال لهما: لعلَّكما قد اشتقتُما لأهلِكما، وسرَّكما أن تنصرفا! فقالا: نعم! فكتب لهما بصحيفتين وختَمهما، وقال لهما: اذهبا إلى عاملى بالبحرين، فقد أمرتُه أن يَصِلكما بجوائز!

---

* بلوغ الأرب: ٣ ـ ٣٧٤، مجمع الأمثال: ١ ـ ٣٦٤.

(١) المتلمس: لقب غلب عليه، واسمه جرير، وهو خال طرفة بن العبد، من شعراء الجاهلية المقلين وضعه، ابن سلام فى الطبقة السابعة من شعراء الجاهلية. (٢) طرفة: هو أبو عمرو، طرفة بن العبد البكرى، أحد فحول شعراء الجاهلية. مات أبوه وهو صغير. ورباه أعمامه، ومال إلى البطالة وقول الشعر، ومات ولم تزد سنة على ست وعشرين سنة. (٣) عمرو بن هند: آل إليه الملك بعد قتل أبيه، وقد ولى إمارة الحيرة من سنة ٥٦٣ ـ ٥٧٨ م. (٤) الرغوث: كل مرضعة. وتخور: تصيح. (٥) الكشح: الخصر، والأهضم: الدقيق. (٦) العسيب: جريدة من النخل مستقيمة دقيقة يكشط خوصها، وسرارة الروضة: خير منابتها. وملهم: موضع كثير النخل، شبه كشحه الأهضم بجريدة نخل من خيار نخل هذا المكان.

فذهبا فمرّا فى طريقهما بشيخ لم يرُقْهما أمرُه ؛ فقال المتلمّس : ما رأيت شيخاً كاليوم أحمقَ من هذا ! فقال الشيخ : مارأيتَ من حمقى ؟ و إنّ أحمق منى مَنْ يحمل حَتفَه بيده ، وهو لا يدرى !

فاستَراب[١] المتلمّس بقوله ، وطلع عليهما غلامٌ من أهل الحيرة ، فقال المتلمّس : أتقرأ ياغلام ؟ قال : نعم ! ففضَّ الصحيفةَ ، وقرأها فإذا فيها :

« إذا أتاك كتابى مع المتلمس فاقطعْ يديه ورجليه وادْفنه حيًّا » !

فقال لطرفة : ادفعْ إليه صحيفتك ، فإنّ فيها مثلَ هذا ! فقال : كلا ! لم يكن ليجترئُ علىّ فقذف المتلمسُ بصحيفته فى نهر الحيرة ، وقال :

وألقيتُها بالثِّنْى من جَنْب كافرٍ[٢] كذلك أَقْنو[٣] كلَّ قِطّ مُضلَّلِ
رضيت لهـــا بالماء لمـــا رأيتُها يجولُ بهـــا التيَّار فى كلّ جَدْوَلِ

ثم مضى المتلمّس حتى لحق بملوك بنى جَفْنة بالشام ؛ وذهب طرَفة إلى عامل البحْرين ، فأعطاه صحيفته ، ففصده من أكْحَلَيه ؛ فنَزَفَ[٤] حتى مات !

(١) استراب : شك :

(٢) كافر : نهر بالجزيرة . (٣) أقنو : أجازى وأكافئ ، والقط : الصك (لسان العرب — مادة قنا .) (٤) نزف دمه : سال حتى أفرط . والأكحل : عرق فى اليد يفصد .

١٤٧ - إنَّ العصَا قُرِعَت لِذي الحِلْم*

لقى النعمانُ بن المنذر سعدَ بن مالك ، ومعه خيل بعضُها يُقاد ، وبعضها أعْرَاء مُهملة ، فلما انتهى إلى النعمان سأله عنها ،فقال سعدٌ : إنى لم أقُدْ هذه لأمْنعها، ولم أعَرِّ هذه لأضيِّعها (١) .

فسأله النعمان عن أرضه : هل أصابها غَيْثٌ يحمد أثره ، ويروى شجره ؟ فقال سعد : أمّا المطر فغزير ، وأما الورق فشكير (٢) ، وأما النافذة فساهرة (٣) ، وأما الحازرة (٤) فشَبعى نائمة .

فقال النعمان ـ وحسده عَلَى ما رأى من ذَرَب لسانه : وأبيك إنك لفوّةٌ ،فإن شئتَ أتيتُك بمَا تعيا عن جوابه . فقال : شئت ، إن لم يكن منك إفراط .

فأمر النُّعمان وَصيفاً فلَطمه ـ وإنما أراد أن يتعدّى فى القول فيقتله ـ فقال : ما جوابُ هذه ؟ فقال سعد : سفيهٌ مأْمور (٥) ؛ قال النعمان للوصيف : الْطمه أخرى. فلطمه ؛ وقال : ما جواب هذه ! قال : لو نُهِيَ عن الأولى لم يَعُدْ للأخرى .

فقال النعمان : الْطمه أخرى ففعل . فقال : ماجواب هذه ؟ فقال : ربٌّ يؤدبُ عبدَهُ . فقال : الْطمه أخرى، ففعل. فقال: ماجواب هذه؟فقال: ملكتَ فأسجِحْ (٦) ؛ فقال النعمان : أصبتَ فاقعد ؛ فمكث عنده ما مكث .

ثم بدا للنعمان أن يبعثَ رائداً يرتادُ له الكلأْ ؛ فبعث عمرو بن مالك أخا

---

* الأمثال : ١ ـ ٣٣ ، بلوغ الأرب ١ ـ ٣٣ .

(١) لأهبها (٢) شكير: صغير لم يكبر (٣) النافذة : التى نفذت من الهزال

(٤) الحازرة : حزرة المال : خياره (٥) سارت أمثالا (٦) الإسجاح: حسن العفو .

سعد بن مالك ، فأبطأ عليه فأغضبه ذلك . فأقسم لئن جاء حامداً للكلأ أو ذامًّا ليقتلنَّه .

فلما قدم عمرو دخل على النعمان ؛ وعنده الناس وسَعْدٌ قاعدٌ لديه مع الناس ، وكان قد عرف ما أقسم به النعمان من يمينه ؛ فقال سعد : أتأذنُ لى فأُكلّمه ؟ قال : إن كلّمتَه قطعتُ لسانك . قال : فأشير إليه ؟ قال : إن أشرتَ إليه قطعت يدك . قال : فأومى إليه ؟ قال : إذن أنزع حدقتَيْك . قال : فأقرع له العصا ؟ قال : اقرعْ .

فتناول عصا من بعض جلسائه فوضعها بين يديه ؛ وأخذ عصاه التى كانت معه وأخوه قائم ؛ فقرع بعصاه العصا الأخرى قرعة واحدة ، فنظر إليه أخوه ، ثم أومأ بالعصا نحوه ، فعرف أنه يقول له : مكانك ، ثم قرع العصا قرعةً واحدة ؛ ثم رفعها إلى السماء ، ثم مسح عصاه بالأخرى ؛ فعرف أنه يقول : قل له: لم أجد جدباً . ثمّ قرع العصا مراراً بطرف عصاه ثم رفعها شيئاً ؛ فعرف أنه يقول : ولا نباتاً . ثم قرع العصا قرعة، وأقبل بها نحو النعمان ، فعرف أنه يقول : كلِّمْه .

فأقبل عمرو بن مالك حتى وقف بين يدى النعمان . فقال له النعمان : هل حمدت خِصْباً ، أو ذممت جَدْباً ؟ فقال عمرو : لم أذم جدباً ، ولم أحمد بقْلاءالأرض مُشْكلة لاخصبها يُعرف ، ولا جدبها يوصف ، رائدها واقف ، ومنكرها عارف ؛ وآمنها خائف .

فقال النعمان : أولى لك ! بذلك نجوتَ ، فنجا !

١٤٨ - فِطـــرَة*

اجتمع المهاجرون والأنصار عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو بكر : وعيشِـك يا رسولَ الله ما سجدتُ لصنمٍ قطّ ، فغضب عمر بن الخطاب ، وقال : تقولُ : وعيشك يا رسول الله ما سجدتُ لصنم قط ، وقد كنت في الجاهليّة كذا وكذا سنة ؟ فقال أبو بكر : ذلك أني لما ناهزتُ الحلم أخذني أبو قحافة (١) بيدي ، فانطلق بي إلى مخدع فيه الأصنام ، فقال لي : هذه آلهتك الشمّ العوالي ، فاسجـدْ لها ، وخلّاني وذهب .

فدنوتُ من الصنم ، وقلتُ له : إني جائع فأطعمني ، فلم يُجبني . فقلت : إني عطشـان فاسقني ، فلم يجبني . فقلتُ له : إني عارٍ فاكْسُني . فلم يجبني . فأخذتُ صخرة ، وقلت : إني مُلْقٍ هذه الصخرةَ عليك ، فإن كنت إلهاً فامْنع نفسـك ، فلم يجبني . فألقيت عليه الصخرةَ ، فخرّ لوجهه ، فأقبلَ والدي ، وقال : ما هذا يا بني ؟ فقلتُ : هو الذي ترى !

فانطلق بي إلى أمّي ؛ فأخـبرها ؛ فقالت : دَعْه فهـذا الذي ناجاني به الله ! فقلتُ : يا أمّاه ، ما الذي ناجاك به الله ؟ فقالت : ليلة جاءني المخاض لم يكن عندي أحد ؛ فسمعتُ هاتفاً يهتف ، فأسمع الصوت ولا أرى الشخص ؛ وهو يقول : يا أمةَ الله ، أبشري بالولد العتيق ، اسمه في السماء صديق !

---

* أنباء نجباء الأبناء : ٤٢ .
(١) أبوه .

١٤٩ ـ حَدِبٌ على إخوتِه*

لما ولد لسعيد بن العاص [١] عمرو ، وترعرع [٢] ، تفرّس فيه النجابة ، وكان يفضّله على ولده ، فجمع بنيه ـ وكانو يومئذ أكثر من خمسةَ عشرَ رجلا ـ ولم يدعُ عمرا معهم ؛ وقال : يا بَنيّ ، قد عرفتم خِبرَة الوالد بولده ، وإن أخاكم عمرا لذو همة واعدة [٣] ، يسمو جَدّه ؛ ويبعد صيته ، وتشتدّ شكيمتُه ، وإنى آمركم إن نزل بى من الموت مالا محيص عنه أن تُظَاهِروه وتوازِروه وتعزّزوه ، فإنكم إن فعلتم ذلك يتألّف بكم الكرام ، ويخسأ [٤] عنكم اللئام ، ويلبسكم عِزًّا لا تنهجُه [٥] الأيّام .

فقالوا جميعاً : إنك تؤْثِره علينا ، وتحابيه دوننا . فقال : سأريكم ماستَره البغى عنكم ؛ وصرفهم ثم أمهلهم ، حتى ظَنّ أن قد ذَهِلوا عمّا كان .

وراهق عمرو البلوغ ، واستدعاهم دونه ، فلما حضروا قال : يا بَنيّ ؛ ألم تروا إلى أخيكم عمرو ، فإنه لا يزال يُلْحِفُ فى مسألتى مالى ، فأحْسِن عليه لصغره ، إلى أن ستثبت أن أمه باعثته على ذلك ، فزجرتُها فلم تَكُفّ ، وقد جاء يسألنى الصَّمْصَامة [٦] كأن لا ولد لى غيره ، وقد عزمتُ على أن أقسّم مالى فيكم دونه !

---

* أنباء نجباء الأبناء : ٩٩ .

(١) سعيد بن العاص : صحابى من الأمراء الولاة الفاتحين ، ولاه عثمان الكوفة وهو شاب ، وكان قويا فيه تجبر وشدة ، توفى سنة ٥٩ هـ (٢) ترعرع : شب (٣) رجى خيرها ، ويقال شجرة واعدة : إذا ظهر لرائيها أن قد حان إثمارها (٤) يخسأ : يبعد ويطرد (٥) لاتخلقه (٦) الصمصامة : يريد سيف عمرو بن معد يكرب الزبيدى الذى يضرب به المثل ، وكان فيما يقال قد صار إلى سعد بن العاص .

فقالوا كلهم : يا أبانا ، هذا عملك بإيثارك له علينا ، واختصاصك إيّاه دوننا .

فقال : يا بنيّ ؛ والله ما آثرته دونكم بشيء من مالي قطّ ، وما كان ما قلته لكم إلا اختلاقاً ، تساهلت فيه لما أمّلته من صلاح أمركم .

ثم قال : ادخلوا المخدع . فدخلوا ، ثم أرسل إلى عمرو فأحضره ، فلما حضر قال : يا بُنيّ ؛ عليك حَدِب مُشْفِق لصغر سنك ، ونفاسة إخوتك على مكانك إني مني ، وإني لا آمنُ بغتةَ الأجل ، ولي كنزٌ ادّخرته لك دون إخوتك ، وهأنذا مُطْلِعُك عليه ؛ فاكتم أمره .

فقال : يا أبت ؛ طال عمرك ، وعلا أمرك ، وإني لأرجو أن يطيلَ بك الإمتاع ، فأما ما ذكرته من شأن الكنز ؛ فما يعجبني أن أقطعَ دون إخوتي أمرا ، وأزدرع في صدرهم غَمْرا [1] .

فقال : انصرف يا بُنيّ ، فِدَاك أبوك ! فو الله مالي من كنز ، ولكني أردتُ أن أبْلُوَ رأيك في إخوتك ؛ وبني أبيك .

فانطلق عمرو ، وخرج إخوته من المخدع ، فاعتذروا إلى أبيهم وأعطوه موثقاً على اتّباع مشورته !

(١) الغمر : الضغن والحقد .

١٥٠ـ نافِرني إلى فتاك فإنه نجيب*

كان العباسُ بن عبد المطلب نديمـاً لأبى سفيان بن حرْب فى الجاهلية على شراب ، ومعاوية يسقيهما وهو إذ ذاك غلامٌ ، فلما أخذت الخمرُ منهما تغنّى بشعر ابن كعب الخزاعى ـ وكان قد جاور بنى سَهْم فى سَنَة شديدة ، وله بنات ، فبرِموا به ، وأظهروا له ذلك ، فخرج عنهم وتحوّل هو وبناته يحملن الأثاث على ظهورهن ؛ فقال :

يأيُّها الرجلُ المحوِّل رَحْلَهُ … هلا نزلتَ بآل عبد مناف!
هَبِلتكَ أمُّك [1] لو نزلت إليهم … ضمنوك من جوعٍ ومن إقراف [2]
الآخذون العهد من آفاقها [3] … والظاعنون لرحلةِ الإيلاف
والملحِقون فقيرَهم بغنيِّهم … حتى يعودَ فقيرهم كالكاف
والرائشون وليس يوجَد رائش [4] … والقائلون : هلمّ للأضياف
والضاربون الجيش يبرق بيضهُ [5] … والمانعون البيض بالأسياف [6]
عمرو العلا هشم الثريدَ لقومه [7] … ورجالُ مكة مسنِتُون عِجاف [8]

* أنباء نجباء الأبناء . ٦٢ .

(١) الهبل : التلف والهلاك ، والعرب تطلق هـذه الكلمة ونظائرها ، ولاتريد بها شرا ، وقد تجريها مجرى المدح عند استعظام الأمر ، أوتجريها مجرى الحض على الفعل والقول

(٢) الإقراف هنا : تغير اللحم ، وضؤولة الجسم (٣) أخذوا العهود من ملوك الشام ، والحبشة ، واليمن والعراق ، فتوجهت قريش لتجارتها فى هذه الوجوه (٤) الرائشون : الجاعلون لذوى الفاقة ريشا ، والريش والرياش : أصله اللباس ، ثم استعمل للعطية المصلقة (٥) الأبيض السيف وجمعه بيض (٦) بيضة كل شىء : حوزته (٧) كانت قريش قد أصابتها سنة فنالت منهم فارتحل هاشم بن عبد مناف ـ واسمه عمرو ـ إلى الشام ، فأوقرعيرا من الكعك وقدم بها مكة ، ونحر الإبل وطبخ لحومها ، ثم هشم ذلك الكعك فسمى هاشما وغلب على اسمه .

(٨) مسنتون : أصابتهم السنة ، وهى الشدة والمجاعة .

وإذا مَعَدٌّ حصَّلت أنسابها فهمُ لعمرك جوهرُ الأصداف

فحمى أبو سفيان لما سمع هذا الشعر ، وجعل يعدِّدُ مآثرَ حَرْبِ بن أميّة ؛ ومآثرَ نفسه ، وتناقلا[1] فى المفاخرة إلى أن قال له العباس : نافرنى إلى فتاك هذا ، فإنه نجيب — يعنى معاوية . فقال أبو سفيان : قد فعلت — هذا وهندٌ تسمع — فاهتبلت[3] الفرصة ؛ وأنشأت تقول مخاطبة لابيها معاوية :

اقْضِ — فَدَتْك نفسى — لآل عبد شمس
فهم سَرَاةُ الْحُمْس[4] على قديم الْحَرْس[5]

فقطع معاوية قولها ، وقال :

صَهْ يابْنَةَ[6] الأكارِم فعبدُ شمس[7] هاشِمِ
همــا برغم الراغم كانا كَغرْبَىْ[8] صارمِ

فلما سمع العباس وأبو سفيان مقالةَ معاوية ابتداره أيُّهما يتناوله قبل صاحبه ، فتعاوراه ضمّاً وتقبيلا ، وافترقا راضيَيْن .

---

(١) المناقلة فى الكلام : أن يقول هذا مرة وهذا مرة فيتداول الكلام بينهما (٢) المنافرة : المحاكمة (٣) اهتبلت الفرصة : انتهزتها فبادرت إليها (٤) السراة : جمع سرى ، وسراة القوم : خيارهم . والحمس . قريش وخزاعة ، وكل من قارب مكة من قبائل العرب (٥) الحرس الدهر (٦) صه : أمر بالسكوت (٧) يريد أنهما كالشيء الواحد (٨) الغربان : الحدان ، والصارم : السيف القطع .

١٥١ - أنا أعلم بقريش من قريش *

لما قَدِم معاويةُ[1] المدينةَ منصرفاً من مكةَ ، بعث إلى الحسن والحسين وعبدالله ابن جعفر ، وعبدِ الله بن عُمَر ، وعبد الله بن الزّبير ، وعبدِ الله بن صَفْوان بن أميَّة بهدايا من كُساً وطيبٍ وصِلاتٍ من المال ؛ ثم قال لرسُلِه : ليحفظْ كلٌّ رجلٍ منكم مايرى ويسمعُ من الرّدّ .

فلما خرج الرسلُ من عنده ، قال لمن حَضَرَ : إن شئتمْ أنبأناكُمْ بما يكون من القوم ، قالوا : أخبرنا يا أمير المؤمنين . قال : أمّا الحسن فلعله ينيل نساءه شيئاً من الطّيب ، ويُنْهبُ ما بَقِيَ من حَضرَه ، ولا ينتظر غائباً .

وأما الحسين فيبدأ بأيتامِ من قُتِل مع أبيه بصِفّين ، فإن بقي شيء نَحَرَ به الجُزُر ، وسقَى به اللبن .

وأما عبدُ الله بنُ جعفر فيقول : يا بُدَيح[2] ، اقضِ به دَيني ؛ فإن بقي شيء فأنفذ به عِدَاتي[3] .

وأمّا عبدُ الله بن عمر فيبدأ بفقراء عَدِيّ بن كعب ، فإن بقي شيء ادّخره لنفسه ، ومانَ[4] به عياله .

وأما عبدُ الله بن الزبير ؛ فيأتيه رسولي وهو يسبّح ، فلا يلتفتُ إليه ، ثم

---

* عيون الأخبار : ٣ - ٤٠ .

(١) أسلم معاوية عام الفتح ، وكتب للنبي صلى الله عليه وسلم وولي الشام لعمر وعثمان عشرين سنة وولي الخلافة سنة ٤١ هـ ، وتوفي سنة ٦٠ هـ (٢) بديح : اسم مولى كان لعبدالله ابن جعفر (٣) جمع عدة (٤) مانه : قام بكفايته :

يعاوده الرسولُ ، فيقول لبعض كُفَاته : خذوا من رسول معاوية ما بعث به ، وصَله اللهُ وجزاه خيراً ، لا يلتفتُ إليها ، وهي أعظمُ في عينه من أُحُد ، ثم ينصرف إلى أَهْلِه ، فيعرضُها على عينه ، و يقول : ارفعوا ؛ لعلى أعودُ بها على ابن هند يوماً ما .

وأما عبدُ الله بن صَفْوَان فيقول: قليلٌ من كثير ، وما كلُّ رجلٍ من قريش وصلَ إليه كهذا ، رُدُّوا عليه ؛ فإن ردَّ قبِلْناها .

فرجع رسلُه من عندهم بنحوٍ ممـا قاله معاويةُ . فقال معاوية : أنا ابنُ هند ! أعلمُ بقريش من قريش .

١٥٢ - أوقد جئتني سالما *

لما أَسَنَّ معاوية[1] اعتراه أَرَقٌ؛ فكان إذا هوَّم[2] أيقظته نواقيسُ الروم، فلما أصبح يوماً ، ودخل عليه الناس ، قال: يامعشرَ العرب ؛ هل فيكم فتى يفعلُ ما آمُرُه ، وأعطيه ثلاثَ دِيَاتٍ أعجّلُها له ، وَدِيَتَيْنِ إذا رجع ؟ فقام فتى من غسّان فقال : أنا ياأمير المؤمنين .

قال : تذهبُ بكتابي إلى ملك الروم ، فإذا صرتَ على بساطه أذَّنت ! قال : ثم ماذا ؟ قال : فقط . فقال : لقد كلفتَ صغيراً وأتيتَ كبيراً !

فكتب له وخرج ؛ فلما صار على بساط قَيْصَر أذّن ؛ فتناجزَتِ[3] البطارقةُ ، واخْتَرَطوا[4] سيوفَهم ؛ فسبق ملكُ الروم ، فجثا عليه ، وجعل يسألهم بحق عيسى وبحقه عليهمُ أن يكُفُّوا .

ثم ذهبَ به حتى صَعَدَ على سريره ، ثم جعله بين يديه ؛ ثم قال : يامعشر البطارقة ؛ إن معاويةَ رجلٌ قد أسن ، وقد أرِق ، وقد آذَتْه النواقيس ؛ فأراد أن نقتلَ هذا على الأذان، فيقتل مَنْ قِبَله منا ببلاده على النواقيس ؛ والله ليرجِعَنَّ إليه بخلاف ماظَنَّ . فكساه وحمله ؛ فلما رجع إلى معاوية قال : أوقد جئتني سالماً ؟ قال: نعم .

---

* عيون الأخبار : ١ ـ ١٩٨ .

(١) أسن : كبرت سنه . (٢) التهويم : هز الرأس من النعاس . (٣) المناجزة: المقاتلة .

(٤) اخترط السيف : استله .

١٥٣ ـ الأحنف يُفحم مُعاوية *

جلس معاويةُ يوماً ، وعنده وجوهُ الناس ، وفيهم الأحنف[1] ؛ فدخل رجلٌ من أهل الشام ، فقام خطيباً ، فكان آخرَ كلامه أن لعن علياً رضى الله عنه ، فأطرَق الناس ، وتكلم الأحنف ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إن هذا القائل لو علِم أن رضاك فى لَعْنِ المرسلين للعنَهم ، فاتّقِ الله ، ودَعْ علياً ؛ فقد لقى الله ، وأُفرد فى حُفْرَته ، وخلا بعمله ، وكان والله ـ ماعلمنا ـ الطاهرَ فى خُلقه ، الميمونَ النقيبة ، العظيم المصيبة .

قال معاوية : ياأحنفُ ؛ لقد أغضيْتَ العينَ عَلَى القذى ، وقلتَ بغير ما ترى ، وايم الله لتَصْعدَنَّ المنبر فلتلعنه طائعاً أو كارهاً !

فقال الأحنف : إن تُعفِنى فهو خيرٌ ، وإن تجبرْنى على ذلك فوالله لا تَجْرى به شفتاى !

فقال معاوية : قم فاصعد ! قال : أما والله لأُنصفنك فى القولِ والفعل .

قال معاوية ، وما أنت قائل إن أنصفتنى ؟ قال : أَصْعَدُ فأحمدُ الله وأُثنى عليه ، وأصلى على نبيه ، ثم أقول : أيها الناس ؛ إن معاويةَ أمرنى أن أَلْعَنَ علياً ، ألا وإن علياً ومعاوية اختلفا واقتتلا ، وادّعى كل واحد منهما أنه مَبغِىٌّ عليه وعلى فئته ؟ فإذا دعوتُ فأمّنوا رحمكم الله ، ثم أقول :

---

* نهاية الأرب ٧ : ٢٣٧ .

(١) الأحنف بن قيس : هو الضحاك بن قيس سيد تميم ، وأحد العظماء الدهاة الفصحاء الشجعان الفاتحين ، يضرب به المثل فى الحلم ، ولد بالبصرة ، وتوفى سنة ٦٧ هـ.

اللهم العنْ أنت وملائـكتُك وأنبياؤك ورسلُك وجميع خلقك الباغيَ منهما على صاحبه والفئةَ الباغيةَ على المبغىِّ عليها ، آمين يارب العالمين !

فقال معاوية : إذَنْ نعفيك ياأبا بَحْر[1] !

١٥٤ ـ نُوطى عَلَيه يَامُزَيْنُ التَّمَائمَا*

كان لمعاوية ولد مضعوف[2] اسمه عبد الله ، فبينما معاويةُ جالسٌ مع أم عبدالله مرت بهما أم يزيد ـ وهى مَيْسون بنت بَحْدل الـكلبية ـ فهزئت بها أم عبدالله، فقال معاوية : أما والله إن ولدها خيرٌ من ولدك . فقالت : لا والله ، ولـكنك تحبُّ ولدها وتحابيه ، فقال : سأريك ذلك عِياناً . ثم أرسل إلى ابنهـا فجاء ، فقال له : ياعبدَ الله ، إنى قاض لك كلَّ حاجة فاذكر حوائجك كائنة ما كانت ، فقال : ياأمير المؤمنين ، اشتر لى حمارا ، فقال له : يابنى ، أنت حمار، وأشترى لك حماراً ؟

ثم استحضر يزيد ، فلما حضر قال : يابنى ، إن أمير المؤمنين قد بسطلك أملَه، فاذْكر حاجتك إنْ كانت لك حاجة . فاستقبل القبلةَ ، ثم رفع رأسه ، وقال : الحمدُ لله على جميل رأى أمير المؤمنين فىّ ، ثم قال : ياأمير المؤمنين ، اجعل إلىّ العهد! فقال معاوية : نعم ونعَام[3] عين ، ولَّيتُك عهدى .

فسجد وحمد الله سبحانه، فقال معاوية : هل غير هذا ؟ قال: نعم ياأميرالمؤمنين، تزيد كل رجل من أهل الشام عشرة دنانير فى عطائه ، وتُعلمهم أن ذلك بشفاعتى. قال : قد فعلت . فهل غير هذا ؟ قال: نعم ياأمير المؤمنين ، يفرِض أميرُ المؤمنين

---

* أنباء نجباء الأبناء : ١٠٥ .

(١) كنية الأحنف . (٢) المضعوف : ما أضعف من شىء . (٣) العرب تقول : نعم ، ونعام عين : أى أفعل ذلك كرامة لك .

لأولاد من قُتل معه بصفِّين وغيرها : قال : قد فعلتُ . فهل غير هـذا ؟ فحمد يزيد الله تعالى ، ثم قال : نعم ، ويجعل أميرُ المؤمنين غزَو هذا العام إليَّ ، لأفتتح أمرى بتجهيز الجيوش فى سبيل الله تعالى . قال : قد فعلت .

فلما رأت أمُّ عبد الله أن يزيد قد حصل على الخلافة قالت : إن أمير المؤمنين أعلم وأهْدى لولده، فأوصِه بى و بولدى ياأمير المؤمنين ، ثم قام يزيد يدعو لوالدِه وهو مُولٍّ ، فتمثل معاوية بقول القائل :

إذا مات لم تُفْلِحْ مزينةُ بعده فنُوطِى[1] عليه يامُزَينَ التمائما

---

(١) ناط الشىء : وصله .

١٥٥- ذكاء ابن عبّاس *

بينا ابنُ عبّاس(١) فى المسجد الحرام ، وعنده نافع بن الأزرق وناسٌ من الخوارج يسألونه ، إذ أقبلَ عُمرُ بن أبى ربيعة فى ثوبين مصبوغين مُوَرَّدين حتى دخل وجلس ، فأقبلَ عليه ابنُ عباس ، فقال : أَنْشِدْنا ، فأنشده :

أمِنْ آل نُعمٍ أنت غادٍ فَمُبْكِرُ   غداةَ غدٍ أم رائحٌ فمهجّرُ(٢)

حتى أتى على آخر القصيدة ، فأقبل عليه نافعُ بن الأزرق فقال : الله يا بنَ عباس ! إنا نضرب إليك أكبادَ الإبل من أقاصى البلاد نسألُك عن الحلال والحرام فتتثاقلُ عنا ، ويأتيك غلامٌ مُتْرَفٌ من مُتْرَفى قريش فينشدك :

رأيت رجلاً أمّا إذا الشمسُ عارضتْ   فيَخْزَى وأما بالعَشِىِّ فيَخْسَرُ

فقال: ليس هكذا قال . قال : فكيف قال ؟ فقال قال :

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت   فَيَضْحَى وأما بالعشىِّ فيخصرُ(٣)

قال: ماأراك إلا وقد حفظتَ البيت ! قال: أجل ! وإن شئت أن أُنشِدَك القصيدة أنشدتك إياها ، قال : فإنى أشاء ، فأنشده القصيدة حتى أتى على آخرها وما سمعها قط إلا تلك المرة صفحاً(٥) .

---

* الأغانى : ١ – ٧٢ .

(١) هو ثانى ولد العباس بن عبد المطلب ، توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنه ثلاث عشرة سنة ، وكان عليه السلام يحبه ودعا له فقال : اللهم علمه التأويل ، فكان أعلم الناس بآيات القرآن وتأويلها والفقه فى الدين على ماأوتيه من لسان طلق ذلق ، توفى سنة ٦٨ هـ .

(٢) هجر : سار فى الهاجرة ، والهاجرة : شدة الحر . (٣) يضحى : يظهر للشمس ، وعارضت : قابلت ، ويخصر : يبرد . (٤) كان ابن عباس يقول : ماسمعت شيئا قط إلا رويته ، وإنى لأسمع صوت النائحة فأسد أذنى كراهة أن أحفظ ماتقول . (٥) صفحا : مرورا .

١٥٦ـ عمران بن حِطّان يتنقّل فى القبائل*

لما أطرد(١) الحجاجُ عِمْرانَ(٢) بن حِطّان كان يتنقّل فى القبائل ، فكان إذا نَزَل فى حَيّ انْتَسَبَ نَسَباً يَقْرُبُ منه .

ثم خرج حتى نزلَ عند رَوْح بن زِنْبَاع(٣) الجُذَامِىّ ، فانتمى له من الأَزْد ؛ وكان رَوْح يَقْرِى الأضيافَ ، وكان مسامراً لعبد الملك بن مروان، أثيراً(٤) عنده ؛ وكان رَوْح لا يسمعُ شعراً نادراً ، ولا حديثاً غريباً عندَ عبد الملك ثم يسألُ عنه عِمْرانَ بن حِطّانَ إلا عرفه وزاد فيه . فذكر ذلك لعبد الملك ، فقال : إن لى جاراً من الأزْد ما أسمعُ من أميرِ المؤمنين خبراً ولا شعراً إلا عرفَه وزاد فيه ! فقال : خبِّرْنى ببعض أخباره ؛ فخبَّره وأنشده ؛ فقال : إن اللغةَ عَدْنَانية ، و إنى لأحسَبُهُ عِمْرانَ بن حطانَ !

ثم تذاكروا ليلة قَوْلَ(٥) عِمْرَان بن حِطان يمدح ابن مُلْجَم(٦) :

يا ضَرْبةً من تَقِىّ ما أرادَ بها … إلا ليبلغَ من ذى العَرْشِ رِضْوَانا

إنى لأذكرُهُ حِيناً فأحسَبُهُ … أوْفَى البرية عند الله ميزانا

---

* رغبة الآمل : ٧ — ٨٤ ، الكامل : ٢ — ١٠٨

(١) أطرده أمر بطرده ، وإخراجه عن البلد . (٢) كان عمران بن حطان رجل علم وحديث أدرك صدراً من الصحابة وروى عنهم ، ولما قام الخلاف بين أصحاب على تزعم فرقة من الخوارج اسمها القعد ، وأصبح خطيبها وشاعرها ، ومات سنة ٨٤ هـ بالكوفة . (٣) أمير فلسطين قال عبد الملك بن مروان عنه : إنه جمع طاعة أهل الشام ودهاء أهل العراق وفقه أهل الحجاز ، توفى سنة ٨٤ هـ . (٤) أثيراً : مكرماً عنده . (٥) قلبه الفقيه الطبرى فقال :

يا ضربة من شقى ما أراد بها … إلا ليهدم من ذى العرش بنيانا

إنى لأذكره يوماً فألعنه … إيهاً وألعن عمران بن حطانا

(٦) ابن ملجم : قاتل على بن أبى طالب .

فلم يدرِ عبد الملك لمنْ هو ! فرجع رَوْح إلى عِمران فسأله عنه ! فقال : هـذا يقوله عمران بن حِطان يمدح به عبدَ الرحمن بن مُلْجَم قاتل على بن أبى طالب .

فرجع رَوْح إلى عبد الملك ، فأخبره ، فقال له: عبد الملك : ضيفُك عِمرانـ ابنُ حِطان ! اذهب فجئنى به ؛ فرجع إليه ، فقال له إن أميرَ المؤمنين قد أحَبَّ أن يرَاك . قال عمران : قد أردت أن أسألك ذلك ، فاستحييتُ منك فامْضِ ، فإنى بالأثرِ ، فرجع رَوْح إلى عبد الملك فأخبره ، فقال عبدُ الملك : أمَا إنك سترجع فلا تجده ؛ فرجع وقد ارْتحل عِمران ؛ وخلّف رُقعة فيها :

يارَوْح كم من أخى مثوًى[1] نزلتُ به ... قـد ظنَّ ظنَّـك من لخمٍ وغَسَّانِ
حـــتى إذا خِفْتُه فارقتُ مَنزِلَهُ ... من بعـدِ ماقيلَ عِمرانُ بن حِطـان !
قد كنتُ جارَكَ حوْلاً ماترَوَّعُنى ... فيـه رَوَائع[2] من إنْس ومن جان
حتى أردتَ بىَ العُظْمى[3] فأدرَكنى ... ماأدْرَكَ الناسَ من خوف ابن مرْوَان
فاعذِرْ أخاك ـ ابنَ زنباع ـ فإن لهُ ... فى النائبـاتِ خُطُوباً[4] ذات ألوان
يوماً[5] يمـانٍ إذا لاقيتُ ذا يمنٍ ... وإنْ لقيتُ مَعَـدِّيًّا فَعَـدْنانى
لو كنتُ مستغفراً يوماً لطـاغيةٍ[6] ... كنتَ المقدَّمَ فى سرِّى وإعلانى
لـكن أبَتْ[7] لىَ آياتٌ مُطهَّرةٌ ... عنـــــد الولاية فى طهَ وعِمْران

---

(١) المثوى : منزل الضيافة ، وأخى : صاحب ، وظن ظنك : رأى رأيك من أنى رجل هين . ولخم وغسان : من اليمن من كهلان (٢) الروع : الخوف ، والواحـدة رائعة (٣) العظمى : لقاء عبد الملك ، إذ كان حرباً على الخوارج (٤) الخطوب : الأمور العظيمة (٥) يقول : أنا يوما يمان على الرفع ، يريد أنه متنقل (٦) أى لنفس طاغية : أو يريد بالطاغية المذكر وزاد التاء للتوكيد والمبالغة كراوية وعلامة ونسابة . والطاغية : الجبار (٧) أبت لى : منعتنى الاستغفار لك . وطه وعمران : سورتان فى القرآن ، وكان الخوارج يعتقدون أن غيرهم على ضلال .

ثم ارتحل حتى نزل بزُفر بن الحارث الكلابي أحد بني عمرو بن كلاب ، فانتسبَ له أوْزاعيًّا (١) ، وكان عمران يطيل الصلاةَ ؟ وكان غلمانٌ من بني عامر يضحكون منه . فأتاه رجلٌ يوماً ممن رآه عند رَوْح بن زنباع ، فسلم عليه ، فدعاه زُفرُ ، فقال : من هذا ؟ قال : رجل من الأزد رأيتُه ضيفاً لرَوْح بن زنباع . فقال له زُفَر : ياهـذا ، أزْديًّا مرة وأوزاعيًّا مرة ! إن كنتَ خائفاً أمّناك ، وإن كنت فقيراً جبرناك .

فلما أمسى هربَ ، وخلّفَ في منزله رُقعة فيها :

إنّ التي أصْبَحتْ يعيا بهـا زُفر ... أعْيَتْ عَياءً (٢) على رَوْح بن زِنْباعِ
ما زالَ يسألُني حَوْلًا لأُخْبِرَهُ ... والناسُ من بين مخدوع (٣) وخدَّاع
حتى إذا انقطعَتْ (٤) عني وسائلُه ... كفَّ السؤالَ ولم يُولَع بإهلاع (٥)
فاكْفُفْ كما كفَّ عني ، إنني رجلٌ ... إما صَميمٌ (٦) ، وإما فَقْعةُ القاع
واكْفُفْ لسانَكَ عن لومي ومَسألتي ... ماذا تريدُ إلى شيخٍ لأوْزَاع (٧) ؟
أما الصلاةُ فإني غـيرُ تاركها ... كلّ امرئ للذي يُعنَى به ساع
أكْرِمْ برَوح بن زِنباعٍ وأسْرَتِه ... قومٌ دعا أوَّليهم (٨) للعُـلا داع
جاورتُهمْ سـنةً فيما أُسَرُّ به ... عِرْضي صحيحٌ ونَوْمي غيرُ تهجاع (٩)
فاعملْ ، فإنك مَنْعيٌّ (١٠) بواحدة ... حَسْبُ اللبيب بهذا الشَّيب من ناع

---

(١) أوزاعي : نسبة إلى أوزاع بطن من همدان (٢) يعيا بها : يعجز عنها . وأعيت عليه : أعجزته ، والمراد معرفة ذاته . (٣) مخدوع : مصدق لما أقول ، وخداع : محتال .
(٤) انقطعت عني وسائله : الوسائل جمع وسيلة وهي الذريعة والسبب (٥) بإهلاعي : بإفزاعي وترويعي (٦) الصميم . الخالص من كل شيء ، أي من خالص قومه . ويقال لمن لاأصل له : هو فقعة بقاع ، وذلك لأن الفقعة لا عروق لها ولاأغصان . والفقعة : الكمأة البيضاء ، والقاع : أرض سهلة (٧) الأوزاع : الجماعات وبطن من همدان (٨) أوليهم : جمع أول أي آباؤهم أمجاد (٩) تهجاع : نوم خفيف (١٠) مخبر بوفاتك .

ثم ارْتَحلَ حتى أتى عُمَان ؛ فوجدهم يُعظِّمُون أمرَ أبى بلال ويظهرونه ، فأظهر أمره فيهم ؛ فبلغ ذلك الحجاج ، فكتب إلى أهل عمان ، فارتحل عِمْرَانُ هارباً حتى أتى قوماً من الأزد فلم يزلْ فيهم حتى مات ، وفى نزوله بهم يقول :

نزلنا بحمد الله فى خَيْرِ مَنْزِلٍ ... نُسَرُّ بما فيه من الأُنسِ [1] والخَفَرْ

نزلنا بقوم يجمعُ اللهُ شملهمْ ... وليس لهم عُودٌ سوى المجدِ يُعْتَصَرْ

من الأزْدِ إنّ الأزْدَ أكرمُ مَعْشَرٍ ... يمانيةٍ طابوا إذا نُسِبَ البَشَرْ

فأصبحتُ فيهم آمِناً لا كمعشرٍ ... أتَوْنى فقالوا : من [2] ربيعةَ أومُضرْ؟

أم الحىِّ قحطانٍ فَتِلكمْ سَفَاهَةٌ ... كما قال لى رَوْحٌ وصاحبُهُ زُفَرْ

وما منهما [3] إلا يُسرُّ بِنسْبةٍ [4] ... تُقَرِّبُنى منه وإن كانَ ذا نَفَرْ

فنحنُ [5] بنو الإسلام واللهُ واحدٌ ... وأوْلَى عباد الله بالله من شكرْ !

(١) أصل الخفر شدة الحياء . يقال امرأة خفرة : إذا كانت مستترة لاستحيائها

(٢) يريد : أمن ربيعة أم من مضر ؟ (٣) ومامنهما واحد،لحذف لعلم المخاطب (٤) النسبة: بالضم والكسر : النسب (٥) يقول : انقطعت الولاية إلا ولاية الإسلام لأن ولاية الإسلام قد قاربت بين الغرباء . والله يقول : «إنما المؤمنون إخوة» .

١٥٧ - دهاء عمارة بن تميم اللخمى *

كان الحجاج حسوداً لا تتمُّ له صنيعةٌ حتى يفسدَها ، فوجّه عمارةَ بن تميم اللخمى إلى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ؛ فظفر به ، وصنع به ما صنع ، ورجع إلى الحجّاج بالفتح ، فلم يرَ منه ما أحبّ ، وكره مُنافرته ، وكان عاقلًا رفيقاً ، فجعل يترفق به ويداريه ، ويقول : أنت - أيها الأمير - أشرفُ العرب ، فمن شرّفته شرف ، ومن وضعتَه اتضع ، ومَنْ ينكرُ ذلك ، مع رفقك ويُمْنِك ومشورتك ورأيك ؟ وما كان هذا كلُّه إلا بصنع الله عز وجل وتدبيرك ، وليس أحدٌ أحقّ بشكر صنيعك منى ، ومَن ابنُ الأشعث ؟ وما خَطَرُه ؟

ثم عزم الحجاج عَلَى المضىّ إلى عبد الملك فأخرج عمارةَ معه ، فلم يزل يلطفه بالحجاج فى مسيره ، ويعظّمه ، حتى قدموا على عبد الملك

فلما قامت الخطباء بين يديه ، وأثنت على الحجاج ، قام عُمارة ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، سَل الحجّاجَ عن طاعتى ومُنَاصَحتى وبلائى ! فقال الحجاج : ياأمير المؤمنين ، صنع وصنع ، ومن بأسه ونجدته وعقله ومكيدته كذا وكذا ، هو أيمنُ الناس نقيبة ، وأعلمهُم بتدبيرٍ وسياسة ، ولم يُبْقِ غايةً فى الثناء عليه .

فقال عُمارة : أرضيتَ يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم ! فرضى الله عنك ، حتى قالها ثلاثاً ، فى كلها يقول : قد رضيت !

---

* المحاسن والمساوى : ١٣٩ ، طبع ليبزج .

فقال عمارة : فلا رضى اللهُ عن الحجاج يا أمير المؤمنين ، ولا حفظه ولا عافاه ، فهو ــ والله ــ السيّئُ التدبير ، الذى قد أفسد عليك أهلَ العراق ، وألّبَ عليك الناس ، وما أُوتيت إلا من قلة عقله ، وضعف رأيه ، وقلة بصره بالسياسة . ولك والله أمثالها ، إن لم تَعزله .

فقال الحجاج : مَه يا عمارة ! فقال : لا مَهْ ولا كرامة يا أميرَ المؤمنين ! كلُّ مملوك له حرٌّ إن سار تحت راية الحجاج أبداً ! فقال عبدُ الملك : ما عندنا أوْسَعُ لك !

فلما انصرف عُمارة إلى منزله بعث إليه الحجاج وقال له : أنا أعلم أنه ماخرج هذا عنك إلا عن مَعْتبة (١) ، ولك عندى العُتْبى (٢) ، ولك ولك ! فأرسل إليه : ما كنت أظنُّ أن عقلك على هـذا ! أَرْجعُ إليك بعد الذى كان من طعنى وقولى عند أمير المؤمنين ! لا ، ولا كرامة لك .

---

(١) المعتبة : العتاب .

(٢) العتبى : الرضا .

١٥٨ - كَيفَ رَأيتم فِرَاستِي فِي الأعرابِي*

قدم على الحجاج ابنُ عم له من البادية ، فنظر إليه يولّى الناس ؛ فقال له : أيها الأمير ؛ لم لا تُوَلّينى بعضَ هذا الحضر ؟ فقال الحجاج : هؤلاء يكتبون ويحسُبون وأنت لا تحسُبُ ولا تكتب !

فغضب الاعرابى ، وقال : بلى ، إنى لأحْسب منهم حَسْباً[1] ، وأكْتَبُ منهم كَتْبا ! فقال الحجاج : فإن كان كما تزعمُ فاقْسِم ثلاثة دراهم بين أربعة أنفس ، فما زال يقول : ثلاثة دراهم بين أربعة ؛ ثلاثة بين أربعة ، لكل واحد منهم درهم يبقى الرابع بلا شيء ! كم هم أيُّها الأمير ؟ قال : هم أربعة ، قال : نعم ! أيها الأمير ، قد وقَفْتُ على الحساب ، لكل واحد منهم درهم ، وأنا أعطى الرابعَ منهم درهماً من عندى ! وضرب بيده إلى تِكَّتِه[2] ، فاستخرج منها درهما ، وقال : أيكم الرابع ؟ فو الله ما رأيت كاليوم زُوراً مثل حساب هؤلاء الحضريين !

فضحك الحجاج ومن معه ، وذهب بهم الضحكُ كلّ مذهب ، ثم قال الحجاج : إن أهل أصبهان أخروا خراجهم ثلاث سنين ، كلما أتاهم والٍ أعجزوه ، فلأرمينهم بهذا ، فأخْلق به أن يُنجب !

فكتب له عَهْدَه على أصبهان ! ..

فلما خرج استقبله أهل أصبهان واستبشروا به وأقبلوا عليه يقبّلون يده ورجله وقالوا : أعرابى بدوىّ ! ما يكون منه !

---

* المسعودى : ٢ — ١٦٠

(١) حسابا . (٢) التكة : رباط السراويل .

فلما أكثرو عليه ، قال : أما يَشْغَلكُم ما أخْرَجني له الأمير ؟

فلما استقرَّ فى داره بأَصْبَهان جمع أهلها ، فقال : مالكم تعصون ربكم وتُغْضِبون أميرَكم ، وتُنْقِصون خراجكم ؟ فقال قائلهم : جَوْرُ من كان قبلك ، وظلم من ظلم ! قال : فما الأمر الذى فيه صلاحُكم ؟ فقالوا تؤخِّرُنا بالخراج ثمانية أشهر ، ونجمعه لك ! قال : لكم عشرة وتأتونى بعشرة ضمناء .

فأتَوْه بهم ، فلما توثق منهم أمهلهم ؛ وكلما قَرُب الوقت رآهم غيرَ مكترثين لما نُدِبوا[1] إليه من الأجل ! وطال به ذلك ، فجمع الضُّمناء ؛ وقال لهم : المال ! فقالوا : أصابنا من الآفة ما نقض ذلك !

فلما رأى ذلك منهم آلى ألا يفطر — وكان فى شهر رمضان — حتى يُجْمَع مالُه أو يضربَ أعناقهم !

ثم قدَّم أحدهم وضرب عنُقَه ، وكتب عليه . فلان ابن فلان أدَّى ما عليه ! وجعل رأسه فى بَدْرة[2] ، وختم عليها ! ثم قدَّم الثانى ففعل به مثل ذلك !

فلما رأى القوم الرءوس تجزّ ، وتجعل فى الأكياس بدلًا من البِدَر ، قالوا : أيها الأمير ؛ توقف علينا حتى نحضر لك المال ؛ ففعل ، فأحضروه فى أسرع وقت !

فبلغ ذلك الحجاج فقال . إنا معاشر آل محمد — يعنى جدّه — ولدنا نجيب ، فكيف رأيتم فراستى[3] فى الأعرابى ؟ !

ولم يزل واليًا عليها حتى مات الحجاج !

---

(١) ندب القوم إلى الأمر ندبًا : دعاهم وحثهم . (٢) البدرة : كيس يوضع فيه عشرة آلاف درهم . (٣) الفراسة : البصر بالشىء والعلم به .

١٥٩ - من بدائه الشعراء*

أُتِي سليمانُ بن عبد الملك [1] بأسارى ، وكان الفرزدق حاضراً ، فأمره سليمانُ بضَرْبِ واحدٍ منهم فاستعفاه فأبى ، وقد أُشِير إلى سيفٍ غيرِ صالح للضرب ليستعمله فقال الفرزدق : بل أضربُ بسيف أبى رَغْوَان [2] سيفِ مُجاشعٍ ـ يعنى نفسه ـ وكأنه قال : لا يَسْتَعْمِل ذلك السيفَ إلا ظالم أو ابنُ ظالم ، ثم ضرب بسيفه الأسيرَ، واتّفق أن نبا السيف ، فضحك سليمان ومن حوله ؛ فقال الفرزدق :

أيعجبُ الناسُ أن أضحكتُ سيّدهم خليفـــــة اللهِ يُستَسقَى به المطرُ
لم ينْبُ [3] سيفِي من رُعْبٍ ولا دَهَش عن الأسير ، ولكن أخّر القَدَرُ
ولن يقدّمَ نفسا قبـــل ميتَتها جمعُ اليدين ولا الصَّمْصامة [4] الذَّكَرُ

ثم أغمد سيفه وهو يقول :

ما إن يُعَاب سيــدٌ إذا صَبَا ولا يُعَاب صارمٌ إذا نبَا
ولا يعاب شاعرٌ إذا كبا

ثم جلس يقول : كأنى بابن المَرَاغَةِ [5] قد هجانى ، فقال :

بسيْفِ أبى رَغوانَ سيفِ مُجَاشع ضربتَ ولم تضرب بسيفِ ابنِ ظالم

---

* أدب الدنيا والدين : ٧ ، بلوغ الأرب : ١ ـ ٢٠ .

(١) بويع سليمان بن عبد الملك بالخلافة سنة ٩٦ هـ ، وكان فصيحاً لبقاً ، كما كان غيوراً شديد الغيرة ، اتسعت الفتوح فى أيامه وتوفى سنة ٩٩ هـ . (٢) رغوان : لقب مجاشع بن دارم بن مالك بن حنظلة ، لقب به لفصاحته وجهارة صوته . ويقال : قالت امرأة سمعته : ما هذا إلا يرغو، فلقب رغوان . (٣) لم ينب : لم يكل عن الضريبة . (٤) الصمصامة : السيف لا ينثنى ، والذكر أيبس الحديد وأجوده وأشده . (٥) يريد جرير

وقام وانصرف

وحضر جرير ، فخُبِّر الخبر ، ولم يُنْشد الشعر ، فأنشأ يقول :

بسيف أبى رغوانَ سيفِ مجاشع ضربتَ ولم تضرب بسيفِ ابن ظالم

فأعجَب سليمان ماشاهد ! ثم قال جرير : يا أمير المؤمنين ، كأنى بابن القَيْنِ (١) قد أجابنى فقال :

ولا نقتل الأسرى ، ولكن نفكُّهم إذا أثقل الأعناق حملُ المغارمِ

ثم أخبر الفرزدق بالهَجْوِ دون ماعداه ، فقال مجيباً :

كذاك سيوفُ الهند تَنْبُو ظُباتها (٢) وتقطعُ أحياناً مَنَاط التمائم

ولن نقتل الأسرى ولكن نفكّهم إذا أثقلَ الأعناقَ حملُ المغارِم

وهل ضربةُ الرومىِّ جاعلةٌ لكُمْ أباً عن كُلَيْب أو أخاً مثل دارم

وشاع حديثُ الفرزدق بهذا حتى كان زمان المهدى (٣) ، فأُتىَ بأسْرى من الروم ، وأَمَر بقتلهم ـ وكان عنده شبيب (٤) بن شيبة ـ فقال له : اضرب عُنق هذا العلجِ (٥) ، فقال : يا أمير المؤمنين ، قد عَلِمْتَ ما ابْتُلى به الفرزدق فعُيِّر به قومُه إلى اليوم . فقال : إنما أردتُ تشريفك وقد أعفيتُك . وكان شاعر حاضراً فقال :

جزِعتَ من الرومىِّ وهو مقيَّدٌ فكيف ولو لاقَيْتَه وهو مُطْلَقُ

دعاكَ أميرُ المؤمنين لِقتْلِهِ فكاد شبيبٌ عند ذلك يَفرَق (٦)

فَنحِّ شبيباً عن قِراع كتيبةٍ وأدْنِ شبيباً من كلامٍ يُلفَّقُ

(١) القين : العبد والحداد ، وهو يريد الفرزدق (٢) الظباة : جمع ظبة ، وهى حد السيف .
(٣) انظر صفحة ٢٦٢ (٤) خطيب البصرة فى زمانه ، كان فى حاشية المهدى حينما كان ولياً للعهد وبقى كذلك حتى ولى الخلافة فكان من سماره المقربين ، توفى سنة ١٧٠ هـ .
(٥) العلج : الواحد من كفار العجم (٦) يفرق : يخاف .

١٦٠ـ قوة حجّة *

كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدىّ بن أرْطاة(١) : أن اجمع بين إياس(٢) ابن معاوية والقاسم بن ربيعة الجَوْشَنىّ ، فولِّ القضاء أنفَذَهما .

فجمع بينهما ،فقال له إياس : أيُّها الرجل سَلْ عنى وعن القاسم فقيهىِ البصرة : الحسنَ البَصْرى ، وابنَ سيرين .

وكان القاسمُ يأتى الحسنَ وابن سيرين ، وكان إياسُ لا يأتيهما ، فعلم القاسمُ أنه إن سألهما عنه أشارَا به ؛ فقال : لا تسألْ عنى ولا عنه ؛ فو الله الذى لا إله إلا هو ، إن إياس بن معاوية أفْقَهُ منى وأعلم بالقضاء . فإن كنتُ كاذبًا فما ينبغى أن توَليني ، وإن كنتُ صادقا فينبغى لك أن تقبلَ قولى !

فقال له إياس : إنك جئتَ برجلٍ فأوْقَفْتَه على شفير جهنّم ، فنجَّى نفسه منها بيمين كاذبة ، يستغفرُ اللهَ منها ، وينجو مما يخاف .

فقال له عدىّ : أما إذ فهمتها فأنت لها ، فاسْتَقْضاه .

---

* العقد الفريد : ١ ـ ١١ .

(١) عدى بن أرطاة : أمير من أهل دمشق كان من العقلاء الشجعان ، ولاه عمر بن عبد العزيز البصرة ، وقتل سنة ١٠٢ هـ (٢) هو من مزينة ، ولاه عمر بن عبد العزيز قضاء البصرة وكان صادق الظن لطيفاً فى الأمور ، ومات سنة ١٢٢ هـ .

١٦١ - إياس في مجلس القضاء *

استودع رجلٌ رجلاً آخر مالا ؛ ثم طالبه به فجحدَه (١) ، فخاصمه إلى إياس ابن معاوية القاضى ، وقال : دفعت إليه مالا فى مكانِ كذا وكذا ! قال فأىَّ شيء كان فى ذلك الموضع ؟ قال: شجرة .

قال : فانْطلِقْ إلى ذلك الموضع ، وانظر إلى تلك الشجرة ، فلعل الله يُوضِّحُ لك هناك ما تُبَيِّنُ به حقّك ! أو لعلك دفنتَ مالك عند الشجرة ، فنسيتَ ، فتذكر إذا رأيت الشجرة .

فمضى وقال إياس للمطلوب منه : اجلس حتى يرجعَ صاحبُك ؛ فجلس وإياس يقضى وينظرُ إليه بين كل ساعة . ثم قال : ترى صاحبك بلغ موضع الشجرة ؟ قال : لا ! فقال : ياعدوَّ الله ؛ أنت الخائن ! قال أَقِلْنى ، أقالك الله ! فأمر بحفْظه حتى جاء خَصْمُه ، فقال له : خذ منه بحقك فقد أقرّ .

* المحاسن والمساوى : ١ ـ ٤٣ .

(١) الجحود : الإنكار مع العلم .

١٦٢ - مِن ذكاء إياس *

استودع رجلٌ أمينَ إياسٍ مالا ، وخرج المودِعُ إلى الحجاز ، فلما رجع طلبه فَجَحَده ؛ فأتى إياساً فأخبره . فقال له إياس : أعْلَمْتَهُ أنك أتيْتَنى ؟ قال : لا . قال : أفنازَعْتَهُ عند غيرى ؟ قال : لا . قال : فانصرف ، واكتُمْ سرّك ، ثم عُدْ إلىّ بعدَ يومين .

فمضى الرجلُ ودعا إياسٌ أمينَه ، فقال : قد حضر عندنا مالٌ كثير ، أريدُ أن أسلِّمَهُ إليك ، أفَحَصِينٌ منزلُك ؛ قال نعم ، قال : فأعِدَّ موضعاً للمال ، وقوماً يحْملونَهُ .

وعاد الرجلُ إلى إياس ، فقال : انطَلِقْ إلى صاحبك ، فإن أعطاك المال فذاك ، وإن جَحَد فقل له : إنى أخْبِرُ القاضيَ بالقصّة .

فأتى الرجلُ صاحبه ، فقال : تعطينى الوديعةَ أو أشكوك إلى القاضى ، وأخبره بالحال . فدفع إليه المال . فرجع الرجل ، وأخبر إياساً .

ثم جاء الأمين إلى إياس ليأخذَ المال الموعود به ، فزجره ، وقال له : لا تقْرَبنى بعد هذا يا خائن .

---

* ثمرات الأوراق : ١١٤ .

١٦٣ - أدّبتني فتأدّبْتُ *

كان أبو سلمة حفص بن سليمان وسليمان بن كثير - وهما سيّدا دعاة الدولة العباسية - يَفِدان كلّ عام على إبراهيم بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس، فيأتيانه بهذا يا أهْلِ الدعوة، وكُتُبهم، ولم يكن أحد من آل إبراهيم يعرفُهما، ولا يعرف الأمرَ الذى يأتيانِ له، فقدِماَ سنةً من السنين فرأيَا العباس وأبا جعفر، فأعجباهما، وهما إذ ذاك غُلَامان، فقال سليمانُ بن كثير لأبى سَلَمَة: إنى مسرّ إليك مهمّا من أمر الدين والدنيا، فاحْلِفْ لى على كِتْمانه، فحلف له أبو سلمة بأيمان رضيها منه. فقال له سليمان: إنى أرى عند هذين الصبيين من أمارات الاستقلال بالخلافة، مالا كِفاء له[1]. فقال له أبو سلمة: هما والله أولى بالأمر من صاحبنا - يعنى إبراهيم الإمام - فقال سليمان: مامنعنى من ذكر هذا إلا التَّسَتُّر.

وبينا هما يتفاوضان فى هذا الأمر إذ مرّ أبو العباس وأبو جعفر وهما يضربان كُرة، فدعاهما أبو سَلَمة فأتياه، فقال لهما: إنى أنشدت صاحبى هذا شعراً أنا مُعْجَبٌ به، فلم يرضه، وقد رضينا بحكمكما فيه. فقالا: أنشده، فأنشدهما:

أمسلمُ إنى يا بْنَ كل خليفة ... ويافارس الهيجا ويا جبل الأرْض[2]
شكرتك إن الشكرَ حَبْلٌ من التقى ... وما كل من أوليتَه نعمةً يَقْضِى[3]
وشَيَّدت[4] من ذكرى وما كان خاملًا ... ولكن بعض الذكر أنبَه من بعض[5]

فقال أبو جعفر: مَنْ قال هذا؟ فقال: قاله أبو نُخَيلة، فعض أبو جعفر

* أنباء نجباء الأبناء: ٩٥.

(١) لا كفاء له: لا مثل له يكافئه. (٢) أمسلم: يريد أمسلمة. (٣) حبل من التقى: سبب منه وعهد، والعهد: الحبل. (٤) شيدت: رفعت (٥) أنبه: أرفع.

على إصبعه ، ثم قال : أ آمِنٌ هذا العبدُ أن تَدُول [1] لبنى هاشمٍ دولة فيُولِغُوا[2] الـكلابَ دمه ؟ فقال له أبو العباس : مَهْ [3] يا أخى ، فإنه يقال : من ظَهَرَ غَضَبُه ضَعُفَ كيدُه .

ثم أقبل أبو العباس على أبى سَلَمة ، وقال له هذا شعرُ أحمق فى أحمق ! كيف يقول لرجل هو فى سلطان غيره ، وتابع له : يا جَبَلَ الأرض ؟ أليس جبَلُ الأرض هو مُرْسِيها ، ولا يصلح أن يخاطبَ بهذا من هو تابع لغيره ، وأين تفخيمه وتعظيمه من نقص اسمه ، إذ يُنَادِيه : « أمسلم » وهو مسلمة ؟

ثم إن العباس ولّى ، فقــال له أبو جعفر : هلمَّ يا أخى نلعب ، فقال له أبو العباس . هل أولغت [4] الـكلابَ دم أبى نخيلة ؟ فقال : لا ، ولـكنك أدَّبتنى فتأدَّبت ، وذهبا !

فقال أبو سلمة لسليمان بن كثير : بمثل هذا يُطلب الملك ، ويُدْرك الثأر !

---

(١) الدولة : الانتقال من حال إلى حال . (٢) أولغت الـكلب : إذا جعلت له شيئاً يولغ فيه (٣) مه : اسم فعل ، معناه : اكفف . (٤) معناه : هل شفيت غيظلك حتى تلعب .

١٦٤ ـ لا يقبل على اصطناع المعروف مكافأة *

لما حجّ المنصور عُرِضَ عليه جوهرٌ نفيس له قيمةٌ عظيمة للبيع ، فعرفه ، وقال : هذا كان لهشام بن عبد الملك بن مروان ، فانتقل إلى ابنه محمد بن هشام ، وما بقى من بنى أمية غَيْرُه ، ولا بُدَّ لى منه ، ثم التفت إلى حاجبه الربيع ، وقال : إذا صلّيتُ بالناس غداً فى المسجد الحرام ، وحصل الناس كلهم فأغلِقْ الأبواب كلَّها ، ووكل بها جماعةً من الثِّقات ، وافتحْ باباً واحداً وقف عليه ، ولا تُخْرِجْ أحداً حتى تعرفَه ، فإذا ظفرتَ بمحمد بن هشام فأتنى به .

فلما كان الغدُ فعل الربيعُ ما أمره به المنصور ، وكان محمدُ بن هشام فى المسجد ، فعرف أنه المطلوب ، وأيقن أنه مأخوذ مقتول ، فتحيَّر وارتاب واضطرب ، فبينا هو على تلك الحال إذ أقبل محمدُ بن زيد بن على بن الحسين فرآه متحيّراً ـ وكان لا يعرفُه ـ فتقدّم إليه وقال : يا هذا ، ما بالك ؟ فقال : لا شىء . فقال : خبّرنى ولك الأمانُ إن شاء الله على نفسك .

قال محمد بن هشام : فمن أنتَ ؟ قال : أنا محمد بن زيد بن على بن الحسين ! فزاد خوفُه ، وطار عقله ، وتحقّق الموت ، فقال له : لا تجزع فلستَ قاتلَ أبى ولا جدّى ، وليس لى عليك ثأر ، وأنا أجتهدُ فى خلاصك إن شاء الله ! ولكن تَعْذِرنى فيما أنا صانعٌ بك من مكروه وقبيح خطاب ! فقال له ، افعل ما شئتَ .

فطرحَ رداءه على وجهه ، وغطّى به رأسه ، وجذبه وسحبه ، إلى أن قَرُبَ من الربيع حاجب المنصور ؛ وهو على الباب ، فلما وقعَتْ عينُ الربيع عليهما لطمه

---

* المختار من نوادر الأخبار ـ مخطوط .

محمد بن زيد لطمات على رأسه ، وجاء به إلى الربيع ، وقال : ياأبا الفضل ، إن هذا الخبيث جمَّال من أهل الكوفة أَكْرانى جِمالاً ، فلما دفعتُ له الكِراء[1] هرب منى ، وذهب فأكرى جِماله لبعض أهل خراسان ، ولى عليه شهودٌ ، وأريد منك مَن يُوَصِّلُه معى إلى القاضى ، ويمسك جماله عن الذهاب مع الخراسانيين . فرسم الربيع عليه اثنين وقال : لا تفارقاه إلى القاضى — ومحمد قابضٌ على الرداء ، وقد استتر وجهُه به — فخرجوا جميعاً من المسجد .

فلما بعدوا عن الربيع قال له محمد : اذهب إلى حال سبيلك ؟ فقبّل محمد بن هشام يدَه ورأسه وقال : اللهُ أعلمُ حيث يجعلُ رسالتَه ، ثم أخرج له جواهرَ قيمتُها عظيمة ، وقال : بالله — يابنَ بنت رسول الله — شرِّفنى بقبول هذا ، فقال له : اذهب بمتاعك ، فنحن أهل بيتٍ لا نقبلُ على اصْطناع المعروف مكافأةً ، واحترز على نفسك من هذا الرجل ، إلى أن يخرجَ ، فإنه مجدٌّ فى طلبك !

(١) الكراء : الأجرة .

١٦٥ - حَذَرُ ابراهيم بن هَرْمَة

وجّه المنصورُ رسولاً إلى ابن هرْمة[١] ، ودفع إليه ألفَ دينار وخِلعة ، ووصفه له وقال : امْضِ إليه ، فإنك تراه جالساً فى موضِع كذا من المسجد ، فانتسبْ له إلى بنى أمية أو مَواليهم ، وسَلْه أنْ يُنشدك قصيدته الحائية التى يقول فيها يمدح عبد الواحد بن سليمان :

وجدْنا غالباً كانت جَنَاحاً وكان أبوك قادمة الجنَاح

فإذا أنشدكها فأخرِجه من المسجد واضربْ عُنقَه وجئنى برأسه ، وإن أنشدك قصيدتَه اللامية التى يَمْدَحُنى فيها فادفعْ إليه الألفَ الدينار والخِلْعة ؛ وما أراه يُنشدُك غيرَها ولا يعترفُ بالحائية .

فأتاه الرسولُ فوجده كما قال المنصور ، فجلس إليه واستنشده قصيدته فى عبدالواحد ؛ فقال : ماقلتُ هذه القصيدة قط ولا أعرفها ، وإنما نَحَلها إيّاىَ منْ يُعادينى ، ولكنْ إن شئتَ أنشدتك أحسنَ منها قال : قد شئتُ فهاتِ ، فأنشده :

* سَرى ثوبَه عنك الصِّبا المُتَخايل[٢] *

حتى أتى على آخرها[٣] ؛ ثم قال له هاتِ ما أمرك أميرُ المؤمنين بدَفعه إلىّ ؛

---

* الأغانى : ٦ ـ ١١٢ .

(١) هو إبراهيم بن على بن سلمة بن هرمة ـ شاعر غزل من سكان المدينة رحل إلى دمشق ومدح الوليد الأموى فأجازه . (٢) سرى عنه الثوب : كشفه . (٣) منها :

له لحظات عن حفافى سريره إذا كرها فيها عقاب ونائل
فأم الذى أمنت آمنة الردى وأم الذى خوفت بالثكل ثاكل

وحفاف الشىء : جانبه .

فقال : أيَّ شيء تقول ياهذا ؟ وأي شيء دَفع إلى ؟ فقال : دَعْ ذا عنك ، فوالله مابعثك إلا أميرُ المؤمنين ومعك مالٌ وكسوة إلى ، وأمرك أن تسألنى عن هذه القصيدة ، فإن أنشدتُك إياها ضربتَ عُنُقى وحملتَ رأسى إليه ، وإن أنشدتُك هذه اللاَّمية دفعتَ إلىَّ ماحمَّلك إياه ،فضحك الرسولُ ، ثم قال : صدقتَ لعمرى ! ودَفع إليه الألف الدينار والخِلْعة .

١٦٦ـ المنصور ودليلة بالمدينة

لما حجَّ أبو جعفر المنصور قال للربيع : ابْغِ لى فتًى من أهل المدينة أديباً ظريفاً ، عالماً بقديم ديارها ، ورُسُوم آثارها ؛ فقد بَعُدَ عهدى بديار قومى ، وأريدُ الوقوفَ عليها .

فالتَمس له الربيعُ فتًى من أعلم الناس بالمدينة ، وأعرفهم بظريف الأخبار ، وشريف الأشعار ؛ فعجب المنصور منه ؛ وكان يسايره أحسنَ مُسايرة ، ويحاضِرُه أزينَ محاضرة ، ولا يَبْتَدِئُهُ بخطاب إلا على وجه الجواب ، فإذا سأله أتى بأوضح دَلَالة ، وأفصح مَقَالة .

فأُعْجِب به المنصور غايةَ الإعجاب ، وقال للربيع : ادفع إليه عشرة آلاف درهم ، وكان الفتى مُمْلِقاً (١) مضْطَرًّا . فتشاغل الربيع عنه ، فاجتاز مع المنصور بدار عاتِكة . فقال : يا أمير المؤمنين ؛ هذا بيت عاتكةَ بنتِ يزيد بن معاوية الذى يقول فيه الأحوص بن محمد :

* ذيل زهر الآداب : ٥٨ .

(١) الإملاق : الافتقار .

يابيتَ عاتكةَ الذى أتعزّلُ (١)   حذرَ العِدَا وبه الفؤادُ مُوَكّلُ

قال المنصور: ما هاج منه ما ليس هو طبعه؛ من أن يُخْبر بما لم يُسْتَخْبَر عنه ويجيب بما لم يُسأل عنه؟ ثم أقبل يردِّدُ أبياتَ القصيدة فى نفسه إلى أن بلغ إلى:

وأراك تفعلُ ما تقولُ، وبعضُهم   مَذِق اللسان يقولُ ما لا يفعل (٢)

فدعا بالربيع وقال له: هل دفعتَ للمدنىّ (٣) ما أمَرْنا به؟ فقال: أخّرتْنى عِلّةٌ يا أمير المؤمنين. قال: أضْعِفْها له وعجّلها.

(١) تعزل الشىء وتعزل عنه: تنحى (٢) رجل مذاق: كذوب (٣) النسبة إلى مدينة الرسول: مدنى، وإلى مدينة المنصور مدينى.

١٦٧ ـ فطنة كاتب المنصور *

قال أبو جعفر المنصور للمهدى يوماً : قد عزمتُ على أن أوليك الأمرَ وأردّه إليك ، فقد كبرتُ وعجزت عن مباشرة الأعمال والنظر فيها ، وأحببتُ الراحة والدّعة . فخرج المهدىّ إلى أبى عبيد الله [1] مستبشراً ، وعرّفه ماعرضه عليه أبو جعفر ، فقال له أبو عبيد الله : اتّق الله ولا تظهر لأمير المؤمنين قَبُولا لما ذاكرك به ، وإذا عاودكَ فقل له : لا والله ، لا أتعرّضُ لهذا الأمر ماأبقى اللهُ أمير المؤمنين؛ ولا أنهضُ له ، فإنه إنما سَبَرَكَ [2] بما عَرَض عليك .

فلما دخل المهدىّ على أبى جعفر قال له:ياأبا عبد الله ، هل فكرتَ فيماقلتهُ لك، أو شاورتَ أحداً فيه ؟ فقال : مابى من قوة على ذلك ، ويُبقى الله أمير المؤمنين ، ويمتعنا بحياته . فقال له : سبحان الله ! من صدّك عنه ومَن ناظرت فيه ؟ فقال له شاورتُ معاوية [3] . قال : فأىّ شىء قال لك ؟ فعرّفه ماقال له ، فأطرق هُنيهة ثم قال : علىّ بمعاوية .

فلما دخل عليه قال له : ماهذا الذى ناظَرَك [4] فيه ابن عبد الله [5] ؟ وكيف رأيت ألا يَقْبل ؟ قال : أأصدُقك وأنا آمن ؟ فقال له : هات : ولم لا تصدُقنى ؟

---

* الوزراء والكتاب : ١٢٨ .

(١) هو أبو عبيد معاوية بن عبيد الله بن يسار من أهل فلسطين . كان كاتب أبى جعفر فى الإنفاق والتصرف فى بيت المال وقد ضمه إلى المهدى حين أنفذه إلى الرى (٢) سبر الجرح : نظر ما غوره . (٣) هو أبو عبيد الله . (٤) المناظرة : أن تناظر أخاك فى أمر إذا نظرتما فيه معاً كيف تأتيانه . (٥) اسم المهدى محمد بن عبد الله .

فقال له : إنه والله ماعرضتَ عليه ماعرضتَه وأنت تريدُ أن توليه ، وإنما أردتَ أن تختبر عقله ، وما كنتَ لتطيب نفساً بتَركِ ما أنت فيه .

فقال له : وكيف توهمتَ ذلك ؟ قال : لأنى سمعتك تقول : إنى أستيقظ بالليل فأدعو بالكتب ، فأضمها بين يدى ، وأدعو بوصيف فآمره أن يَمْرَخ [1] ظهرى بالدهن ، فيفعلَ ذلك ، وأنا مقبلٌ على كتبى وتدبيرى ، والنظرِ فى أمورى ؛ فعلمتُ أنك لا تدعُ شيئاً يكون موقعهُ منك هذا الموقع وتُؤثِر به غيرك .

فقال : ما كنتُ أرى أن أحداً يتفقّد ماتفقّدتَه ، وقد أصبتَ الرأى وأحسنت . بارك الله عليك !

---

(١) يمرخ : يدهن .

١٦٨ـ حيلة طريفة *

قال داود بن الرشيد : قلت للهيثم بن عدى : بأى شىء استحق سعيدُ بن عثمان أنْ ولّاه المهدىُّ القضــاء ، وأنزله منه تلك المنزلة الرفيعة ؟ قال : إنّ خبرَه فى اتصاله بالمهــدى طريف ، فإن أحببتَ شرحتُه لك ، قلت : والله قد أحببت ذلك ، قال :

اعلم أنه وافَى الربيعَ الحاجبَ حين أفضت الخلافةُ إلى المهدى، فقال : استأذنْ لى على أمير المؤمنين . فقال له الربيعُ : من أنت ؟ وما حاجتُك ؟ قال : أنا رجل قد رأيتُ لأمير المؤمنين رؤيا صالحة ، وقد أحببتُ أن تذكرَنى له . فقال له الربيع : ياهذا ؛ إن القوم لا يصدّقون مايرونَه لأنفسهم ، فـكيف ما يراه لهم غيرهم ! فاحتلْ بحيلة هى خير لك من هذه . فقال له : إن لم تخبره بمـكانى سألت مَنْ يوصلنى إليه، فأخبرته أنى سألتُكَ الإذن عليه فلم تفعل .

فدخل الربيع على المهدىّ ، فقال له : ياأمير المؤمنين ؛ إنـكم قد أطمعتُم الناسَ فى أنفسكم ، فقد احتالُوا لـكم بكلّ ضَرْب . قال له : هكذا صُنْع الملوك . فما ذاك ؟ قال : رجــلٌ بالباب يزعم أنه قد رأى لأمير المؤمنين رؤيا حسنة ، وقد أحبَّ أن يقصَّها عليه . فقال له المهدى : ويحك يا ربيع ! إنى والله أرى الرؤيا لنفسى ، فلا تصحّ لى ، فـكيف إذا ادّعاها مَن لعـلّه قد افتعلها . قال : والله قلتُ له مثل هذا فلم يقبل . قال : هات الرجل .

فأدخل إليه سعيد ، وكان له رؤية وجمــال ومروءة ظاهرة ، ولِحْيَةٌ عظيمة

---
* الأذكياء : ٥٩ .

از . فقال له المهدى : هات ، بارك الله عليك ! ماذا رأيت ؟ قال : رأيتُ يا أمير المؤمنين آتياً أتانى فى منامى فقال لى : أخبر أميرَ المؤمنين المهدىّ أنه يعيش ثلاثين سنة فى الخلافة ، وآيةُ ذلك أنه يرى فى ليلته هذه فى منامه كأنه يُقلِّب يواقيت ؛ ثم يعدها فيجدها ثلاثين ياقوتة ؛ كأنها قد وُهِبت له .

فقال المهدىّ : ماأحسن مارأيتَ ! ونحن نمتحن رؤياك فى ليلتنا المقبلة على ماأخبرتَنا به ، فإن كان الأمرُ على ماذكرتَ أعطيناك ماتريد ، وإن كان الأمر بخلاف ذلك لم نعاقبك ، لعلمنا أن الرؤيا ربما صدقَتْ ، وربما اختلفت .

قال له سعيد : يا أميرَ المؤمنين : فما أنا صانع الساعة إذا صرتُ إلى منزلى وعيالى فأخبرتُهم أنى كنتُ عند أمير المؤمنين ، ثم رجعتُ صِفْراً[1] ؟ قال له المهدىّ : فكيف نعمل ؟ قال : يعجِّل لى أميرُ المؤمنين ما أَحَبّ ؛ وأحلف له أنى قد صدقت فأمر له بعشرة آلاف درهم ؛ وأمر أن يُؤخذ منه كفيل ليحضر من غد ذلك اليوم . فقبض المال ، وقيل له : من يكْفلُ[2] بك ؛ فمدّ عينيه إلى خادم فرآه حسنَ الوجه والزِّىّ . فقال : هذا يكفُلُ بى . فقال له المهدى : أتكْفلُ به ؟ فاحمرّ وخَجِل ، وقال : نعم . وكفَل به وانصرف .

فلما كان فى تلك الليلة رأى المهدى ماذكره له سعيد حَرْفًا بحرف ، وأصبح سعيد فى الباب ، واستأذن فأُذِن له ، فلما وقعت عينُ المهدى عليه قال : أين مِصداق ماقلتَ لنا ؟ قال له سعيد : وما رأى أميرُ المؤمنين ؟ قال له المهدى : قد والله رأيتُ ذلك . فقال له سعيد : الله أكبر ! فأنجِز يا أميرَ المؤمنين ماوعدتنى به. قال له : حُبًّا وكرامة . ثم أمر له بثلاثة آلاف دينار ، وعشرة تخوت[3] ثياب ، وثلاثة مراكب من أنْفَسِ دوابه محلّاة ، فأخذ ذلك وانصرف .

---

(١) الصفر : الخالى . (٢) الكفيل : الضامن .
(٣) التخت : وعاء تصان فيه الثياب .

فلحق به الخادم الذى كان قد كفَل به ، وقال له : سألتك بالله ؛ هل كان لهذه الرؤيا التى ذكرتَهـا من أصل ؟ فقال له سعيد : لا والله ! قال الخادم : كيف وقد رأى أميرُ المؤمنين ماذكرته له ؟ قال : هذا مما لا يأبه بهِ أمثالكم ، وذلك أنى لما ألقيتُ إليه هـذا الكلام خطر بباله ، وحدّث به نفسه ، وشغل به فكرَه ، فساعة نام خُيِّل له ماحل فى قلبه ، وما كان شغل به فكرَه فى المنام .

فبُهت الخادم ، وتعجّب ، فقال له سعيد : قد صدقتك ، وجعلت صِدْقى لك مكافأتك على كفالتك ؛ فاسترْ على . ففعل .

ثم طلبه المهدى لمنادمته ، فنادمه ، وحَظى عنده ، وقلده القضاء على عسكره . فلم يزل كذلك حتى مات المهدى !

١٦٩ - الأمين والمأمون بين يدي الرشيد *

قال محدّث : إنّ الرشيد ناظر يحيى بن خالد ؛ أى ولديه يعهد إليه ، وعلم يحيى ابن خالد ميله إلى أمّ جعفر و إيثاره هواها ؛ فقال : أميرُ المؤمنين أعلم بولده ، وكان المأمون والأمين حاضرين ، فأغرى[١] كلّ واحد منهما بالآخر ، فأسرع [٢] الأمين وحَلُمَ المأمون ، ثم أمرهما بالمصارعة ، فوثب الأمينُ ، وثبت المأمونُ جالساً . فقال له الرشيد : مالك اليوم يا عبد الله ! أخِفتَ ابنَ الهاشميّة ؟ أما إنه لأيّد[٣] ، فقال المأمون : هو كما ذكر أمير المؤمنين ، ولكنني لم أخفه ، ولكن قبض يدى عنه ما قبض لسانى حين نال منى . فقال الرّشيدُ : وما الذى قبض يدك ولسانك عنه ؟ قال : قول الأمويّ لبنيه متمثّلا [٤] :

انفُوا الضَّغائن[٥] بينكم وتواصلوا ... عنـد الأباعد والحضور الشهّدِ
فصلاحُ ذات البين طولُ بقائكم ... وَدَمارُكم بتقطّــــع وتفرّد
إنّ القداحَ إذ جُمعنَ ورامها ... بالكسر ذو حَنَقٍ وَبطْشٍ أيّدِ
عزّتْ ولم تُكسر و إن هي بددت ... فالوهن والتكسير للمتبــدِّدِ
فلمثل رَيْبِ الدهر ألِّف بينكم ... بتعـاطفٍ وتراحُمٍ وتودّدِ
حتى تلينَ جلودُكم وقلوبكم ... لمسوّد منكم وغـــير مسوّدِ

---

* أنباء نجباء الأبناء : ١١٣

(١) أغرى بينهم : سلط أحدهم على الآخر . (٢) أسرع : أى أسمعه قولا مكروها .
(٣) أيد : شديد . والأيد : القوة . (٤) الأبيات أنشدها عبد الملك يوصى بها ولده .
(٥) الضغائن : الأحقاد .

فرقّ الرشيد رقةً شديدة ، واغرورقت عيناه بالدموع ، ثم تشدّدَ وكَفْكَفَها[1] وأقبل عَلَى الأمين ، وقال : يامحمد ؛ ما أنت صانع إن صرف الله إليك أمرَ هذه الأمة ؟ قال : أكون مهديها يا أمير المؤمنين . فقال الرشيد : إن تفعل فأنت أهلٌ لذلك .

ثم أقبل عَلَى المأمون وقال له : يا عبد الله ؛ ما أنت صانع إن صَرَف الله إليك أمرَ هذه الأمة ؟ فابتدرت دموعُ المأمون ، وفطَن الرشيد لما أبكاه ، فلم يملك عينيه فأرسلهما ، وبكى يحيى ؛ فلما قَضَوْا من البكاء أرَبًا[2] بكى الأمين لبكائهم ، فأعاد الرشيدُ المسألة للمأمون . فقال : أعفِني يا أميرَ المؤمنين منْ ذلك . فقال : عزمتُ عليك لتقولنّ ، فقال : إن قدَّر الله ذلك أجعل الحزن شعاراً[3] ، والحزم دِثَاراً ، وسيرة أمير المؤمنين مَشعراً لا تستحلّ حرماته ، وكتاباً لا تبدَّل كلماته .

فأشار إليهما بالانصراف ، فذهبا ، ثم أقبل على يحيى بن خالد فأنشد بيت صَخْر بن عمرو بن الشريد السُّلَمِيّ أخي الخنْسَاء ، وهو قوله :

أَهُمُّ بأمرِ الحزْمِ لو أستطيعُهُ ... وقد حِيلَ بين العيرِ والنَّزَوانِ[4]

فقال يحيى بن خالد : هيأ الله لأمير المؤمنين من أمره رَشداً .

(١) كفكفها : كفها . (٢) الأرب : الحاجة . (٣) الشعار : ما ولى الجسد من الثياب ، والدثار : ما فوق ذلك . (٤) العير : حمار الوحش . النزوان : الوثوب . والبيت مثل ، وأول من قاله صخر .

١٧٠ ـ قمرا مجد فوق خلافة *

قال الكسائى [1] :

دخلت على الرشيد ، فلما قضيت حق التسليم والدعاء ، وثبت للقيام ، فقال : اقعد ، فلم أزل عنده حتى خف عامة من كان فى مجلسه ، ولم يبق إلا خاصته ، فقال لى : يا على ؛ ألا تحب أن ترى محمداً وعبد الله [2] ! قلت : ما أشوقنى إليهما يا أمير المؤمنين ، وأسرنى بمعاينة نعمة الله على أمير المؤمنين فيهما .

فأمر بإحضارهما ، فلم ألبث أن أقبلا كوكبى أفق ، يزينهما هدوء ووقار ، وقد غضا أبصارهما ، وقاربا خطوهما ، حتى وقفا على باب المجلس ، فسلما على أبيهما بالخلافة ؛ ثم قالا : تمم الله على أمير المؤمنين نعمه ، وشفعها بشكره ، وجعل ما قلده من هذا الأمر أحمد عاقبة ، ولا كدر عليه ما صفا ، فقد صرت للمسلمين ثقة ؛ إليك يفزعون فى أمورهم ، ويقصدون فى حوائجهم .

فأمرهما بالدنو منه ؛ فصير محمداً عن يمينه وعبد الله عن يساره ، ثم التفت إلى فقال : يا على ؛ ما زلت ساهراً مفكراً فى معانى أبيات قد خفيت على ! قلت : إن رأى أمير المؤمنين أن ينشدنيها ! فأنشدنى :

قد قلت قولاً للغراب إذا حجل   عليك بالقود المسانيف الأول

* تغد ما شئت على غير عجل *

---

* المسعودى : ٢ ـ ٢٧١ ، معجم الأدباء : ١٣ ـ ١٧٣ ، المحاسن والمساوى : ٤٤٠ .

(١) اسمه على بن حمزة وأصله من فارس أشهر نحاة الكوفة وأحد القراء السبعة ، استقدمه الخلفاء العباسيون ليعلم أبناءهم ، وألف كثيراً من الكتب فى النحو والقراءات والأدب والنوادر ، توفى سنة ١٨٩ هـ . (٢) محمد الأمين وعبد الله المأمون ابنا الرشيد .

فقلت : نعم يا أمير المؤمنين ؛ إن العِير[1] إذا فَصَلَتْ من خَيْبر ، وعليها التمرُ ، يقع الغرابُ على آخر العِير فيطرُدُها السَّواق ؛ يقول : تقدَّم إلى أوائل العير ؛ فـكلْ على غير عجل . والقُود : الطِّوال الأعناق . والمسَانيف : المتقدِّمة .

ثم أنشدنى :

وإنّى وإنْ عشَّرْتُ من خَشْيةِ الرَّدَى نُهَاقَ حمـــار إنّنى لجزوعُ[2]

قلت : نعم يا أمير المؤمنين ؛ كان الرجل من العرب إذا دخـل خَيْبَرَ أكبَّ على أربع، وعشّر تعشيرَ الحمار ؛ وهو أن يَنْهَق عشر نهقات متتابعات ، يفعل ذلك ليدفع عن نفسه حُمّى خيبر .

ثم أنشدنى قول الآخر :

أجاعِلٌ أنتَ بيقُورا مُضرَّمةً ذريعـةً لك بينَ اللهِ والمطرِ[3]

قلت : نعم ، كانت العرب إذا أبطأ المطر شـدَّت العُشَر[4] والسَّلَعَ ، وهما ضربان من النبت فى أذناب البقر وألهبـوا فيه النـار ، وشرَّدوا البقر تفاؤلا بالبرق والمطر .

ثم أنشدنى لرجل آخر .

وسِرْبٍ مِلاحٍ قد رأيتُ وجوهَهمْ إناثٌ أَدَانِيه ، ذُكورٌ أواخِرُهْ

فقلت : إنه يعنى الأضراس .

ثم أنشدنى قول الآخر :

فإنى إذَن كالثور يُضْرَبُ جَنْبُهُ إذا لم يَعَفْ شرْباً وعافَتْ صَوَاحِبُهْ

قلت : نعم ، كانت العرب إذا أوردت البقرَ ، فشربت الثـيران وأبتِ البقر ضربت الثيران حتى تشربَ البقر ، وهو كما قال: « كالثور يُضربُ لما عافت البقر » .

---

(١) العير : الإبل التى تحمل الميرة . (٢) البيت لعروة بن الورد . (٣) اسم جمع لبقرة ، وفى اللسان : « مسلعة » بدل مضرمة ، والبيت للورل الطائى (٤) شجر لم يقتدح الناس فى أجوده .

ثم أنشدنى :

بِمُنْحَدِرٍ من رَأْسِ بَرْقَاءَ حَطَّهُ تَذَكُّرُ بَيْنٍ من حبيب مُزَايِلِ

قلت : نعم ، يعنى الدموع . والبرقاء : العين ؛ لأن فيها سواداً و بياضاً . وحطّه : أساله ، وحبيب : محبوب ، ومزايل : مفارق .

فوثب الرشيد فجذبنى إلى صدره ، وقال : لله درّ أهل الأدب ! ثم دعا بجارية ، فقال لها : احملىَ إلى منزل الكسائى خَمْسَ بِدَر على أعناق خمسة أعبد يلزمون خِدْمته .

ثم قال لى : استنشدها ــ يعنى ابنيه ــ فأنشده محمد الأمين :

وإنّى لعَفٌّ الفقرِ مُشْتَرَكُ الغنَى وَتَارِكُ شَكْلٍ لا يُوافِقُه شَكْلِى
وَشَكْلِى شَكلٌ لا يقوم بمثله من الناس إلا كلُّ ذى نيقَةٍ مِثلِى[1]
ولى نيقةٌ فى المجد والبذْل لم يكن تأنّقها فيما مضى أحدٌ قبلِى
وأجعلُ مالى دُونَ عِرْضى جُنّةً لنفْسى وأسْتَغنى بما كان من فضلى

وأنشدنى عبد الله المأمون :

بكرَتْ تلومُك مَطلعَ الفجرِ ولقد تلُومُ بغير ما تَدْرِي
ما إن ملكتُ مصيبةً نزلَتْ إذ لا يُحكِّم طائعاً أمْرِى[2]
مَلكُ الملوكِ علىّ مُقْتَدِرٌ يعطى إذا ماشاء من يُسْرِ
فلربَّ مُغتبطٍ بمَرزِئةٍ ومُفَجَّعٍ بنوائبِ الدهْرِ
ومُكاشِحٍ لى قد مَددت له نَحراً بلا ضَرَعٍ ولا غَمرٍ[3]
حتى يقول لنفسه لهفاً فى أىّ مذْهبِ غايةٍ أجرِى

---

(١) النيقة اسم من تنوق فى الأمر : تجود وتأنق فيه . (٢) حكم الأمر : أحكمه .
(٣) الضرع : من ضرع : إذا ذل وخضع . والغمر: من لم يجرب الأمور ، وبالتحريك : الحقد

وترى قَنـاَتى حين يغمِزُها   غَمْزَ الثِّقَاف بطيئةَ الـكسرِ

ثم أمرنى أن أسألهماَ ، ففعلت ؛ فـا سألتُهما عن شىء إلا أحسناَ الجوابَ فيه والخروج منه ، فسُرَّ بذلك الرشيد ، حتى تبيَّنته فيه ، ثم قال . ياعلىُّ ؛ كيف ترى مذهبَهما وجوابهما ؟ فقلت : ياأمير المؤمنين ؛ هما كما قال الشاعر :

أرى قمرىْ مجدٍ وفرعىْ خلافةٍ   يزينهما عرقٌ كريم ومَحْتِدُ

يَسُدّان آفاقَ السماء بِشيمةٍ   يؤيدُها حزمٌ وعَضْبٌ مُهنَّدُ

سَلِيلَىْ أمير المؤمنين وحائزَىْ   مواريث ماأبقى النبىُّ محمـدُ

يا أمير المؤمنين ، هما فرعٌ زَكا أصله ، وطاب مَغْرِسه ، وتمـكنت فى الثرى عرُوقه ، وعذُبتْ مشار به ، أبوهما ملكٌ أغرّ ، نافذ الأمر ، واسع العلم ، عظيم الحلم ، فهما يستضيئان بنوره ، وينطقان بلسانه ، ويتقلَّبان فى سعادته ، فأمتع الله أمـير المؤمنين بهما ، وآنس جميع الأمة ببقائه وبقائهما ! فما رأيت أحداً من أولاد الخلفاء وأغصان هذه الشجرة المباركة أذْرَبَ[1] منهما لسانا ، ولا أعذبَ كلاما ، ولا أحسنَ ألفاظاً ، ولا أشدَّ اقتداراً على تأدية ماحفظا ورويا ؛ ودعوتُ لهما دعاء كثيراً ، وأمَّن الرشيد على دعائى ، ثم ضمهما إليه ، وجميع يدَيه عليهما فلم يبسطها حتى رأيتُ الدموع تنحدر على صدره ؛ رقةً عليهما وإشفاقا . ثم أمرهما بالخروج .

فلمّا خرجا أقبل علىّ ، فقـال : كأنك بهما ــ وقد حُمَّ القضاء ، ونزلت مقاديرُ السماء ، وبلغ الـكتابُ أجله ، وانتهى الأمرُ إلى وقته المحدود ، وحينه المسطور ، الذى لا يدفعه دافع ، ولا يمنع منه مانع ــ قد تشتَّت أمرهما ، وافترقت كلمتهما ، وظهر تعاديهما ، ثم لم يبرح ذلك بهمـا حتى تسفكَ الدماء ، وتـكثر القتلى ، وتُهتك سُتور النساء ، ويتمنَّى كثيرٌ من الأحياء أنهم فى عداد الموتى ! قلت : أيكون ذلك

---

(١) الذرب : الحديد اللسان .

ياأمير المؤمنين لأمر رأيته ، أو لرؤيا ؛ أولشىء تبيَّن لك فى أصل مولدها ، أو لأثر وقع لأمير المؤمنين فى أمرها ؟ فقال : لا ؛ بل أثر صحيح ؛ حملته العلماء ، عن الأوصياء عن الأنبياء !

١٧١- قـرَّتَا عَـيْن*

قال محمد بن عبد الرحمن الهاشمى (١) :

كانت أمُّ جعفر بن يحيى تزورُ أمّى ؛ وكانت لبيبةً من النساء ، حازمة فصيحة بَرْزَةً (٢) يُعجبنى أن أجِـدَها عند أمّى فأستـكثرَ من حـديثها ؛ فقلت لها يوماً : ياأمّ جعفر ؛ إن بعضَ الناس يفضِّل جعفراً على الفضل ، و بعضهم يفضّل الفضل على جعفر ، فأخبريني . فقالت : مازلْنا نعرفُ الفضلَ للفضل . فقلت : إنّ أكثرَ الناس على خلاف هـذا . فقالت : سأحدِّثك واقضِ أنت ـ وكان ذلك الذى أردتُ منها .

قالت : كانا يوماً يلعبان فى دارى ، فدخل أبوهما فدعا بالغِذاء وأحضرهما به فطعما معه ، ثم آنسهُما بحديثه وقال لهما : أتلعبان بالشِّطْرَنج ؟ فقال جعفر ـ وكان أجْرَأهما : نعم ! قال ؛ فهل لاعبتَ أخاك بها ! قال جعفر : لا . قال : فالعبا بها بين يدىَّ لأرى لمن الغَلَب ، فقال جعفر : نعم ! وكان الفضلُ أبصرَ منه بها ، فجىء بالشِّطْرَنج ، فصُفَّتْ بينهما ، وأقبل عليها جعفر ، وأعرض عنها الفضل .

فقال له أبوه : مالك لا تُلاعب أخاك ؟ فقال : لا أحبُّ ذلك . فقال جعفر : إنه

---

* أنباء نجباء الأبناء : ١٣٠

(١) هو محمد بن عبـد الرحمن صاحب صلاة الـكوفة . (٢) البرزة من النساء : التى تظهر للناس ويجلس إليها القوم ، وهى مع ذلك عفيفة عاقلة .

يرى أنه أعلم بها منّي فيأنف من مُلاعبتي ؛ وأنا ألاعبه مُخاطرة [١] .

فقال الفضل : لا أفعل . فقال أبوه : لاعبْه وأنا معك . فقال جعفر : رضيتُ ، وأبى الفضل واستعفى أباه فأعفاه .

ثم قالت لى : قد حدّثتُك فاقض ، فقلت : قد قضيتُ بالفضل لجعفر على أخيه . فقالت : لو علمتُ أنك لا تحسن القضاء لما حكّمتك ، أفلا ترى أن جعفراً قد سقط أربع سقطات تنزّه الفضلُ عنهنّ . فسقط حين اعترفَ على نفسه بأنه يلعب بالشِّطرنج ، وكان أبوه صاحب جِدّ . وسقط فى التزام مُلاعبة أخيه ، وإظهار الشهوة لغَلَبه ، والتعرُّض لغضبه . وسقط فى طلب المقامرة وإظهار الحرْص على مال أخيه . والرابعة قاصِمة الظَّهر حين قال أبوه لأخيه : لاعبه وأنا معك ، فقال أخوه : لا ، وقال هو : نعَم ؛ فناصب [٢] صفًّا فيه أبوه وأخوه .

فقلت : أحسنت والله ، وإنك لأقضَى من الشَّعْبىّ [٣] ! ثم قلت لها : عزمت عليك أخبرينى ؛ هل خفِىَ مثل هـذا على جعفر وقد فَطن له أخوه ؟ فقالت : لولا العَزْمةُ [٤] لما أخبرتك ، إن أباهما لما خرج قلتُ للفضل خاليةً به : مامنعك من إدخال السرور على أبيك بملاعبة أخيك ؟ فقال : أمران : أحدهما لوْ لاعبتُه لغلبتُه فأخجلتُه ، والثانى قول أبى : لاعبه وأنا معك ؛ فما يسرُّنى أن يكون أبى معى على أخى . ثم خلوْت بجعفر فقلت له : يسأل أبوك عن اللعب بالشِّطرنج فيصمُتُ أخوك وتعترفُ ، وأبوك صاحبُ جِدّ ! فقال : إنى سمعت أبى يقول : نِعْم لَهْوُ البال المكدود [٥] ! وقد علم ما نلقاه من كدِّ التعلّم والتأدّب ، ولم آمن أن يكون بلغه أنّا

(١) المخاطرة : المراهنة . (٢) ناصب الصف : وقف إزاءه وعاداه . (٣) الشعبى : أحد رجال الحديث والقضاء . (٤) عزم عليه : أقسم ، وعزمت عليك : أى أمرتك أمرا جدا ، وهى العزمة .

(٥) كده : أجهده وأتعبه .

نلعبُ بهـا وأن يُبادر فينـكر ، فبادرتُ بالإقرار إشفاقاً على نفسى وعليه ؛ وقلت: إن كان توبيخٌ فدَيتُه من المواجهة به .

فقلت له : يا بُنيَّ ؛ فلِمَ تقول ألاعبه مخاطرة ؟ كأنك تقامر أخاك وتستـكثر ماله ! فقال : كلّا ، ولـكنه يستحسن الدواة التى وَهبها لى أميرُ المؤمنين فعرضتُها عليه ؛ فأبى قبولها ، وطمِعتُ أن يلاعبنى فأخاطره عليهـا ، وهو يغلبنى فتطيبُ نفسه بأخذها .

فقلت لها : يا أمّاه ؛ ما كانتْ هذه الدواة ؛ فقالت : إن جعفراً دخل على أمير المؤمنينَ فرأى بين يديه دواةً من العقيق الأحمر محلاةً بالياقوت الأزرق والأصفر ، فرآه ينظرُ إليها فوهبها له . فقلت : إيه .

فقالت : ثم قلت لجعفر : هبك اعتذرتَ بمـا سمعتُ ؛ فمـا عذرُك من الرضا بمناصبة أبيك حين قال : لاعبه وأنا معك ؟ فقلت أنت : نعم ، وقال هو : لا.فقال: عرفتُ أنه غالبى ، ولو فتر لعبُه لتغالبتُ معه ، مع ما له منَ الشرف والسرور بتحيُّز أبيه إليه .

قال محمد بن عبد الرحمن : فقلت : بخٍ بخٍ [1] ! هذه والله السيادة ! ثم قلت لها : يا أمّاه ، أكان منهما من بلغَ الحُلُمَ ؟ فقالت : يا بنى ، أين يُذهبُ بك ؟ أُخبرك عن صبيين يلعبان فتقول : أكان منهما من بلغ الحـلم ! لقد كنّا ننهى الصبيَّ إذا بلغ العشر وحضر مَن يُستحى منه أن يتبسّم !

---

(٢) يقال : بخ بخ ، إعجابا بالشىء وإظهارا للسرور به .

١٧٢ - حيلة والٍ *

بلغ الرشيد أن موسى بن عيسى (١) - وكان أميراً عَلَى مصر من قِبَله - عازم على خَلعه ، فقال : والله لأعزلنّه بأخَسِّ مَنْ على بابى ! وقال ليحيى بن خالد (٢) : اطلب لى كاتباً عفيفاً يصلح لعمل مصر ، واكتم خبره ، فلا يشعر به موسى حتى يَفْجَأَه ، فقال : قد وجدته ، قال : من هو ؟ قال : عمر بن مهران (٣) .

فكتب له بخطه كتاباً إلى موسى بتسليم العمل إليه ، فسار وليس معه غيرُ غلام أسود على بغل استأجره ؛ ومعه خُرْجٌ فيه قميص وطَيلسان (٤) وخُفّ !

فلمّا وصل إلى مصر نزل خاناً ، فأقام فيه ثلاثةَ أيام يبحث عن أخْبار البلد ، وعمّن فيه من العمال ؛ وأخبر من كانوا بجواره فى الخان أنه قد وُلّى مصر ؛ واستعمل منهم كاتباً وحاجباً وصاحبَ شرطة ، وقلّد آخر بيت المال ؛ وأمر من تبعه ووَثق به أن يدخلَ معه على موسى ، فإذا سمعوا حركة فى دار الإمارة قبضوا على الديوان .

فلما أبرمَ أمره بكر إلى دار الإمارة ؛ فأذن موسى للناس إذناً عاماً ، فدخل فى جملتهم ومن اتّفق معهم ، وموسى جالس فى دَسْته (٥) ، والقوّادُ بين يديه ، وكلُّ منْ قُضِيتْ حاجتُه ينصرف . وعمرُ جالس ، والحاجبُ ساعة بعد ساعة يسأله عن حاجته ، وهو يتَغَافَلُ ، حتى خفّ الناس ، فتقدّم ، وأخرج كتابَ الرشيد ودفعه

---

* غرر الخصائص : ٤٤ ، النجوم الزاهرة : ٢ — ٧٨ :

(١) هو موسى بن عيسى الأمير العباسى ، ولى إمرة مصر على الصلاة سنة ٢٧١ هـ ، ثم عزله الرشيد وولاه ثانية سنة ١٧٤ هـ وعزل سنة ١٧٦ هـ ، وكان عاقلا جواداً ممدوحاً . (٢) يحيى ابن خالد : وزير هارون الرشيد . (٣) كان عمر قائداً للجيش كاتباً للخراج كما كان مديراً لأملاك الدولة . (٤) الطيلسان : نوع من الأكسية .

(٥) الدست : صدر البيت .

لموسى ؛ فقبّله ووضعه على رأسه ، ثم فتحه وقرأه فانتُقِـعَ [1] لَوْنُه ؛ وقال : السمع والطاعة .

ثم قال : أقرئْ أبا حفص السلام ، وقل له : كُنْ بموضعك حتى نتّخذَ لك منزلًا ، ونأمر الجند يستقبلونك ! أنا عمر بن مهران ، وقد أمرنى أميرُ المؤمنين أن أقيمك للناس وأُنْصِف المظلوم منك ، وأنا فاعل ماأمرنى به أميرُ المؤمنين !

فقال له موسى : أنت عمر بن مهران ! قال : نعم ! قال : لعن الله فرعون حيث قال : أليس لى ملكُ مصر ؟ واضطرب المجلس .

فقبض على الديوان ؛ ونزل موسى عن فرشه ، وقال : لا إله إلا الله ! هكذا تقوم الساعة ! ماظننتُ أن أحداً بلغ مِن الحيلة والحزم مابلغت ؛ تسلمت منى العمل ، وأنت فى مجلسى !

ثم نهض عمر إلى الديوان ، ونظر فيه ، وأمر ونهى ، وعزل وولّى .

---

(١) انتقع لونه : تغير .

١٧٣ـ اعطِني على قَدرِي

دخل رجلٌ بدويٌّ عليه شَعَثُ السفر ، على داود [١] المهلّبي ـ وكان إذا حضرَ الطَّعَامُ يتقدّمُ بِصَرْف البوّابين ، ولا يمنعُ من الوصول إلى طعامه ـ فلما فرغ من الطعام وثب قائماً وأومى إليه ، وقال : من أنتَ يا فتى ؟ قال : شاعر قَصَدْتُكَ بأبياتٍ من الشعر . قال داود : مهلًا قليلًا ، ثم دعا بقوس فأوْتَرها [٢] ، وأومى إليه ، وقال له : قل ، فإن أنت أحسنتَ خلعتُ وأجزَلْتُ ، وإن أخطأتَ رميتُك بهذا السهم يقع فى أى موضعٍ يقع فيه ؛ فتبسّم البدوىّ ، وقال :

أمنتُ بداودٍ وجُودِ يمينه ... من الحدثِ المرهوبِ والبُؤسِ والفقرِ
وأصبحتُ لا أخشى بداود نَبْوَةً ... ولا حَدَثَانًا إن شَدَدْتُ به أَزْرِى
له حكمُ لُقْمَانٍ وصورةُ يوسف ... ومُلْكُ سليمانٍ وصدقُ أبى ذَرٍّ
فتى تهرُب الأموال من جُودِ كفّه ... كما يهرُب الشيطانُ من لَيْلَةِ القَدْرِ
فَقَوْسُك قوسُ الجود، والوترُ الندى ... وسَهْمُك فيه الموت ، فاقتل به فقرى

فضحِك داود ورمَى بسهمه مع القوس من يده ، وقال : يافتى العرب ؛ بالله هل كان ذكرُ القوس فى الأبيات ؟ فقال : لا والله ! ففرح بذلك ، وقال : يا فتى

---

* المختار من نوادر الأخبار ـ مخطوط .

(١) هو داود بن يزيد بن حاتم المهلبي أمير من الشجعان العقلاء ، كان والياً على إفريقية ، وبقى فى إمارتها تسعة أشهر ، ثم ولاه الرشيد السند ، فاتسقت له أمورها ، واستمر بها الى أن توفى سنة ٢٠٥ هـ . (٢) أوتر قوسه : جعل لها وتراً .

العرب ؛ بالله أيما أحبّ إليك : أُعطيك على قَدْرِك أم على قَدْرِى ؟ قال : بل على قَدْرى ! قال : كم على قَدْرك ؟ قال : مائة ألف درهم ، فأمر له بها .

ثم قال : ما منعك أن تقولَ على قدرى ؟ فقال : أيها الأمير ؛ أردتُ أن أقول ذلك ، فإذا الأرض لم تُساوِ قَدْرَ الأمير ، فطلبتُ على قدرى ! فقال : لله درُّك ! والله إنّ نَثْرَكَ لأحسنُ من نظْمِك ! وأمر له بمائة ألفٍ ثانية ، وأمره ألا يَنْقَطِعَ عنه .

١٧٤ ـ طاهر بن الحسين والمأمون *

لما انقبض طاهر[1] بن الحسين بخراسان عن المأمون ، وأخذ حِذره أدَّب له المأمون وَصيفاً[2] بأحسنِ الآداب ، وعلّمه فنونَ العلم ، ثم أهداه إليه مع ألطاف كثير من طرائف العراق ، وقد واطأه على أن يَسُمّه ، وأعطاه سُمّ ساعة ، ووعده على ذلك بأموالٍ كثيرة .

فلما انتهى إلى خراسان ، وأوصل الهديَّةَ قَبِل طاهر الهديّة ، وأمر بإنزال الوصيف فى دار ، وأَجْرَى عليه مايحتاجُ إليه من التَّوْسعة ؛ وتركه أشهراً .

فلما برم الوصيف بمكانه كتب إليه :

ياسيدى ؛ إن كنتَ تقبلنى فاقْبلنى ، وإلا فردَّنى إلى أمير المؤمنين !

فأرسل إليه ، وأمر بإدخاله ؛ فلما انتهى إلى باب المجلس الذى كان فيه أمره بالوقوف عند باب المجلس ، وقد جلس على لِبْدٍ أبيض وقرَعَ[3] رأسه ، و بين يديه مصحفٌ منشور ، وسيفٌ مسلول . فقال : لقد قبلنا مابعثَ به أميرُ المؤمنين غيرَك ؛ فإنا لا نقبلك ، وقد صرفناك إلى أمير المؤمنين ، وليس عندى جوابٌ أكتُبه إلا ما ترى من حالى ، فأبلغ أميرَ المؤمنين السلام ؛ وأعلمه بالحال التى رأيتَنى فيها .

---

* العقد الفريد : ١ ــ ٢٥٩ .

(١) كان طاهر بن الحسين أكبر من اشتهر فى عهد المأمون بقيادة الجيوش ويمن النقيبة وبعد الصيت ، وهو الذى قتل الأمين سنة ١٩٨ هـ ولاه المأمون خراسان ، وكان مستقلا بها ، يؤدى الخراج عن عمله بها ، وتغير عليه المأمون حينما بلغه أنه امتنع عن الدعاء له على المنبر ، وتوفى بمرور سنة ٢٠٧ هـ (٢) الوصيف : الخادم والخادمة . (٣) قرع راسا : ضربه بالعصا .

فلمّا قدم الوصيف على المأمون ، وكلّمه بما كان من أمره ، ووصف له الحال التي رآه فيها شاور وزراءه في ذلك ؛ وسألهم عن معناه فلم يعلمه واحدٌ منهم ، فقال المأمون : لكني قد فهمت معناه : أمّا نقر يده رأسه وجلوسه على اللِّبْدِ الأبيض فهو يخبرنا أنه عبد ذليل . وأما المصحفُ المنشور فإنه يذكّرنا بالعهود التي له علينا ، وأما السيفُ المسلول فإنه يقول : إن نكثتَ تلك العهود فهذا يحكم بيني و بينك . أغلقوا عنّا بابَ ذكره ، ولا تهيجوه في شيء ؛ فلم يهجه المأمون حتى مات !

١٧٥ـ هِمْتُ بالأوطانِ وَجْدًا بِهَا *

سمع طاهرُ بن الحسين عوف بن مُحَلِّم(١) الخزاعي ينشد شعراً يقول فيه :

عَجِبتُ لحرَّاقةِ ابن الُحسَيْــنِ كيف تَعُومُ ولا تَغرَقُ
وبَحْرانِ : مِن تحتِها واحِــدٌ وآخرُ من فوقِهـا مُطبِقُ
وأعجبُ من ذاك عيـدانهـا وقد مسَّها كيف لا تُورِقُ !

فأدخله ، وأنشده إياها ؛ ثم اختصَّه بمنادمته ؛ واختاره لمسامرته ؛ وكان لايخرج في سفرٍ إلا أخرَجه معه ؛ وجعله زميلَه وأنيسَه وعـديله ، وكان عوف يستأذنه في الانصراف إلى أهله ووطنه ، فلا يأذن له ، ولا يسمحُ به ، فلما مات طاهرٌ ظنَّ أنه قد تخلَّص ؛ وأنه سيتركه يلْحَقُ بأهله ، ويرجع إلى وطنه ، فقرَّبه عبد الله بن طاهر من نفسه ؛ وأنزَلَه منزلتَه من أبيه ـ وكان عبد الله أديباً فاضلا عالمًا بأخبار الناس ـ فلما وقف على أدب عوف وفضله تمسَّك به ؛ وأفْضَلَ عليه حتى كَثُرَ ماله ، وحَسُنَ حالُه ، وتلطَّفَ بجهـده أن يأذنَ له عبدُ الله في العودِ إلى وطنه ، فلم يكن إلى ذلك سبيل !

وحَفَزه الشوقُ إلى أهله ، وأهمَّه أمرُهم ، فاتفق أن خرج عبد الله من بغداد يريد خراسان ، فصيَّرَ عوفاً عَدِيله(٢) ، يستمتع بمسامرته ، ويرتاحُ إلى محادثتـه ، إلى أن دنا من الرَّيّ(٣) ؛ فلما شارفها سمع صوتَ عَنْدَليب يغرِّد بأحْسنِ تغريد ،

* معجم الأدباء : ١٦ ـ ١٤٠ .

(١) أحد العلماء الأدباء الرواة الندماء الشعراء ، اختصه طاهر بمنادمته فبقي معـه ثلاثين سنة لا يفارقه . وتوفي نحو سنة ٢٢٠ هـ .

(٢) عديله : يقال عادله في المحمل ، أي ركب معه . (٣) كانت مدينة عظيمة فتحها نعيم بن مقرن في خلافة عمر ، وهي الآن أطلال على مسافة خمسة كيلومترات من طهران

وأَشْجَى صوت ؛ فأعجب عبدُ الله بصوته ، والتفت إلى عوف بن محلِّم ، فقال له : يابن مُحَلِّم ؛ هل سمعتَ قطُّ أشْجَى من هذا الصوت وأطْرَبَ منه ؟ فقال : لا والله أيها الأمير ! و إنه لحسنُ الصوت شَجِيّ النَّغَمةِ ، مُطْرِبُ التغريد ، فقال عبدالله: قاتَلَ اللهُ أبا كَبِيرٍ حيث يقول :

أَلَا يا حَمَامَ الأَيكِ إلْفُكَ حاضِرٌ وغُصْنكَ مَيَّادٌ ففيم تنوحُ

أَفِقْ لَا تَنُحْ من غير شىء ! فإنّنى بكيتُ زمانًا والفؤادُ صحيحُ

وَلوعًا[1] فشطَّتْ غُربةً دارُ زينَبٍ فهأنَا أبكى والفؤادُ قريحُ

فقال عوف : أحسَنَ واللهِ أبو كبير وأجاد . ثم قال : أصلح الله الأمير ؛ إنه كان فى الهُذَليين مائةٌ وثلاثون شاعراً ، مافيهم إلا مُفْلق ، وما كان فيهم مثلُ أبى كبير ؛ فإنه كان يُبْدعُ فى شعره ، ويُفهِمُ آخر قوله وأوله ، وما شىء أبلغ فى الشعر من الإبداع فيه !

قال عبد الله : أقسمتُ عليك إلا أجزْتَ شعرَ أبى كبيرٍ ! قال عوف : أصلحَ الله الأميرَ ! قد كَبِرَت سنّى ، وفنِى ذِهْنى ، وأنكَرْتُ كلَّ ما كنتُ أعرفُه ! قال عبد الله : سألتُك بحقٍّ طاهرٍ إلّا فعلت ! وكان لايُسْأَلُ بحق طاهر شيئاً إلّا ابتَدَر إليه . فلما سمع عَوْفٌ ذلك أنشأ يقول .

أفى كلِّ عامٍ غرْبة ونزُوحُ أمَا للنّوَى من ونْيَةٍ[2] فَتُريحُ !

لقد طَلّحَ[3] البينُ المُشتُّ ركائبى فهل أرينَّ البينَ وهو طليحُ

وأرّقَنِى بالرَّىّ نوحُ حمـــامةٍ فنُحْتُ وذو البثِّ الغريب ينوحُ

على أنها ناحَتْ ولم تُذْرِ[4] دَمْعةً ونُحْتُ وأسرابُ الدُّموعِ سُفُوحُ

---

(١) ولوعا : مصدر ولع به : استخف شوقاً .

(٢) الونية : الفترة . (٣) طلح : أعيا . (٤) لم تذر : لم ترسل من عينها دمعة ، وأسراب الدموع : جماعاتها . سفوح : مصدر سفحت الدمع كمنعت : صببته ، أو سفح الدمع : انصب

وناحَتْ وفرْخاها بحيثُ تراهما ومن دون أفراخي مَهــامِهُ فِيحُ
ألا يا حَمامَ الأيْكِ إلْفُكَ حاضِرٌ وغُصْنُكَ مَيَّادٌ ففيم تنــوحُ!
عَسى جودُ عبدِ الله أن يعكِسَ النوى فيُلقِي عصا التَّطْوَافِ وهي طريحُ[1]
فإنّ الغنى يُدْني الفَتَى من صَدِيقه وعُدْمُ الغِنى بالمُقْـتِرِينَ طَرُوحُ[2]

فاستَعْبَرَ[3] عبد الله، ورقّ له وجرتْ دموعه، وقال له: واللهِ إني لضَنِينٌ بمفارقتك، شحيح على الفائت من مُحاضَرَتك، ولكنْ والله لا أعمَلْتَ معي خُفًّا ولا حافراً إلا راجعاً إلى أهلك، ثم أمرَ له بثلاثين ألف درهم. فقال يمدح عبد الله وأباه:

يابنَ الذي دانَ له المشْرِقان وأُلبِسَ الأمْنَ به المَغْرِبان[4]
إن الثمانين — وبُلِّغْتَهــا — قد أحْوَجَتْ سمعي إلى تَرْجُمان
وأبْدَلتْني بالشَّطَــاطِ الحَنَــا وكُنْتُ كالصَّعْدَةِ تحت السِّنان[5]
وعوَّضَتْنِي من زَمَاعِ الفَتى وهمّتي همَّ الجَبَانِ الهِدَان[6]
وقارَبَتْ مني خُطاً لم تكنْ مُقَـارَبةً وَثَنَتْ مِنْ عِنـانِي[7]
ولم تَدَعْ فِيَّ لمستَمْتَعٍ إلا لِسانِي، وحَسْبِي لِســانِي!
أدْعُو به اللهَ وأُثْني به على الأميرِ المُصْعَبِيِّ الهِجـانِ[8]
وهِمْتُ بالأوطانِ وجـداً بهــا وبالغواني، أينَ مِنِّي الغَوانِي[9]!
فقرِّبانِي — بأبِيَ أنتما — من وطني قبل اصفرار البنـانِ[10]

ثم ودّع عبدالله، وسار راجعاً إلى أهله؛ فمات قبل أن يصل إليهم!

---

(١) التطواف: مصدر طاف: وإلقاء عصا التطواف: كناية عن الاستقرار وترك السفر، وطريح بمعنى مطروح. (٢) طروح: رام وقاذف، صيغة مبالغة. والمقترين: المضيقين على عيالهم في النفقة. (٣) استعبر: جرت عبرته أي دمعته وحزن. (٤) أي يابن من حكم المشرقين، وأحل الأمن في المغربين. (٥) الشطاط: الطول وحسن القوام أو اعتداله. والحنا: الانحناء، يريد تقوس الظهر. والصعدة: المستوية، والسنان: حديدتها. (٦) الزماع: المضاء في الأمر، والزميع: الشجاع الذي يزمع بالأمر، ثم لاينثني عنه، والهدان: الأحمق الثقيل. (٧) العنان: سير اللجام. (٨) الهجان: الحسيب. (٩) همت بالأوطان: أحببتها وتعلقت بها من الوجد والحزن، والغواني: جمع غانية، وهي المرأة الجميلة الناعمة المستغنية بجمالها. (١٠) كناية عن الموت.

١٧٦- فِرَاسَة أعرابى*

قال أبو السَّمْراء :

خرجنا مع الأمير عبد الله بن طاهر متوجّهين إلى مصر ، حتى إذا كنّا بين الرَّمْلَة[١] ودمشق إذا نحن بأعْرابىّ قد اعترض ، فإذا شيخٌ فيه بقيّة ، على بعير له أوْرَق[٢] ، فسلّم علينا فرددنا عليه السلام ، وكان معنا إسحاق بن إبراهيم الرافقى ، وإسحاق بن أبى ربعىّ ، ونحن نسايرُ الأمير ، وكنا يومئذ أفْرَه[٣] من الأمير دَوَابَّ ، وأجودَ منه كُسًا[٤] .

فجعل الأعرابىّ ينظرُ فى وجوهنا ، فقلت : ياشيخُ ؛ قد ألححتَ فى النظر ! أعرفتَ شيئاً أم أنكرته ؟ قال : لا ، والله ماعرفتكم قبل يومى هذا ، ولا أنكرتكم لسوء أراه فيكم ؛ ولكنّى رجلٌ حسنُ الفِرَاسة فى الناس ، جيّدُ المعرفة بهم ؛ فأشرتُ له إلى إسحاق بن أبى رِبْعىّ ، فقلت : ماتقول فى هذا ؟ فقال :

أرى كاتباً دَاهِى الكتابة بينٌ عليه وتأديبُ العراق منيرُ
له حركاتٌ قد يشاهِدْنَ إنه عليم بتقسيط الخراج بصير

ونظر إلى إسحاق بن إبراهيم الرافقى ، فقال :

ومُظهر نُسْكٍ ماعليه ضميره يحبُّ الهدايا بالرجال مَكور

---

* عصر المأمون : ١ ـ ٤١٣ .

(١) الرملة : خمسة مواضع ، أشهرها بلد بالشام . (٢) الأورق من الإبل : ما فى لونه بياض إلى سواد ، وهو من أطيب الإبل لحماً لا سيراً . (٣) دابة فارهة : نشيطة حادة قوية .

(٤) جمع كسوة .

إخال به جبناً وبُخلاً وشيمةً   تُخبِّر عنه إنه لَوَزير

ثم نظر إليّ ؛ وأنشأ يقول :

وهذا نديمٌ للأمير ومُؤنِس   يكونُ له بالقرب منه سرورُ
وأحسبه للشعرِ والعلم راوياً   فبعض نديم مرةً وسميرُ

ثم نظر إلى الأمير ؛ وأنشأ يقول :

وهذا الأمير المرتجى سَيْبُ[1] كَفِّه   فما إنْ له فيمن رأيتُ نظيرُ
عليه رداءٌ من جمال وَهَيْبَةٍ   ووجهٌ بإدراك النجاح بشير
لقد عُصِمَ الإسلامُ منه بذائد[2]   به عاش معروفٌ ومات نكيرُ
ألا إنما عبد الإلهِ بن طاهر   لنا والدٌ برٌّ بنا وأمير

فوقع ذلك مِن عبد الله أحسنَ موقع ، وأعجبه ما قال الشيخ ، فأمر له بخمسمائة دينار ، وأمره أن يصحبه !

---

(١) السيب : العطاء .   (٢) الذائد : الحامى .

١٧٧ - ثابت الجنان*

قال أحمد بن داود :

ما رأيت رجلاً عُرِض على الموت ، ورأى النِّطْع مفروشاً والسيفَ مسلولاً ، ولم يكترثْ لذلك ؛ ولا عَدَل به عما أراد إلّا تميمَ بنَ جميل ؛ وقد كان خرج على المعتصم فى أيام دولتـه ، ونزع يدَه من الطاعة ؛ وانقطع إلى بعض النواحى ؛ وكان قد عظم أمره على المعتصم ؛ ولقد رأيتُه وقد جىء به مكتوفاً أسيراً ، وقد اجتمع الناسُ من الآفاق والنواحى ينظرون كيف يقتُله المعتصم ، وكان المعتصم قد جلس له مجلساً ؛ وأمر الناس بالدخول .

ودخل تميم ، وحضر السيّاف وفرش النِّطْع ، وكان تميمُ جميلَ الوَجه تامَّ الخِلْقة عذْب المنطق ، فرآه المعتصم غيرَ دَهِش ولا مُكترث لما نزل به . فأراد أن يستنطقه ليعلمَ أين عقله فى ذلك الوقت ! فقال له : ياتميم ؛ إن كان لك عذْر فأْت به ، فقال :

أما إذْ أذِن أميرُ المؤمنين ؛ فالحمد لله الذى جبَر بك صدْعَ(١) الدين ، ولَمَّ بك شَعَثَ(٢) المسلمين ، وأنار بك سبيل الحقِ ، وأخمَد بك شِهاب الباطل ؛ إنَّ الذنوبَ ياأميرَ المؤمنين تُخْرِس الألسنةَ الفصيحة ، وتُعيِي الأفئدة الصحيحة ، ووالله لقد كَبُر الذنب ، وعَظُمت الجريرة ، وانقطعت الحجّة ، وساءَ الظن ، ولم يبق إلا عفوُك أو انتقامك ، وأنت الى العفو أقرب ، وهو بك أشبه وأليق ، ثم أنشد:

---

* المختار من نوادر الأخبار — مخطوط ، نهاية الأرب : ٦ : ٦١ .

(١) الصدع : الشق . (٢) الشعث : انتشار الأمر .

أرى الموتَ بين السيف والنِّطْع كامناً ... يُلاحظني مِن حيثما أتلفّتُ
وأكبرُ ظنّي أنك اليوم قاتلي ... وأيُّ امرئٍ مما قضى الله يفْلتُ [1]
وأيُّ امرئٍ يأتي بعذْرٍ وحُجَّة ... وسيفُ المنايا بين عينيه مُصلَت [2]
وما جزَعي من أن أموت وإنني ... لأعلم أنّ الموتَ شيء مُؤَقَّتُ [3]
ولكنّ خلفي صبيةً قد تركتُهمْ ... وأكبادُهم من حَسْرَةٍ تتفتّتُ
كأنّي أراهم حين أنعى إليهمُ ... وقد خَمَشُوا [4] تلك الوجوه وصوّتوا
فإنْ عشْتُ عاشوا سالمين بغبطةٍ ... أذُودُ الرَّدى عنهم، وإن مُتُّ موّتوا [5]

قال : فبكى المعتصم حتى ابتلّت لحيته وقال : إن من البيان لسِحْراً ، ثم قال : ياتميمُ ؛ كاد السيفُ أن يسبقَ العفو ، وقد وهبتك لله تعالى ولِصبيتك ، وغفرت لك الصَّبوة [6] ، ثم أمر بفكّ قيوده ؛ وعقد له الولاية على موضعه الذى كان خرج منه ، ووصله بشيء كثير .

---

(١) أفلت : تخلص ونجا. (٢) أصلت السيف : استله من غمده . (٣) مؤقت : مقدر .
(٤) خمش وجهه : لطمه . (٥) موتوا : كثر فيهم الموت . (٦) الصبوة : الزلة .

١٧٨ - إسحاق الموصلي حكم بين أبيه وابن جامع

أتى إسحاق أباه إبراهيم الموصلي يوماً مسلِّماً فقال أبوه : يا بنيّ ، ما أعلمُ أحداً بلغ من برِّ ولده ما بلغتهُ من برك ، و إني لأستقلُّ ذلك لك ، فهل من حاجة أصيرُ فيها إلى محبَّتِك ! فقال : قد كان - جُعلتُ فداك - كلُّ ما ذكرتَ فأطال الله بقاءك ! ولكني أسألك واحدة : يموتُ هذا الشيخ غداً أو بعد غد ولم أسمعه ، فيقول الناس لي ماذا ؛ وأنا أحلُّ منك هذا المحل ! قال لي : ومَن هو ؟ قلت : ابنُ جامع . قال: صدقت ، يابنيّ أسْرِجُوا [1] لنا .

فجئنا ابن جامع ، فدخل عليه أبي وأنا معه ؛ فقال : يا أبا القاسم ، قد جئتُك في حاجة فإن شئتَ فاشتمني ؛ وإن شئت فاقذفني ، غير أنه لا بدَّ لك من قضائها ، هذا عبدُك وابن أخيك إسحاق قال لي كذا وكذا ، فركبت معه أسألك أن تُسعفه فيما سأل . فقال : نعم ، عَلَى شريطة . تُقيمان عندي أطعمكما مشوشةً [2] وقليّة [3] ، وأسقيكما وأغنّيكما ، فإن جاءنا رسول الخليفة مَضيْنا إليه وإلا أقمنا يومَنا . فقال أبي : السمع والطاعة ! وأمر بالدواب فرُدَّت .

فجاءنا ابن جامع بالمشوشَة والقليَّة فأكلنا وشربنا ، ثم اندفع فغنّانا ، فنظرتُ إلى أبي يقلُّ في عيني ، ويعظُم ابنُ جامع حتى صار أبي في عيني كلا شيء ! فلما

---

* الأغاني : ١ - ٩ .

(١) أسرجوا لنا : شدو على الخيل سروجها لتركبها . .

(٢) المشوشة : زيت يضرب مع بياض البيض فيصنع منه طعام دسم . (٣) القلية : مرقة تتخذ من أكباد الجزر ولحومها .

طربنا غايةَ الطَّرَب جاء رسولُ الخليفة ، فركبا وركبتُ معهما ؛ فلما كنا فى بعض الطريق ، قال لى أبى : كيف رأيتَ ابنَ جامع يابنى ؟ قلت له : أَوَ تُعْفِينى ــ جعلت فداك ! قال: لست أُعْفِيك فقل ، فقلتُ له : رأيتك ــ ولا شيء أكبر عندى منك ــ قد صَغُرْتَ فى عينى فى الغناء معه حتى صرتَ كلا شيء .

ثم مضيا إلى الرشيد ، وانصرفتُ إلى منزلى ــ وذلك لأنى لم أكن بعد وصلت إلى الرشيد ــ فلما أصبحتُ أرسل إلىّ أبى فقال : يابنىّ ؛ هذا الشتاء قد هجم عليك وأنت تحتاجُ فيــه إلى معونة ــ وإذا مالٌ عظيم بين يديه ــ فاصرف هــذا المال فى حوائجك ، فقمتُ فقبَّلْتُ يده ورأسه ، وأمرت بحمــل المال واتبعته ؛ فصوّتَ : يا إسحاق ؛ ارجع ؛ فقــال لى : أتدرى لِمَ وهبتُ لك هــذا المال ؟ قلت : نعم ؛ جعلت فداك ! قال : لِمَ ؟ قلت : لصِدْقى فيك وفى ابن جامع ، قال : صدقت يا بنىّ ؛ امضِ راشداً !

١٧٩ - البُحتُرِي وَأبو تَمّام*

حدَّثَ البُحْتُرِيّ [1] قال . أول ما رأيتُ أباتمام [2] أنّى دخلتَ على أبى سعيد محمد بن يوسف ، وقد مدحتُه بقصيدة فسُرَّ بها أبو سعيد، وقال : أحسنت يا فتى ، وأجدتَ !

وكان فى مجلسه رجلٌ نبيلٌ رفيعُ المجلس فوق من حضر عنده تكاد تمسُّ ركبتُه ركبتَه فأقبلَ علىَّ ، ثم قال : يا فتى ؛ أمَا تَستَحِى منّى ! هذا شعرٌ لى تَنتَحِله وتنشدُه بحضرتى ! قال له أبو سعيد : أحقًّا تقول ؟ قال : نعم ! وإنما أخذه منّى فسبقنى به إليك وزاد فيه . ثم اندفع فأنشد أكثر هذه القصيدة حتى شكَّكَنى - علم الله - فى نفسى و بقيتُ متحيِّراً .

فأقبل علىّ أبو سعيد فقال : يافتى ؛ قد كان فى قرابتك لنا وودِّنا لك مايغنيك عن هذا ! فجعلتُ أحلفُ له بكل مُحْرِجة من الأيمان أن الشِّعرَ لى ما سبقنى إليه أحدٌ ، ولا سمعته منه ولا انتَحَلْته . فلم ينفعْ ذلك شيئاً .

وأطرق أبو سعيد، ثم دنامني حتى تمنيْتُ أنى سُخْتُ فى الأرض ؛ فقمت مُنكسِرَ البال أجرُّ رجلىَّ وخرجت .

فما هو إلا أن بلغت الدارحتى خرج الغلمان فردُّونى . فأقبل علىَّ الرجل فقال:

---

* الأغانى : ١٨ - ١٦٩

(١) هو الوليد بن عبادة الطائى ، كان شاعرا مطبوعا ، قيل : إنه أشهر من استحق لقب شاعر بعد أبي نواس . مات سنة ٢٨٤ هـ (٢) هو حبيب بن أوس ، كان يعد رأس الطبقة الثالثة من شعراء المحدثين ، ولاه الحسن بن وهب بريد الموصل، فأقام بها إلى أن مات سنة ٢٣١ هـ .

الشعرُ لك يابنيّ ، والله ماقلتهُ قطّ ، ولا سمعتهُ إلا منك ؛ ولـكننى ظننتُ أنك تهاوَنتَ فى موضعى ؛ فأقدمتَ عَلَى الإنشاد بحضرتى ، من غير معرفة كانت بيننا ، تريدُ بذلك مضاهاتى ومكاثرتى حتى عرّفنى الأمير نسبك وموضعك . ولوَدِدت ألّا تلدَ أبداً طائيّةٌ إلا مثلك .

وجعل أبو سعيد يضحك ،ودعانى أبو تمام وضمّنى إليه وعانقنى وأقبل يقرِّظُنى. ولزمته بعد ذلك وأخذت عنه ، واقتدَيتُ به .

١٨٠- فِرَاسَة عَضد الدّولَة*

قدم رجل إلى بغداد للحجّ ، وكان معه عِقد يساوى ألفَ دينار ، فاجتهد فى بيعه ، فلم يَنْفُق [(١)] ؛ فجاء إلى عطّار موصوف بالخير ، فأودعه إياه ، ثم حجَّ ، وعاد، فأتاه بهدية ، فقال له العطار : من أنت ؟ وما هـذا ؟ فقـال : أنا صاحب العِقـد الذى أودعتك إياه ؛ فما كلّمه حتى رَفسهُ رَفْسةً رماه عن دُكّانه ، وقال : تدّعى علىّ مثل هذه الدعوى !

فاجتمع الناس ، وقالوا للحاج : ويلك ! هـذا رجل خير ، وما وجدت منْ تدّعى عليه إلا هذا ! فتحيّر الحاج وتردّد إليه ، فما زاده إلا شتما وضرباً . فقيل له : لو ذهبتَ إلى عضد الدولة ؛ فله فى هذه الأشياء فراسة !

فـكتب قصته ، ورفعها لعضـد الدولة ، فصاح به فجاء ، فسأله عن حاله ، فأخبره بالقصة ، فقال : اذهب إلى العطّار بكْرة ، واقعد على دكّته [(٢)] ، فإن منعك

---

* الأذكياء : ٣١ .

(١) نفق ينفق (بضم الفاء) : إذا كثر مشتروه . (٢) الدكة : بناء يسطح أعلاه للقعود .

فاقعد على دكةٍ تقابله من بُكرة إلى المغرب ولا تكلمه ، وافعل هكذا ثلاثة أيام ، فإنى سأمرُّ عليك فى اليوم الرابع ، وأقفُ وأسلم عليك ، فلا تقمْ لى ولا تزدْنى على ردّ السلام ، وجوابِ ما أسألُكَ عنه ، فإذا انصرفتُ فأعدْ عليه ذكر العقد ، ثم أعلمنى مايقولُ لك ، فإن أعطاكه فجئْ به إلىّ .

فجاء إلى دُكّانِ العطار ليجلس فمنعه ، فجلس على دكّةٍ تقابله ثلاثة أيام ، فلما كان فى اليوم الرابع اجتاز عضُد الدولة فى موكبه العظيم ؛ فلما رأى الخراسانىَّ وقف وقال : سلامٌ عليكم ؛ فقال الخراسانى ـ ولم يتحرّك : وعليكم السلام . فقال : ياأخى ؛ تقدمُ فلا تأتى إلينا ولا تعرضُ حوائجك علينا ! فقال : كما اتفق ، ولم يشبعه الكلام ، وعَضد الدولة يسأله ، ويُحفى [1] وقد وقف ، ووقف العسكر كله ، والعطّار قد أُغمى عليه من الخوف .

فلما انصرف التفت العطار إليه . فقال : ويحك ! متى أودعتنى هذا العقد ؟ وفى أىّ شىء كان ملفوفاً ؟ فذكّرْنى لعلى أذكره ؛ فقال : مِنْ صفته كذا وكذا ، فقام وفتش ، ونفض جرّةً عنده ، فوقع العقد ، فقال : قد نسيتُ ، ولو لم تذكّرنى الحال ماذكرت ؛ فأخذ العقد ، ثم قال : وأى فائدة لى فى أن أعلم عضد الدولة ؟ ثم قال فى نفسه : لعله يريدُ أن يشتريه ! فذهب إليه فأعلمه ، فبعث به مع الحاجب إلى دُكان العطار ، فعلق العقد فى عنُق العطّار ، وصلبه بباب الدكان ؛ ونودى عليه : هذا جزاء من استودع فجحد [2] . فلمّا ذهب النهار أخذ الحاجب العقد ، فسلمه إلى الحاج ، وقال : اذهب به !

(١) أحفى السؤال : ردده . (٢) جحد : أنكر .

١٨١ - مَلِكٌ لا تَعْتَصِمُ الطيورُ مِنْه *

قصد المنصورَ بنَ عامر رجل جوهريّ من تجّار المشرق من مدينة عَدَن ، بجوهر كثير وأحجار نفيسة ، فأخذ المنصور من ذلك ما استحسنه ؛ ودفع إلى التاجر الجوهري صُرّته - وكانت قطعة يمانيَة - فأخذ التاجرُ في انصرافه طريقَ الرّملَة على شطّ النهر ، فلمّا توسَّطها واليومُ قائظ ؛ وعرقُه منصبّ ، دعته نفسه إلى التّبرُّدِ في النهر ، فوضع ثيابَه وتلك الصُّرّةَ على الشطّ ، فمرت حِدَأة فاختطفت الصُّرّة ، تحسبها لحماً ، وطارت في الأفق ذاهبةً بها .

فقامت قيامةُ التاجر ؛ وعلم أنه لا يقدرُ أن يستدفعَ ذلك بحيلة ، فأسرَّ الحزنَ في نفسه ، ولحقه لأجل ذلك عِلّةٌ اضطرب فيها ، واستبان للمنصور ما بالرّجل مِن المهانة والكآبة ، وفَقْد ما كان عنده من النشاط وشدة العارضة ، فسأله المنصورُ عن شأنه ، فأعلمه بقصته ، فقال له : هَلّا أتيتَ إلينا حين وقوع الأمر فكنا نستظهرُ على ذلك بالحيلة ! فهل هُديتَ إلى الناحية التي أخَذَ الطائرُ إليها ! قال : مَرّ شرقاً على سَمْت (١) هذا الجبل الذي يلي قصرَك - يعني الرّملة .

فدعا المنصورُ شرطيَّه الخاصّ به ، فقال : جئني بمشيَخة أهل الرملة الساعة ؛ فمضى وجاء بهم سريعا . فأمرهم بالبحث عن غيّر حالَ الإقلال (٢) منهم سريعا ، وانتقل عن الإضاقة دون تدريج ، فتناظروا في ذلك ، ثم قالوا : يا مولانا ؛ ما نعلم إلا رجلًا من ضعفائنا كان يعملُ هو وأولادُه بأيديهم ، ويتناولون السّبق

---

* نفح الطيب : ١ - ١٩٢

(١) السمت : الطريق . (٢) الإقلال : الفقر .

بأقدامهم ؛ عَجْزاً عن شراء دابّة ، فابتاع اليوم دابّةً واكتسى هو وولدُه كُسوةً متوسّطة .

فأمر بإحضاره من الغـد ، وأمر التاجرَ بالغدوّ إلى الباب لحضر الرجلُ بين يدى المنصور فاستَدْناه ، والتاجرُ حاضر ؛ وقال له : سببٌ ضاع منا وسقَطَ إليك ، ما فعلتَ به ؟ قال : هاهو ذا يامولاى ــ وضرب بيده إلى حُجْزَة(١) سراويله ، فأخرج الصُّرة بعينها ــ فصاح التاجر طرباً ، وكاد يطير فرحاً .

فقال له المنصور : صِفْ لى حديثَها . فقال : بينا أنا أعمل تحت نخلة إذ سقطت أمامى فأخذتُها ، وراقنى منظرها ، فقلت : إن الطائر اختلسها من قصرك لقُرْبِ الجوار ، فاحترتُ بها ، ودعتنى فاقتى إلى أخذ عشرة مثاقيل كانت معها مصرورة ، وقلت : أقلُّ ما يكون فى كرم مولاى أن يسمح لى بها .

فأعجب المنصور ما كان منـه ، وقال للتـاجر : خُـذْ صُرّتك ، وانظرها ، واصدقنى عن عددها . ففعل ، وقال : وحَقِّك يا مولاى ، ماضاع منها شىء سوى الدنانير التى ذكرها وقد وهبتُها له .

فقال له المنصور : نحنُ أولى بذلك منك ولا نُنَغِّص عليك فرحَك ، ثمّ أمر للتاجر بعشرة دنانير عوضاً عن دنانيره ، وللرّجل بعشرة دنانير ثواباً له ، وقال : لو بَدَأَنا بالاعتراف قبل البحث لأوْسعْناهُ جزاء !

فأخذ التـاجر فى الثناء على المنصور ، وقد عاوده نشاطُه . وقال : لأبثنّ فى الأقطار عِظَمَ ملـكك ، ولأبيّننّ أنك تملك الطير ، فلا تعتصم منك ، ولا تؤذى جارك !

---

(١) الحجزة من السراويل : موضع التكة .

فضحك المنصور ، وقال : اقصِد فى قولك يغفر الله لك ! فعجب الناس من تلطُّف المنصور فى أمره وحيلته فى تفريج كُرْبته !

١٨٢ ـ صبيٌّ يهجو صَبيًّا *

كان أبو بكر بن المنخّل وأبو بكر الملّاح متآخِيَيْن متصافِيَيْن ، وكان لهما ابنان صَغيران قد بَرعا فى الطلب ، وحازا قَصَب السَّبق فى حَلْبَة الأدب ؛ فتهاجَى الابنان بأقذع الهجاء ، فركب ابن المنخّل فى سَحَر من الأسحار مع ابنه عبد الله ، فجعل يعتب عليه على هجاء الملّاح ، ويقول له : قد قطعتَ ما بينى وبين صديقى وصفِيِّى أبى بكر فى إقْذاعك بابنه !

فقال له ابنه : إنه بدأنى والبادِى أظلم ، وإنما يجب أن يُلْحَى (١) مَنْ بالشرِّ تَقَدَّم ؛ فعذَره أبوه .

فبينما هما كذلك إذ أقبلا على وادٍ تَنِقُّ فيه الضفادع ، فقال أبو بكر لابنِهِ أجِزْ :

تنِق ضفـــادعُ الوادِى

فقال ابنه :

بصوت غـــيرِ معتاد

فقال الشيخ :

كأنَّ نَقيقَ مِقوَلِهـــا

---

* نفح الطيب : ٢ ـ ٣٠١

(١) يلحى : يلام ويعنف .

فقال ابنه :

بنو المَـــــلّاح فى الوادى

فلما أحسّتِ الضّفادع بهما صمَتَتْ ، فقال أبو بكر :

وَتَصْمُتُ مثـلَ صَمْتِهِمْ

فقال ابنه :

إذا اجتمعُوا على زاد

فقال الشيخُ :

فلا غوث لِمَلْهُوفٍ

فقال الابنُ :

ولا غيـــــثٌ لمرتاد !

١٨٣ - رَسُولان *

أقبل المستكفى يوما على محمد بن محمد بن يحيى الكاتب ، فقال له : أتعرِف خبر الحجّاج بن يوسف مع أهل الشام ؟ قال : لا يا أمير المؤمنين ! قال : ذَكَرُوا أنّ الحجّاجَ كان قد اجتَبَى[1] قوماً من أهلِ العراق وَجَدَ عندهم من الكِفَاية مالم يَجِدْ عند مختَصِّيه من الشاميّين ؛ فشقّ ذلك على الشاميّين ، وتكلّموا فيه .

فبلغ إليه كلامُهم ؛ فركب فى جماعة من الفريقين ، وأوغَل بهم فى الصحراء ، فلاح لهم من بُعد قِطارٌ[2] إبل ، فدعا برجلٍ من أهل الشام ، فقال له : امضِ فاعرف ما هذه الأشباح ؟ واستَقْصِ خَبَرها . فلم يلبَثْ أن جاء وأخبره أنها إبل ، فقال : أمحمّلةٌ هى أم غيرُ محمّلة ؟ قال : لا أدرى ؛ ولكنّى أعود وأتعرّفُ ذلك !

وقد كان الحجّاج أتْبعه برجلٍ آخر من أهل العراق ، وأمره بمثل ما كان قد أمر به الشامىّ ، فلمّا رجع العِراقىّ ، أقبل عليه الحجّاجُ ـ وأهلُ الشام يسمعون ـ فقال : ما هى ؟ قال : إبل ، قال وكم عددُها ؟ قال : ثلاثون . قال : وما تحمِل ؟ قال : زَيْتا . قال : من أين صَدَرتْ ؟ قال : مِنْ موضع كذا . قال : ومن رَبُّها ؟ قال : فلان .

فالتفتَ إلى أهل الشام فقال :

أُلَامُ على عَمْرو ولو مات أوْنأى … لَقَلّ الذى يُغْنِى غَنَاءك يا عَمْرو

---

* المسعودى : ٢ ـ ٥٤١ .

(١) اجتباه : اختاره (٢) القطار : أن تشد الإبل على حق ، واحدا خلف واحد .

فقـال ابنُ يحيى : قد قال يا أميرَ المؤمنين بعضُ أهل الأدب فى هذا المعنى :

شرُّ الرسولين من يحتـاجُ مُرْسِلُه ... منه إلى العَوْدِ ، والأمْران سِيَّانِ

كذاكَ ما قال أهل العلم فى مَثَلٍ : ... طريقُ كلِّ أخى جَهْلٍ طريقـان

ثم قال المستـكفى : ما أحسن ما وصف البحترىّ الرسولَ بالذكاء بقوله :

وكأنَّ الذَّكاءَ يَبْعَثُ منه ... فى سَوَادِ الأمور شُعْـلَةَ نار

انتهى الباب الخامس ، وهو آخر الجزء الأول

١ — فِهرِسُ القِصَص

البـــــاب الأول

في القصص التي تستبين بها مظاهر حياتهم، وأسباب مدنيتهم؛ بذكر أسواقهم وأجلاب تجارتهم؛ والمساكن التي كانت تؤويهم، وسائر ما كان على عهدهم من دلائل الحضارة ووسائل المعاش:

البـــــاب الثانى

فى القصص التى تتضمّن معتقداتهم وأخبارَ كُهانهم وكواهنهم، وتبسط ما كانوا يعرفون من حقائق التوحيد والبعث،والدار الآخرة ، وما كانوا يتوسلون به من إقامة الأوثان ، وتعهدها بألوان الزلفى والقرْبان :

البـــــاب الثالث

القصص التى تجلو علومهم ومعارفهم ، وتتوضح منهـا ثقافتهم ، وماكان متداولًا بينهم من مسائل العقل والنقل ؛ التى هدتهم إليها فطرهم ، أو أنهتها إليهم تجاربهم :

البـــــاب الرابع

القصص التى يُرى بها ما كانوا يتغنَّوْن به من المكارم والمفاخر ، وما كانوا يتذمّمون به من المناقص والمعرّات ، سواء أكان ذلك يتعلّق بكل منهم فى نفسه ، أم فيما يتصل بالأقربين من ذويه ، أم فيما يضم أهل قبيلته ، أم فيما يشمل الناس جميعاً :

الباب الخامس

القصص التى تعدد غرائزهم وخصالهم ، فتكشف ماطُبعوا عليه من وفْرة العقل وحدَّة الذكاء ، وصدق الفراسة ، وقوة النفس ؛ وماأهَّلتهم له طبيعة بلادهم، وأسلوب حياتهم من شريف السجايا ، وممدوح الخصال :

٢ — فهرس الأعلام

٣ - فهرس الأماكن

٤ — مراجع القصص

أخبار الأذكياء : لابن الجوزى

أدب الدنيا والدين : للماوردى

أسواق العرب : لسعيد الأفغانى

الأصنام : لابن الكلبى

الأغانى : لأبى الفرج الأصفهانى

أمالى الزجاجى

أمالى أبى على القالى

أنباء نجباء الأبناء : لابن ظفر الصقلى

بدائع البدائه : لعلى بن ظافر الأزدى

البداية والنهاية : لابن كثير

بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب : للألوسى

التجريد الصحيح لأحاديث الجامع الصحيح : للزبيدى

تاريخ الأمم والملوك : لابن جرير الطبرى

ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب : للثعالبى

ثمرات الأوراق : لابن حجة الحموى

الجمهرة : لأبى زيد الخطابى

خزانة الأدب : للبغدادى

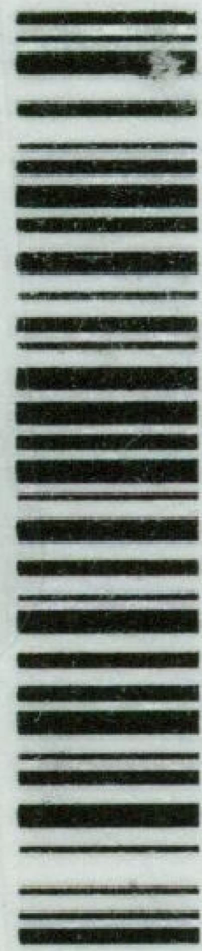
ذيل زهر الآداب : للحصرى

زهر الآداب	: للحصرى
السيرة النبوية	: لابن هشام
السيرة الحلبية	: لنور الدين بن برهام الحلبي
سيرة عمر بن عبد العزيز	: لابن عبد الحكم
شرح ديوان الحماسة	: للمرصفى
شرح المختار من شعر بشار	: للخالدين
شرح نهج البلاغة	: لابن أبى الحديد
عصر المأمون	: للدكتور فريد رفاعى
العقد الفريد	: لابن عبد ربه
العقد الفريد للملك السعيد	: لأبى سالم محمد بن أبى طلحة
عين الأدب والسياسة	: لأبى الحسن على بن هذيل
عيون الأخبار	: لابن قتيبة
غرر الخصائص الواضحة	: لأبى إسحاق الوطواط
الفرج بعد الشدة	: للتنوخى
الكامل فى التاريخ	: لابن الأثير
الكامل فى الأدب	: للمبرد
مجانى الأدب	: للأب لويس شيخو
مجمع الأمثال	: للميدانى
المحاسن والأضداد	: للجاحظ
المحاسن والمساوى	: للبيهقى
محاضرات الأبرار	: لابن عربى
المختار من نوادر الأخبار (مخطوط)	: لمحمد بن أحمد الأنبارى.
مروج الذهب	: للمسعودى

المستطرف فى كل فن مستظرف : للأبشيهى
المطالعة العربية : للمستر و. رابيت بالمتحف البريطانى
معجم الأدباء : لياقوت
معجم البلدان : لياقوت
معاهد التنصيص : لبدر الدين العباسى
المنتقى من أخبار الأصمعى
مهذب الأغانى : للشيخ الخضرى
النجوم الزاهرة : لابن تغرى بردى
نفح الطيب : للمقرى
نقائض جرير والفرزدق : لأبى عبيدة
نهاية الأرب : للنويرى
الوزراء والكتاب : للجهشيارى
وفيات الأعيان : لابن خلكان

٥ — مراجع الضبط والشرح والتحقيق والتراجم

أساس البلاغة	: للزمخشرى
الأعلام	: للزركلى
تاريخ آداب اللغة العربية	: لجورجى زيدان
تاريخ الأمم الإسلامية	: للخضرى
رغبة الآمل من كتاب الكامل	: للمرصفى
شرح ديوان الحماسة	: للمرصفى
سمط اللآلى	: للبكرى
طبقات الشعراء	: لابن سلام
الشعر والشعراء	: لابن قتيبة
الفاخر	: للضبى
فهرس خريطة الممالك الإسلامية	: لأمين واصف
القاموس المحيط	: للفيروز أبادى
لسان العرب	: لابن منظور
المعارف	: لابن قتيبة
معجم البلدان	: لياقوت الحموى
وفيات الأعيان	: لابن خلكان



Bibliotheca Alexandrina
1062791